معاني القرآن وإعرابه

المسمّى

المختصر

في إعراب القرآن ومعانيه

تأليف

أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري

الزجّاج البغدادي

المتوفى ٣١١هـ

علق عليه ووضع حواشيه

أحمد فتحي عبد الرحمن

قدم له

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن حجازي

عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر

الجزء الأول

المحتوى:

من أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة آل عمران

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: **MAʿĀNI AL-QURʾĀN WAʾIʿRĀBUH**
(Grammatical analysis and The meaning of the verses of The Holy Coran)
classification: Sciences of Coran
Author: Abu Isḥāq al-Zajjāj
Editor: Aḥmad Fatḥi ʿAbdul-Raḥmān
Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages: 1528 (4 volumes)
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: معاني القرآن وإعرابه
التصنيف: علوم قرآن
المؤلف: أبو إسحاق الزجاج
المحقق: أحمد فتحي عبدالرحمن
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 1528 (4 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-5249-1 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5249-7 (13 dig)
90000
9 782745 152497

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban
Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة،
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، شرفنا بلغة القرآن، وجعله لنا هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين، فهو الصراط المستقيم والنور المبين والشفيع لأهله يوم الدين.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد ولد عدنان خير نبي أرسل، أوحي إليه بخير كتاب أنزل، وارض اللهم عن الآل الأطهار، والأصحاب الأخيار ، من المهاجرين والأنصار، الذين حفظوا كتابك الكريم، وتناقلوا الشرع الحنيف، وسنة نبيك الشريف، فاللهم ألحقنا بهم على الإيمان وأدخلنا معهم جنات النعيم اللهم آمين.

أما بعد

فنقدم لأهل العلم هذا الكتاب القيم في إعراب القرآن ومعانيه، لعلم من أعلام النحو وإمام من أئمة البصريين، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، وهو كتاب جامع للإعراب والمعنى في صياغة واحدة، يقول لنا من خلاله: الإعراب فرع المعنى، فمن عرف اللغة فهم المعنى وفقه المبنى.

في البداية أود أن أحيلك على بعض المعلومات التي لا بد وأن يلم بها قارئ القرآن الكريم ومفسره فأقول مستعيناً بالله:

القرآن الكريم وتفسيره:

القرآن الكريم هو : «كلام الله تعالى ووحيه المنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ المكتوب في المصحف ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بإعجازه»[1].

والناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص. وما أوجز في مكان قد بسط في مكان آخر، وما أجمل في موضع قد بين في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في ناحية قد

(١) انظر: مناهل العرفان (١/١٥).

يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى.

ولهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بها على ما ذكر.

والنبي ﷺ هو المصدر الثاني الذي رجع إليه الصحابة في تفسيرهم لكتاب الله تعالى، فكان الصحابي إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله رجع إلى رسول الله ﷺ في تفسيرها، فيبين له عن الله ما خفي عليه، لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه العزيز حيث قال :﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤].

لذا اشترط العلماء على من يفسر كلام الله -عز وجل- ويتصدى لهذا المقام الجليل أن يكون ملماً بعلوم تعينه على ذلك منها(١):

١- **اللغة**: بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع والفرع، قال مجاهد: « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله، إذا لم يكن عارفاً بلغات العرب »(٢).

وقال الإمام مالك: « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً »(٣).

من هنا أقول: إن العلم الواسع باللغة شرط أساسي، ولا يكفي الإلمام اليسير بها، فقد يكون اللفظ مشتركاً فيجب على المفسر أن يوجه اللفظ إلى المعنى الذي يفهمه في الآية ، وهذا التعمق في إدراك اللغة كان من جملة الأسباب التي مكنت ابن عباس -رضي الله عنه- أن يكون « حبر القرآن » ورأس المدرسة المكية التي هي أعظم مدارس التفسير في كل زمان ومكان.

٢- **النحو**: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من وضعه في الحسبان، ولا بد من الاعتماد عليه قبل البيان.

ومن لم يعرف النحو فإنه قد يقع في أخطاء فاحشة ، ذلك مثل الرجل الذي قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ

---

(١) انظر هذه الشروط في : الإتقان (٤٧٧/٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (١٦٠/١)، ورواه البيهقي عن مالك كما في الإتقان (٤٧٤/٢).

وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة : ٣] بجر كلمة ((رسوله)) -الأخيرة-، فكان المفهوم من قراءته تلك أن الله بريء من المشركين ومن رسوله أيضاً، حاشا لله!! فكاد أن يقع هذا الرجل في الكفر وهو لا يدري، فكان ذلك من جملة الأسباب الحاملة على وضع علم النحو.

٣- **علم التصريف**: لأن به تعرف أبنية الكلمات والصيغ وألوان التصاريف.

٤- **علم الاشتقاق**: وهو داخل في علم اللغة والتصريف، لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما، كالمسيح: أهو من السياحة أو المسح، فمن الأول سمي المسيح مسيحاً لكثرة سياحته، وأما من الثاني: فلأنه حسب المأثور من القول وإخبار الله عنه في القرآن، كان لا يمسح على ذي عاهة إلا شفي بإذن الله تعالى.

٥- **علوم المعاني والبيان والبديع**: وهو علم البلاغة المشهور، ويعتني بخواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعاني، من خلال نظم المباني، وخواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبوجوه تحسين الكلام. وهذه العلوم الثلاثة هي من أعظم أدوات المفسر، بل إنها أجل الأدوات لأن ما سبق من العلوم يدخل تحتها.

وقال الزمخشري: ((من حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح))(١).

والزمخشري بحق خير من له في إدراك إعجاز القرآن باع طويل، وخير من عبرت عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بطريقة العرب الفصحاء البلغاء، لا بطريقة أهل الفلسفة والكلام.

٦- **علم القراءات**: علم يعرف به مخارج الحروف والأصوات وكيفية النطق بها والقراءات المتواترة في القرآن الكريم أو المشهورة أو الشاذة، والوجوه التي يترجح بها بعض القراءات على بعض.

٧- **علم أصول الدين**: وهو علم التوحيد ، ويعرف به ما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه، وما يجوز في حقه، وبه يعرف الفرق بين العقائد والشرائع، وما هو من أصول الدين، وما هو من فروعه.

٨- **علم أصول الفقه**: علم يعرف به وجوه الاستدلال وطريقة استنباط الأحكام

---

(١) انظر: الكشاف (٣٢/١)، ونقله عن الزمخشري: الزركشي في البرهان في علوم القرآن (٣١١/١)، والسيوطي في الإتقان (٤٧٨/٢).

الشرعية من الأدلة.

٩- **علم الفقه**: علم تعرف به الأحكام الشرعية ومذاهب الفقهاء، ومن احتج منهم بالآية ومن لم يحتج بها، وطريقة كل منهم في فهم الآية والأخذ بها، أو الإجابة عنها.

١٠- **علم أسباب النزول**: وهو علم يعرفنا المعنى المراد من الآية، كما أنه يزيل الإشكال عن بعضها، ويبين بعض حكم الله في التشريع، وبعلم القصص يُعلم ما هو من الإسرائيليات التي دست في التفسير ، وما ليس منه، وما هو حق، وما هو باطل.

١١- **علم الناسخ والمنسوخ**: وهو مهم للمفسر، وإلا وقع في خطأ كبير.

١٢- **علم الحديث** والسنن: والآثار المبينة لتفصيل المجمل، وتوضيح المبهم، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وإلى غير ذلك من وجوه بيان السنة للقرآن.

فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها، فمن فسر القرآن بدونها، كان مفسراً بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأي المنهي عنه.

والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع والاكتساب، وكل ما استجد من العلوم بعد القرآن استفاد من القرآن وهو في نفس الوقت خادم لمفسر القرآن الكريم وذلك ماض إلى يوم الدين.

والناظر في كتب التفسير يرى أن واحد منهم غلب عليه علمٌ من هذه العلوم مع إحاطته بها كلها قبل التصدي لتفسير القرآن الكريم، فمثلاً القرطبي يهتم بالأحكام القرآنية، مع إحاطته بكل ما سبق، وأبو حيان يهتم باللغة والقراءات مع إحاطته ببقية العلوم.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا نرى من اسمه ظهر اهتمامه، فهو إعراب للقرآن ومعانيه، يهتم بالإعراب وعليه يورد المعنى كاتجاه لغوي باحث في القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين.

ولزامًا علينا أن نعرِّف لك التفسير والتأويل لأن الزجاج في هذا الكتاب سوف يقول لنا : « والمعنى: كذا » وربما قال: «يكون التأويل كذا » ، ونحن لا نريد أن ندخل في آراء كثيرة وفروق بين كل تعريف وترجيح هذا على ذاك فهذا ليس مقامه، ومع اختصار أقول:

التفسير : في اللغة يعني الإيضاح والتبيين لقوله تعالى : ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ

بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[الفرقان:٣٣] أي: بيانًا وتفصيلاً[١].

أما في الاصطلاح : فقد اختلفتْ عباراتُ العلماءِ في البيان عن معنى التَّفسيرِ في الاصطلاحِ، وجاؤوا بعباراتٍ كثيرة أقربها وأيسرها أنَّ المرادَ بالتَّفسيرِ : بيان المعنى الَّذي أرادَه الله بكلامِه، على قدر فهم المفسر وبيانه[٢].

ويهدف علم التفسير إلى فهم كتاب الله تعالى، واستنباط الأحكام الشرعية بوجه صحيح، ومعرفة المنهج الإلهي القويم، والتذكير بحق الله تعالى على عباده، وإنقاذهم من شرك الضلال، وشباك الشياطين، والاطلاع على حقيقة الكون والإنسان والحياة لقوله تعالى :﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء : ٩].

والتأويل: يقصد به ترجيح معنى من المعاني المحتملة للفظ ، أو لجمله . ومن ثم يختلف التأويل عن التفسير . فالتفسير : من الفَسَر : وهو كشف المغَطَّى وإبانته . والتأويل هو رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر[٣].

ويتحقق التأويل بشروط ثلاثة :

أولاً : أن لا يمكن حمله على ظاهره .

ثانياً : جواز إرادة ما حمل عليه .

ثالثاً : الدليل الدال على إرادته . ومثال التأويل والتفسير في قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ﴾[الروم : ١٩]، إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً ، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر ، أو العالم من الجاهل : كان تأويلاً.

أقسام التفسير[٤]:

١- **التفسير بالمأثور**: يشمل بالمأثور ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروي عن التابعين.

وما روي عن التابعين يعتبر من المأثور بدون النظر إلى الخلاف حوله مؤداه : هل هو

---

(١) انظر: مناهل العرفان (٢/٤).

(٢) انظر في تعريفات التفسير على كثرتها في: الإتقان (٢/٤٦٠) ، ومناهل العرفان (٢/٥).

(٣) في هذا المقام نعطيك الخلاصة وإن أردت الاستزادة فعليك بالإتقان (٢/٤٦٠ وما بعدها)، ومناهل العرفان (٢/٥)، والبرهان في علوم القرآن (٢/١٤٩).

(٤) انظر: مناهل العرفان (٢/١٠ وما بعدها).

من قبيل المأثور؟ أو من قبيل الرأي؟

فإننا نجد كتب التفسير بالمأثور كتفسير ابن جرير وغيره لم تقتصر على ذكر ما روي عن النبي ﷺ وما روي عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما نقل عن التابعين في التفسير.

وقد وجد من التابعين من تصدى للتفسير ، فروى ما تجمع لديهم من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة، وزاد على ذلك من القول بالرأي والاجتهاد بمقدار ما زاد من الغموض الذي كان يتزايد كلما بعد الناس عن عصر النبي ﷺ والصحابة.

ثم جاءت الطبقة التي تلي التابعين، وروت عنهم ما قالوه، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من غموض سببه بعد الزمن أيضاً، وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة. وتروي الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التي سبقتها كما أشير إلى ذلك فيما سبق.

ثم ابتدأ دور التدوين فكان أول ما دون من التفسير هو التفسير بالمأثور، على تدرج في التدوين كذلك، فكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول في هذا ، وكان أصحاب مبادئ العلوم حين ينسبون -على عادتهم- وضع كل علم لشخص بعينه، يعدون واضع التفسير بالمأثور بمعنى جامعه لا مدونه.

ولم يكن التفسير إلى هذا الوقت قد اتخذ شكلاً منظماً، ولم يفرد بالتدوين، بل كان يكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة، يجمعون به ما روي عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأفرد بتأليف خاص، فكان أول ما عرف لنا من ذلك، تلك الصحيفة التي رواها علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت في التفسير خاصة، مثل ذلك الجزء المنسوب لأبي روحة، وتلك الأجزاء الثلاثة التي يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج.

ثم وجدت من ذلك موسوعات من الكتب المؤلفة في التفسير، جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروي عن النبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم، كتفسير ابن جرير الطبري.

ويلاحظ أن ابن جرير ومن على شاكلته -وإن نقلوا تفاسيرهم بالإسناد- توسعوا في النقل وأكثروا منه، حتى استفاض وشمل ما ليس موثوقاً به، كما يلاحظ أنه كان رجال من المحدثين يبوبون للتفسير في مصنفات الحديث التي جمعوها ، وهؤلاء كانوا بعد عصر ابن جرير، ومن على شاكلته، ثم وجد أقوام بعدهم دونوا التفسير بالمأثور دون أن يذكروا أسانيدهم في ذلك، وأكثروا من نقل الأقوال في تفاسيرهم وبدون تفرقة بين الصحيح

وغيره، مما جعل الناظر في هذه الكتب لا يركن لما جاء فيها، لجواز أن يكون من قبيل الموضوع المختلق، وهو كثير في التفسير.

بعد ذلك تغيرت الاتجاهات، فبعد أن كان التدوين في التفسير لا يتعدى المأثور فيه، تعدى إلى تدوين التفسير بالرأي على تدرج فيه.

وبهذا علمنا مما تقدم أن التفسير بالمأثور يشمل ماكان تفسيراً للقرآن بالقرآن، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروي عن التابعين.

أما تفسير القرآن بالقرآن، أو بما ثبت من السنة الصحيحة، فذلك مما لا خلاف في قبوله؛ لأنه لا يتطرق إليه الضعف، ولا يجد الشك إليه سبيلاً.

وأما تفسير القرآن بما يروى عن الصحابة أو التابعين، فقد تسرب إليه الخلل وتطرق إليه الضعف، ولولا أن قيض الله لهذا التراث العظيم من أزاح عنه هذه الشكوك، فسلم لنا قدرٌ لا يستهان به وإن كان ضعيفها وسقيمها ما يزال خليطاً في كثير من الكتب التي عني أصحابها بجمع شتات الأقوال.

وترجع أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور إلى أمور ثلاثة:

أولها: كثرة الوضع في التفسير .

ثانيها: دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها: حذف الأسانيد.

٢- **التفسير بالرأي** ، هو التفسير القائم على الاجتهاد، وقد اختلف العلماء حوله[1] منذ القدم بين مجيز لذلك ومانع له.

فالذين أجازوه استدلوا بالآيتين التاليتين: قوله تعالى :﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : ٢٤]، وقوله تعالى :﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[النساء : ٨٣].

ففي هاتين الآيتين ما يدل على أن معاني القرآن لا يصل إليها إلا أهل الاستنباط والاجتهاد، بما يملكون من مواهب؛ كما أن في الآية أمراً بالتدبر والاجتهاد في استنباط

---

(١) انظر حول مسألة التفسير بالرأي -باتساع بين مجيزين ومانعين وهو ما اختصرناه هنا- في مناهل العرفان (٣٦/٢).

معانيه. كما كان اختلاف الصحابة -رضوان الله عليهم- في بعض أقوالهم في تفسير القرآن، يدل على أنهم فسروه باجتهادهم القائم على معرفتهم الخاصة، إذ لولا ذلك لاتفقت أقوالهم.

كما كان أيضاً دعاء النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(١) دليل على جواز الاجتهاد في فهم القرآن.

أما الذين منعوا التفسير بالرأي فلهم أدلتهم التي اعتمدوا عليها وهي:- قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: ٤٤] فهذه الآية في رأيهم جعلت تفسير القرآن وبيانه للنبي ﷺ وحده دون غيره.

وقوله تعالى :﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣]، فحرم الله على عباده القول على الله بدون علم، والتفسير بالرأي -عند المانعين- قول على الله بدون علم.

وما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»(٢).

وأضف إلى ذلك إلى امتناع بعض السلف عن القول في القرآن برأيهم، فالمانعون يرون أن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، فلا يجوز لأحد الإقدام عليه؛ لأنه محرم بهذا المفهوم.

والنتيجة تتمثل في رد المجيزين على المانعين بما يأتي:- هناك خلاف بين العلماء في المقدار الذي فسره الرسول ﷺ في القرآن، فمنهم من يرى أنه عليه الصلاة والسلام فسر القرآن كله، ومنهم من يرى أنه ﷺ فسر القليل؛ والأصوب أنه فسر ما أشكل على الصحابة واختلفوا فيه وسألوه عنه، فلم يكن قليلاً، ولم يستوعب القرآن كله. فما لم يفسره ﷺ هو الذي فيه مجال لأهل الفقه والعلم والاستنباط والنظر، استناداً إلى قوله تعالى : ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: ٢٤].

---

(١) رواه البخاري (١/٦٦، رقم: ١٤٣) عن ابن عباس دون قوله: «وعلمه التأويل» ، ورواه بهذه الزيادة: أحمد (١/٣٣٥، رقم: ٣١٠٢) ، وابن حبان (١٥/٥٣١، رقم: ٧٠٥٥) ، والحاكم في المستدرك (٣/٦١٥، رقم: ٦٢٨٠) وصححه.

(٢) رواه الترمذي (٥/١٩٩، رقم: ٢٩٥١) ، ورواه أيضاً: النسائي في السنن الكبرى (٥/٣١، رقم: ٨٠٨٥).

إن الاجتهاد في التفسير ليس قولاً على الله بغير علم، وإنما استعمال للعقل الذي أنعم الله به على الإنسان مع شروط يجب توافرها فيمن يقوم بهذا الاجتهاد.

إن المجتهد مأجور، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر. فالاجتهاد البعيد عن الهوى والضلالة والجهالة أمرٌ غير مذموم.

وقد ورد عن أبي بكر رضي الله عنه حين سئل عن الكلالة فقال: « أقول فيها برأي؛ فإن كان صواباً فمن الله وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان » ، ثم فسر معنى الكلالة.

أما امتناع أبي بكر وغيره من الصحابة والتابعين عن تفسير القرآن برأيهم فيحمل على الورع والاحتياط وخشية الوقوع في الزلل.

قراءات القرآن [1]:

ومما لا بد لنا من معرفته ونحن نقدم لهذا الكتاب القيم أن نتعرض لتعريف القراءات لأن الزجاج يورد القراءة ويوجهها، فأقول:

القراءَات جمع قراءَة، والقراءَة في اللغة تعني الجمع، فقراءة الشيء جمعُه وضمُّه، ومعنى قرأت القرآن لَفَظْتُ به مجموعًا، وسُمّي القرآن، لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض .

أما القراءة في الاصطلاح فقد ذكر علماء القراءات عدة تعريفات لها، نكتفي بتعريفين منها :

١- علم يُبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة حتى يُصان كلام الله عن تطرّق التحريف والتغيير نحوه.

٢- اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرها.

ولعلماء القراءات مصطلحات في هذا الشأن لا بدّ من توضيحها، كالقراءة والرواية والطريق.

فالقراءة : للإمام كقراءة نافع وابن كثير وعاصم.

والرواية : للذي يأخذ عن الإمام كرواية ورش عن نافع، ورواية قنبل عن ابن كثير، ورواية حفص عن عاصم.

والطريق للذي يأخذ عن الراوي.

---

(١) انظر في هذا الموضوع بإسهاب: مناهل العرفان (١/٢٨٤).

ولما رأى الإمام أبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) تشعب القراءات وكثرة القراء دفعته الغيرة على كتاب الله إلى اختيار سبعة من أئمة القراءات خلفوا في القراءة التابعين، وأجمع على إمامتهم في القراءة عامة القراء.

وقد اختارهم من خمسة أمصار إسلامية هي الأمصار التي حملت عنها القراءة في العالم الإسلامي، وهي: المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام.

ولا يعني هذا الاختيار أن قراءة غيرهم لا تجوز، لكن هؤلاء عرفت قراءاتهم واشتهرت.

ولكل إمام من هؤلاء القراء راويان مشهوران حملا القراءات عنه وعرفا بذلك. أما قارئ أهل المدينة: فأبو عبد الرحمن نافع بن أبي نعيم المدني، وراوياه: عيسى بن مينا المعروف بقالون، وعثمان بن سعيد الملقب بورش. وقارئ أهل مكة: أبو سعيد عبد الله ابن كثير المكي، ومن رواته: أبو الحسن أحمد بن القاسم البزي، وأبو عمر محمد المعروف بقنبل، أما الكوفة ففيها ثلاثة قراء: أبو بكر، عاصم بن أبي النجود، وروى عنه أبو بكر، شعبة بن عياش، وحفص بن سليمان الكوفي، وفي الكوفة أيضاً: أبو عمارة حمزة ابن حبيب الزيات، وراوياه: خلف بن هشام البزار وأبو عيسى خلاد بن خالد الكوفي؛ وفيها أيضاً: أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، وراوياه: حفص بن عمر الدوري، وأبو الحارث الليث بن خالد. وقارئ أهل البصرة: أبو عمرو بن العلاء البصري المازني، وراوياه: أبو شعيب السوسي، صالح بن زياد، وحفص الدوري وهو أحد راويي الكسائي أيضاً، وآخرهم وأقدمهم مولداً: عبد الله بن عامر اليحصبي، قارئ أهل الشام، وراوياه: هشام بن عمار، وعبد الله بن ذكوان.

وبما قدمناه أرى أننا ركزنا على القرآن الكريم وتفسيره وتأويله وقراءاته، وهذا هو ما يصادف قارئ كتاب الزجاج الذي بين أيدينا.

القرآن الكريم وتأثيره في اللغة العربية:

كان نزول القرآن الكريم بالعربية الفصحى أهمَّ حَدَث في مراحل تطوُّرها؛ فقد وحَّد لهجاتها المختلفة في لغة فصيحة واحدة قائمة في الأساس على لهجة قريش بعد تصفيتها من شوائبها والاقتصار على الصحيح منها ، وأضاف إلى معجمها ألفاظًا، وأعطى لألفاظٍ أخرى دلالات جديدة. كما ارتقى ببلاغة التراكيب العربية. وكان سببًا في نشأة علوم اللغة العربية كالنحو والصرف والأصوات وفقه اللغة والبلاغة، فضلاً عن العلوم الشرعية، ثمَّ إنه حقَّق للعربية سعة الانتشار والعالمية.

وكفى بذلك تأثيراً على اللغة العربية، وحسبنا أن البيئة العربية نفسها قد تأثرت بالقرآن الكريم، فاهتم أهل العلم في عصر الازدهار بالقرآن الكريم وإعرابه، وأحكامه ورأيت أن كل اللغويين والنحاة يصنفون في معاني القرآن تعبداً وتشرفاً ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف: ٤٤].

وقد رأينا أن أهل الحديث منهم من يصنف المسانيد، ومنهم من يصنف الصحاح، ومنهم من يصنف السنن، وكذا المفسرين كان منهم النحاة فألفوا في هذا الجانب متأثرين به فجميع الأئمة ألفوا وصنفوا في معاني القرآن وإعرابه كالزجاج، وسيأتي في الكلام على الكتاب التعرض لأسماء كتب تحمل نفس عنوان هذا الكتاب.

تحقيق الكتاب:

لقد بذل المحقق في تحقيق هذا الكتاب جهداً مشكوراً ، ولم يخرج في تحقيقه عن المنهج الآتي:

١- ضبط النص ضبطاً جيداً.

٢- ضبط الأشعار والشواهد بالشكل.

٣- عزو الأبيات الشعرية إلى قائليها مع تحديد البحر العروضي، وتوثيق ما يمكن توثيقه.

٤- ضبط القراءات والكلمات والألفاظ.

٥- تخريج الأحاديث على قلتها في الكتاب.

٦- تحقيق وتوثيق أقوال أهل التفسير، والتنبيه على اختيارات الزجاج.

٧- في صدر كل سورة مقدمة ليفهم مقصودها عامة وبعض أهدافها.

٨- ترجمة بعض الأعلام.

وأخيراً : أدعو المولى -عز وجل- أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه إنه بر رحيم ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٨٦].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أ.د/ فتحي عبد الرحمن حجازي

عضو هيئة التدريس بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر

ترجمة الزجاج

اسمه ونسبه:

هو: الإمام نحوي زمانه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي.

اشتغاله وطلبه النحو:

من أخبار الزجاج تبين لنا أنه كان زجاجاً ولذلك ينسب إلى حرفته هذه، وكان دخله من هذا العمل ضئيلاً لا يكاد يتجاوز الدرهمين وربما كان درهماً واحداً أو درهماً ونصف الدرهم، وتاقت نفسه مع ما فيه من الضيق والإقلال إلى تعلم ومعرفة اللغة فأقبل على مدرستين عظيمتين في وقت طلبه للتعلم:

المدرسة الأولى: مجلس ثعلب، واسمه أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني مولده ووفاته (٢٠٠ - ٢٩١ هـ، ٨١٦ - ٩٠٤م) واشتهر «بثعلب» وهو نحويّ بارع، إمام الكوفيين في النحو واللغة، وراوية للشعر، ومحدِّث مشهور بالحفظ، ثقة، له من الكتب الكثير منها: «مجالس ثعلب»، وهي التي استفاد منها الزجاج، وله «معاني القرآن».

فظل الزجاج يستفيد من ثعلب درساً وإملاء في مدرسته، حتى وفد المبرد على بغداد.

المدرسة الثانية: حلقة المبرد التي اتخذها في المسجد، فانتقل الزجاج إلى حلقة المبرد وترك ثعلباً.

واسم المبرِّد: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسّان مولده ووفاته (٢١٠-٢٨٦هـ، ٨٢٦-٨٩٩م) وهو أصله من من بني ثمالة ينتمي إلى اليمن؛ لقِّب بالمبرّد واختلف في سبب تلقيبه بذلك، كما اختُلف في الراء بين الفتح والكسر، ولعل الذي لقبه بذلك شيخه المازني، وذلك أن المازني لما صنَّف كتاب الألف واللام سأله عن دقيقه وعويصه، فأجابه بأحسن جواب، فقال له المازني: قم فأنت المبرِّد -بكسر الراء- أي المثبت للحق، ويعلل بعضهم فتح الراء بأنه بسبب اختياره للشعر البارد في كتابه الروضة.

ولد المبرد بالبصرة، وفيها نشأ، وعن علمائها أخذ منذ صغر سنه، فكان يتردد على حلقات العلم يأخذ عن أعلام البصرة النحو واللغة والتصريف، واهتم برواية الأشعار والأخبار.

وتصدَّر أبو العباس المبرد للتدريس وهو غلام، فكان يُقرئ كتاب سيبويه، ولا يُعلِّم إلا بأجرة مجزية، واعترف له الأكابر بمعرفته الدقيقة بكتاب سيبويه.

وازداد نشاطه في بغداد واتسعت شهرته وكثر الجدل والمناظرات بينه وبين معاصره إمام الكوفيين أبي العباس ثعلب، وكان التفوق للمبرد في الغالب، لقدرته على الجدل، وقوة حجته، وظهور بيانه وعذوبته. ويرى العلماء أن المبرد يعد آخر نحاة البصرة البارزين، وقد وثَّقه العلماء وأثنوا عليه.

ومن هذه الإلماعة لترجمة المبرد علمنا شيئاً نريد الوصول إليه وهو: أن مدرسة الزجاج الأولى كوفية والثانية بصرية، وبين المدرستين مناظرات، والطالب للعلم بطبيعته ينظر إلى مواطن الإفادة من هذه المناظرات ولما كان الغلبة دائماً للبصريين الذي يمثلهم «المبرد» لقوة حجته وظهور بيانه وعذوبته كان ذلك جاذباً للدارسين وكان من الذين انجذبوا إلى مدرسة المبرد الزجاج لما رآه من المبرد، ومع علمه أن المبرد لا يعلم إلا بالأجر بل لا يعلم إلا بقدر ما يدفع له.

ولعل قول الزجاج للمبرد عندما قدم حلقته: «أريد أن تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً، وألتزم بذلك أبداً إلى أن يفرق الموت بيننا استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه» يدلنا على مدى اقتناعه بالمبرد حتى لو كلفه ذلك أن يدفع له المال عمره كاملاً.

ويكاد أن يكون ما ذكرناه هو السبب في تحول الزجاج إلى المبرد وتركه مجلس ثعلب، بل إن الزجاج أصبح منافحاً ومدافعاً عن شيخه المبرد وشيخ شيخه سيبويه حتى لو كان ذلك على حساب شيخه القديم «ثعلب» فقد روي أن الزجاج قال: «دخلت على أبي العباس ثعلب -رحمه الله-، في أيام أبي العباس محمد بن يزيد المبرد وقد أملى شيئاً من المقتضب، فسلمت عليه وعنده أبو موسى الحامض، وكان يحسدني حسداً شديداً، ويجاهرني بالعداوة، وكنت ألين له وأحتمله لموضع الشيخوخة، فقال لي أبو العباس: قد حمل إلي بعض ما أملاه هذا الخلدي، فرأيته لا يطوع لسانه بعبارة، فقلت له: إنه لا يشك في حسن عبارته اثنان، ولكن سوء رأيك فيه يعيبه عندك، فقال: ما رأيته إلا ألكن متغلقاً.

فقال أبو موسى: والله إن صاحبكم ألكن يعني «سيبويه»، فأحفظني ذلك، ثم قال: بلغني عن الفراء أنه قال: دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه، فسمعتهم يذكرونه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة، فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح، سمعته يقول لجارية له:

«هات ذيك الماء من ذاك الجرة»، فخرجت من عنده ولم أعد إليه، فقلت له: هذا لا يصح عن الفراء، وأنت غير مأمون في هذه الحكاية، ولا يعرف أصحاب سيبويه من هذا شيئاً، وكيف تقول هذا لمن يقول في أول كتابه: هذا باب علم ما الكلم من العربية؟ وهذا يعجز عن إدراك فهمه كثير من الفصحاء، فضلاً عن النطق به.

فقال ثعلب: قد وجدت في كتابه نحواً من هذا، قلت: ما هو؟ قال: يقول في كتابه في غير نسخة: «حاشا حرف يخفض ما بعده كما تخفض حتى، وفيها معنى الاستثناء»، فقلت له: هذا كذا في كتابه، وهو صحيح، ذهب في التذكير إلى الحرف، وفي التأنيث إلى الكلمة، قال: والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد، قلت: كل جيد، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لله وَرَسُولِهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ وقرئ ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحاً﴾[الأحزاب: ٣١]، وقال عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[يونس: ٤٢] ذهب إلى المعنى، ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾[يونس: ٤٣] ذهب إلى اللفظ، وليس لقائل أن يقول: لو حمل الكلام على وجه واحد في الاثنين كان أجود، لأن كلاً جيد.

فأما نحن فلا نذكر حدود الفراء، لأن صوابه فيه أكثر من أن يعد، ولكن هذا أنت: عملت كتاب الفصيح للمبتدئ المتعلم، وهو عشرون ورقة، أخطأت في عشرة مواضع منه» وعدد الزجاج المواضع مما لا داعي لذكره لأنها اختلافات في المشارب وطرائق فهم الكلام، ولكننا ندلل مما سبق على أن الزجاج ينافح بالبرهان عن شيخه بل وشيوخ مدرسته مدرسة البصرة.

مع المبرد:

قلنا: إن الزجاج تحول إلى المبرد داعية مذهب البصرين في عصره وإمامهم، ولزم المبرد ملازمة تامة يقول الزجاج في ذلك: «كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت المبرد وكان لا يعلم إلا بأجرة، فقال لي: أي شيء صناعتك ؟ قلت: أخرط الزجاج وكسبي كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف وأريد أن تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهماً، وألتزم بذلك أبداً إلى أن يفرق الموت بيننا استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه.

فكان ينصحني في التعليم حتى استقللت وأنا أعطيه الدرهم كل يوم فجاءه كتاب من بعض بني مارقة من الصراة -وهي قبيلة ببغداد- يلتمسون نحوياً لأولادهم فقلت له: أسمني لهم فأسماني فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذ إليه كل شهر ثلاثين درهماً وأزيده ما أقدر عليه.

ومضت مدة فطلب منه عبيد الله بن سليمان مؤدباً لابنه القاسم فقال: لا أعرف إلا رجلاً زجاجاً بالصراة مع بني مارقة فكتب إليهم فأحضرني وأسلم إلي القاسم فكان ذلك سبب غنائي فكنت أعطي المبرد ذلك الدرهم إلى أن مات، ولا أخليه من التفقد بحسب طاقتي فكنت أقول للقاسم بن عبيد الله: إن بلغك الله الوزارة ماذا تصنع بي ؟ فيقول: ما أحببت فأقول له: تعطيني عشرين ألف دينار وكانت غاية أمنيتين فلما ولي القاسم الوزارة وأنا نديمة وملازمة هبته أن أذكره فلما كان اليوم الثالث من وزارته قال لي: يا أبا إسحاق لم أرك تذكرني بالنذر فقلت: عولت على رعاية الوزير فقال لي: إنه المعتضد ولولاه ما تعاظمني دفع ذلك إليك في مكان واحد ولكني أخاف أن يصير لي معه حديث في ذلك فاسمح بأخذه متفرقاً فقلت: يا سيدي أفعل فقال: اجلس للناس وخذ رقاعهم في الحوائج الكبار واستعجل عليها ولا تمتنع من مسألتي شيئاً تخاطب فيه صحيحاً كان أو محالاً إلى أن تحصل لك مال النذر، فكنت أعرض عليه كل يوم رقاعاً فيوقع لي فيها وربما قال: كم ضمن لك على هذا ؟ فأقول: كذا وكذا فيقول: غبنت هذا يساوي كذا وكذا ارجع فاستزد، فأراجع القوم ولا أزال أماكسهم حتى أبلغ الحد الذي رسمه فحصل عندي عشرون ألف دينار وأكثر في مديدة.

فقال لي بعد شهور: يا أبا إسحاق حصل مال الذر ؟ فقلت: لا، فسكت وكنت أعرض عليه ويسألني في كل شهر ونحوه: حصل المال ؟ فأقول: لا خوفاً من انقطاع الكسب إلى أن حصل لي ضعف ذلك، فسألني يوماً فاستحييت من الكذب المتصل فقلت: قد حصل ذلك ببركة الوزير فقال: فرجت والله عني وقد كنت مشغول القلب إلى أن يحصل لك ثم وقع لي إلى خازنه بثلاثة آلاف دينار صلة فأخذتها وامتنعت عن أن أعرض عليه شيئاً فلما كتم من الغد جئت وجلست على رسمي فأومأ إلي أن هات ما معك !

فقلت: ما أخذت من أحد شيئاً لأن النذر حصل، فقال: يا سبحان الله أتراني أقطع عنك شيئاً قد صار لك عادة وعلمه الناس وصارت لك به وجاهة ومنزلة وللناس غدو ورواح إلى بابك ولا يعلم السبب فيظن ذلك لضعف جاهك عندي اعرض علي على رسمك وخذ بلا حساب فقبلت يده وباكرت إليه بالرقاع ولم أزل كذلك إلى أن مات».

ومن كلام الزجاج نعلم أنه مر بمراحل عديدة طالباً عند الزجاج، ثم معلماً بمساعدة المبرد لبني مارقة، ثم مؤدباً ومعلماً للقاسم ابن الوزير عبيد الله بن سليمان وكان قد طلب من المبرد أن يأتيه بمعلم لابنه فوقع اختيار المبرد على الزجاج، وفي هذه المراحل يزداد

الزجاج مادياً وهو لا ينسى فضل أستاذه عليه فكان يعطيه عن طيب نفس اعتقاداً منه أنه سبب في ثرائه.

ومرحلة أخرى مر بها الزجاج نراها من كلامه أنه طلب من القاسم الذي كان يعلمه إذا تولى مكان أبيه أن يعطيه ((عشرين ألف دينار)) إلا أن القاسم تهيب منح الزجاج هذا المبلغ خشية من الخليفة ((المعتضد)).

وفي قوله أيضاً بأن لنا صفقة عقدها الوزير القاسم معه لكي يحصل على ما اتفقوا عليه من مال، وهذه الصفقة عبارة عن: أن يتوسط الزجاج إليه في قضاء حوائج الناس ويأخذ من أصحاب الحوائج جعلاً في نظير تقديم رقاعهم ورفع مطالبهم إلى الوزير، واشترط عليه الوزير ما حكاه الزجاج نفسه أنه لا بد من الحصول على الجعل قبل انقضاء المصلحة وربما تأخرت وتعطلت المصلحة حتى يوفي صاحبها ما يطلب في ثمن انقضائها بل ربما وصل الأمر إلى مماسكة ذوي الحاجات وسؤالهم المزيد من الأجر إلى أن حصل على المبلغ الذي يريد أن يمنحه القاسم إياه: ((عشرين ألف دينار)) في مديدة بسيطة بل أكثر مما تفقوا عليه خلال هذه المديدة، ومنحه القاسم ثلاثة الآف زيادة على ذلك صلة له.

وأثري الزجاج من هذا الطريق الغير مشروع ولا نجد له عذراً مقبول في استمراره على هذا الفعل.

إلا أن هذا لا يقدح في علمه فلا نعلم الأسباب التي ألجأت الزجاج أن يكون على هذا العمل سوى فقره واحتياجه والنذر الذي يريد الحصول عليه، والله أعلم بحاله -غفر الله لنا وله-.

اتصاله بالمعتضد:

زاد من وجاهة الزجاج وشهرته بين الناس اتصاله بالمعتضد الخليفة وهذا له سبب حكاه المترجمون له قالوا:

((كان السبب في اتصال أبي إسحاق الزجاج بالمعتضد، أن بعض جلساء الخليفة وهو من الكُتَّاب اسمه: ((محمد بن يحيى بن عباد)) الذي يعرف باسم ((محبرة النديم)) وكان حسن الأدب، ونادم المعتضد، وصف للمعتضد كتاب ((جامع النطق)) الذي عمله، وجعل كتابه جداول، رجع الكلام إلى اتفاقهما، فأمر المعتضد القاسم بن عبيد الله أن يطلب من يفسر تلك الجداول.

فبعث إلى «ثعلب» وعرضه عليه فلم يتوجه إلى حساب الجداول، وقال: لست أعرف هذا، وإن أردتم كتاب العين فموجود، ولا رواية له.

فكتب ابن عبيد الله إلى المبرد أن يفسرها، فأجابهم: إنه كتاب طويل، يحتاج إلى تعب وشغل، وإنه قد كبر وضعف عن ذلك، وإن دفعتموه إلى صاحبي إبراهيم بن السري رجوت أن يفي بذلك، فتغافل القاسم عن مذاكرة المعتضد بالزجاج حتى ألح عليه المعتضد، فأخبره بقول ثعلب والمبرد وأنه أحال على الزجاج، فتقدم إليه بالتقدم إلى الزجاج بذلك، ففعل القاسم.

فقال الزجاج: أنا أعمل ذلك على غير نسخة، ولا نظر في جدول، فأمره بعمل الثنائي، فاستعار الزجاج كتب اللغة ففسر الثنائي كله، وكتبه بخط الترمذي الصغير أبي الحسن، وجلده، وحمله إلى الوزير.

وحمله الوزير إلى المعتضد، واستحسنه وأمر له بثلاثمائة دينار، وتقدم إليه بتفسيره كله، ولم يخرج مما عمله الزجاج نسخة إلى أحد، إلا إلى خزانة المعتضد ووزيره».

وبهذا أصبح الزجاج من ذوي المكانة والثراء.

تلامذته:

لقد أقبل الطلاب على الزجاج باعتباره إمام أهل البصرة، وداعية المذهب البصري، وامتداداً للمبرد وسيبويه، ومدافعاً عنهم، ويظهر من كتابه أنه كان عذب الحديث، وهذا لم ننقله من مرجع، ولكننا شعرنا بذلك من خلال مصاحبتنا لكتابه فأخذ عنه في زمانه تلامذة وبعده كانوا أئمة للنحو وللعربية، تدريساً وتصنيفاً فمن أولئك الأعلام:

١- الحسن بن أحمد أبو علي الفارسي النحوي[١].

٢- عبد الرحمن بن إسحاق أبو بكر القاسم الزجاجي النحوي البغدادي، وإنما قيل له: «الزجاجي» لأنه كان صاحب أبي إسحاق الزجاج لازمه وأخذ عنه[٢].

٣- أحمد بن محمد بن الوليد، أبو العباس التميمي وهو من كبار النحاة، وكان قد سافر إلى العراق وأخذ عن أبي إسحاق الزجاج وطبقته ورجع.

---

(١) انظر: لسان الميزان (٢ /١٩٥)، وأبجد العلوم (٣ /٤٥) .

(٢) انظر: تاريخ دمشق (٣٤/٢٠٤) ، والعبر (١ /١٣٧).

٤- أبو جعفر بن النحاس المصري النحوي اللغوي، رحل وأخذ عن الزجاج(١).

٥- الحسن بن بشر بن يحيى أبو القاسم الآمدي النحوي الكاتب، ذكره التنوخي فقال: ولد بالبصرة وأخذ ببغداد عن: الأخفش والزجاج وابن دريد وغيرهم(٢).

٦- الحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبو علي الفارسي الفسوي النحوي، قدم بغداد وأخذ عن الزجاج.

٧- علي بن عيسى أبو الحسن النحوي المعروف بالرماني(٣)، قال الصفدي: إن له شرح لمعاني الزجاج يريد هذا الكتاب.

٨- وممن قرأ عليه: أبو بكر المراغي ؛ محمد بن علي أبو بكر المراغي كان عالماً أديباً(٤).

٩- أحمد بن محمد بن أحمد أبو الحسن العروضي(٥).

١٠- محمد بن مرزبان، أخذ عن المبرد وأكثر بعده عن الزجاج(٦).

١١- وممن التقى به طلحة بن نوح الهروي اللغوي الشافعي أبو منصور، ولم ينقل أنه أخذ عنه(٧).

خلق الزجاج وعقيدته:

ومع ما تقدم من استمرار الزجاج على الاتصال بالخليفة والوزير وما له من أعمال معهم، إلا أنه كان -رحمه الله- في سمت العلماء علماً وخلقاً.

تقول كتب التراجم إن الزجاج كان من أهل الدين والفضل وحسن الاعتقاد جميل المذهب، وكان من أتباع الإمام أحمد بن حنبل مؤثراً لمذهبه، ويروى عنه: «أنه لما حضرته الوفاة سئل عن سنه، فعقد لهم سبعين، وآخر ما سمع منه: اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل».

---

(١) انظر: أبجد العلوم (٣ /٥٥).

(٢) انظر: معجم المطبوعات (١ /٩)

(٣) انظر: طبقات المفسرين (ص: ٦٨)، وأبجد العلوم (٣ /٤٧) .

(٤) انظر: الوافي في الوفيات (١/٤٩٢) .

(٥) انظر: الوافي في الوفيات (٢/٣٧٠) .

(٦) انظر: أبجد العلوم (٣/٤٤) .

(٧) انظر: المرجع السابق (٣/٧).

وكان -رحمه الله- حسن الخلق، جميل المعاملة مع الناس، معتذراً إذا أحس بأنه أساء إلى أحد، والدليل على ذلك ما ذكروه عنه أنه جرى بين الزجاج وبين رجل يعرف بـ «مسيند»، وكان من أهل العلم، فتجاوز الكلام به حتى شتم الزجاج فكتب إليه مسيند:

أبى الزجاج إلا شتم عرضي ... لينفعه فأثمه وضره
وأقسم صادقاً ما كان حر ... ليطلق لفظة في شتم حره
ولو أني كررت لفر مني ... ولكن للمنون علي كره
فأصبح قد وقاه الله شري ... ليوم لا وقاه الله شره

فلما نما إلى علم الزجاج هذا الشعر قصده راجلاً حتى اعتذر إليه وسأله الصفح.

واعتذار الزجاج له جبراً لخاطره بعد الإساءة، فإن ما قاله الرجل دل على أن الزجاج تجاوز معه وشتمه شتماً شديداً.

فأبياته كانت في صالحه أكثر من اعتذار الزجاج، فإنه بذلك أيقظ في نفس الزجاج الخوف من الله -عز وجل- وذكره بظلمه له، وكان من الأولى بأهل العلم والفضل الذين منهم الزجاج ألا يكونوا كذلك، وهذا في مبدأ الأمر، أما إذا اعتذروا بعد ذلك كصنيع الزجاج فهذا وارد على خطأ وقع ينبغي ألا يكون.

إلا أننا نقول من جميل الصنع الاعتراف بالذنب ورد المظلمة حتى ولو بالاعتذار، فغفر الله للجميع.

عصر الزجاج:

عاش الزجاج في القرن الثالث الهجري، وفترة من أوائل القرن الرابع، وهذا الزمن الذي عاش فيه يعتبر من أزهى العصور الفكرية في التاريخ العربي الإسلامي، ففيه نضجت العلوم وجمع شتاتها في شتى العلوم الإسلامية والإنسانية، ونحن اليوم لا نزال نستفيد من هذه العلوم في شتى الميادين.

فقامت في هذا القرن المدارس التي شع منها النور إلى العالم كله في جميع الأزمان، وبدأ في بدايته مراحل ازدهار الحضارة الإسلامية في مشرق العالم الإسلامي وفي مغربه وفي الأندلس، وبدأت تلك المراحل بالترجمة، وخاصة من اليونانية والفارسية، ثم الاستيعاب وتطويع اللغة، ثم دخلت طَوْر التأليف والابتكار.

ولم يَعُد معجم لغة البادية قادرًا وحده على التعبير عن معاني تلك الحضارة، فحمل العلماء على عاتقهم مهمَّة تعريب مصطلحات غير عربية، وتوليد صيغ لمصطلحات أخرى، وتحميل صيغ عربية دلالات جديدة لتؤدِّي معاني أرادوا التعبير عنها. وبهذا استطاعت العربية التعبير عن أدقِّ المعاني في علوم تلك الحضارة الشامخة وآدابها.

وفي مطلع ذلك القرن، بدأ التأليف في تعليم العربية، فدخلت العربية مرحلة تعلُّمها بطريق الكتاب، وكان هذا هو الأساس الذي قام عليه صَرْح العلوم اللغوية كالنحو والصرف والأصوات وفقه اللغة والبلاغة والمعاجم.

ونشأت المدارس وحمل أنصارها ألويتها وإذا وجهنا وجوهنا شطر المدارس النحوية فنلقى الضوء على مدارسه، وخاصة مدرسة البصرة المتخرج منها الزجاج.

وبداية نقول: إن إطلاقنا «مدرسة» على كل هو اتجاه حديث لم يكن بموجود في عصورهم وللكلمة دلالتها التي نقصدها، فهي مصطلح يشير إلى اتجاهات ظهرت في دراسة النَّحو العربي، اختلفت في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعيّة، وارتبط كل اتجاه منها بإقليم عربي مُعيّن، فكانت هناك مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد وهكذا. ولم يكن لهذا الارتباط المكاني دلالة علميّة خاصة.

ويرى بعض الباحثين أن القدماء لم يطلقوا على مسائل الخلاف في النحو القديم كلمة مدرسة، فلم يؤثر عنهم مصطلح المدرسة البصرية، ولا مصطلح المدرسة الكوفية ولا مدرسة بغداد ولكننا نقرأ من قولهم :مذهب البصريين، ومذهب الكوفيين، ومذهب البغداديين، وربما ورد في قولهم: مذهب الأخفش، ومذهب الفراء، ومذهب سيبويه وغير ذلك.

غير أن المعاصرين استحسنوا لفظ المدرسة فاستعاروها في مادة الخلاف النحوي، كما استعاروها في مسائل أدبية أخرى، فأطلقوا على بناء القصيدة عند أوس بن حجر - على سبيل المثال بناءً خاصًا يختلف عما عند غيره من الجاهليين- واستمر هذا النهج في الاصطلاح بعض الباحثين، فكانت مدرسة الديوان، وهكذا قيل عن الأدب في المهجر، على الرغم من الخلاف الكبير بين أدباء المهجر في منازعهم الفكرية.

ولعل ما ذهب إليه الباحثون المعاصرون في تاريخ النحو والنحاة، فأثبتوا مصطلح المدرسة في نحو البصريين، ومثله مدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد أو غير ذلك. غير أنك حين تنظر في التراث النحوي لا تجد جمهرة النحاة -بصريين وكوفيين وغيرهم- قد

اختلفوا في أصول هذا العلم، ولم ينطلق هؤلاء من أفكار متعارضة، ولكنهم قد اختلفوا في مسائل فرعية تتصل بالتعليل والتأويل، فكان لهؤلاء طريقة أو مذهب، ولأولئك طريقة أو مذهب آخر، وقد يكون الاختلاف بين بصري وبصري كما كان بين كوفي وكوفي آخر، ولا تعدم أن تجد بصريًا قد وافق الكوفيين، وكذلك العكس.

أما كلمة مذهب فترد كثيرًا في الكلام عن الخلاف النحوي، فيقولون: مذهب البصريين كما قالوا: مذهب الكوفيين، ومذهب البغداديين، وقد تطلق كلمة مذهب على الطريقة التي سار عليها أحد النحاة فقالوا: مذهب سيبويه كذا، أو قولهم: مذهب الأخفش والفرّاء كذا.

والمتصفح لكتب التراث التي تعرضت للبحث في تاريخ النحو والنحاة، يلحظ خلوّها من مصطلح المدرسة ولكنه يجد أخبارًا مجموعة لعلماء كل عصر على حدة، ففي الفهرست لابن النديم مثلاً نجد بابًا يفرد للكلام في النحو وأخبار النحويين واللغويين من البصريين، وبابًا آخر لأخبار النحويين واللغويين الكوفيين، ثم باباً ثالثًا لأخبار جماعة من علماء النحو واللغويين ممن خلط المذهبين، وقد عرف هؤلاء الأخيرون عند الدارسين بالبغداديين .على أن أبا سعيد السيرافي أفرد كتابًا لأخبار النحويين البصريين بدءًا بأبي الأسود الدؤلي، وانتهاء بأبي بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج، وأبي بكر محمد بن علي المعروف بمبرمان اللذين أخذ السيرافي عنهما النحو، وعليهما قرأ كتاب سيبويه، ونص على أن في طبقة أستاذيه هذين ممن خلط علم البصريين بعلم الكوفيين، أبو بكر بن شقير، وأبو بكر بن الخياط.

وعندما ألّف أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (ت٣٥١هـ) كتابه في مراتب النحويين، عرض لعلماء الأمصار الثلاثة ممن اشتغلوا باللغة والنحو، بدءًا من أبي الأسود، ومن أخذ عنه، وبعض اللغويين والنحويين من البصريين، دون أن يعقد لذلك عنوانًا، حتى إذا فرغ من البصريين عقد بابًا لعلماء الكوفة، لكن الناظر فيمن سلكهم ضمن الكوفيين يرى بعض العلماء البصريين يسلكون خلال هذه المجموعة، وعلى سبيل المثال ترى الجرمي وأبا عثمان المازني وأبا العباس المبرد، ولعله لم يُرد ذلك، فعقد بعد ذلك بابًا لعلماء الكوفة بعد الكسائي، حتى إذا فرغ من ذكرهم خصص الباب الأخير لعلماء بغداد.

أما الزبيدي، فقد وضع النحويين واللغويين في طبقات، فابتدأها بطبقات النحويين البصريين، وصنفهم إلى عشر طبقات، وانتقل بعدها إلى طبقات النحويين الكوفيين فكانوا

ست طبقات، ثم عاد للغويي البصرة فكانوا سبع طبقات، فلغويي الكوفة وهم خمس طبقات، بعد ذلك خصص أبواباً لطبقات النحويين واللغويين المصريين، فالنحويين واللغويين القرويين، ثم النحويين واللغويين الأندلسيين.

تميز مدرسة البصرة التي تخرج منها الزجاج:

قد شاع بين المحدثين استقلال كل مصر من هذه الأمصار بمذهب شاع بين علمائها ونحاتها، وألفّت الكتب في هذا التواطؤ، فهناك كتاب عن مدرسة الكوفة وآخر عن مدرسة البصرة النحوية.

وسرد أهل التراجم الجهود الخصبة لكل مدرسة، وكل شخصية نابهة فيها، فابتدؤوا بالمدرسة البصرية؛ لأنها هي التي وضعت أصول النحو وقواعده، وكل مدرسة سواها فإنما هي فرع لها، وثمرة تالية من ثمارها.

وذهب أغلبية الباحثين إن لم يكن كلهم إلى أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة النحوية، ولعلم النحو العربي بمعناه الدقيق، ثم تلاه سيبويه فالأخفش الذي أقرأ النحو لتلاميذ من البصرة والكوفة، ثم جاء بعده المازني، فتلميذه المبرِّد وهو آخر أئمة المدرسة البصرية النابهين.

أما نشاط مدرسة الكوفة فبدأ متأخرًا عند الكسائي الذي استطاع هو وتلميذه الفراء أن يستحدثا في الكوفة مدرسة نحوية تستقل بطوابع خاصة من حيث الاتساع في الرواية، وبسط القياس وقبضه، ووضع بعض المصطلحات الجديدة، والتوسع في تخطئة بعض العرب، وإنكار بعض القراءات الشاذة.

ظهور مدرسة جامعة للمدرستين:

في هذا القرن أيضاً ظهرت مدرسة أحبت المزج بين كلا المدرستين وعرفت هذه المدرسة بالمدرسة البغدادية، فقد قامت على الانتخاب من آراء المدرستين «البصرية والكوفية» مع فتح الأبواب للاجتهاد، والوصول إلى الآراء المبتكرة.

ولم يتخلص علماء هذه المدرسة من نزعتهم إلى إحدى المدرستين السابقتين، أو ميلهم إلى مناهجها أكثر من ميلهم إلى المذاهب الأخرى، أو إلى الاستقلال عنهما.

فهذه لمحة لهذا العصر الذي انتشرت فيه المدارس ونهل طلاب العربية منها وعادوا إلى كل مصر محملين بما يقوم لسانهم حفاظاً على لغة القرآن.

كتب الزجاج ومؤلفاته:

١- كتاب معاني القرآن، قال ياقوت: ابتدأ أبو إسحاق بإملاء كتابه الموسوم بـ«معاني القرآن» في صفر سنة خمس وثمانين ومائتين، وأتمه في شهر ربيع الأول، سنة إحدى وثلاثمائة.

٢- كتاب ما فسره من جامع النطق.

٣-كتاب الاشتقاق.

٤- كتاب القوافي.

٥- كتاب العروض.

٦- كتاب الفرق.

٧- كتاب خلق الإنسان.

٨- كتاب خلق الفرس.

٩- كتاب مختصر النحو.

١٠- كتاب فعلت وأفعلت.

١١- كتاب ما ينصرف وما لا ينصرف.

١٢- كتاب شرح أبيات سيبويه.

١٣- كتاب النوادر.

١٤- كتاب الأنواء.

وفاة الزجاج:

توفي الزجاج في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وقال الهبي في السير: ويقال توفي سنة ست عشرة، فرحمه الله رحمة واسعة[1].

---

(١) انظر أخباره وترجمته في: البداية والنهاية(١١/١٤٨)، وسير أعلام النبلاء (١٤/٣٦٠)، وطبقات المفسرين (١/٥٢)، والوافي في الوفيات (١/٧١٩)، ونزهة الألباب في الألقاب (١/٣٣٩، ترجمة رقم:١٣٥٠)، وأبجد العلوم (٣/٤٣)، وكشف الظنون(١/٤٤٨)، ومعجم الأدباء (١/١٣٠)، والنجوم الزاهرة (٣/٢٠٨)، وشذرات الذهب (٢/٢٥٩)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/١٧٠)، وتاريخ بغداد (٦/٨٩)، وبغية الوعاة (١/١١)، وإنباه الرواه (١/١٥٩)، والفهرست (١/٩٠).

بين يدي كتاب

((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج

معاني القرآن للزجاج من الكتب التي حازت بالقبول في عصر الزجاج وبعد عصر الزجاج، ذلك لأنه أهم آثار الزجاج ومصنفاته، والمترجمون للزجاج يضعونه في المقدمة ذلك لشرف الموضوع، ولنيل الزجاج بكتابه الشرف العظيم عن بقية مصنفاته.

ولعل اسم: ((إعراب القرآن ومعانيه)) يدل على مدلول عظيم لا يفهمه إلا العالمون ، وهو أن المعنى والإعراب صنوان، يسيران في طريق واحد لخدمة النص الإلهي حتى يتجلى للناظرين، وهذا الاسم هو الذي ألفه الزجاج نفسه، إلا أن المشهور : ((معاني القرآن وإعرابه)) لكننا لا نريد أن ندخل أنفسنا في نية الزجاج نفسه فإننا أبقينا على العنوان بدون تغيير وبدون النظر إلى المشهور ، فالزجاج نفسه في أول الكتاب قال: ((هذا كتاب مختصر في إعراب القرآن ومعانيه)) .

وهذا الاسم يحتاج إلى أن نتوقف فيه متأملين ففيه من المعاني ما لا بد أن نشير إليه.

فالعنوان يدل على أنه مختصر ، ورأينا أنه بالفعل مختصر في إعراب القرآن معانيه، بل يبدو أن نية الزجاج كانت متجهة أن يضع هذا المختصر لطلابه ولنا دليل على هذا وهو: أن الزجاج درس الكتاب لسيبويه والمعروف أن كتاب سيبويه قد جمع فيه شتات اللغة وكمل تفاريعها بعد الخليل بن أحمد الفراهيدي واستكثر من أدلة اللغة وشواهدها ووضع فيها كتابه الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده[1].

يقول صديق القنوجي: ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتباً مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه[2].

فمعاني القرآن للزجاج خلاصة مختصرة لما حصله من سيبويه في كتابه في النحو.

ودليل آخر أن الزجاج في كتابه كان سريع الخطا بدون إخلال، وربما كلم طالب العلم على يديه وقال له: ((يا هذا أو يا فتى)) ونرى أن الناسخ وهو الطالب يثبتها، لأن

---

(١) انظر: أبجد العلوم (٢/٥٦١).

(٢) المرجع السابق (٢/٥٦٢).

شيخه الزجاج قد نبهه عليها فيثبت اللفظ الذي نبهه إليه حتى إذا طالع الكتاب مرة أخرى تذكر أهمية هذا الموضع الذي نبهه شيخه الزجاج عليه، وهذا أسلوب من يختصر العلم اختصاراً بدون إخلال مع التنبيه على المهم من المسائل.

والعنوان أيضاً يشير إلى أن هذا المصنف «في إعراب القرآن ومعانيه» فقدم الإعراب على المعنى مشيراً بذلك إلى أن الإعراب قسيم المعنى، وهذا هو ما التزمه الزجاج في منهجه.

ويشعرنا هذا العنوان أن هناك أداتين لابد منهما حتى نتدبر القرآن الإعراب والمعنى، ولذا في مواطن كثيره نرى الزجاج يعرب بأكثر من وجه على تقديرات جائزة ثم يقول على الوجه الأول معناه كذا وعلى الثاني المعنى كذا أو يردف لكل وجه إعرابي المعنى التابع له.

ولعل الزجاج بذلك قد قصد إلى التعمق في آيات القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين.

ومن منهجه أيضاً: أنه عادة يقول : « والتأويل، أوتأويل الكلام» فجمع بين الإعراب والمعنى والتأويل مكوناً بذلك منهجاً متميزاً.

يقول الزركشي : قال ابن فارس معاني العبارات التى يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة : « المعنى والتفسير والتأويل » وهي وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة.

فأما المعنى : فهو القصد والمراد يقال : « عنيت بهذا الكلام كذا أي قصدت وعمدت » وهو مشتق من الإظهار يقال : « عنت القربة إذا لم تحفظ الماء بل أظهرته ، ومنه : « عنون الكتاب » ، وقيل مشتق من قولهم : « عنت الأرض بنبات حسن » إذا أنبتت نباتاً حسناً .

قلت : وحيث قال المفسرون قال أصحاب المعاني مصنفو الكتب فى معاني القرآن كالزجاج ومن قبله وغيرهم ، وفى بعض كلام الواحدي أكبر أهل المعانى الفراء والزجاج وابن الأنبارى قالوا كذا كذا ومعاني القرآن للزجاج لم يصنف مثله وحيث أطلق المتأخرون أهل المعاني فمرادهم بهم مصنفو العلم المشهور[1].

ونرى من الزركشي تقييماً للزجاج بين علماء هذا النوع من التفسير، وأنه أحسنهم لم

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢ /١٤٦، ١٤٧).

يصنف مثله وكفى بها شهادة للزجاج وما قدم .

فالتفسير الذي بين أيدينا جامع للأمور الثلاثة التي نبه عليها الزركشي، والإعراب هو بغيته والأصل فيه وعليه يفهم المعنى، ثم يأتي التأويل.

كتب المعاني وقيمة كتاب الزجاج بينهم:

لقد ألف في هذا النوع كثيرون اعتنوا فيما ألفوا بمعاني القرآن ومشكله ومجازه وحقيقته ، ومن هذه المؤلفات: كتاب معاني القرآن للكسائي ، كتاب معاني القرآن للأخفش سعيد بن مسعدة ، كتاب معاني القرآن للرؤاسي ، كتاب معاني القرآن ليونس بن حبيب صغير وكبير ، كتاب معاني القرآن للمبرد وهو شيخ الزجاج ، كتاب معاني القرآن لقطرب النحوي ، كتاب معاني القرآن للفراء ، كتاب معاني القرآن لأبي عبيدة ، كتاب معاني القرآن لأبي فيد مؤرج السدوسي ، كتاب معاني القرآن لابن محمد السدوسي ، كتاب معاني القرآن للمفضل بن سلمة ، كتاب ضياء القلوب في معاني القرآن وغريبه ومشكله للمفضل بن سلمة ، كتاب معاني القرآن للأخفش ، كتاب معاني القرآن لابن كيسان ويعرف بالعشرات ، كتاب معاني القرآن لابن الأنباري ، كتاب معاني القرآن للزجاج ، كتاب معاني القرآن لخلف النحوي ، كتاب معاني القرآن لثعلب ، كتاب معاني القرآن لأبي معاذ الفضل بن خلف النحوي ، كتاب معاني القرآن لأبي المنهال عيينة بن المنهال ، كتاب التوسط بين ثعلب والأخفش في المعاني لابن درستويه ، كتاب رياضة الألسنة في إعراب القرآن ومعانيه لأبي بكر بن أشته الأصفهاني ، كتاب أبي الحسن علي ابن عيسى بن داود بن الجراح الوزير في معاني القرآن وتفسيره[١].

ويكفينا أن الزركشي قال عن كتاب معاني القرآن للزجاج : « لم يصنف مثله » ، وهذا يدل على أن كتاب الزجاج كتاب جامع لما قبله من شتات المؤلفات وقبلة لمن جاء بعده يلجؤون إليه في المعاني والتأويلات.

والذي يجعلنا نقترب من إدراك قيمة الكتاب أن الزجاج ألفه قبل وفاته بعشرة أعوام مستغرقاً في تصنيفه ستة عشر عاماً وقَصَدنا الإشارة إلى ذلك حتى نتأمل معاً هذا الرجل الذي أملى كتابه في هذه السنون وهو في قمة نضجه الفكري وتمكنه من اللغة العربية بفروعها، فلا يُنْتِج إلا عِلْما متمكناً، وعملاً متقبلاً.

---

(١) انظر: الفهرست (٥١/١).

ولأن هذا الكتاب بهذه السمات اجتذب الطلاب والدارسين والمفسرين، فقد نقل عنه كثيرٌ منهم ، وقد قرر الزمخشري أنه اعتمد على الزجاج في دراسته اللغوية، وفي بعض المواضع ينقل نقلاً كاملاً وفي بعضها يختصر كلامه، واتكاؤه على الزجاج ظاهر في إعرابه.

والقرطبي أيضاً في مواضع من تفسيره يأتي بكلام الزجاج واختياراته، بل دعاه ما للزجاج من مكانة لغوية أن يكتفي بكلامه ولا يأتي بجواره بكلام آخر.

وابن الجوزي في زاد المسير ينقل ويعزو إلى الزجاج في أكثر من موضع وينبه على اختيارات الزجاج وقد أشرنا إلى ذلك في تحقيقنا لبعض المواضع.

ومن المفسرين المتأخرين أيضاً الذين اعتمدوا على الزجاج البغوي والخازن فكل منهما كان يرجع إلى رأيه ، وكذا السمين الحلبي في الدر المصون فكانوا يرجعون إليه فيما يكون من مسائل في اللغة بفروعها.

فهذا عن المفسرين أما أهل اللغة والبلاغة خصوصاً وعلى رأسهم الإمام عبد القاهر الجرجاني فقد نقل عنه في دلائل الإعجاز[١]، وكتب اللغة على اختلاف مشاربها قد رجعت إليه ومليئة باختياراته وآرائه في كتابه هذا.

والبغدادي في خزانة الأدب يصرح أنه اعتمد على الزجاج وكتابه كأصل من أصول خزانته [٢]، وابن منظور يورد دائماً رأي الزجاج وفي بعض الأحيان يذكر ما أنشده الزجاج في المسائل اللغوية والآراء التي اختارها الزجاج.

فكل من أتوا بعد الزجاج كما نرى استفادوا منه، ولعل السبب في ذلك أن الزجاج رجع إلى النحويين والمفسرين والقراء ممن سبقوه وأشار إلى قراءتهم وما يتجه عليها من معان قرآنية ، وكان لكل من سبقه منهجه وطريقته الخاصة في عرض المعاني والآراء والقراءات وكان كل منهم يسمي كتابه كما رأينا «معاني القرآن».

وكل منهم أعرب الآيات وفق مذهبه النحوي ووفقاً لمعلوماته الخاصة ، وكل منهم أيضاً له نية فيما كتب خدمة للقرآن الكريم، فأتى الزجاج ملماً بكل ذلك مناقشاً ومحللاً ومجلياً ومقارناً وموجهاً.

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز (ص: ٢٥٢، و ٣٢١).

(٢) انظر: الخزانة (١/٢٧).

واعتنى الزجاج أيضاً بآراء سيبويه في كتابه في النحو الذي كان له أهمية كبرى في كل عصر وليس عصر الزجاج فقط، كما اعتنى بآراء الخليل بن أحمد لأنه أستاذ سيبويه.

وواضح من الكتاب أن الزجاج يورد ما أنشده أبو عبيدة، وأخذا الزجاج كلامه بمذاقه هو، وبمنهجه الخاص وبطريقته التي تميزه عن باقي المفسرين الذين نقلوا عن أبي عبيدة.

وأيضاً الزجاج في كتابه ينفرد بشرح لغوية لمفردات وكلمات لم يسبق بها ، ولم تكن موجودة في كتب النحويين، فكان بذلك المرجع الوحيد لمن بعده إذا تعرضوا إلى هذه الكلمات ، وكل هذا يزيد من وجاهة وقيمة هذا الكتاب.

وأنت معي أن كل هذا المجهود وهذه المميزات وهذا العمل المتفاني لم يكن سهلاً على الزجاج، ولكنه الجهاد في سبيل خدمة هذا الكتاب العزيز.

الزجاج على أي حال علم لغوي كبير وكان لكتابه الجامع لما سبق، ومنهجه الخاص المتميز كان له أثر كبير في العربية لكل من أتى بعده ، فقد أخذه من بعده بالتدريس مثل أبو جعفر النحاس وابن الراوندي وكان لهذين العالمين أكبر الأثر في دخول علم الزجاج إلى مصر وكانت نسختيهما من معاني القرآن للزجاج مرجعاً يصحح عليه التلاميذ والطلاب نسخهم.

فهذه هي قيمة الزجاج وكتابه بجانب من سبقوه، ومكانة الزجاج وكتابه لمن جاؤوا بعده.

الاستشهاد بكلام العرب:

كعادة المصنفين في اللغة العربية فقد وشح الزجاج كتابه بشواهد نحوية يستدل بها على ما يختاره أو يرجحه، وقد وجدنا من الزجاج أمور في استشهاده بكلام العرب:

١- يورد الشواهد ليرجح ما ذهب إليه البصريين، فهو كان على مذهبهم.

٢- يورد الشاهد ليستدل على وقوع كلمة أو لفظة ما في كلام العرب وعلى جوازها.

٣- يورد الشاهد الشعري لينتصر لاختياره هو حتى لو خالف البصريين والكوفيين ، فينتصر لوجهة نظره ويستدل على ذلك من كلام العرب.

وإيراد الشواهد خاصة في اللغة ضروري جداً، قال البغدادي في الخزانة: ((قال الأندلسي في شرح بديعية رفيقه ابن جابر: علوم الأدب ستة: اللغة والصرف والنحو، والمعاني والبيان والبديع؛ والثلاثة الأول لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب، دون الثلاثة

الأخيرة فإنه يستشهد فيها بكلام غيرهم من المولدين، لأنها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم، إذ هو أمر راجع إلى العقل »[١].

وقد رأيت من الزجاج أنه كان يورد علن الشعراء على اختلاف طبقاتهم ، الجاهلي منهم والمخضرم ومن وجدوا في عصر الإسلام.

فتجمع من شواهده ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون، وهم قبل الإسلام، كامرئ القيس والأعشى.

والثانية: المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، كلبيد وحسان.

والثالثة": المتقدمون، ويقال لهم: الإسلاميون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام، كجرير والفرزدق.

قال البغدادي: فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً. وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها[٢].

وقد كان الزجاج ملتزماً بذلك، وفيما يلي أهم الأمور التي وجدناها من منهجه إضافة إلى ما ذكرنا.

منهج الزجاج في كتابه:

آثرت أن أختم هذا الموضع بمنهج الزجاج بعد أن تعرضنا لأهم ملامح الزجاج وكتابه حتى يكون ما سنكتبه في منهجه قريباً في الأذهان ومفهوماً، فأقول:

١- عقب ذكر الآية القرآنية يورد ألفاظ منها ليحللها من حيث الاشتقاق اللغوي والأصل والمعنى اللغوي.

٢- إيراد الكلمات التي تتشابه معها في الحروف والأوزان والفروق بين المباني والمعاني .

٣- الاستشهاد في هذا الموطن بآي الذكر الحكيم، وما ورد من الشعر في ذلك أو ما أنشده من سبقوه فيعرض لهم وربما شرح الأمثلة والشواهد الشعرية.

٤- إعراب الآية وإيراد الأوجه في إعرابها والتقديرات النحوية ثم يفصل ما يجوز في العربية عما لا يجوز .

---

(١) انظر: خزانة الأدب (١/٥).

(٢) انظر: المرجع السابق.

٥- إيراد القراءات القرآنية وقلَّ أن يعزو قراءة إلى صاحبها وإنما يعزوها إذا استغربها أو لم يسمعها وهذا منه لجلال القرآن والموقف الذي يكون فيه المفسر من الحِيطَة والحذر.

٦- التنبيه على القراءة وتوجيهها التوجيه اللغوي الذي يجلي المقصود ويوضح المراد.

٧- التنبيه دائماً على ما يجوز في غير القرآن من وجوه الإعراب وعدم إدخاله في القرآن إلا إذا وردت قراءة به، فكثيراً ما يقول: « لو قرئ كذا فهذا يجوز في العربية ولكن لم ترد قراءة به فلا تقرأن به ، فليس كل ما يجوز في العربية يجوز القراءة به لأن القراءة سنة واجبة الاتباع» .

٨- التعرض لمسائل اللغة العربية وآراء المذاهب النحوية وترجيح ما يراه ، وبعدها يقول : هذا ما قاله النحويون.

٩- يتعرض لكلام المفسرين غالباً في أسباب النزول، فيقول: « قالوا في التفسير، أو قال المفسرون» ثم يورد معنى كلامهم لا نصه في سبب نزول الآية ، بل يورد الأقوال -هذا قليل- في سبب النزول.

١٠- عند تعرضه للآيات التي فيها إخبار بالغيب ينبه على أن القرآن معجزة فيقول وهذا مما يؤيد النبي ﷺ فقد قال ذلك وهو أمي لا يعرف الكتابة ولم يقرأ كتب من سبقه فيتجه الحال أنه عرف ذلك بالوحي، فينتصر لذلك، وكرر الزجاج ذلك في أكثر من موضع في كتابه.

١١- يعتني الزجاج في منهجه بتفسير القرآن بالقرآن فيستشهد على الموطن الذي يشرحه بموطن قرآني آخر أوضح وأبين من وجهة نظره ، وهو في هذا الصدد قوي بارع في استدلالاته القرآنية على أمثالها من القرآن الكريم.

١٢- كان للحديث النبوي الشريف نصيب من كتاب الزجاج على قلة ذلك، والذي يدعونا أن نشير إليه في هذا المقام ما رأينا من سنده في إيراد أحاديث انشقاق القمر في أول سورة القمر، فيورد الأحاديث بإسناده، وفي موضع متقدم عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ في سورة البقرة ، يورد طريقين من هذه الأحاديث فيقول: « فأما انشقاق القمر وصحته فقد روينا فيه أحاديث: حدثني إسماعيل بن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن المنهال، قال: حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس

قال: ((سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين))(١). حدثني مسدد يرفعه إلى أنس أيضاً مثل ذلك(٢))).

وشيخه مسدد في الطريق الثاني هو شيخ البخاري أيضاً كما هو واضح من التخريج.

والزجاج رأيت أنه لم يورد بسنده أحاديث إلا في هذه المعجزة فقط.

أما بقية الأحاديث على ندرتها فيأتي بها بصيغة: ((روي ، أو قيل)) وكثيراً ما يقول في هذا النادر اليسير من الأحاديث: ((روى المفسرون)) .

وصرح مرة واحدة في كتابه هذا أن أكثر ما يرويه من التفسير من مسند أبي عبد الله أحمد بن حنبل.

١٤- تعرضه لمسائل الفقه نادر فهو ليس من شرطه في كتابه أما إذا سنحت الفرصة فإنه يذكر ذلك أيضاً.

فهذه أهم ملامح منهج الزجاج في كتابه القيم ((إعراب القرآن ومعانيه)) فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله خير الجزاء بما قدم للإسلام وأبناء المسلمين وقراء العربية أجمعين.

* * *

---

(١) متفق عليه ؛ رواه البخاري (١٨٤٤/٤،رقم: ٤٥٨٦)، ومسلم (٢١٥٩/٤، ورقم: ٢٨٠٢) من حديث أنس.

(٢) رواه عن مسدد أيضاً بسنده إلى أنس البخاري (١٨٤٤/٤، ورقم: ٤٥٨٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج:

هذا كتاب مختصر في: ((إعراب القرآن ومعانيه)) ونسأل الله التوفيق في كل الأمور.

* * *

قوله -عز وجل- ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[1]:

الجالب للباء معنى الابتداء كأنك قلت: بدأت باسم الله الرحمن الرحيم إلا أنه لم يحتج لذكر ((بدأت)) لأن الحال تنبئ أنك مبتدئ.

وسقطت الألف من ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في اللفظ وكان الأصل: ((باسم الله)): لأنها ألف وصل دخلت ليتوصل بها إلى النطق بالساكن؛ والدليل على ذلك: أنك إذا صغرت الاسم قلت: سُمَيٌّ؛ والعرب تقول: هذا اسم وهذا أُسم وهذا سِمٌ.

قال الراجز [من الرجز]:

بِاسمِ الذي في كلِّ سُورَةٍ سِمُهُ[2]

و((سُمه)) أيضاً روى ذلك أبو زيد الأنصاري[3] وغيره من النحويين فسقطت الألف

---

(١) أعرب العلماء الاستعاذة، فقال العكبري: ((أعوذ)) أصله: ((أعوذ)) بسكون العين وضم الواو مثل: ((اقتل)) فاستثقلت الضمة على الواو فنقلت إلى العين وبقيت ساكنة، ومصدره: ((عوذ وعياذ ومعاذ)) وهذا تعليم والتقدير فيه: قل أعوذ.

((والشيطان)) فيعال من: ((شطن يشطن)) إذا بعد، ويقال فيه: ((شاطن وتشطين))، وسمي بذلك كل متمرد لبعد غوره في الشر، وقيل هو: ((فعلان))، ويجوز أن يكون سمي: ((بفعلان)) لمبالغته في إهلاك غيره.

((والرجيم)) فعيل بمعنى مفعول، أي: مرجوم بالطرد واللعن، وقيل هو ((فعيل)) بمعنى: ((فاعل)) أي يرجم غيره بالإغواء. انظر إعراب القرآن (٤/١).

(٢) في اللسان مادة: ((سما))، وهو لأبي زيد أنشده لرجل من كلب، هكذا في اللسان. وكذا ورد عند من تكلموا في مسألة اشتقاق الاسم. انظر: أسرار العربية (ص: ٣٢)، و الإنصاف في مسائل الخلاف (١٦/١).

(٣) سعيد بن أوس بن ثابت، الخزرجي، المعروف بأبي زيد الأنصاري: أحد أئمة الأدب واللغة، من أهل البصرة. ولد سنة (١١٩ هـ = ٧٣٧ م)، وتوفي بالبصرة سنة (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م) على خلاف عند =

لما ذكرنا.

وكذلك قولك: ((ابن)) الألف فيه ألف وصل تقول في تصغيره ((بني)).

ومعنى قولنا: ((اسم)) أنه مشتق من السمو والسمو الرفعة والأصل فيه سمو -بالواو- على وزن جمل وجمعه: أسماء مثل: قنو وأقناء وحنو وأحناء.

وإنما جعل الاسم تنويهاً باسم الله على المعنى لأن المعنى تحت الاسم.

ومن قال: إن ((اسماً)) مأخوذ من ((وسمت)) فهو غلط لأنا لا نعرف شيئاً دخلته فاؤه أعني: فاء الفعل نحو قولك: ((عِدة)) و((زِنة)) وأصله: ((وعْدة)) و((وزْنة)).

فلو كان ((اسم)): ((وسمه)) لكان تصغيره إذا حذفت منه ألف الوصل: ((وسيم)) كما إن تصغير ((عدة وصلة)): ((وعيدة ووصيلة))؛ ولا يقدر أحد أن يرى ألف الوصل فيما حذفت فاؤه من الأسماء(1).

المؤرخين. كان أبو زيد الأنصاري من الرواد الأوائل الذين أخذوا اللغة مباشرة عن العرب الفصحاء، وكان إلى جانب علمه الواسع باللغة عالماً بالنحو، ولهذا كان يُدعى أبا زيد النَّحْوِيّ، وربما سمي بذلك ولم يسمَّ أبا زيد اللغوي لأنه كان يتفوق على رفيقي دربه الأصمعي وأبي عبيدة اللذين قادا معه حركة جمع اللغة من مصادرها، فقد كان يتفوق عليهما في علم النحو، على أن علم أبي زيد بالنحو لم يبلغ - باعتراف العلماء - درجة علم الخليل بن أحمد وسيبويه. وقد أخذ أبو زيد معارفه اللغوية - بالإضافة إلى أخذه عن الثقات من العرب الفصحاء - عن أبي عمرو بن العلاء و أبي عبيد القاسم بن سلام وأبي حاتم السجستاني وأبي الخطاب الأخفش ويونس بن حبيب، وقد كان هؤلاء جميعاً عماد اللغة والنحو قبله، وأصبح أبو زيد من بعدهم أحفظ الناس للغة وأوسعهم رواية وأكثرهم أخذاً عن البادية. لا غرو أن تتلمذ عليه أبو علي الجرمي وأبو إسحاق بن إبراهيم اليزيدي وسيبويه نفسه، ومن آثاره: كتاب النوادر في اللغة، ولغات القرآن وبيوتات العرب، والهشاشة والبشاشة وغير ذلك.

انظر ترجمته في: الأعلام (٩٢/٣). والمصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي (ص ٣١٧: ٣١٨).

(١) في باب الاسم وهو من أقسام الكلمة الثلاثة كلام بديع للنحويين ذكر بعضه هنا الزجاج، قال أبو البركات الأنباري في كتابه أسرار العربية (٢٩/١): فإن قيل لم سمي الاسم اسماً؟ قيل: اختلف النحويون في ذلك فذهب البصريون إلى أنه سمي اسماً لوجهين: أحدهما: أنه سمي على مسماه وعلا على ما تحته من معناه فسمي اسماً لذلك. والوجه الثاني: أن هذه الأقسام الثلاثة لها ثلاث مراتب؛ فمنها: ما يخبر به ويخبر عنه وهو الاسم نحو: ((زيد قائم))، ومنها: ما يخبر به ولا يخبر عنه وهو الفعل نحو: ((قام زيد))، ومنها: ما لا يخبر به ولا يخبر عنه وهو الحرف نحو: ((هل وبل)) وما أشبه ذلك.

وسقطت الألف في الكتاب من ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ولم تسقط في ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[العلق: ١] لأنه اجتمع فيها مع أنها تسقط في اللفظ كثرة الاستعمال.

وزعم سيبويه[١]: أن معنى الباء: الإلصاق تقول: ((كتبت بالقلم))[٢]، والمعنى: أن

=

فلما كان الاسم يخبر به ويخبر عنه والفعل يخبر به ولا يخبر عنه والحرف لا يخبر به ولا يخبر عنه فقد سما الاسم على الفعل والحرف، أي: ارتفع والأصل فيه: ((سمو)) إلا أنهم حذفوا الواو من آخره وعوضوا الهمزة في أوله فصار اسماً، وزنه: ((إفع)) لأنه قد حذف منه لامه التي هي الواو في ((سمو)).

وذهب الكوفيون إلى أنه سمي اسماً لأنه سِمَةٌ على المسمى يعرف بها، والسمة: العلامة، والأصل فيه ((وسم)) إلا أنهم حذفوا الواو من أوله وعوضوا مكانها الهمزة فصار اسماً، وزنه: ((إعل)) لأنه قد حذف منه لامه التي هي الواو في: ((وسم)).

والصحيح ما ذهب إليه البصريون وما ذهب إليه الكوفيون وإن كان صحيحاً من جهة المعنى إلا أنه فاسد من جهة التصريف (انتهى) قلت: وقد تعرض الزجاج لهذا في كلامه وأوضح المقال بالمثال.

وانظر في هذا أيضاً: المسائل الخلافية في النحو للعكبري (ص: ٥٩)، وإعراب القرآن له (١/٥).

(١) هو: عمر بن عثمان بن قنبر سيبويه، إمام نُحاة البصرة، ولد بالبيضاء، من مدن شيراز، واختُلف في موضع وفاته وتاريخها؛ والأرجح أنه مات بشيراز. نشأ بالبصرة، ودرس النحو على الخليل ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر. ورد بغداد فناظر إمام النحاة الكوفي الكسائي، فحكم بانتصاره عليه، فأسف وعاد إلى موطنه، وألف كتابه الذي يعد أصل النحو وأشهر كتبه، واعتمد عليه نُحاة المدارس جميعاً، وألفوا حوله الشروح والملخصات والتكملات والتعليقات والنقود، ولا زال محتفظاً بمكانته.

قال الجاحظ: لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثل كتابه. وجميع كُتب الناس عليه عيال.

أخذ سيبويه النحو عن الخليل بن أحمد وعيسى بن عمر ويونس بن حبيب، وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش الأكبر وقال أبو عمر المخزومي: ما سمعت الخليل يقولها لأحد إلا سيبويه.

جمع المأمون بينه وبين الكسائي. وتناظرا فزعم الكسائي أن العرب تقول: كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها قال سيبويه: ليس المثل كذا، بل فإذا هو هي، وتشاجرا طويلاً. فجاؤوا بأعرابي يقول: قال الكسائي فلما أحس سيبويه التحامل واشتد عليه وتأثر بذلك وسار من بغداد ولم يعرج على البصرة وقصد بلاد فارس ومات غماً وكمداً. وعمره نيف وأربعين سنة توفي (١٨٠ هـ).

(٢) وهو ما قاله ابن جني في اللمع في العربية (ص:٧٤) قال: ومعنى الباء الإلصاق، تقول: ((أمسكت الحبل بيدي)) أي: ألصقتها به، وتكون الباء زائدة كقولك ليس زيد بقائم، أي: ليس زيد قائماً.

=

الكتابة ملصقة[1] بالقلم، وهي مكسورة أبداً لأنه لا معنى لها إلا الخفض، فوجب أن يكون لفظها مكسوراً ليفصل بين ما يجر وهو اسم نحو «كاف» قولك: «كزيد»، وما يجر وهو حرف نحو: «بزيد» لأن أصل الحروف التي يتكلم بها وهي على حرف واحد الفتح أبداً، إلا أن تجيء علة تزيله، لأن الحرف الواحد لا حظ له في الإعراب، ولكن يقع مبتدأ في الكلام، ولا يبتدأ بساكن، فاختير الفتح لأنه أخف الحركات تقول: «رأيت زيداً وعمراً» فالواو مفتوحة وكذلك: «فعمراً» الفاء مفتوحة، وإنما كسرت اللام في قولك: «لِزيد» ليفصل بين لام القسم ولام الإضافة، ألا ترى أنك لو قلت: «إن هذا لزيد» علم أنه ملكه ولو قلت: «إن هذا لَزيد» علم أن المشار إليه هو زيد، فلذلك كسرت اللام في قولك: «لزيد»؛ ولو قلت: «إن هذا المال لك» «وإن هذا لأنت» فتحت اللام؛ لأن اللبس قد زال.

والذي قلناه في اللام هو مذهب سيبويه ويونس[2] والخليل[3] وأبي عمرو بن العلاء

=

وأوضح العلامة ابن السراج النحوي البغدادي في كتابه الأصول في النحو (٤١٢/١) أحكام الباء فقال: حرف الباء: معناه الإلصاق، فجائز أن يكون معه استعانة وجائز لا يكون، فأما الذي معه استعانة فقولك: ((كتبت بالقلم، وعمل الصانع بالقيدوم))، والذي لا استعانة معهُ فقولك: ((مررتُ بزيدٍ، ونزلت بعبد الله))، وتزاد في خبر المنفي توكيداً نحو قولك: ((ليس زيد بقائم))، وجاءت زائدة في قولك: ((حسبك بزيد، وكفى بالله شهيداً)) وإنما هو كفى الله.

قال سيبويه: باء الجر إنما هي للإلزاق والاختلاط، وذلك قولك: ((خرجت بزيدٍ ودخلت به، وضربته بالسوط)) ألزقت ضربك إياه بالسوط، فما اتسع من هذا الكلام فهذا أصله.

(١) ومعنى الإلصاق: اتصال أحد الشيئين بالآخر. انظر: اللباب في علل البناء والإعراب (١٧٤/١).

(٢) هو: أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي مولى ضَبَّة أو مولى بني ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، وقيل: مولى بلال بن هرمي أحد بني ضبيعة بن بجالة.

ولد يونس بن حبيب بين سنة ٨٠ وسنة ٩٠ من الهجرة (٦٩٩ - ٧٠٨م) في بليدة اسمها الجَبُّول أو جُبّل على نهر دجلة بين بغداد وواسط.

أخذ يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء والأخفش الكبير، ثم كانت له حلقة في البصرة يختلف إليها الأدباء وفصحاء العرب وأهل البادية. ولم يتزوج بونس ولا تسرى. وقد أسن كثيراً، وكانت وفاته سنة (١٨٢هـ = ٧٨٩م).

انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي (١٣٣/٢: ١٣٤٩).

(٣) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، الفَرَاهِيْدِيّ، الأزدي، اليَحْمدِيّ، أبو عبد الرحمن من أئمة اللغة والأدب، واضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي. ولد في البصرة سنة (١٠٠هـ = ٧١٨

=

وجميع النحويين الموثوق بعلمهم.

وكذلك تقول: «أزيد في الدار ؟» فالألف مفتوحة، وليس في الحروف المبتدأة مما هو على حرفٍ حرفٌ مكسور إلا الباء ولام الأمر وحدهما، وإنما كسرتا للعلة التي ذكرنا وكذلك لام الإضافة والفتح أصلها.

وأما لام «كي»[1] في قولك: «جئت لتقوم يا هذا» فهي لام الإضافة التي في قولك

ومات بها سنة (١٧٠ هـ = ٧٨٦ م). وعاش فقيراً صابراً، وكان من الزهاد في الدنيا والمنقطعين إلى العلم، كان شعث الرأس، شاحب اللون، قشف الهيئة، متمزق الثياب، متقطع القدمين، مغموراً في الناس لا يعرف.

وهو صاحب كتاب العين في اللغة، وهو أول من استخرج العَرُوض، وأخرجه إلى الوجود، وحصر الأشعار بها في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد فيه الأخفش بحراً واحداً وسماه الخبب، وكان دعا بمكة أن يرزقه الله تعالى علماً لم يُسْبَقْ إليه ولا يؤخذ إلا عنه فرجع من حجه وفُتح عليه بالعروض.

قال تلميذه النضر بن شُميل: أقام الخليل في خُصٍّ بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكتسبون بعلمه الأموال وكان الناس يقولون لم يكن في العرب بعد الصحابة أذكى منه.

وكان يقول: أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذِهْناً إذا بلغ أربعين سنة وهي السن التي بعث الله فيها محمداً ﷺ، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة وهي السن التي قُبض فيها رسول الله ﷺ وأصفى ما يكون ذهن الإنسان في وقت السحر.

وسبب موته أنه قال: أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يمكن أن يظلمها فدخل المسجد وهو يعمل فكرة فصدمته سارية وهو غافل فانصدع ومات، ورئي في النوم فقيل له: ما صنع الله بك ؟ فقال: أرأيت ما كنا فيه ؟ لم يكن شيئاً أو ما وجدت أفضل من سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وله من المؤلفات أيضاً: معاني الحروف، وجملة آلات العرب، وتفسير حروف اللغة، وكتاب العروض، والنقط والشكل، والنغم.

والفَرَاهِيْدِيّ نسبة إلى بطن من الأزد، وكذلك (اليحمدي).

انظر ترجمته في: أبجد العلوم (٣/٤: ٥)، والأعلام (٢/٣١٤).

(١) وهي من أنواع اللامات، وقد سبق في كلام المصنف أن قال: لام القسم ولام الإضافة وهما من أنواعها أيضاً، قال الخليل في كتاب الجمل (ص: ٢٦٦): وهي -أي اللام- ثلاثون لاماً: لام الصفة، ولام الأمر، ولام الخبر، ولام كي، ولام الجحود، ولام الاستغاثة، ولام النداء، ولام التعجب، ولام في موضع إلا، ولام القسم، ولام الوعيد، ولام التأكيد، ولام الشرط، ولام المدح، ولام الذم، ولام جواب

((المال لزيد)) وإنما نصبت ((تقوم)) بإضمار ((أن)) أو ((كي)) التي في معنى ((أن))؛ فالمعنى: جئت لقيامك.

وما قلناه في اشتقاق ((اسم)) قول لا نعلم أحداً فسره قبلنا.

وأما قولك: ((ليضرب زيد عمراً)) فإنما كسرت اللام ليفرق بينها وبين لام التوكيد ولا يبالي بشبهها بلام الجر، لأن لام الجر لا تقع في الأفعال ألا ترى أنك لو قلت: ((لتضرب)) وأنت تأمر لأشبه لام التوكيد إذا قلت: ((إنك لتضرب)).

فهذا جملة ما في الحروف التي على حرف واحد.

فأما اسم الله -عز وجل- فالألف فيه ألف وصل وأكره أن أذكر جميع ما قال النحويين في اسم الله أعني قولنا: ((الله)) تنزيهاً لله -عز وجل-.

وقوله -عز وجل-: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ هذه الصفات لله -عز وجل- معناه فيما ذكر أبو عبيدة: ذو الرحمة ولا يجوز أن يقال ((الرحمان)) إلا لله .

وإنما كان ذلك لأن بناء ((فَعَلان)) من أبنية ما يبالغ في وصفه ألا ترى أنك إذا قلت: ((غضبان)) فمعناه: الممتلئ غضباً ((فرحمان)): الذي وسعت رحمته كل شيء، فلا يجوز أن يقال لغير الله: ((رحمان)) وخفضت هذه الصفات لأنها ثناء على الله -عز وجل- فكان إعرابها إعراب اسمه ولو قلت في غير القرآن: بسم الله الكريم والكريم والحمد لله رب العالمين ورب العالمين: جاز ذلك فمن نصب ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ فإنما ينصب لأنه ثناء على الله كأنه لما قال: ((الحمد لله)) استدل بهذا اللفظ أنه ذاكر الله، فقوله: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ كأنه قال: أَذْكُرُ ربَّ العالمين، وإذا قال: ((ربُّ العالمين)) فهو على قولك: هو ربُّ العالمين، قال الشاعر[1] [من البسيط]:

=

القسم، ولام في موضع عن، ولام في موضع على، ولام في موضع إلى، ولام في موضع أن، ولام في موضع الفاء، ولام الطرح، ولام جواب لولا، ولام الاستفهام، ولام جواب الاستفهام، ولام السنخ، ولام التعريف، ولام الإقحام، ولام العماد، ولام التغليظ، ولام منقولة.

وقال في لام كي: قولهم أتيتك لتفيدني علماً، وهذه اللام مكسورة أبداً معناه: لكي تفيدني، قال الله -جل وعز-: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ١، ٢] معناه: لكي يغفر لك الله، نصبت ((يغفر)) بلام ((كي)).

(١) هو: ابن حِمَاط العكلي. انظر: خزانة الأدب (٤٥٠/٣)، والكتاب لسيبويه (٢٤٩/٢)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٤٧٠/٢).

قال البغدادي في الخزانة: زعم يونس أن من العرب من يقول: النازلون بكل معترك والطيبين. ومن العرب من يقول: ((الظاعنون والقائلين))، فنصبه كنصب الطيبين، إلا أن هذا شتم لهم وذم، كما أن =

وكلّ قومٍ أطَاعُوا أمرَ مُرْشِدهُم إلاّ نُمَيْراً أَطَاعَتْ أمرَ غَاوِيهَا
الـــظَّاعِنِينَ وَلَمَّا يُظْعِنُوا أَحَداً والقَائِلونَ لِمَنْ دارٌ نُخلِّيهَا

فيجوز أن ينصب ((الظاعنين)) على ضربين: على أنه تابع ((نميراً)) وعلى الذم كأنه قال: اذكر الظاعنين ولك أن ترفع تريد: هم الظاعنون وكذلك لك في ((القائلين)) النصب والرفع ولك أن ترفعها جميعاً ولك أن تنصبهما جميعاً ولك أن ترفع الأول وتنصب الثاني ولك أن تنصب الأول وترفع الثاني، لا خلاف بين النحويين فيما وصفنا[1].

=

الطيبين مدح لهم وتعظيم. وإن شئت أجريت هذا كله على الاسم الأول، وإن شئت ابتدأته جميعاً، فكان مرفوعاً على الابتداء. كل هذا جائز في هذين البيتين وما أشبههما.

(١) ونجمل إعراب البسملة ونضيف على ما قاله الزجاج ما قالوه في إعرابها، فقد قال العكبري: ((الباء)) في بسم متعلقة بمحذوف، فعند البصريين المحذوف مبتدأ والجار والمجرور خبره، والتقدير ((ابتدائي بسم الله)) أي: كائن باسم الله، فالباء متعلقة بالكون والاستقرار، وقال الكوفيون: المحذوف فعل تقديره: ((ابتدأت أو أبدأ)) فالجار والمجرور في موضع نصب بالمحذوف، وحذفت الألف من الخط لكثرة الاستعمال، فلو قلت: ((باسم ربك)) اثبت الألف في الخط، وقيل: حذفوا الألف لأنهم حملوه على سم وهي لغة في ((اسم)) ولغاته خمس: ((سِم)) بكسر السين وضمها، ((واسِم)) بكسر الهمزة وضمها، ((وسمى)) مثل: ((ضحى)).

فإن قيل: كيف أضيف الاسم إلى ((الله))، و ((الله)) هو الاسم، قيل في ذلك ثلاثة أوجه؛ أحدها: أن الاسم هنا بمعنى التسمي، والتسمي غير الاسم، لأن الاسم هو اللازم للمسمى، والتسمي هو التلفظ بالاسم. والثاني: أن في الكلام حذف مضاف تقديره: ((باسم مسمى الله)). والثالث: أن اسم زيادة. والأصل في ((الله)): ((الالاه)) فألقيت حركة الهمزة على لام المعرفة، ثم سكنت وأدغمت في اللام الثانية، ثم فخمت إذا لم يكن قبلها كسرة، ورققت إذا كانت قبلها كسرة، ومنهم من يرققها في كل حال، والتفخيم في هذا الاسم من خواصه، وقال أبو علي: همزة ((الاه)) حذفت حذفاً من غير إلقاء، وهمزة ((الاه)) أصل، وهو من: ((أله يأله)) إذا عُبد ((فالأله)) مصدر في موضع المفعول، أي: ((المألوه)) وهو المعبود، وقيل: أصل الهمزة: ((واو)) لأنه من ((الوله))، فالإله تتوله إليه القلوب، أي: تتحير، وقيل: أصله: ((لاه)) على فعل وأصل الألف ياء لأنهم قالوا في مقلوبة: ((لهي أبوك)) ثم أدخلت عليه الألف واللام.

((الرحمن الرحيم)) صفتان مشتقتان من الرحمة والرحمن من أبنية المبالغة، وفي ((الرحيم)) مبالغة أيضاً إلا أن ((فعلانا)) أبلغ من ((فعيل))، وجرهما على الصفة، والعامل في الصفة هو العامل في الموصوف، وقال الأخفش: العامل فيها معنوي، وهو: كونها تبعاً، ويجوز نصبهما على إضمار: ((أعني))، ورفعهما على تقدير: ((هو)).

انظر: التبيان في إعراب القرآن (١/١)، ومشكل إعراب القرآن (١/٦٤).

سورة[1] الحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

معنى ﴿الْحَمْدُ﴾ الشكر والثناء على الله تعالى.

﴿الْحَمْدُ﴾ رفع بالابتداء وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ إخبار عن الحمد والاختيار في الكلام الرفع فأما القرآن فلا يقرأ فيه ﴿الْحَمْدُ﴾ إلا الرفع لأن السنة تتبع في القرآن ولا يلتفت فيه إلى غير الرواية الصحيحة التي قد قرأ بها القراء المشهورون بالضبط والثقة والرفع القراءة ويجوز في الكلام أن تقول «الحمدَ» تريد: أَحْمَدُ الله فاستغنيت عن ذكر «أَحْمَدُ» لأن حال الحمد يجب أن يكون عليها الخلق ألا ترى أن الرفع أحسن وأبلغ في الثناء على الله -عز وجل-.

وقد روي عن قوم من العرب: «الحمدَ لله» و «الحمدِ لله» وهذه لغة من لا يلتفت إليه ولا يتشاغل بالرواية عنه.

وإنما تشاغلنا نحن برواية هذا الحرف لنحذر الناس من أن يستعملوه أو يظن جاهل أنه يجوز في كتاب الله -عز وجل- أو في كلام ولم يأت لهذا نظير في كلام العرب، ولا وجه له.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قد فسرنا أنه لا يجوز في القرآن إلا ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وإن كان الرفع والنصب جائزين في الكلام ولا يتخير لكتاب الله -عز وجل- إلا اللفظ الأفضل الأجزل.

---

(١) السورة يحتمل أن يكون معناها: الرفعة من سورة البناء فكأنها منزلة شرف فلا يجوز همزها ويحتمل أن يكون معناها قطعة من القرآن من قولك أسأرت في الإناء أي: أبقيت فيه بقية فيجوز همزها على هذا، وقد أجمع القراء على ترك همزها فتحتمل الوجهين جميعاً.

انظر: مشكل إعراب القرآن (٦٨/١).

وقوله -عز وجل-: ﴿العَالَمِينَ﴾[1] معناه كل ما خلق الله كما قال: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٦٤] وهو جمع عالم تقول: ((هؤلاء عالمون ورأيت عالمين)) ولا واحد ((لعالم)) من لفظه لأن عالماً جمع لأشياء مختلفة وأن جعل ((عالم)) لواحد منها صار جمعاً لأشياء متفقة.

والنون فتحت في ﴿العَالَمِينَ﴾ لأنها نون الجماعة، وزعم سيبويه أنها فتحت ليفرق بينها وبين نون الاثنين تقول: ((هذان عالمان)) -يا هذا-[2] فتكسر نون الاثنين لالتقاء الساكنين وهذا يشرح في موضعه -إن شاء الله- وكذلك نون الجماعة فتحت لالتقاء الساكنين ولم تكسر لثقل الكسرة بعد الواو والياء، ألا ترى أنك تقول: ((سوف أفعل)) فتفتح الفاء من ((سوف)) لالتقاء الساكنين ولم تكسر لثقل الكسرة بعد الواو وكذلك تقول: ((أين زيد ؟)) فتفتح النون لالتقاء الساكنين بعد الياء.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

القراءة الخفض على مجرى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وإن نصب -في الكلام- على ما نصب عليه ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جاز في الكلام فأما في القراءة فلا أستحسنه فيها وقد يجوز أن تنصب ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ على النداء في الكلام كما تقول: ((الحمد لله يا رب العالمين)) ((ويا مالك يوم الدين)) كأنك بعد أن قلت: ((الحمد لله)) قلت: ((لك الحمدُ يا رب العالمين ويا مالك يوم الدين)).

وقرئ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وإنما خص يوم الدين والله -عز وجل- يملك كل شيء لأنه اليوم الذي يضطر فيه المخلوقون إلى أن يعرفوا أن الأمر كله لله ألا تراه يقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[غافر: ١٦] وقوله: ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً﴾[الانفطار: ١٩] فهو اليوم الذي لا يملك فيه أحد لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً.

---

(١) ((العالمين)) جمع تصحيح واحدة عالم والعالم اسم موضوع للجمع ولا واحد له في اللفظ واشتقاقه من العلم عند من خص العالم بمن يعقل، أو من العلامة عند من جعله لجميع المخلوقات وفي ((الرحمن الرحيم)) الجر والنصب والرفع وبكل قرىء.

انظر: التبيان في إعراب القرآن (١/٥).

(٢) سيقع ذلك كثيراً من المصنف، وهو على ما يبدو تنبيه منه لمن يعلمه ويملي عليه هذه القواعد، وجائز أن يكون خطاباً لكل من يطالع كلامه، وقع بدلاً منها: -يا فتى- أيضاً.

ومن قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فعلى قوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وهو بمنزلة من المالكُ اليوم.

ومن قرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فعلى معنى «ذو المملكة» في يوم الدين وقيل: إنها قراءة النبي ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ «الدين» في اللغة: الجزاء يقال: «كما تدين تدان» المعنى: كما تعمل تعطى وتجازى قال الشاعر[1]:

اعلم وأيقن أن ملكك زائل ... واعلم بأن كما تدين تدان

أي: تجازى بما تفعل «والدين» أيضاً في اللغة: العادة تقولُ العربُ: «ما زال ذلك ديني» أي: عادتي[2].

قال الشاعر[3] [من الوافر]:

---

(١) هو: يزيد بن عمرو بن نفيل الكلابي، وقالوا في نسبه: يزيد بن الصعق الكلابي واسم الصعق عمرو بن خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. وقيل: إن الصعق هو خويلد بن نفيل والصعق لقب. وذلك أنه أصابته صاعقة وهو الذي أسر رؤبة بن رومانس أخا النعمان بن المنذر لأمه. لا يعلم له سنة مولد ولا وفاة.
انظر ترجمته في: الأعلام (يزيد بن الصعق).

(٢) ولأهمية مادة «الدين» لغة نقول: الدِّين لغةً المُلك والحُكم والتدبير، من دانهُ ديناً أي مَلَكَهُ وحكمه وساسه ودبَّره، وقهره، وحاسبه، وجازاه وكافأه. من ذلك: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، أي يوم الحسَاب والجزاء. وفي الحديث: «الكيِّس من دان نفسه» أي حكمها وضبطها. ودان له أي: أطاعه وخضع له، فالدين هنا هو الخضوع والطاعة. ودان بالشيء أي اتخذه دينًا ومذهبًا، فالدين هنا هو المذهب والعقيدة.
أما في الاصطلاح كما عرَّفه الإسلاميون بأنه: وضع إلهي سايق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل.
ودين الإسلام. هو دين الله الخالد، ورسالته للناس كافةً، وقد ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي في الجزيرة العربية.كان سكان الجزيرة قبل الإسلام يعبدون الأصنام، ويتخذونها وسائط تقربهم إلى الله زلفى، فجاء الإسلام بالدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك.

(٣) هو المثقب العبدي، واسمه: العائذ بن محصن بن ثعلبة، من بني عبد القيس، من ربيعة: شاعر جاهلي، من أهل البحرين. اتصل بالملك عمرو بن هند، وله فيه مدائح. ومدح النعمان بن المنذر. وشعره جيد فيه حكمة ورقة، جمع بعضه في ديوان
=

تَقولُ إِذا دَرَأتُ لَها وَضيني أَهَذا دِينُهُ أَبَداً وَديني

وقوله -عز وجل-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع(١) يقال: «هذا طريق معبد» إذا كان مذللاً بكثرة الوطء «وبعير معبدُ» إذا كان مطلياً بالقطران فمعنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: إياك نطيع الطاعة التي نخضع معها وموضع ﴿إِيَّاكَ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه وموضع الكاف في ﴿إِيَّاكَ﴾ خفض بإضافة «إيا» إليها و«إيا» اسم للمضمر المنصوب إلا أنه يضاف إلى سائر المضمرات نحو: «إياك ضربت، إياه ضربت وإياي حدثت» ولو قلت: «إيا زيد» كان قبيحاً لأنه خص به المضمر وقد روي عن بعض العرب -رواه الخليل-: «إذا بلغ الرجل الستين فَإِياه وإِيَّا الشَّوابِّ».

ومن قال إن ﴿إِيَّاكَ﴾ بكماله الاسم قيل له: لم نر اسماً للمضمر ولا للمظهر يُضاف وإنما يتغير آخره ويبقى ما قبل آخره على لفظ واحد والدليل على إضافته قول العرب: «إذا بلغ الرجل الستين فَإِياه وإِيَّا الشَّوابِّ» -يا هذا-، وإجراؤُهم الهاء في إياه مجراها في عصاه.

انظر ترجمته في: جمهرة الأنساب (ص: ٢٨١)، والشعر والشعراء (ص: ١٤٧)، وخزانة الأدب (٤٣١/٤) والأعلام (المثقب العبدي).

(١) العبادة الاسم من التّعبّد مصدر تعبّد، يقال: تعبّد الرّجلُ الرّجل: إذا اتّخذه عبداً، أو صيّره كالعبد. وتعبّد الله العبدَ بالطّاعة: استعبده، أي طلب منه العبادة.

ومعنى العبادة في اللّغة: الطّاعة والخضوع. ومنه طريق معبّد: إذا كان مذلّلاً بكثرة المشي فيه.

ويرد التّعبّد في اللّغة أيضاً بمعنى: التّذلّل، يقال: تعبّد فلان لفلان: إذا خضع له وذلّ. وبمعنى التّنسّك، يقال: تعبّد فلان لله تعالى: إذا أكثر من عبادته، وظهر فيه الخشوع والإخبات.

والتّعبّد من الله للعباد: تكليفهم أمور العبادة وغيرها.

ويكثر الفقهاء والأصوليّون من استعماله بهذا المعنى، كقولهم: نحن متعبّدون بالعمل بخبر الواحد وبالقياس، أي مكلّفون بذلك. ويقولون: كان النّبيّ ﷺ متعبّداً بشرع من قبله، أي مكلّفاً بالعمل به.

والتّعبّديّات -في اصطلاح الفقهاء والأصوليّين- تطلق على أمرين:

الأوّل: أعمال العبادة والتّنسّك. ويرجع لمعرفة أحكامها بهذا المعنى.

الثّاني: الأحكام الشّرعيّة الّتي لا يظهر للعباد في تشريعها حكمة غير مجرّد التّعبّد، أي التّكليف بها لاختبار عبوديّة العبد، فإن أطاع أثيب، وإن عصى عوقب. أمّا مصلحته الأخرويّة -من دخول جنّة الله تعالى والخلاص من عذابه- فهي ملازمة لتلبية كلّ أمر أو نهي، تعبّديّا كان أو غيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الأصل في ﴿نَسْتَعِينُ﴾: نستعون لأنه إنما معناه من المعونة والعون، ولكن الواو قلبت ياء لثقل الكسرة فيها ونقلت كسرتها إلى العين وبقيت الياء ساكنة لأن هذا من الإعلال الذي يتبع بعضه بعضاً نحو: «أعان يعين، وأقام يقيم» وهذا يشرح في مكانه شرحاً مستقصى -إن شاء الله-.

قوله -عز وجل-:﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

معناه: المنهاج الواضح قال الشاعر [من الوافر]:

أَميرُ المُؤمِنينَ عَلى صِراطٍ إِذا اِعوَجَّ المَوارِدُ مُستَقيمِ[1]

أي: على طريق واضح.

ومعنى ﴿اهْدِنَا﴾ وهم مهتدون: ثبتنا على الهدى، كما تقول للرجل القائم: «قم لي حتى أعود إليك» تعني: اثبت لي على ما أنت عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ صفة لقوله -عز وجل-: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ولك في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ضم الهاء وكسرها؛ تقول: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ و﴿عَلَيْهُمْ﴾ وعلى هاتين اللغتين معظم القراء ويجوز: «عليهمو» بالواو، والأصل في هذه الهاء في قولك: «ضربتهو يافتى، ومررت بهو يا فتى» أن يتكلم بها في الوصل بواو فإذا وقفت قلت: «ضربته ومررت به».

وزعم سيبويه أن الواو زيدت على الهاء في المذكر كما زيدت الألف في المؤنث في قولك: «ضربتها ومررت بها» ليستوي المذكر والمؤنث في باب الزيادة.

والقول في هذه الواو عند أصحاب سيبويه والخليل: أنها إنما زيدت لخفاء الهاء؛ وذلك أن الهاء تخرج من أقصى الحلق والواو بعد الهاء أخرجتها من الخفاء إلى الإبانة فلهذا زيدت وتسقط في الوقف كما تسقط الضمة والكسرة في قولك: «أتاني زيد» إلا أنها واو وصل فلا تثبت لئلا يلتبس الوصل بالأصل، فإذا قلت: «مررت بهو يا فتى» فإن شئت

---

(١) انظر: معاني القرآن للنحاس (١/٦٨).

قلت: ((مررت بهي)) فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها أعني الياء المنكسرة فإن قال قائل: بين الكسرة والواو: الهاء ؟ قيل: الهاء ليست بحاجز حصين فكأن الكسرة تلي الواو ولو كانت الهاء حاجزاً حصيناً ما زيدت الواو عليها، وقد قرئ: ((فخسفنا بِهِي وبدارِهِي الأرض)) و((بِهِوُ وبدارِهُو الأرض))[1] من قراءة أهل الحجاز فإن قلت: ((فلان عليه مال)) فلك فيه أربعة أوجه: إن شئت كسرت الهاء وإن شئت أثبت الياء وفي الضم إن شئت ضممت الهاء وإن شئت أثبت الواو فقلت: ((عليهِ وعليهي وعليهُ وعليهو مال)).

وأما قوله -عز وجل-: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[الأعراف: ١٧٦] وقوله: ﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾[آل عمران: ٧٥] فالقراءة بالكسر بغير ياء في ﴿عَلَيْهِ﴾ وهي أجود هذه الأربعة ولا ينبغي أن يقرأ بما يجوز إلا أن تثبت به رواية صحيحة أو يقرأ به كثير من القراء فمن قال: ((عليهُ مال)) بالضم فالأصل فيه: ((عليهو مال)) ولكن حذف الواو لسكونها وسكون الياء واجتماع ثلاثة أحرف متجانسة وترك الضمة لتدل على الواو ومن قال: ((عليهو)) فإنما أثبت الواو على الأصل ويجعل الهاء حاجزاً وهذا أضعف الوجوه لأن الهاء ليست بحاجز حصين ومن قال: ((عليهِ مال)) فإنما قدر: ((عليهي مال)) فقلب الواو ياء للياء التي قبلها ثم حذف الياء لسكونها وسكون الياء التي قبلها كما قلبت الواو في قوله: ((مررت به يا فتى)) ومن قال: ((عليهي مال)) فالحجة في إثبات الياء كالحجة في إثبات الواو، ألا ترى أن: ((عليهي مال)) أجود من: ((عليهو مال))، وأجود اللغات ما في القرآن وهو قوله: ﴿عَلَيْهِ قَائِماً﴾ والذي يليه في الجودة: ((عليهُ مال)) بالضم ثم: ((عليهو مال)) بإثبات الواو وهي أردأ الأربعة.

فأما قولهم ((عليهُم)) فأصل الهاء فيما وصفنا أن تكون معها ضمة إلا أن الواو قد سقطت وإنما تكسر الهاء للياء التي قبلها وإنما يكون ما قبل ميم الإضمار مضموماً فإنما أتت هذه الضمة لميم الإضمار وقلبت كسرة للياء، وإنما كثر ((عليهِم)) في القرآن ((وعليهُم)) ولم يكثر ((عليهمي)) و((عليهمو)) لأن الضمة التي على الهاء من ((عليهُم)) للميم فهي أقوى في الثبوت ألا ترى أن هذه الضمة تأتي على الميم في كل ما لحقته الميم نحو: ((عليكُم وبكُم ومنكُم)) ولا يجوز في ((عليكم)): ((عليكِم)) بكسر الكاف، لأن الكاف

---

(١) والقراءة في الآية ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾[القصص: ٨١]، وقد أوضح الزجاج أن أصحاب القراءتين الذي أشار إليهما هم أهل الحجاز، وأبو عمرو يقرأ بإمالة ﴿وَبِدَارِهِ﴾.

حاجز حصين بين الياء والميم فلا تقلب كسرة وقد روي عن بعض العرب: ((عليكِم)) و((بكِم)) بكسر الكاف، ولا يلتفت إلى هذه الرواية وأنشدوا [من الطويل]:

وَإن قالَ مَولاهُم عَلى جُلِّ حادِثٍ مِنَ الأَمرِ رُدّوا فَضلَ أَحلامِكُم رَدّوا[1]

-بكسر الكاف-، وهذه لغة شاذة والرواية الصحيحة: ((فضل أحلامكم)) وعلى الشذوذ أنشد ذلك سيبويه.

فأما ((عليهمو)) فأصل الجمع أن يكون بواو ولكن الميم استغنى بها عن الواو والواو تثقل على ألسنتهم حتى أنه ليس في أسمائهم اسم آخره واو وقبلها حركة فلذلك حذفت الواو فأما من قرأ ((عَلَيْهِمُوْا وَلاَ الضَّالِّينَ)) فقيل: ولا ينبغي أن يقرأ إلا بالكثير وإن كان قد قرأ به قوم أقل من الحذف بكثير في لغة العرب.

وقوله -عز وجل-: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ فيخفض ﴿غَيْرِ﴾ على وجهين:

على البدل من ﴿الَّذِينَ﴾ كأنه قال: ((صراط غير المغضوب عليهم)) ويستقيم أن يكون ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ من صفة ﴿الَّذِينَ﴾ وإن كان ﴿غَيْرِ﴾ أصله أن يكون في الكلام صفة للنكرة تقول: ((مررت برجل غيرك)) فغيرك صفة لرجل كأنك قلت: ((مررت برجل آخر)) ويصلح أن يكون معناه: مررت برجل ليس بك، وإنما وقع ههنا صفة للذين لأن ﴿الَّذِينَ﴾ ههنا ليس بمقصود قصدهم فهو بمنزلة قولك: ((إني لأمر بالرجل مثلك فأكرمه)).

ويجوز نصب ﴿غَيْرِ﴾ على ضربين: على الحال وعلى الاستثناء فكأنك قلت: إلا المغضوب عليهم وحق ﴿غَيْرِ﴾ من الإعراب في الاستثناء النصب إذا كان ما بعد إلا منصوباً فأما الحال فكأنك قلت فيها: ((صراط الذين أنعمت عليهم لا مغضوباً عليهم)).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾؛ فإنما عطف بـ﴿الضَّالِّينَ﴾ على ﴿المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإنما جاز أن يقع ((لا)) في قوله تعالى: ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ لأن معنى ﴿غَيْرِ﴾ متضمن معنى النفي يجيز النحويون: ((أنت زيداً غير ضارب)) لأن زيداً من صلة ضارب فلا يتقدم عليه.

وقول القائلين بعد الفراغ من الحمد ومن الدعاء ((آمين)) فيه لغتان.

تقول العرب: ((أَمين وآمين)) قال الشاعر:

---

(١) انظر: إتفاق المباني وافتراق المعاني (١/١٤١)، والأغاني (٢/١٧٠)، وأيضاً: (٢/١٩١).

تباعَدَ منِّي فُطْحُلٌ إذ سألْتُه أَمينَ فزادَ اللهُ مَا بيْننا بُعْدا(١)

وقال الشاعر أيضاً [من البسيط]:

يا رَبُّ لا تَسلُبَنّي حُبَّها أَبَداً وَيَرحَمُ اللهُ عَبداً قالَ آمينا(٢)

ومعناه: اللهم استجب وهما موضوعان في موضع اسم الاستجابة كما أن قولنا: ((صه)) موضوع موضع سكوتاً، وحقهما من الإعراب الوقف؛ لأنهما بمنزلة الأصوات إذ كانا غير مشتقين من فعل، إلا أن النون فتحت فيهما لالتقاء الساكنين فإن قال قائل: ألا كُسرت النون لالتقاء الساكنين ؟ قيل: الكسرة تثقل بعد الياء ألا ترى أن أين وكيف فتحتا لالتقاء الساكنين ولم تكسرا لثقل الكسرة بعد الياء(٣).

---

(١) انظر: إصلاح المنطق (١/١٧٩).

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) وفي ختام السورة الكريمة نورد ملخص لفضائلها فنقول:

سورة الفاتحة من سور القرآن الكريم المكية، ترتيبها في المصحف الشريف الأولى، عدد آياتها سبع آيات، جاءت تسميتها الفَاتِحَة لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول، وقد عُرفت بأسماء أخرى فهي أم الكتاب، والسبع المثاني، والشافية، والوافية، والكافية، والأساس، والحمد.

افتتح الله تعالى هذه السورة ببسم الله الرحمن الرحيم، وافتتح بها كل سورة من سور القرآن، ما عدا سورة التوبة، ليرشد المسلمين إلى أن يبدؤوا أعمالهم وأقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم، التماسًا لمعونته وتوفيقه، ومخالفته للوثنيين الذين يبدؤون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم.

الفاتحة على قصرها ووجازتها قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة والعبادة والتشريع، والاعتقاد باليوم الآخر، والإيمان بصفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء، والتوجه إليه جلّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين.

ولسورة الفاتحة فضل عظيم لما احتوته، روي أن رسول الله قال لأبيّ بن كعب: ((والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)) رواه البخاري في الصحيح وأحمد في المسند والترمذي في السنن. وقال لأبي سعيد بن المعلّى: ((لأعلمنّك سورة هي أعظم السور في القرآن: الحمد لله ربّ العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)) رواه البخاري وأحمد.

سورة البقرة(١)

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة البقرة من سور القرآن الكريم المدنية، ترتيبها في المصحف الشريف الثانية. عدد آياتها ست وثمانون ومائتا آية. جاءت تسميتها البقرة إحياء لذكرى تلك المعجزة الباهرة، التي ظهرت في زمن موسى الكليم، حيث قُتِل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعلّه يعرف القاتل، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله، ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهانًا على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت. روي عن رسول الله أنه قال: ((لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة))، وقال: ((اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة)) والبطلة هم السحرة.

سورة البقرة أطول سور القرآن على الإطلاق، وهي من السور المدنية التي تُعنَى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السور المدنية، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية.

اشتملت السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية: في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج، والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام الشرعية. وتناولت الحديث عن صفات المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، فوضحت حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر والنفاق. ثم تحدثت عن بدء الخليقة، فذكرت قصة أبي البشر آدم عليه السلام. ثم تحدثت السورة بالإسهاب عن أهل الكتاب، وبوجه خاص بني إسرائيل اليهود لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة، من اللؤم، والغدر، والخيانة، ونقض العهود والمواثيق.

بقية السورة تحدثت عن جانب التشريع لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين الدولة الإسلامية، وهم في أمسّ الحاجة إلى المنهاج الرباني، والتشريع السماوي، الذي يسيرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات، ولذا فإن جماع السورة يتناول الجانب التشريعي: أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل، وأحكام الحج والعمرة، وأحكام الجهاد في سبيل الله، وشؤون الأسرة، وما يتعلّق بها من الزواج، والطلاق، والرضاع، والعدة، وتحريم نكاح المشركات، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض. ثم تحدثت السورة عن جريمة الربا وملابساتها، ثم أعقب ذلك التحذير من أهوال يوم القيامة، وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة، والتضرع إلى الله جلّ وعلا، وطلب النصرة على الكفار، والدعاء لما فيه سعادة الدارين: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٨٦]. وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تبارك وتعالى: ﴿الم﴾.

زعم أبو عبيدة -معمر بن المثنى- أن حروف الهجاء: افتتاح كلام وكذلك: ﴿المر﴾ و﴿المص﴾ وزعم أبو الحسن الأخفش[1] أنها افتتاح كلام، ودليل ذلك أن الكلام الذي ذكر قبل السورة قد تم.

وزعم قطرب[2] أن: ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ و﴿المر﴾ و﴿كهيعص﴾ و﴿ق﴾ و﴿يس﴾

---

(١) هو: سعيد بن مسْعَدة، المجاشعي بالولاء، البلخي، البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط. نحوي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ. سكن البَصْرة، وأخذ النحو عن سيبويه وإن كان أكبر منه سناً، وعاش مع الخليل، وقد عرف واشتهر بلقب الأخفش الأوسط، وقد كان وفياً لأستاذه سيبويه أشد الوفاء.

كان سعيد بن مسعدة من أئمة نحاة البصرة، وقد تتلمذ عليه من أئمة البصريين بعد وفاة سيبويه أبو عمر الجرمي، و أبو عثمان المازني، وقد أتاح ذلك للأخفش تناول كتاب سيبويه وشرحه بإسهاب.

وكان الأخفش بجوار علمه بالنحو واللغة والغريب عالماً بالعروض وأوزانه وقوافيه، منافساً للخليل في ذلك، وألف فيه كتابين هما ((كتاب العروض))، و((كتاب القوافي))، وزاد على أبحر الخليل بحراً هو: ((الخبب)). وقد وصف الأخفش في كثير من المراجع بأنه كان قدرياً، وأنه كان من تلاميذ أبي شمر - أحد أئمة القدرية، صنف كتباً منها: ((تفسير معاني القرآن))، ((شرح أبيات المعاني))، ((الاشتقاق))، ((معاني الشعر))، ((كتاب الملوك، ((المسائل)) الكبير، و ((المسائل الصغير))، وغير ذلك.

وقد قال ثعلب بعد أن قرأ كتابه -المسائل-: ((رجل أشرف على بحر فهو يتكلم منه بما يريد)).

وقد توفي الأخفش سنة (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م).

انظر ترجمته في: معجم الأدباء (٣/٣٨٢)، وَفَيات الأعيان (٢/٣٨٠: ٣٨١)، والأعلام (٣/١٠٢).

(٢) هو: محمد بن المُسْتَنِير بن أحمد، أبو علي، الشهير بـ ((قطرب))، نحوي، عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة، من الموالي، كان يرى رأي المعتزلة النَّظَّاميّة، وهو أول من وضع المثلث في اللغة. من تلاميذ سيبويه، لازمه في مجالسه نهاراً وأطال الوقوف حول داره ليلاً، فلقبه سيبويه بهذا الاسم فقال له يوماً: ((ما أنت إلا قطرب ليل)). وقطرب هو اسم دويبة لا تزال تدب ولا تفتر. وكان تواقاً للجلوس في مجالس العلماء وحلقات علمهم ودرسهم، حريصاً على الاستماع إليهم، حافظاً للغة، كثير النوادر والغرائب، وقد حرص على مجلس سيبويه، كما حرص على مجلس يونس بن حبيب حتى عرف بتلميذ سيبويه تاره وتلميذ يونس تارة أخرى.

=

و﴿نون﴾ حروف المعجم؛ ذكرت لتدل على أن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف المقطعة التي هي حروف ((أ - ب - ت - ث)) فجاء بعضها مقطعاً وجاء تماماً مؤلفاً ليدل القوم الذين نزل عليهم القرآن أنه بحروفهم التي يعقلونها لا ريب فيه.

ويروى عن الشعبي[1] أنه قال: ((لله في كل كتاب سر، وسره في القرآن حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور))[2].

ويعتبر قطرب من أئمة اللغة فقد اشتهر بذكائه وعلمه في مجلس سيبويه ويونس، وكان قطرب حجة في الاشتقاق وكتاباه المثلث والأضداد شاهدان بهذا، ويعتبر قطرب بحق رائداً من رواد الاشتقاق الذين فتحوا باب التأليف فيه وعنه أخذ تلاميذ كثيرون كان أبرزهم محمد بن الجهم السمري وأبا القاسم المهلبي.

وكان قطرب يذهب مذهب الاعتزال ويتبع النظام ويقول بمذهبه مما جعل العلماء يختلفون حول الثقة فيه فبعضهم يعتبره ثقة في كل ما يمليه وبعضهم لا يعتبره ممن يوثق بهم، على أن الرجل بالرغم مما رمي به قد فتح للعربية أبواباً دخل منها العلماء بعده وفتح آفاقاً جديدة أمام الباحثين والدارسين في كثير من أبواب اللغة، وأتى بآراء لغوية تعتبر جديدة في عصره.

وكانت وفاة قطرب سنة (٢٠٦ هـ = ٨٢١: ٨٢٢ م)، وقد خلف من الآثار كتاب ((معاني القرآن))، و((النوادر، و ((الأزمنة، و((الأضداد)) و ((خَلْق الإنسان))، و ((ما خالف فيه الإنسان البهيمية الوحوش وصفاتها))، و ((غريب الحديث))، وغير ذلك.

انظر ترجمته في: وَفَيات الأعيان (٣١٢/٤: ٣١٣)، وشذرات الذهب (١٥/٢: ١٦)، وتاريخ بغداد (٢٩٨/٣: ٢٩٩)، وطبقات النحويين واللغويين (ص ٩٩: ١٠٠)، والأعلام (٩٥/٧).

(١) هو عامر بن شَرَاحِيل بن عبد ذي كِبَار، الشَّعْبي، الحِمْيَرِيّ، أبو عمرو. كان علامة أهل الكوفة، محدثاً، حافظاً، مؤرخاً، إماماً، يُضْرَبُ به المثل في حفظه، ذا فنونٍ. كان يمنيّ الأصل، ولد سنة (١٩ هـ = ٦٤٠ م)، بالكوفة لأحد القراء، ونشأ ومات فجأة بالكوفة سنة (١٠٣ هـ = ٧٢١ م)، وقد أدرك خلقاً من الصحابة، وروى عنهم، وعن جماعة من التابعين، وعنه أيضاً روى جماعة من التابعين، تتلمذ له أبو حنيفة، وذكره أبو يوسف في كتابه الخراج.

وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز، وكان فقيها شاعراً. وقد اختلفوا في اسم أبيه فقيل شَرَاحيل، وقيل: عبد الله. واشتهر بالشعبي نسبة إلى شَعْب وهو بطن من هَمْدَان. ومن أقواله: العلم أكثر من عدد الشعر فخذ من كل شيء أحسنه. وفي علمه قال مكحول: ما رأيت أحداً أعلم من الشعبي.

انظر ترجمته في: تاريخ بغداد (٢٢٧/١٢: ٢٣٤)، والبداية والنهاية (٢٥٨/٩)، وسير النبلاء (٢٩٤/٤: ٣١٩)، والأعلام (٢٥١/٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢٠/١٥)، ومعاني القرآن (٧٧/١)، وزاد المسير (٢٠/١).

ويروى عن ابن عباس ثلاثة أوجه في ﴿الم﴾ وما أشبهها[١]:

فوجه منها: أنه قال: ((أقسم الله بهذه الحروف أن هذا الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ هو الكتاب الذي عنده -عز وجل- لا شك فيه))[٢].

والقول الثاني عنه أن: ﴿الر﴾ و﴿حم﴾ و﴿نون﴾ اسم الرحمن -عز وجل- مقطع في اللفظ موصول في المعنى.

والثالث عنه: أنه قال: ﴿الم﴾ معناه أنا الله أعلم و﴿الر﴾ معناه: أنا الله أرى و﴿المص﴾ معناه: أنا الله أعلم وأفصل، و﴿المر﴾ معناه: أنا الله أعلم وأرى.

فهذا جميع ما انتهى إلينا من قول أهل اللغة والنحويين في معنى ﴿الم﴾ وجميع ما انتهى إلينا من أهل العلم والتفسير.

ونقول في إعراب ﴿الم﴾ و﴿الر﴾ و﴿كهيعص﴾ وما أشبه هذه الحروف -هذا باب التهجي-[٣].

---

(٢) نقله أيضاً ابن منظور في لسان العرب (٢٠/١) ط.دار إحياء التراث العربي.

(٢) انظر: تفسير النسفي (٩/١).

(٤) يشير إلى تسمية هذه الحروف وما اصطلح عليه أهل اللغة من أنها ((حروف التهجي)).

قال القلقشندي في صبح الأعشى (٢١/٣): اعلم أنا لما كنا بحمد الله أمة وسطاً خير أمة أخرجت للناس، وكان خير الأمور أوساطها، وكانت حروف اللغات ما بين أربعة وعشرين حرفاً إلى ستة وثلاثين كانت حروف الكلام العربي التي بها رقم القرآن الكريم ثمانية وعشرين حرفاً في اللفظ متوسطة بين حروف اللغات، وهي: ((أ ب ت ث... إلى آخره))، وتسمى حروف الهجاء وحروف التهجي، ويسميها سيبويه والخليل: حروف العربية، أي: حروف اللغة العربية، وهي التي يتركب منها الكلام العربي، وتسمى أيضاً حروف المعجم، إما لأنها مقطعة لا تفهم إلا بإضافة بعضها إلى بعض، وإما لأن منها ما ينقط النقط المعروف أو تنقط كلها، أي: تشكل إذ النقط قد يكون بمعنى الشكل، وقال بعض أهل اللغة العجم: النقط بالسواد كمثل التاء عليها نقطتان، يقال منه: أعجمت الحروف، ومعناه: حروف الخط المعجم، وبعضهم يجعل المعجم مصدراً بمعنى الإعجام، من: ((أعجمت الشيء)) إذا بينته، فكأنها مبينة للكلام، وتكون الهمزة في أعجمت للإزالة، أي: أزلت عجمته إما بنقطه أو شكله، قال الشيخ عبد الخالق بن أبي القاسم المصري: وإذا اعتبرت سائر اللغات بالتحقيق فلن يزيد ذلك على ثمانية وعشرين حرفاً، يريد غير اللام ألف في الحروف العربية، والقائل بذلك يجعل اللام ألف مركباً من حرفين فلا يعده حرفاً مستقلاً.

=

[فصل] هذا باب حروف التهجي:

وهى: الألف والباء والتاء والثاء وسائر ما في القرآن منها، فإجماع النحويين أن هذه الحروف مبنية على الوقف(١) لا تعرب.

ومعنى قولنا ((مبنية على الوقف)) أنك تقدر أن تسكت على كل حرف منها فالنطق: ((ألف لام ميم)) ذلك.

والدليل على أنك تقدر السكت عليها جمعك بين ساكنين في قولك ((لام)) وفي قولك ((ميم)).

والدليل على أن حروف الهجاء مبنية(٢) على السكت كما بني العدد على السكت: أنك تقول فيها بالوقف مع الجمع بين ساكنين كما تقول إذا عددت: ((واحد اثنان ثلاثة

=

قال علماء الحرف: وجعلت ثمانية وعشرين حرفاً على عدد منازل القمر الثمانية والعشرين، قالوا: ولما كانت المنازل القمرية يظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلة ويغيب تحت الأرض أربع عشرة كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة، وهي: ((الألف والباء والحاء المهملة والخاء المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء والواو والياء المثناة تحت))، تقول: ((الألف والباء والحاء)) فتظهر اللام في لفظك وكذلك في البواقي، وما يندغم منها أربعة عشر حرفاً أيضاً بعدد المنازل الغائبة وهي: ((التاء المثناة من فوق والثاء المثلثة والدال المهملة والذال المعجمة والراء والزاي والسين المهملة والشين المعجمة والصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والظاء المعجمة والنون))، تقول: ((التاء والثاء والدال)) فتخفى في لفظك، وكذلك في البواقي.

وفي خبر أبي ذر ﷺ أنها نزلت على آدم -عليه السلام- تسعة وعشرين حرفاً عد منها اللام ألف وهو الموجود في التصوير، فلا يعول إلا عليه إن صح الحديث، ثم للحروف العربية فروع توجد في اللفظ دون الكتابة مستحسنة ومستقبحة، تبلغ بها الحروف العربية سبعة وأربعين حرفاً ولا يوجد ذلك في لغة أمة من الأمم.

(١) ويقال فيه أيضاً: ((السكت)) وهو ما فسره الزجاج في قوله: ومعنى قولنا ((مبنية على الوقف)). انظر: لسان العرب (٢١/١).

(٢) قال في اللباب علل البناء والإعراب (٩٣/٢): حروف التهجي إذا أردت بها الهجاء فقط مبنيّةٌ لأنها كالعدد من حيث الغرض منها العدّ، فهي كالأصوات فإن أخبرت بها أو عنها أو وصفتها أعربتَها، وما كان آخره ألفاً نحو: ((با تا ثا)) تزيدُ عليه ألفاً أُخرى ليُكمّلَ اسماً ثم تحرِّكُ الثانية فتقلب همزة. وانظر أيضاً: الأصول في النحو (١١٠/٢).

أربعة...)) ولولا أنك تقدر السكت لقلت: ((ثلاثة)) بالتاء كما تقول: ((ثلاثاً)) -يا هذا- فتصير الهاء تاء مع التنوين واتصال الكلام.

وحقها من الإعراب أن تكون سواكن الأواخر، زعم سيبويه[1] أنك أَردتَ أن المعجم حروف يُحكى بها ما في الأسماء المؤلفة من الحروف فجرى مجرى ما يحكى به نحو: ((غاق)) و ((غاق)) -يا فتى-، إنما حَكَى صوت الغراب والدليل أيضاً على أنها موقوفة قول الشاعر[2] [من الرجز]:

أقبَلْتُ مِن عِند زِيَادٍ كالخَرِف تَخُطُ رِجْلايَ بِخَط مُخْتَلِف

تَكْتُبَانِ فِي الطَّرِيْقِ لاَمَ أَلِف[3]

كأنه قال: ((لام ألف)) بسكون ((لام)) ولكنه ألقى حركة همزة ((ألف)) على الميم ففتحها.

قال أبو إسحاق: وشرح هذه الحروف وتفسيرها أنها ليست تجري مجرى الأسماء المتمكنة والأفعال المضارعة التي يجب لها الإعراب، وإنما هي تقطيع الاسم المؤلف الذي لا يجب الإعراب فيه إلا مع كماله فقولك: ((جعفر)) لا يجب أن تعرب منه الجيم ولا العين ولا الفاء ولا الراء دون تكميل الاسم فإنما هي حكايات وضعت على هذه الحروف فإن أجريتها مجرى الأسماء وحدثت عنها قلت: ((هذه كاف حسنة)) ((وهذا كاف حسن)) وكذلك سائر حروف المعجم فمن قال: ((هذه كاف)) أنث لمعنى الكلمة ومن ذكر فلمعنى الحرف والإعراب وقع فيها لأنك تخرجها من باب الحكاية.

قال الشاعر:

كافاً وميمين وسينا طاسما[4]

---

(٢) انظر: اللسان (١/٢٢).

(٢) هو: أبو النجم العجلي، واسمه: الفضل بن قدامة العجلي، أبو النجم، من بني بكر بن وائل: من أكابر الرجاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر. نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان وولده هشام. قال أبو عمرو بن العلاء: كان ينزل سواد الكوفة، وهو أبلغ من العجاج في النعت. وفاته (١٣٠ هـ).

انظر ترجمته في: الأغاني (١٠/١٥٠)، وسمط اللآلي (ص: ٣٢٨)، وخزانة الأدب (١/٤٩)، والشعر والشعراء (ص: ٢٣٢)، والأعلام (أبو النجم الراجز).

(٣) انظر: الخصائص (٣/٢٩٧)، ومغني اللبيب (١/٤٨٤).

(٤) انظر: سر صناعة الإعراب (٢/٧٨٢).

وقال أيضاً:

* كما بينت كاف تلوح وميمها[١]*

ذكر «طاسما» لأنه جعله صفة للسين وجعل السين في معنى الحرف وقال «تلوح» فأنث «الكاف» ذهب بها مذهب الكلمة؛ قال الشاعر يهجو النحويين -وهو يزيد بن الحكم-[٢]:

إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى أَلْف ووَاو ويَاء لاحَ بَيْنَهُمو جِدَال[٣]

فأما إعراب «أبي جَادٍ» و«هَوزٍ» و«حُطي» فزعم سيبويه أن هذه معروفات الاشتقاق في كلام العرب وهى مصروفة تقول: «علمت أبا جادٍ وانتفعت بأبي جادٍ» وكذلك «هوزٍ» تقول: «نفعني هوز، وانتفعت بهوز» وكذلك: «حطي» وهن مصروفات منونات.

فأما «كلمون» و«سعفص» و«قريشات» فأعجميات تقول: «هذه كلمون» -يا هذا- «وتعلمت كلمون وانتفعت بكلمون» وكذلك «سعفص».

فأما «قريشات» فاسم للجمع مصروفة بسبب الألف والتاء تقول: «هذه قريشات» -يا هذا- «وعجبت من قريشات» -يا هذا-.

ولقطرب قول آخر في ﴿الم﴾ زعم أنه يجوز لَمَّا لَغا القوم في القرآن فلم يتفهموه حين قالوا ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾[فصلت: ٢٦] أنزل ذكر هذه الحروف فسكتوا لما سمعوا طمعاً في الظفر بما يحبون ليفهموا -بعد الحروف- القرآن وما فيه، فتكون الحجة عليهم أثبت إذا جحدوا بعد تَفَهُّم وتعلم[٤].

قال أبو إسحاق: والذي اختاره من هذه الأقوال التي قيلت في قوله -عز وجل-: ﴿الم﴾ بعض ما يروى عن ابن عباس رحمة الله عليه، وهو أن المعنى لـ﴿الم﴾: أنا الله أعلم وأن كل حرف منها له تفسيره، والدليل على ذلك أن العرب تنطق بالحرف الواحد تدل به

---

(١) انظر: الخصائص (٣/٢٩٦)، وسر صناعة الإعراب (٢/٧٨٢).

(٢) هو: يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي البصري، الشاعر المشهور. ومن قال: يزيد بن الحكم بن عثمان بن أبي العاص فقد وهم، فإن عثمان جده أو عم أبيه، أحد الذين أسلموا من ثقيف يوم الطائف. حدث عن عمه عثمان المذكور، وروى عنه معاوية بن قرة وعبد الرحمن بن إسحاق.

انظر ترجمته في: الأعلام (يزيد بن الحكم الثقفي).

(٣) انظر: سر صناعة الإعراب (٢/٧٨٢).

(١) انظر: اللسان (١/٢١).

على الكلمة التي هو منها؛ قال الشاعر[1] :

قُلنَا لَهَا قِفِي قَالَت قَافِ لا تَحْسَبِي أَنَّا نَسِينَا الإيجَافِ[2]

فنطق بقاف فقط يريد: ((قالت أقف)).

وقال الشاعر أيضاً:

نادَهُموا أن الجمُوا ألا تا قَالُوا جَمِيعاً كُلُّهُمْ ألا فَا

تفسيره: نادهموا أن ألجموا ألا تركبون قالوا جميعا: ألا فاركبوا فإنما نطق ((بتاء وفاء)) كما نطق الأول ((بقاف)).

وأنشد بعض أهل اللغة سعد بن مالك[3]:

إنْ شِئْتَ أَشْرَفْنَا كِلانَا فَدَعَا الله رَبا جَهده فَاسْمَعَا

بِالخَيْرِ خَيرات وإن شَرًّا فآى وَلا أُرِيدُ الشَّرَّ إلا أَنْ تَاء

وأنشد النحويون:

بِالخَيْرِ خَيرات وإن شَرًّا فا وَلا أُرِيدُ الشَّرَّ إلا أَنْ تَا

يريدون: إنْ شراً فشرٌ ولا أُريدُ الشرَّ إلا أن تَشَاء.

أنشد جميع البصريين ذلك فهذا الذي اختاره في هذه الحروف والله أعلم بحقيقتها[4].

فأما ﴿ص﴾ فقرأ الحسن[5]:﴿صَادِ وَالْقُرْآنِ﴾[ص: ١]، فكسر الدال، فقال أهل اللغة:

---

(١) هو: أبو وهب الوليد بن عقبة، واسمه: الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيَط بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس بن عبد منافٍ، هو أخو عثمان بن عفان لأمه وأمهما أروى بنت كُريز بن ربيعة بن حبيب، وكناية الوليد أبو وهبٍ، أسلم يوم الفتح هو وأخوه خالد بن عقبةَ، ولاه عثمان على الكوفة فظل فيها حتى شهد عليه أنه يشرب الخمر فعزله عثمان ولما مات عثمان تحول إلى الجزيرة الفراتية واعتزل الفتنة. وفاته كانت (٦١ هـ).

انظر ترجمته في: الأعلام (أبو وهب).

(٢) ذكره الطبري في التفسير (١/٩٠)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/٢١).

(٣) هو: سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة البكري الوائلي: من سراة بنى بكر وفرسانها المعدودين، في الجاهلية. قال البغدادي: له أشعار جياد في كتاب بني قيس بن ثعلبة. قتل في حرب البسوس. وهو صاحب القصيدة الحائية التي أولها: يا بؤس للحرب التي وضعت أراهط فاستراحوا وقال التبريزي: هو جد طرفة بن العبد.

(٤) أورد ابن منظور في اللسان (١/٢١) مما ذكره المصنف البيتين الأولين، وزاد عليه المصنف ههنا ما أنشده بعض أهل اللغة والنحويون.

(٥) هو: الحسن بن يسار البصرى أحد كبار التابعين. وُلِد سنة (٢١ هـ = ٦٤٢ م) فى المدينة لأبوين من الموالي، فقد كان أبوه فارسيًّا، أُسِر فى ميسان بالعراق، وجيء به إلى المدينة، وأصبح مولى لزيد بن

((معناه: صاد القرآن بعملك))؛ أي: تعمده وسقطت الياء للأمر، ويجوز أن تكون كسرت الدال لالتقاء الساكنين إذا نويت الوصل.

وكذلك قرأ عبد الله بن أبي إسحاق[1]:﴿صَادِ وَالْقُرْآنِ﴾ وقرأ أيضاً ﴿قَافِ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[ق: ١] فالكسر في مذهب ابن أبي إسحاق لالتقاء الساكنين.

وقرأ عيسى بن عمر[2]:﴿صَادَ وَالْقُرْآنِ﴾ -بفتح الدال-وكذلك قرأ ﴿نُونَ وَالْقَلَمِ﴾[القلم: ١]، و﴿قَافَ وَالْقُرْآنِ﴾ -بالفتح أيضاً- لالتقاء الساكنين قال سيبويه: إذا ناديت أسحارَّ -والأسحار اسم نبت مشدد الراء - قلت في ترخيمه: ((يا أسحار أقبل)) فَفَتَحْتَ لالتقاء الساكنين، كما اخترت الفتح في قولك: ((عضَّ)) -يا فتى- فاتباع الفتحة الفتحة كاتباع الألف الفتحة ويجوز: ((يا أسحارِ أقبل)) فتكسر لالتقاء الساكنين.

وقال أبو الحسن الأخفش: يجوز أن يكون صاد وقاف ونون أسماءً للسور منصوبة، إلا أنها لا تصرف كما تصرف جملة أسماء المؤنث.

والقول الأول -أعني التقاء الساكنين والفتح والكسر من أجل التقائهما- أقيس لأنه يزعم أنه ينصب هذه الأشياء كأنه قال: ((أَذكر صاد))، وكذلك يجيز في ﴿حم﴾، و﴿طس﴾ النصب و ﴿ياسين﴾ أيضاً على أنها أسماء للسور.

ولوكان قرىء بها لكان وجهه الفتح لالتقاء الساكنين.

=

ثابت، رضي الله عنه. وكانت أمه مولاة لأم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها. شب الحسن بالمدينة، ثم رحل إلى البصرة سنة (٣٨ هـ)، واشترك في الفتوحات التى وقعت في شرقي إيران. وتولى منصب الكاتب في ولاية خراسان إبان خلافة معاوية بن أبي سفيان. تتلمذ الحسن البصري على مجموعة من كبار علماء البصرة، ولما نهل من العلم جلس للتدريس، وتخرج على يديه كثير من العلماء في مختلف فروع المعرفة الإسلامية، يدل على ذلك تصدر اسمه كتب الطبقات التي ترجمت لأعلام المسلمين، فيتصدر اسمه أسماء العلماء الذين بدأت بهم مدرسة السيرة والتاريخ ومذاهب علم الكلام، وأئمة الزهد والوعظ، وأساطين الفصاحة والبلاغة، ورجال الفقه والتفسير، وغيرهم. وتوفي الحسن البصري سنة (١١٠ هـ = ٧٢٨م).

انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي (١/٦٤٧: ٦٤٨)، الأعلام (الحسن البصري).

(١) من الموالي، كان أعلم البصريين في النحو، هجاه الفرزدق. توفي عام (١١٧هـ= ٧٣٥م).

(٢) من أئمة اللغة، أول من هذّب النحو ورتبه، له نحو سبعين مصنفاً احترق أكثرها، وهو شيخ سيبويه. توفي عام (١٤٩ هـ= ٧٦٦م).

فأما ﴿كهعيص﴾ فلا تبين فيها النون مع الصاد في القراءة وكذلك ﴿حم * عسق﴾ لا تبين فيها النون مع السين.

قال الأخفش وغيره من النحويين: لم تبين النون لقرب مخرجها من السين والصاد، فأما ﴿نُونْ وَالْقَلَمِ﴾[القلم: ١] فالقراءة تبين فيها النون مع الواو التي في ﴿وَالْقَلَمِ﴾، وترك التبيين، إن شئت بينت وإن شئت لم تبين فقلت: ﴿نُونْ وَالْقَلَمِ﴾ لأن النون بعدت قليلاً عن الواو.

وأما قوله -عز وجل- ﴿الم * اللَّهُ﴾[آل عمران: ١، ٢] ففي فتح الميم قولان:

أحدهما لجماعة من النحويين وهو: أن هذه الحروف مبنية على الوقف، فيجب بعدها قطع ألف الوصل فيكون الأصل: ﴿أ، ل، م * الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ثم طرحت فتحة الهمزة على الميم وسقطت الهمزة كما تقول: ((واحد، اثنان)) وإن شئت قلت: ((واحد اثنان)) فألقيت كسرة ((اثنان)) على الدال.

وقال قوم من النحويين: لا يسوغ في اللفظ أن ينطق بثلاثة أحرف سواكن فلا بد من فتحة الميم في ﴿الَمَ * اللَّهُ﴾ لالتقاء الساكنين -يعني الميم واللام والتي بعدها-.

وهذا القول صحيح لا يمكن في اللفظ غيره.

فأما من زعم أنه إنما ألقى حركة الهمزة فيجب أن يقرأ ﴿الم * اللَّهُ﴾ وهذا لا أعلم أحداً قرأ به إلا ما ذكر عن الرؤاسي[1] فأما من رواه عن عاصم[2] فليس بصحيح الرواية.

---

(١) هو: محمد بن الحسن بن أبي سارة، أبو جعفر، الرؤاسي، النيلي، نسبة إلى نيل الكوفة، ولقب بالرؤاسي لعظم رأسه. كان الرؤاسي يسكن البصرة وقد زار الكوفة مرتين، وعاصر الخليل بن أحمد. كان الرؤاسي بارعاً في العربية وإماماً في النحو، فكان أستاذ أهل الكوفة في النحو وهو رأس المذهب الكوفي، حتى إذا قيل الكوفي فإنما كان القائل يعني الرؤاسي. وكان قد أخذ عن عيسى بن عمر، كما كان الرؤاسي أستاذ علي بن حمزة الكسائي والفراء.

ويقال إن الرؤاسي هو أول من صنف كتاباً في النحو، وله من المؤلفات: الفيصل في النحو، و((كتاب معاني القرآن))، و ((كتاب التصغير))، و ((كتاب الوقف والابتداء الكبير))، و ((كتاب الوقف والابتداء الصغير)). وتوفي في أيام الرشيد نحو سنة (١٩٥ هـ) على الأرجح.

انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي (١٤٦/٢)، ومعجم الأدباء (٢٩٢/٥: ٢٩٤)، طبقات النحويين واللغويين (ص ١٢٥).

(٢) هو: عاصم بن أبي النجود بَهْدَلَة، الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو بكر. أحد القراء السبعة، كان ثقة في القراءات، صدوقاً في الحديث، وكان من التابعين. كان من أهل الكوفة، اهتم بعلم القراءات منذ صغره فقرأ القرآن أبي عبد الرحمن السُلَمي غلاماً يافعاً، ويعرض على زر بن حُبيش الأسدي، وطائفة من =

وقال بعض النحويين: لو كانت محركة للالتقاء الساكنين لكانت مكسورة وهذا غلط لو فعلنا في التقاء الساكنين، إذا كان الأول منهما ياءً لوجب أن تقول: «كيف زيد وأين زيد» وهذا لا يجوز وإنما وقع الفتح لثقل الكسرة بعد الياء.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾.

زعم الأخفش وأبو عبيدة أن معناه: هذا الكتاب قال الشاعر[1].

أَقُولُ لَهُ والرُّمحُ يأْطر مَتْنه   تَأَمَّلْ خُفَافًا إِنني أَنَا ذَلِكَا[2]

قال المعنى: إنني أنا هذا، وقال غيرهما من النحويين: إن معناه القرآن ذلك الذي وعدوا به على لسان موسى وعيسى.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا

التابعين كما اهتم بالحديث فسمعه من المحدثين الكبار، لكن القراءات كانت شغله الشاغل فبرز فيها، وطلبه طلاب العلم، وتتلمذ عليه الكثيرون، وكان ممن تتلمذ على يديه أبو بكر بن عياش، وأبو عمر البزاز، وقد تصدر للإقراء مدة بالكوفة، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بعد شيخه أبي عبد الرحمن السلمي. ووصفه ابن الجزري بقوله: جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن. قال فيه العجلي: عاصم صاحب سنة وقراءة، كان رأساً في القرآن، قدم البصرة فأقرأهم، قرأ عليه سلام أبو المنذر، وقرأ عليه الأعمش في حداثته، ثم قرأ بعده على يحيى بن وثاب. وتوفي عاصم بالكوفة سنة (١٢٧ هـ = ٧٤٥ م).

انظر ترجمته في: وفيات الأعيان (٩/٣)، وسير النبلاء (٢٥٦/٥: ٢٦١)، وغاية النهاية (٣٤٦/١: ٣٤٩)، والأعلام (٢٤٨/٣).

(١) هو: خفاف بن ندبة، واسمه: خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي، من مضر، أبو خراشة: شاعر فارس، من أغربة العرب. كان أسود اللون (أخذ السواد من أمه ندبة) وعاش زمناً في الجاهلية، وله أخبار مع العباس بن مرداس ودريد بن الصمة. وأدرك الإسلام فأسلم. وشهد فتح مكة وكان معه لواء بني سليم، وشهد حنيناً والطائف. وثبت على إسلامه في الردة، ومدح أبا بكر وبقي إلى أيام عمر. أكثر شعره مناقضات له مع ابن مرداس وكانت قد ثارت بينهما حروب في الجاهلية. وفاته (نحو ٢٠ هـ).

انظر ترجمته في: الأغاني (١٦: ١٣٣)، والإصابة (١: ٤٥٢)، والمؤتلف والمختلف (ص: ١٠٨)، والشعر والشعراء (ص: ١٢٢)، وخزانة الأدب (١: ٨١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢٨/١)، وتفسير القرطبي (٢٠٣/١)، وفتح القدير (٥٢/١)،وروح المعاني (١٠٥/١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٧٢٠/٢)، والخصائص (١٨٦/٢)، والأغاني (٣٢٣/٢)، وصبح الأعشى (١٥٣/١٤).

عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[البقرة: ٨٩] وكذلك قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٤٦].

فالمعنى: هذا القرآن ذلك للكتاب.

ويجوز أن يكون قوله ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ فيقال «ذلك» للشيء الذي قد جرى ذكره فإن شئت قلت فيه «هذا» وإن شئت قلت فيه «ذلك» كقولك: أنفقت ثلاثة وثلاثة فذلك ستة، وإن شئت قلت: هذا ستة أو كقوله -عز وجل- في قصة فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾[النازعات: ٢٣، ٢٤، ٢٥] ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾[النازعات: ٢٦]، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥]، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٦]، وقال -عز وجل- ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ﴾[الرعد: ١].

فقال ﴿ذَلِكَ﴾ فجائز أن المعنى: تلك علامات الكتاب أي: القرآن متكلم به حروف العرب التي نعقلها على ما وصفنا في شرح حروف الهجاء.

وموضع ﴿ذَلِكَ﴾ رفع لأنه خبر ابتداء على قول من قال: هذا القرآن ذلك الكتاب. «والكتاب» رفع، ويسميه النحويون عطف البيان نحو قولك: «هذا الرجل أخوك» فالرجل عطف البيان أي: يبين من الذي أشرت إليه والاسم من ذلك «ذا» والكاف زيدت للمخاطبة ولا حظ لها في الإعراب.

قال سيبويه: لو كان لها حظ في الإعراب لقلت: «ذاك نفسه زيد» وهذا خطأ لا يجوز إلا «هذاك نفسه زيد»، ولذلك «ذانك» يشهد أن الكاف لا موضع لها، ولو كان لها موقع لكان جراً بالإضافة والنون لا تدخل مع الإضافة، واللام تزاد مع ذلك للتوكيد أعني: توكيد الاسم لأنها إذا زيدت أسقطت معها «ها».

تقول: «ذلك الحق، وذاك الحق وهاذاك الحق» ويقبح: «هذلك الحق» لأن اللام قد أكدت معنى الإشارة، وكسرت اللام لالتقاء الساكنين أعني الألف من ذا واللام التي بعدها وكان ينبغي أن تكون ساكنة ولكنها كسرت لما قلناه.

وكذلك يجب أن يكون موضع ﴿ذَلِكَ﴾ رفعاً فيمن جعل ﴿ذَلِكَ﴾ خبراً عن ﴿الم﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾.

معناه: لا شك فيه[1]؛ تقول: ((رابني فلان)) إذا علمت الريبة فيه، ((وأرابني)) إذا أوهمني الريبة قال الشاعر:

أخوكَ الذي إن ربته قَالَ إِنَّمَا أَرَبْتُ وإِنْ عَاتَبْتَه لان جَانِبُه[2]

وموضع ﴿لَا رَيْبَ﴾ نصب؛ قال سيبويه: ((لا)) تعمل فيما بعدها فتنصبه ونصبها لما بعدها كنصب ((إن)) لما بعدها، إلا أنها تنصبه بغير تنوين، وزعم أنها مع ما بعدها بمنزلة شيء واحد.

كأنها جواب قول القائل: ((هل من رجل في الدار)) فـ((من)) غير منفصلة من ((رجل)) فإن قال قائل: فلما أنكرت أن يكون جواب ((هل)): ((رجل في الدار)) ؟ قيل: معنى ((لا رجل في الدار)) عموم النفي لا يحوز أن يكون في الدار رجل ولا أكثر منه من الرجال إذا قلت: ((لا رجل في الدار)) فكذلك ((هل من رجل في الدار)) استفهام عن الواحد وأكثر منه فإذا قلت ((هل رجل في الدار)) أو ((لا رجل في الدار)) جاز أن يكون في الدار رجلان، لأنك إنما أخبرت أنه ليس فيها واحد، فيجوز أن يكون فيها أكثر فإذا قلت: ((لا رجل في الدار)) فهو نفي عام، وكذلك ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

وفي قوله ﴿فِيهِ﴾ أربعة أوجه:

القراءة منها على وجه واحد، ولا ينبغي أن يتجاوز إلى غيره، وهو ﴿فِيهِ هُدًى﴾ بكسر الهاء، ويجوز في الكلام وفي القراءة لو كان قرئ به ((فيهو هدى)) بإثبات الواو و((فيهي هدي)) بإثبات الياء وقد شرحنا هذه الأوجه في إعراب الحمد.

فأما قراءة ﴿فِيهِ هُدًى﴾ بإدغام الهاء في الهاء فهو ثقيل في اللفظ وهو جائز في القياس لأن الحرفين من جنس واحد، إلا أنه يثقل في اللفظ لأن حروف الحلق ليست بأصل في الإدغام والحرفان من كلمتين وحكى الأخفش أنها قراءة.

وموضع ﴿هُدًى﴾ نصب؛ ومعناه بيّن، ونصبه من وجهين:

أحدهما: أن يكون منصوباً على الحال من قولك: ((لا ريب فيه في حال هدايته))

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥٩/١)، وتفسير الصنعاني (٣٩/١)، ومعاني القرآن (٢٩٨/٥)، وتفسير أبي السعود (٢٥/١).

(٢) انظر: روح المعاني (١٠٦/١)، ودلائل الإعجاز (١٤٨/١).

فيكون حالاً من قولك: ((لا شك فيه هادياً)) ويجوز[١] أن يكون موضعه رفعاً من جهات:

إحداها: أن يكون خبر بعد خبر كأنه قال: ((هذا القرآن ذلك الكتاب هدى)) أي: قد جَمَع أنه الكتاب الذي وعدوا به وأنه هدىً كما تقول: ((هذا حلو حامض)) تريد أنه قد جمع الطعمين.

ويجوز أن يكون قد رفعه على إضمار ((هو)) كأنه لما تم الكلام فقيل: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: هو ﴿هُدىً﴾.

ويجوز أن يكون رفعه على قولك: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ كأنك قلت: ((ذلك الكتاب حقاً)) لأن لا شك فيه بمعنى حق[٢].

ثم قال بعد ذلك: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله -عز وجل- ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾.

معناه: يصدقون وكل مؤمن بشيء فهو مصدق به[٣]، فإذا ذكرت مؤمناً ولم تقل هو مؤمن بكذا وكذا فهو الذي لا يصلح إلا في الله -عز وجل- وموضع ﴿الَّذِينَ﴾ جر تبعاً ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ويجوز أن يكون موضعها رفعاً على المدح، كأنه لما قيل ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قيل من هم ؟ فقيل: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

ويجوز أن يكون موضع ﴿الَّذِينَ﴾ نصباً على المدح أيضاً، كأنه قيل: اذكر الذين.

و﴿الَّذِينَ﴾ لا يظهر فيها الإعراب تقول في النصب والرفع والجر: ((أتاني الذين في الدار، ورأيت الذين في الدار، ومررت بالذين في الدار)) وكذلك ((الذي في الدار)) وإنما منع الإعراب لأن الإعراب إنما يكون في آخر الأسماء ((والذي والذين)) مبهمان لا تتمان إلا بصلاتهما، فلذلك منعت الإعراب.

وأصل ((الذي)): ((لَذٍ)) على وزن ((عَمٍ)) فاعلم كذلك قال الخليل وسيبويه والأخفش

---

(١) وهذا هو الوجه الثاني.

(٢) والكتاب: من أسماء القرآن الكريم الكثيرة عدّها بعض المفسرين خمسة وخمسين اسمًا. وتوسّع بعضهم فأوصلها إلى نيف وتسعين. والناظر لهذه الأسماء يجد أن أكثرها صفات مثل: كريم، ومبارك، وقول فصل، وأمر الله، وروح...إلخ. ولعل أشهر أسمائه هي :القرآن، الكتاب، الفرقان، التنزيل . وأشهرها الاسمان الأولان.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٨٤/١)، وفتح القدير (٥٤/١)، وتفسير البيضاوي (١٠٤/١)، وتفسير أبي السعود (٢٩/١)، وتفسير النسفي (١٣/١)، وروح المعاني (١١٠/١).

وجميع من يوثق بعلمه.

فإن قال قائل: فما بالك تقول: ((أتأني اللذان في الدار، ورأيت الذين في الدار)) فتعرب كل ما لا يعرب في تثنيته نحو: ((هذان وهذين)) وأنت لا تعرب ((هذا ولا هؤلاء))؟

فالجواب في ذلك: أن جميع ما لا يعرب في الواحد مشبه بالحرف الذي جاء لمعنى فإذا ثنيته فقد بطل شبه الحرف الذي جاء لمعنى، لأن حروف المعاني لا تثنى.

فإن قال قائل: فلم منعته الإعراب في الجمع ؟

قلت: لأن الجمع الذي ليس على حد التثنية كالواحد ألا ترى أنك قلت في جمع ((هذا)): ((هؤلاء)) -يا فتى- فجعلته اسماً واحداً للجمع وكذلك قولك: ((الذين)) إنما هو اسم للجمع كما أن قولك: ((سنين)) -يا فتى- اسم للجمع، فبنيته كما بنيت الواحد ومن جمع ((الذين)) على حد التثنية قال: ((جاءني الذون في الدار ورأيت الذين في الدار)). وهذا لا ينبغي أن يقع لأن الجمع مستغنى فيه عن حد التثنية والتثنية ليس لها إلا ضرب واحد.

ومعنى قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾: ما غاب عنهم مما أخبرهم به النبي ﷺ من أمر الغيب والنشور والقيامة وكل ما غاب عنهم مما أنبأهم به فهو غيب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

معناه يتمون الصلاة[1] كما قال: ﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[البقرة: ١٩٦] وضمت الياء من ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يُوقِنُونَ﴾ لأن كل ما كان على أربعة أحرف نحو: ((أكرم وأحسن وأقام وآمن)) فمستقبله: ((يكرم ويحسن ويؤمن ويقيم)) وإنما ضمت أوائل المستقبل ليفرق

---

(١) هذا أول موطن ذكرت الصلاة فيه، والصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم. وهي العبادة المعروفة، ذات الركوع والسجود والقيام وقراءة ما تيسر من القرآن الكريم.

والصلاة لا يتم إسلام المرء إلا بها، وقد ذُكِرَتْ في أكثر من مائة آية قرآنية وفي مئات الأحاديث النبوية الشريفة. وهي ركن من أركان الإسلام كما جاء في الحديث: ((بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً)) رواه البخاري ومسلم.

ولا يتم إسلام المرء إلا بها. ذُكرتْ في أكثر من مائة آية قرآنية وفي مئات الأحاديث النبوية، بيْن أمرٍ بها وثناء عليها وبيان لقدرها وثوابها. وقد ورد في الحديث: ((بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)) رواه مسلم. وشُرعتْ الصلاة لربط الإنسان بربه دون وسائط.

بين ذوات الثلاثة نحو: ((ضرب)) وبين ذوات الأربعة نحو: ((دحرج)) فما كان على ثلاثة فهو: ((ضرب يضرب أو تضرب أو نضرب)) ففصل بالضمة بينهما.

فإن قال قائل: فهلا فصل بالكسرة ؟

قيل: الكسرة قد تدخل في نحو: ((تعلم وتبيض)) ولأن الضمة مع الياء مستعملة والكسرة لا تستعمل مع الياء، فمن قال: ((أنت تعلم)) لم يقل: ((هو يعلم)) فوجب أن يكون الفرق بينهما بالضمة لا غير.

والأصل في ((يقيم)): ((يؤقيم)) والأصل في ((يكرم)): ((يؤكرم)) ولكن الهمزة حذفت لأن الضم دليل على ذوات الأربعة، ولو ثبت لوجب أن تقول إذا أنبأت عن نفسك: ((أنا أؤقوم وأنا أؤكرم)) فكانت تجتمع همزتان فاستثقلتا فحذفت الهمزة التي هي فاء الفعل وتبع سائر الفعل باب الهمزة، فقلت: ((أنت تكرم ونحن نكرم وهي تكرم)) كما أن باب ((يَعِدُ)) حذفت منه الواو لوقوعها بين ياء وكسرة، الأصل فيه ((يوعد)) ثم حذفت في: ((تعد ونعد وأعد)).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ معناه: يصدقون، قال -عز وجل-: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ إلى قوله ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾[المنافقون: ١٠][1].

---

(١) والإنفاق بمعنى الصدقة يدخل فيه الواجب والمستحب، فالواجب منها هو: الزكاة، وهي ركن من أركان الإسلام فرضها الله في السنة الثانية من الهجرة على كل مسلم ملك النصاب، والأدلة على وجوبها قول الله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقول الرسول ﷺ: ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان)) متفق عليه. وقول النبي لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: ((إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ في فقرائهم)) متفق عليه.

الصدقة الواجبة (الزكاة). الزكاة الشرعية تسمى في القرآن والسنة صدقة، قال الماوردي في الأحكام السلطانية: الصدقة زكاة، والزكاة صدقة، يفترق الاسم ويتفق المسمى. قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

=

وقوله -عز وجل-: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

إن شئت خففت الهمزة في ﴿أُنزِلَ﴾ وكذلك في قوله ﴿إِلَيْكَ﴾ وهذه لغة غير أهل الحجاز فأما أهل الحجاز فيخففون الهمزة بين الواو والهمزة.

قال سيبويه: وإنما فعل بالهمزة ذلك دون سائر الحروف لأنها بعد مخرجها ولأنها نبرة في الصدر، وهي أبعد الحروف مخرجاً وأما «إليك وإليهم وعليك وعليهم» فالأصل في هذا: «إلاك» وعلاك» وإلاهم وعلاهم» كما تقول: «إلى زيد وعلى إخوتك» إلا أن الألف غيرت مع المضمر، فأبدلت ياء ليفصل بين الألف التي في آخر المتمكنة التي الإضافة لازمة لها ألا ترى أن: «إلى وعَلَى ولَدَى» لا تنفرد من الإضافة ولذلك قالت العرب في «كِلاَ» في حال النصب والجر: «رأيت كليهما وكليكما ومررت بكليهما وكليكما» ففصلت بين الإضافة إلى المظهر والمضمر لما كان لا ينفرد ولا يكون كلاماً إلا بالإضافة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

موضع ﴿أُولَئِكَ﴾ رفع بالابتداء والخبر: ﴿عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ إلا أن ﴿أُولَئِكَ﴾ لا

=

وهي الزكاة الواجبة شرعًا، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] وهؤلاء هم الذين يريدون نصيبًا في الزكاة الواجبة. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠]. والصدقات هنا المقصود بها الزكاة الواجبة والآية تحدد مصارف الزكاة.

أما الإنفاق بقصد الصدقة التطوعية. فذهب بعض الصحابة إلى أن في المال حقًا سوى الزكاة جاء ذلك من عمر، وعلي، وأبي ذر، وعائشة، وابن عمر، وأبي هريرة. وقد استندوا إلى قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال المفسرون: آتى المال على حبه تعني الصدقة التطوعية لأنه لايمكن أن تتكرر الزكاة في الآية نفسها مرتين، وقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾. وقد أشار بعض أهل العلم إلى أن هذا التفسير هو الأرجح.

يعرب لأنه اسم للإشارة وكسرت الهمزة فيه لالتقاء الساكنين وكذلك قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلا أن ﴿هُمُ﴾ دخلت فصلاً وإن شئت كانت تكريراً للاسم كما تقول: ((زيد هو العالم)) فترفع ((زيداً)) بالابتداء وترفع ((هو)) ابتداء ثانياً وترفع ((العالم)) خبراً ((لهو)) ((والعالم)) خبراً ((لزيد)) فكذلك قوله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وإن شئت جعلت ﴿هُمُ﴾ فصلا وترفع زيدا والعالم على الابتداء وخبره والفصل هو الذي يسميه الكوفيون عماداً.

وسيبويه يقول: إن الفصل لا يصلح إلا مع الأفعال التي لا تتم نحو: ((كان زيد هو العالم وظننت زيداً هو العالم)) وقال سيبويه: دخل الفصل في قوله -عز وجل-:﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً﴾[المزمل: ٢٠]، وفي قوله: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم﴾[آل عمران: ١٨٠]، وفي قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾[سبأ: ٦]، وفي قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾[الأنفال: ٣٢] وما أشبه هذا مما ذكر الله -عز وجل-، وكذلك ((لك)) في الكلام في الابتداء والخبر وفي قولك: ((كان زيد هو العالم)) ذِكْر ((هو وأنت وأنا ونحن)) دخلت إعلاماً بأن الخبر مضمون وأن الكلام لم يتم وموضع دخولها إذا كان الخبر معرفة أو ما أشبه المعرفة، وأن ((هو)) بمنزلة ((ما)) اللغو في قوله -عز وجل-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٩] فإنما دخولها مؤكدة.

وقوله -عز وجل-: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾.

يقال لكل من أصاب خيراً مفلح، وقال -عز وجل-: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون: ١]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[الشمس: ٩].

والفلاح: البقاء قال لبيد بن ربيعة(١) [من الطويل]:

نَحُلُّ بِلاداً كُلُّها حُلَّ قَبلَنا   وَنَرجو الفَلاحَ بَعدَ عادٍ وَحِميَرِ(٢)

---

(١) هو: لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام، وفد على النبي ﷺ ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات. جمع بعض شعره في ديوان ترجم إلى الألمانية.

انظر ترجمته في: خزانة الادب للبغدادي (١: ٣٣٧: ٣٣٩)، وسمط اللآلي (ص: ١٣)، والشعر والشعراء (ص: ٢٣١: ٢٤٣)، والأعلام (لبيد العامري).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/١٣٩)، وتفسير القرطبي (١/٢٢٨)، وزاد المسير (١/٢٧).

أي: نرجو البقاء. وقال عبيد[١] [من البسيط]:

أَفلِح بِما شِئتَ فَقَد يُبلَغُ بِال ... ضَعفِ وَقَد يُخدَعُ الأَريبُ[٢]

أي: أصب خيراً بما شئت والفلاح: الأكار والفلاحة صناعته وإنما قيل له الفلاح لأنه يشق الأرض ويقال: فلحت الحديد إذا قطعته. قال الشاعر [من الرجز]:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْلك أَني الصَّحْصَحُ ... إِنَّ الحَدِيْدَ بالحَدِيدِ يُفْلَحُ[٣]

ويقال للمكاري: الفلاح وإنما قيل له فلاح تشبيهاً بالأكار قال الشاعر[٤] [من الوافر]:

لَها رِطلٌ تَكيلُ الزَّيتَ فيهِ ... وَفَلاحٌ يَسوقُ لَها حِمارا[٥]

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ﴾ تنصب ﴿الَّذِينَ﴾ وهي تنصب الأسماء وترفع الأخبار ومعناه: في الكلام

---

(١) وهو: عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي، من مضر، أبو زياد: شاعر، من دهاة الجاهلية وحكمائها. وهو أحد أصحاب المجمهرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات. عاصر امرأ القيس وفاته (نحو ٢٥ قبل الهجرة).

انظر ترجمته في: الشعر والشعراء (ص: ٨٤)، والأغاني (١٩/٨٤)، وخزانة الأدب (١/٣٢٣)، والأعلام (عبيد بن الأبرص).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/١٣٩)، وتفسير القرطبي (١/٢٢٨)، ومفردات القرآن (١/١١٣٣)، والأغاني (٢/١٥٩).

(٣) انظر: المستقصى في أمثال العرب (١/٤٠٣).

(٤) هو: عمرو بن أحمر الباهلي، واسمه: عمرو بن أحمر بن العمرد بن عامر الباهلي، أبو الخطاب: شاعر مخضرم. عاش نحو ٩٠ عاماً. كان من شعراء الجاهلية، وأسلم. وغزا مغازي في الروم، وأصيبت إحدى عينيه. ونزل بالشام مع خيل خالد بن الوليد، حين وجهه إليها أبو بكر. ثم سكن الجزيرة. وأدرك أيام عبد الملك بن مروان. له مدائح في عمر وعثمان وعلي وخالد. ولم يلق أبا بكر. وهجا يزيد بن معاوية، فطلبه يزيد ففر منه. قال البغدادي: كان يتقدم شعراء زمانه. وعده ابن سلام في الطبقة الثالثة من الإسلاميين. وكان يكثر من الغريب في شعره. وله حسنات، وكانت وفاة وفاته عمرو بن أحمر (٦٥ هـ).

انظر ترجمته في: خزانة الأدب للبغدادي (٣/٣٨)، والإصابة (ت: ٦٤٦٨)، والشعر والشعراء (ص: ١٢٩)، والأعلام (عمرو بن أحمر).

(٥) انظر: تفسير القرطبي (١/٢٢٨).

التوكيد وهى آلة من آلات القسم وإنما نصبت ورفعت لأنها تشبه بالفعل وشبهها به أنها لا تلي الأفعال ولا تعمل فيها وإنما يذكر بعدها الاسم والخبر كما يذكر بعد الفعل الفاعل والمفعول، إلا أنه قدم المفعول به فيها ليفصل بين ما يشبه بالفعل ولفظه لفظ الفعل، وبين ما يشبه به وليس لفظه لفظ الفعل وخبرها ههنا جملة الكلام أعني قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾.

وترفع سواء بالابتداء وتقوم ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ مقام الخبر كأنه بمنزلة قولك: «سواء عليهم الإنذار وتركه و﴿سَوَاءٌ﴾ موضوع موضع مستو لأنك لا تقيم المصادر مقام أسماء الفاعلين إلا وتأويلها تأويل أسمائهم.

فأما دخول ألف الاستفهام ودخول «أم» التي للاستفهام والكلام خبر؛ فإنما وقع ذلك لمعنى التسوية، والتسوية آلتها ألف الاستفهام و«أم»؛ تقول: «أزيد في الدار أم عمرو» فإنما دخلت الألف و«أم» لأن علمك قد استوى في زيد وعمرو وقد علمت أن أحدهما في الدار لا محالة، ولكنك أردت أن يبين لك الذي علمت ويخلص لك علمه من غيره فلهذا تقول: «قد علمت أزيد في الدار أم عمرو» وإنما تريد أن تسوي عند من تخبره العلم الذي قد خلص عندك، وكذلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ دخلت الألف و«أم» للتسوية.

فأما ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ فزعم سيبويه أن من العرب من يحقق الهمزة ولا يجمع بين الهمزتين وإن كانتا من كلمتين فأما أهل الحجاز فلا يحققون واحدة منهما وأما بعض القراء -ابن أبي إسحاق وغيره- فيجمعون في القراءة بينهما فيقرؤون ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وكثير من القراء يخفف أحدهما وزعم سيبويه أن الخليل كان يرى تخفيف الثانية فيقول: ﴿آنذَرْتَهُمْ﴾ فيجعل الثانية بين الهمزة الألف ولا يجعلها ألفاً خالصة[1] ومن جعلها ألفاً

---

(١) من مميزات الهمزة في الكلِم العربي:

(أ) أنها تُقْلَب: ألفًا، أو واوًا، أو ياءً، وتقلب ألفاً في مثل، آمَن، وأصلها: أَأْمَنْ، وآبى، وأصلها: أَأْبى، وآجَال وأصلها: أَأْجال في جمع التكسير، وآمُر وأصلها: أَأْمر. وتقلب واواً في مثل: أُومِن، وأصلها: أُأْمن. وأُوتِي، وأصلها: أُأْتي. وفي مثل: صحْراوان، وأصلها: صحراءان، وصحْراوات، وأصلها: صحْراءات، وصحْراوِيّ، وأصلها: صحْرائِي. وفي مثل: هَرَاوَى، وأصلها هَرَائِوُ في جمع التكسير لـ: هِرَاوة. وتُقلب ياء في مثل: ايتلف، وأصلها أئتلف، وإيمان، وأصلها: إئْمان. وإِيتِ، وأصلها: إِئْت، =

خالصة فقد أخطأ من جهتين:

إحداهما: أنه جمع بين ساكنين، والأخرى أنه أبدل من همزة متحركة قبلها حركة ألفاً والحركة الفتح وإنما حق الهمزة إذا حركت وانفتح ما قبلها: أن تجعل بين بين أعني بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها فتقول في سأل: ((سال))، وفي رؤوف: ((رووف))، وفي بئس: ((بيس)) -بين بين- وهذا في الحكم واحد، وإنما تحكمه المشافهة، وكان غير الخليل يجيز في مثل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[محمد: ١٨] تخفيف الأولى.

وزعم سيبويه أن جماعة من العرب يقرؤون: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يحققون الثانية ويخففون الأولى وهذا مذهب أبي عمرو بن العلاء، وأما الخليل فيقول بتحقيق الأولى فيقول: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

قال الخليل: وإنما اخترت تخفيف الثانية لإجماع الناس على بدل الثانية في قولك ((آدم وآخر)) لأن الأصل في آدم: ((أأدم)) وفي آخر: ((أأخر)).

وقول الخليل أقيس وقول أبي عمرو جيد أيضاً.

قال أبو إسحاق: الهمزة التي للاستفهام ألف مبتدئة، ولا يمكن تخفيف الهمزة المبتدأة ولكن إن ألقى همزة ألف الاستفهام على سكون الميم من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فقلت: ((عليهم أنذرتهم)) جاز، ولكن لم يقرأ به أحد والهمزتان في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ همزتان في وسط الكلمة ويمكن تخفيف الأولى.

فأما من خفف الهمزة الأولى في قوله: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ فإنه طرحها البتة وألقى حركتها على الميم ولا أعلم أحداً قرأ بها، والواجب على لغة أهل الحجاز أن يكون ((عليهم أنذرتهم)) فيفتح الميم ويجعل الهمزة الثانية بين بين، وعلى هذا مذهب جميع أهل الحجاز.

= وقضايا، وأصلها: قضائي، في جمع التكسير. وهي أيضاً من الحروف القمرية؛ تظهر معها لام ((أل)) التعريف نطقاً وكتابةً مثل: الأحمر.

(ب) الهمزة من حروف المعاني. وتَرِد الهمزة مصدرية مثل: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾[البقرة: ٦]، وترد للسؤال عن أحد الشيئين أو الأشياء، مثل: أأخوك مسافر أم أبوك، أم عمك؟ وجوابها يكون بالتعيين. ويُسأل بها في الاستفهام عند إسناد الحدَث إلى الفاعل، مثل: أسَافَر أخوك؟ والجواب بـ: نعم، في الإثبات، وبـ: لا، في النفي. ومثل: ألم يسافر أخوك؟ والجواب بـ: نعم، في= النفي، وبـ: بلى، في الإثبات. وترد الهمزة أيضاً لنداء القريب، مثل: أبُنَيّ. وإذا مدّت همزة النداء فصارت: آ، صار النداء بها للبعيد مثل: آرجلُ.

ويجوز أن يكون ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ كأنه قيل: «إن الذين كفروا لا يؤمنون سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم» هؤلاء قوم أنبأ الله -تبارك وتعالى- النبي ﷺ أنهم لا يؤمنون كما قال -عز وجل-: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[الكافرون: ٤، ٥].

فأما الهمزتان إذا كانتا مكسورتين نحو قوله -عز وجل-: ﴿عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾[النور: ٣٣]، وإذا كانتا مضمومتين نحو قوله: ﴿أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ﴾[الأحقاف: ٣٢] فإن أبا عمرو يخفف الهمزة الأولى فيهما فيقول: ﴿عَلَى البِغَا إِنْ أَرَدْنَ﴾ و ﴿أَوْلِيَا أُوْلَئِكَ﴾ فيجعل الهمزة الأولى من ﴿البِغَاءِ﴾ بين الهمزة والياء ويكسرها، ويجعل الهمزة في قولك: ﴿أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ﴾ الأولى بين الواو والهمزة ويضمها.

وحكى أبو عبيدة أن أبا عمرو كان يجعل مكان الهمزة الأولى كسرة في ﴿البِغَاءِ إِنْ﴾ وضمة في ﴿أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ﴾، أبو عبيدة لا يحكي إلا ما سمع لأنه الثقة المأمون عند العلماء إلا أنه لا يضبط مثل هذا الموضع، لأن الذي قاله محال لأن الهمزة إذا سقطت وأبدلت منها كسرة وضمة -على ما وصف- بقيت الحركتان في غير حرف، وهذا محال؛ لأن الحركة لا تكون في غير محرك.

قال أبو إسحاق: والذي حكيناه آنفاً رواية سيبويه عن أبي عمرو وهو أضبط لهذا.

وأما قوله: ﴿السُّفَهَاءُ أَلاَ﴾ وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ. أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن﴾[الملك: ١٦]، فإن الهمزتين إذا اختلفتا حكى أبو عبيدة أن أبا عمرو كان يبدل من الثانية فتحة، وهذا خلاف ما حكاه سيبويه، والقول فيه أيضاً محال لأن الفتحة لا تقوم بذاتها إنما تقوم على حرف.

وجملة ما يقول النحويون في المسألة الأولى في مثل قوله: ﴿عَلَى البِغَاءِ إِنْ﴾ أو ﴿أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ﴾ ثلاثة أقوال على لغة غير أهل الحجاز:

فأحد هذه الثلاثة -وهو مذهب سيبويه والخليل- أن يجعل مكان الهمزة الثانية همزة بين بين فإذا كان مضموماً جعل الهمزة بين الواو والهمزة فقال: ﴿أَوْلِيَا أُوْلَئِكَ﴾، وإذا كان مكسوراً جعل الهمزة بين الياء والهمزة فقال: ﴿عَلَى البِغَا إِنْ﴾. وأما أبو عمرو فقرأ على ما ذكرناه وأما ابن أبي إسحاق -ومذهبه مذهب جماعة من القراء- فيجمع بين الهمزتين فيقرأ: ﴿أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ﴾ و﴿عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ﴾ بتحقيق الهمزتين.

وأما اختلاف الهمزتين نحو ﴿السُّفَهَاءُ أَلاَ﴾ فأكثر القراء على مذهب أبي إسحاق وأما

أبو عمرو فيحقق الهمزة الثانية في رواية سيبويه ويخفف الأولى فيجعلها بين الواو والهمزة فيقول: ﴿السُّفَهَاءُ أَلاَ﴾ بين بين ويقول: ﴿ءَمَّن فِي السَّمَاءِ أَن﴾ فيحقق الثانية، وأما سيبويه والخليل فيقولان: ﴿السُّفَهَاءُ أَلاَ﴾ واواً خالصة، وفي قوله: ﴿ءَمَّن فِي السَّمَاءِ أَن﴾ ياء خالصة مفتوحة. فهذا جميع ما في هذا الباب.

وقد ذكر أبو عبيد[1] أن بعضهم روى عن أبي عمرو أنه كان إذا اجتمعت همزتان طرحت إحداهما وهذا ليس يثبت لأن القياس لا يوجبه، وأبو عبيد لم يحقق في روايته لأنه قال: رواه بعضهم وباب رواية القراءة عن المقرئ يجب أن يقل الاختلاف فيه، فإن كان هذا صحيحاً عنه فهو يجوزه في نحو ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، وفي مثل قوله: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾[الأنعام: ١٤٣]، فيطرح همزة الاستفهام لأن ((أم)) تدل عليها. قال الشاعر:

لَعَمْرِكَ مَا أَدْرِي وإِن كُنْتَ دَارِيَا   شُعَيثُ بن سَهْمٍ أَمْ شُعَيْثُ بن مِنْقَر[2]

وقال عمر بن أبي ربيعة:

لَعَمْرِكَ مَا أَدْرِي وإِن كُنْتَ دَارِيَا   بِسَبْعٍ رَمَينَّ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ[3]

---

(١) هو: القاسم بن سَلَّام بن عبد الله، الهروي، الأزدي، الخزاعي بالولاء، الخراساني، البغدادي، ويكنى بأبي عُبَيْد. من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، وهو يعد رأس الطبقة الثالثة من طبقات اللغويين الكوفيين. اختلف في أصله فقيل إن أباه كان مملوكاً رومياً لرجل من أهل هراة، وقيل: إنه ينتسب إلى خزاعة وكان معروفاً بنسبته إليها ولعل ذلك كان عن طريق الولاء. ولد أبو عبيد بهراة سنة (١٥٧ هـ = ٧٧٣ م) وتعلم بها، وبدأ حياته مؤدباً في هراة، ثم انتقل إلى العراق في صحبة طاهر بن الحسين، وأخيراً ولي القضاء على طرسوس من بلاد الشام مدة ثمانية عشر عاماً، ورحل إلى مصر سنة (٢١٣ هـ = ٨٢٨ م) وإلى بغداد، فسمع الناس من كتبه، وحج، فتوفي بمكة سنة (٢٢٤ هـ = ٨٣٨ م) من مصنفاته: ((الغريب المصنف))، ((الطهور))، ((الأجناس من كلام العرب))، ((أدب القاضي))، ((فضائل القرآن))، ((الأمثال))، ((المذكر والمؤنث))، ((المقصور والممدود))، ((الأموال)) ((الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته)) وغير ذلك.

انظر ترجمته في: سير النبلاء (١٠/٤٩٠: ٥٠٩)، وطبقات الحنابلة (١/٢٥٩: ٢٦٢)، وتاريخ بغداد (١٢/٤٠٣: ٤١٦)، وتذكرة الحفاظ (٢/٤١٧: ٤١٨)، والأعلام (٥/١٧٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/٢٤٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٧/٢٦)، فتح القدير (٢/١٩٣)، روح المعاني (١٦/١٣٠)، الجمل في النحو (١/٢٥٣)، المفصل في صنعة الإعراب (١/٤٣٨)، شرح ابن عقيل (٣/٢٣٠)، مغني اللبيب (١/٢٠).

البيت الأول أنشده الخليل وسيبويه والبيت الثاني صحيح أيضاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

معنى ﴿خَتَمَ﴾ في اللغة: وطبع معنى واحد[(١)]، وهو: التغطية على الشيء والاستيثاق من ألا يدخله شيء كما قال -عز وجل-: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: ٢٤]، وقال جل ذكره ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾، معناه: غلب على قلوبهم ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤]، وكذلك ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء: ١٥٥]، وهم كانوا يسمعون ويبصرون ويعقلون ولكنهم لم يستعملوا هذه الحواس استعمالاً يجزئ عنهم، فصاروا كمن لا يسمع ولا يبصر. قال الشاعر:

* أَصَم عَمَا سَاءَهُ سَمِيع *

وكذلك قوله جل وعز: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ هي الغطاء فأما قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وهو يريد: وعلى أسماعهم ففيه ثلاثة أوجه:

فوجه منها: أن السمع في معنى المصدر فوحد كما تقول: ((يعجبني حديثكم ويعجبني ضربكم)) فوحد لأنه مصدر.

ويجوز أن يكون لما أضاف السمع إليهم دل على معنى أسماعهم قال الشاعر[(٢)][من الطويل]:

بِها جِيَفُ الحَسرى فَأَمّا عِظامُها فَبيضٌ وَأَمّا جِلدُها فَصَليبُ[(٣)]

وقال الشاعر[(٤)] أيضاً [من الرجز]:

---

(١) قال الراغب في مادة ((ختم)): الختم والطبع يقال على وجهين: مصدر ختمت وطبعت، وهو تأثير كنقش الخاتم والطابع. والثاني: الأثر الحاصل عن النقش، ويتجوز بذلك تارة في الاستيثاق من الشيء، والمنع منه اعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب.

(٢) هو علقمة الفحل، واسمه: علقمة بن عبدة -بفتح العين والباء- بن ناشرة بن قيس، من بني تميم: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. كان معاصراً لامرئ القيس، وله معه مساجلات. وأسر الحارث بن أبي شمر الغساني أخاً له اسمه شأس فشفع به علقمة ومدح الحارث بأبيات، فأطلقه. له ديوان شعر شرحه الأعلم الشنتمري. وفاته: (نحو ٢٠ ق هـ).

انظر ترجمته في: الخزانة (١: ٥٦٥ - ٥٦٦)، والشعر والشعراء (ص: ٥٨)، والأعلام (علقمة الفحل).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣/٩)، تفسير القرطبي (٢٣٢/١)، زاد المسير (٣٠٧/١).

(٤) هو: المسيب بن زيد الغنوي.

لا تُنْكِري القَتْلَ وَقَدْ سُبِينَا   فِي حَلْقِكُمْ عَظْمٌ وقَد شَجِينَا[(١)]

معناه: في حلوقكم، وقال:

كأنه وَجْهُ تَرْكِيَّيْنِ قد غَضِبا   مُسْتَهْدِفٌ لطِعَان فيه تَذْبِيبُ[(٢)]

أما ﴿غِشَاوَةٌ﴾ فكل ما كان مشتملاً على الشيء فهو في كلام العرب مبني على «فعالة» نحو: «الغشاوة والعمامة والقلادة، والعصابة» وكذلك أسماء الصناعات، لأن معنى الصناعة الاشتمال على كل ما فيها نحو: «الخياطة والقصارة» وكذلك على كل من استولى على شيء ما استولى عليه الفعالة نحو: «الحلاقة والإمارة» والرفع في ﴿غِشَاوَةٌ﴾ هو الباب، وعليه مذهب الفراء والنصب جائز في النحو على أن المعنى: «وجعل على أبصارهم غِشاةً» كما قال الله -عز وجل- في موضع آخر: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[الجاثية: ٢٣]، ومثله من الشعر مما حمل على معناه قوله[(٣)]:

يَا لَيتَ بَعْلَكِ قَدْ غَدَا   مُتَقَلِداً سَيْفاً ورُمْحاً[(٤)]

معناه: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً، ويروى: «غَشوةً» والوجه ما ذكرناه، وإنما «غشوة» رد إلى الأصل، لأن المصادر كلها ترد إلى فعلة والرفع والنصب في «غشوة» مثله في ﴿غِشَاوَةٌ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخر وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

عنى بذلك المنافقين وإعراب ﴿وَمِنَ﴾ الوقف إلا أنها فتحت لالتقاء الساكنين سكون النون، من قولك: «مِنْ» وسكون النون الأولى من: ﴿النَّاسِ﴾ وكان الأصل أن يكسر لالتقاء الساكنين ولكنها فتحت لثقل اجتماع كسرتين لو كان: «مِنِ النَّاس» لثقل ذلك.

فأما عن ﴿النَّاسِ﴾ فلا يجوز فيه إلا الكسر لأن أول ﴿مَن﴾ مفتوح. و«مَنْ» إعرابها

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٨٣/٣)، تفسير القرطبي (٢٣٢/١)، زاد المسير (١٢٨/٢)، الأصول في النحو (٣١٣/١)، لسان العرب (٢٣٦/٥)، تاج العروس (٨٤٤٨/١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٣٢/١)، لسان العرب (٢٦٥/١٣).

(٣) قائل البيت: عبد الله الزبعرى، واسمه: عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي القرشي، أبو سعد: شاعر قريش في الجاهلية. كان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال فيه حسان أبياتاً، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة.. وفاته (نحو ١٥ هـ).

انظر ترجمته في: الأعلام (ابن الزبعرى).

(٤) انظر: زاد المسير (٣٠١/٢)، لسان العرب (٤١/٨)، تاج العروس (٥١٤٣/١).

الوقف، لأنها لا تكون اسما تاماً في الخبر إلا بصلة فلا يكون الإعراب في بعض الاسم.

فأما الإدغام في الياء في ﴿مَن يَقُولُ﴾ فلا يكون غيره تقول ((من يقوم)) فتدعم بغنة وبغير غنة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ دخلت الباء مؤكدة لمعنى النفي لأنك إذا قلت: ((ما زيد أخوك)) فلم يسمع السامع ((ما)) ظن أنك موجب، فإذا قلت: ((ما زيد بأخيك)) و ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ علم السامع أنك تنفي وكذلك جميع ما في كتاب الله -عز وجل-.

وقوله -عز وجل- ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ يعني به المنافقين أيضاً.

ومعنى ﴿يُخَادِعُونَ﴾: يظهرون غير ما في نفوسهم[1] والتقية: تسمى أيضاً خداعاً فكأنهم لما أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر صارت تقيتهم خداعاً وجاء بفاعل لغير اثنين لأن هذا المثال يقع كثيراً في اللغة للواحد نحو: ((عاقبة اللص وطارقة النعل)).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾؛ تأويله: أن الخداع يرجع عليه من العذاب والعقاب.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعلمون أنه يرجع عليهم بالعذاب، يقال: ((ما شعرت به)) أي: وما علمت به و ((وليت شعري)) ما سمعت: معناه ليت علمي.

وقوله -عز وجل-:﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ معناه: نفاق[2] وقد يقال: السقم والمرض في البدن وفي الدين جميعاً، كما يقال الصحة في البدن والدين جميعاً.

فمعنى قوله: ﴿مَّرَضٌ﴾ قال أبو عبيدة: ((معناه: شك ونفاق)) والمرض في القلب يصلح لكل ما خرج به الإنسان عن الصحة في الدين.

وقوله: ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾؛ فيه جوابان:

---

(١) قال الراغب: الخداع: إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه، قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾[البقرة:٩]، أي: يخادعون رسوله وأولياءه، ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث إن معاملة الرسول كمعاملته. انظر: المفردات مادة: ((خدع)).

(٢) قال الراغب: النفاق، وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧] أي: الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شراً من الكافرين. فقال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥]. انظر المفردات: ((نفق)).

قال بعضهم: زادهم الله بكفرهم كما قال -عز وجل-: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء: ١٥٥]؛ وقال بعض أهل اللغة: فزادهم الله بما أنزل عليهم من القرآن فشكوا فيه كما شكوا في الذي قبله قال: والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[التوبة: ١٢٤، ١٢٥] وهذا قول بين واضح – والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ معناه: موجع يصل وجعه إلى قلوبهم وتأويل ﴿أَلِيمٌ﴾ في اللغة: ((مؤلم))[1]. قال الشاعر -وهو عمرو بن معد يكرب الزبيدي- [من الوافر].

أَمِن رَيحانَةَ الداعي السميعُ يُؤرِّقُني وَأَحابي هُجُوعُ[2]

معنى ((السميع)): المسمع.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾؛ ويقرأ ﴿يَكْذِّبُونَ﴾، فمن قرأ ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بالتخفيف، فإن كذبهم قولهم: إنهم مؤمنون – قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وأما ﴿يَكْذِّبُونَ﴾ بالتثقيل؛ فمعناه: بتكذيبهم النبي ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ معناه: لا تصدوا عن دين الله فيحتمل ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ضربين من الجواب:

---

(١) قال الراغب: واختلف في أصل العذاب، فقال بعضهم: هو من قولهم: عذب الرجل: إذا ترك المأكل والنوم -وهذا قول الأزهري فإنه قال: القول في العذوب والعاذب أنه الذي لا يأكل ولا يشرب- (انظر: اللسان: عذب).

فالتعذيب في الأصل هو حمل الإنسان أن يعذب أي: يجوع ويسهر وقيل: أصله من العذب فعذبته. وقيل: أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط أي: طرفها وقد قال بعض أهل اللغة: التعذيب هو الضرب. وقيل: هو من قولهم: ماء عذب إذا كان فيه قذى وكدر فيكون عذبته كقولك: كدرت عيشه وحياته، وعذبة السوط واللسان والشجر: أطرافها. انظر المفردات: ((عذب)).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/١٥٤)، تفسير القرطبي (١٧/٣٤)، فتح القدير (٢/٢١٤)، تفسير البيضاوي (١/٣٨٩)، تفسير أبي السعود (١/١٥١)، روح المعاني (١/١٥٠)، الكشاف (١/٩١)، الأغاني (١٥/١٩٩)، والأغاني (١٥/٢١٦)، المزهر في علوم اللغة (١/٤٧٥)، لسان العرب (٨/١٦٢)، تاج العروس (١/٥٣٢٢).

أحدهما: أنهم يظنون أنهم مصلحون.

والثاني: أن يريدوا أن هذا الذي يسمونه إفساداً هو عندنا إصلاح.

فأما إعراب ﴿قِيلَ﴾ فآخره مبني على الفتح وكذلك كل فعل ماض مبني على الفتح والأصل في ﴿قِيلَ﴾: ((قُوِلَ)) ولكن الكسرة نقلت إلى القاف لأن العين من الفعل في قولك: ((قَالَ)) نقلت من حركة إلى سكون فيجب أن تلزم هذا السكون في سائر تصرف الفعل.

وبعضهم يَرُومُ الضمة في ((قيل)) وقد يجوز في غير القرآن: ((قد قُولَ ذاك))، وأفصح اللغات: ((قيل))، و((غيض))، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وإن شئت قلت: ((قُيِل وغُيِض وسُيِق)) تروم في سائر أوائل ما لم يسم فاعله الضم في هذا الباب.

وقوله -عز وجل-:﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾؛ أصل: ﴿السُّفَهَاءُ﴾ في اللغة: خفة الحلم وكذلك يقال: ((ثوب سفيه)) إذا كان رقيقاً بالياً[1].

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾؛ معنى ﴿أَلاَ﴾ استفتاح وتنبيه وقوله: ﴿هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يجوز أن يكون خبر إن و﴿هُمُ﴾ فصل وهو الذي يسميه الكوفيون: ((العماد)) ويجوز أن يكون ﴿هُمُ﴾ ابتداء والسفهاء خبر الابتداء و ﴿هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ خبر: ((إن)).

وقوله -عز وجل- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ أنبأ الله المؤمنين بما يسره المنافقون من الكفر .

ومعنى ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ في اللغة: مردهم وعتاتهم في الكفر ويقال: ((خلوت إليه ومعه)) ويقال: ((خلوت به)) وهو على ضربين:

أحدهما: جعلت خلوتي معه كما قال: خلوت إليه أي: جعلت خلوتي معه وكذلك يقال: ((خلوت إليه)) ويصلح أن يكون: ((خلوت به)): سخرت منه.

---

(١) السّفه والسّفاه والسّفاهة: ضدّ الحلم، وهي مصادر سفه يسفه من باب تعب، وهو نقص في العقل أصله الخفّة والحركة. يقال: تسفّهت الرّيح الشّجر، أي: مالت به، وسفه بالضّمّ وسفه بالكسر، أي: صار سفيهاً، والجمع سفهاء وسفّه وسفاه. والمؤنّث منه سفيهة، والجمع سفائه.

واصطلاحاً: هو التّبذير في المال والإسراف فيه ولا أثر للفسق والعدالة فيه.

ويقابله الرّشد: وهو إصلاح المال وتنميته وعدم تبذيره. إلا أن المراد به في هذه الآية اليهود شبههم بالسفهاء بجامع النقص في العقل في كل وعدم التصرف التصرفات الراشدة.

ونصب ﴿مَعَكُمْ﴾ كنصب الظروف تقول: ((إنَّا معكم، وإنا خلفكم)) معناه: إنا مستقرون معكم ومستقرون خلفكم.

والقراءة المجمع عليها فتح العين وقد يجوز في الاضطرار إسكان العين ولا يجوز أن يقرأ بها ويجوز: ((إنا مَعْكُم)) للشاعر إذا اضطر قال الشاعر:

وريشِي مِنْكُمُ وهَوايَ مَعْكُمْ وإنْ كانتْ زِيارَتُكم لِماما[1]

وفي قوله -عز وجل-: ﴿خَلَوْا إِلَى﴾ وجهان: إن شئت أسكنت الواو وخففت الهمزة وكسرتها فقلت: ﴿خَلَوْا إِلَى﴾، وإن شئت ألقيت الهمزة وكسرت الواو فقلت ((خلوِ الي)) وكذلك يقرأ أهل الحجاز وهو جيد بالغ.

و ﴿إِنَّا﴾ الأصل فيه ((إننا)) كما قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾[طه: ٤٦]، ولكن النون حذفت لكثرة النونات والمحذوف النون الثانية من ((أن)) لأن في ((إنَّ)) نونين الأولى ساكنة والثانية متحركة.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾؛ ﴿نَحْنُ﴾ مبنية على الضم لأن ﴿نَحْنُ﴾ يدل على الجماعة وجماعة المضمرين يدل عليهم -إذا ثنيت الواحد من لفظه- الميم والواو نحو: ((فعلوا وأنتم قالوا)) من جنس الضمة فلم يكن بد من حركة ﴿نَحْنُ﴾ فحركت بالضم لأن الضم من الواو ألا ترى أن واو الجماعة إذا حركت لالتقاء الساكنين ضمت نحو ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾ وقد حركها بعضهم إلى الكسر فقال: ((اشتروِا الضلالة)) لأن اجتماع الساكنين يوجب كسر الأولى إذا كانتا من كلمتين والقراءة المجمع عليها: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾ بالضم وقد رويت: ((اشتروَا الضلالة)) بالفتح وهو شاذ جداً.

و ﴿مُسْتَهْزِئُونَ﴾: القراءة الجيدة فيه بتحقيق الهمزة فإذا خففت الهمزة جعلت الهمزة بين الواو والهمزة فقلت ((مستهزون)) فهذا الاختيار بعد التحقيق، ويجوز أن تبدل من الهمزة ياء فتقول: ((مستهزيون)) فأما ((مستهزون)) فضعيف لا وجه له إلا شاذاً على لغة من أبدل الهمزة ياء فقال في استهزأت: ((استهزيت))، فيجب على لغة ((استهزيت)) أن يقال: ((مستهزون)).

وقوله -عز وجل-:﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ فيه أوجه من الجواب:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٦١/٧)، معاني القرآن (٢٣/٣)، شرح ابن عقيل (٧٠/٣)، لسان العرب (٣٤٠/٨)، تاج العروس (٥٥٤٨/١).

فمعنى استهزاء الله بهم: أن أظهر لهم من أحكامٍ في الدنيا خلاف ما لهم في الآخرة كما أظهروا من الإسلام خلاف ما أسروا.

ويجوز أن يكون استهزاؤه بهم: أخذه إياهم من حيث لا يعلمون كما قال -عز وجل-: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف: ١٨٢].

ويجوز -والله أعلم- وهو الوجه المختار عند أهل اللغة أن يكون معنى ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على هزئهم بالعذاب فسمى جزاء الذنب باسمه كما قال -عز وجل-: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠]، فالثانية ليست سيئة في الحقيقة ولكنها سميت سيئة لازدواج الكلام. وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤]، فالأول ظلم، والثاني ليس بظلم، ولكنه جيء في اللغة باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به. فهذه ثلاثة أوجه -والله أعلم-.

وكذلك يجري هذا المجرى قوله -عز وجل-: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[النساء: ١٤٢]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ﴾[الأنفال: ٣٠].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

معنى ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يمهلهم وهو يدل على الجواب الأول و ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ معناه: في غلوهم وكفرهم ومعنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في اللغة: يتحيرون[1] يقال: «رجل عمه وعامه» أي: متحير قال الراجز[2]:

وَمَهْمَهٍ أَطْرافُهُ فِي مَهْمَهِ أَعْمَى الهُدَى بِالجاهِلِينَ العُمَّهِ

وقوله -عز وجل-: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ موضعه رفع بالابتداء وخبره ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ﴾ وقد فسرنا «واو» ﴿اشْتَرَوُا﴾ وكسرتها فأما من يبدل الضمة همزة فيقول: «اشترؤُ الضلالة» فغالط لأن الواو المضمومة التي تبدل منها همزة إنما يفعل بها ذلك إذا لزمت ضمتها نحو قوله -عز

(١) قال الرغب: العمه: التردد في الأمر من التحير. يقال: عمه فهو عمه وعامه انظر: مفرداته «عمه».
وقال السرقسطي: يقال: عمه فلان في الأرض، وعمه عمها وعموهاً وعمهاناً: إذا تردد لا يدري أين يتوجه فهو عامه وعمه.

(٢) وهو: رؤبة بن العجاج.

وجل-: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾[المرسلات: ١١] إنما الأصل: ((وقتت)) وكذلك: ((أدؤر))[1] إنما أصلها: ((أدور)).

وضمة الواو في قوله: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ﴾ إنما هي لالتقاء الساكنين ومثله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[آل عمران: ١٨٦] ولا ينبغي أن تهمز الواو فيه.

ومعنى الكلام: أن كل من ترك شيئاً وتمسك بغيره فالعرب تقول للذي تمسك به: ((قد اشتراه)) وليس ثم شراء ولا بيع ولكن رغبته فيه بتمسكه به كرغبة المشتري بماله ما يرغب فيه.

قال الشاعر[2] [من الرجز]:

أَخَذْتُ بالجُمَّةِ رأْساً أَزْعَرَا وبالثَّنايا الواضحاتِ الدُّرْدُرَا

وبالطَّويلِ العُمْرِ عُمْراً أَنْزَرا كما اشترى المسْلِمُ إذْ تَنَصَّرا[3]

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾؛ معناه: فما ربحوا في تجارتهم لأن التجارة لا تربح وإنما يربح فيها، ويوضع فيها، والعرب تقول: ((قد خسر بيعك وربحت تجارتك)) يريدون بذلك الاختصار وسعة الكلام قال الشاعر[4] [من المتقارب]:

وَكيفَ تُواصِلُ مَن أَصبَحَت خِلالَتُهُ كَأَبي مَرحَبِ[5]

يريد: كخلاله أبي مرحب.

وقال الله -عز وجل-: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[سبأ: ٣٣]، والليل والنهار لا يمكران، إنما معناه: بل مكرهم في الليل والنهار.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ﴾.

هذا المثل ضربه الله -جل وعز- للمنافقين في تجملهم بظاهر الإسلام، وحقنهم

---

(١) جمع: ((دار)).

(٢) وهو: أبو النجم العجلي.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (١/٤٨).

(٤) هو النابغة الجعدي.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١/١٧٤)، تفسير القرطبي (٢/٢٣٣)، الإنصاف في مسائل الخلاف (١/٦٢)، دلائل الإعجاز (١/٢٣٢)، لسان العرب (١/٤١٣)، تاج العروس (١/٥٢١).

دماءهم بما أظهروا، فمثل ما تجملوا به من الإسلام كمثل النار التي يستضيء بها المستوقد.

وقوله ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ معناه -والله أعلم-: اطلع الله المؤمنين على كفرهم فقد ذهب منهم نور الإسلام بما أظهر الله -عز وجل- من كفرهم ويجوز أن يكون ذهب الله بنورهم في الآخرة أي: عذبهم فلا نور لهم، لأن الله -جل وعز- قد جعل للمؤمنين نوراً في الآخرة وسلب الكافرين ذلك النور والدليل على ذلك قوله: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾[الحديد: ١٣].

وقوله -عز وجل- ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾؛ رفع على خبر الابتداء كأنه قيل: هؤلاء الذين قصتهم هذه القصة ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾.

ويجوز في الكلام: صماً بكماً عمياً على[1]: وتركهم صماً بكماً عمياً ولكن المصحف لا يخالف بقراءة لا تروى والرفع أيضاً أقوى في المعنى وأجزل في اللفظ.

فمعنى ﴿بُكْمٌ﴾ إنه بمنزلة من ولد أخرس، ويقال: ((الأبكم: المسلوب الفؤاد)) ((وصم وبكم)) واحدهم: ((أصم وأبكم)) ويجوز أن يقع جمع أصم: ((صمان)) وكذلك أفعل كله يجوز فيه فعلان نحو: ((أسود وسودان)) ومعنى: ((سود وسودان)) واحد، كذلك: ((صم وصمان وعرج وعرجان وبكم وبكمان)).

وقوله -عز وجل- ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ الصيب في اللغة[2]: المطر وكل نازل من علو إلى أسفل فقد صاب يصوب قال الشاعر [من الطويل]:

كَأَنَّهُمْ صابَت عَلَيهِم سَحابَةٌ صَواعِقُها لِطَيرِهِنَّ دَبيبُ[3]

وهذا أيضاً مثل يضربه الله -عز وجل- للمنافقين كأن المعنى: أو كأصحاب صيب. فجعل دين الإسلام لهم مثلاً فيما ينالهم من الشدائد والخوف وجعل ما يستضيئون به من البرق مثلاً لما يستضيئون به من الإسلام وما ينالهم من الخوف في البرق بمنزلة ما

---

(١) أي: معنى.

(٢) قال الراغب: وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ قيل: هو السحاب، وقيل: هو المطر، وتسميته به كتسميته بالسحاب، وأصاب السهم: إذا وصل إلى المرمى بالصواب، والمصيبة أصلها في الرمية، ثم اختصت بالنائبة.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨٢/١)، زاد المسير (٤٣/١)، لسان العرب (٥٣٤/١).

يخافونه من القتل. والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[المنافقون: ٤].

وقوله -عز وجل-: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾؛ فيه لغتان:

يقال: ((خَطِف يخطَفُ)) ((وخَطَف يَخطِفُ)) واللغة العالية التي عليها القراءة ((خَطِف يخطَفُ))، وهذا الحرف يروى عن العرب والقراء وفيه لغات تروى: عن الحسن ((يَخَطِّف أبصارهم)) بفتح الياء والخاء وكسر الطاء ويروى أيضاً: ((يِخِطِّف)) بكسر الياء والخاء والطاء، ويروى أيضاً لغة أخرى ليست تسوغ في اللفظ لصعوبتها وهي إسكان الخاء والطاء.

وقد روى سيبويه مثل هذا رده عليه أصحابه وزعموا أنه غير سائغ في اللفظ وأن الشعر لا يجمع في حشوه بين ساكنين قال [من الرجز]:

* ومَسْحِه مَرُّ عُقابٍ كاسِرِ[(١)]*

يبدل من الهاء حاء ويدغم الحاء الأولى في الثانية والسين ساكنة فيجمع بين ساكنين فأما بعد ((يَخْطَف)) فالجيد: ((يَخَطَّف ويخطِّف)) فمن قال: ((يَخَطَّف)) فالأصل: ((يختطف)) فأدغمت التاء في الطاء وألقيت على الخاء فتحة التاء ومن قال ((يخِطِّف)) كسر الخاء لسكونها وسكون الطاء.

وزعم بعض النحويين: أن الكسر لالتقاء الساكنين ههنا خطأ، وأنه يلزم من قال هذا أن يقول في يَعَضُّ: ((يَعِضُّ)) وفي يَمَدُّ: ((يَمِدُّ))، وهذا غلط غير لازم لأنه لو كسرها ههنا لالتبس ما أصله: ((يَفعَل ويَفعُل)) بما أصله: ((يَفْعِل)) و ((يَخطَّف)) ليس أصله غير هذا، ولا يكون مرة على: ((يَفْتَعِل)) ومرة على: ((يَفْتَعَل))، فكسر لالتقاء الساكنين في موضع غير ملبس، وامتنع في الملبس من الكسر لالتقاء الساكنين وألزم حركة الحرف الذي أدغمه لتدل الحركة عليه.

ومعنى ((خطفت الشيء)) في اللغة ((واختطفته)): أخذته بسرعة[(٢)].

وقوله -عز وجل-: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾؛ يقال: ((ضَاءَ الشيء يَضُوء وأَضَاءَ

---

(١) انظر: سر صناعة الإعراب (٥٨/١)، لسان العرب (١٣٩/٥)، تاج العروس (٣٤٥٣/١).

(٢) قال الراغب: الخطف والاختطاف: الاختلاس بالسرعة، يقال: خطف: خطف يخطف، وخطف يخطف.

يُضِيءُ)) وهذه اللغة الثانية هي المختارة ويقال: ((أَظلَمَ وظَلَم وأَظلمَ)) المختار.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ وقد فسرنا توحيد السمع ويقال: ((أذهبته وذهبت به))، ويروى: ((أذهبت به)) وهو لغة قليلة فأما ذكر ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي﴾ إلى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ فـ﴿أَوْ﴾ دخلت ههنا لغير شك وهذه يسميها الحذاق باللغة ((واو الإباحة)) فتقول: ((جالس القراء أو الفقهاء أو أصحاب النحو)) فالمعنى: أن التمثيل مباح لكم في المنافقين إن مثلتموهم بالذي استوقد ناراً فذاك مثلهم، وإن مثلتموهم بأصحاب الصيب فهذا مثلهم أو مثلتموهم بهما جميعاً فهما مثلاهم، كما أنك إذا قلت: ((جالس الحسن أو ابن سيرين)) فكلاهما أهل أن يجالس، إن جالست الحسن فأنت مطيع، وإن جمعتهما فأنت مطيع.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾؛ ويروى أيضاً: ((حذار الموت)) والذي عليه قراؤنا ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ وإنما نصبت ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ لأنه مفعول له؛ والمعنى: يفعلون ذلك لحذر الموت وليس نصبه لسقوط اللام وإنما نصبه أنه في تأويل المصدر كأنه قال: ((يحذرون حذراً)) لأن جعلهم أصابعهم في آذانهم من الصواعق يدل على حذرهم الموت وقال الشاعر [من الطويل]:

وأَغْفِرُ عَوْراءَ الكريم ادِّخارَه وأُعْرِضُ عن شَتْمِ اللَّئِيم تَكَرُّما(١)

والمعنى: لادخاره.

وقوله: ((وأغفر عوراء الكريم)) معناه: وأدخر الكريم.

وقوله -عز وجل-:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

معناه: أن الله احتج على العرب بأنه خالقهم وخالق من قبلهم، لأنهم كانوا مقرين بذلك والدليل على ذلك قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧]، قيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خلقكم فاعبدوه ولا تعبدوا الأصنام، وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٣٣٢)، تفسير القرطبي (٢/١٩٩)، فتح القدير (١/٢٥٥)، تفسير البيضاوي (١/ ١٩٩)، روح المعاني (١/١٧٤)، أسرار العربية (١/١٧٣)، الجمل في النحو (١/١٢٢)، الأصول في النحو (١/٢٠٧)، شرح ابن عقيل (٢/١٩٠)، اللمع في العربية (١/٥٩)، لسان العرب (٤/٦١٢)، تاج العروس (١/٣٢٥٦).

معناه: تتقون الحرمان بينكم وتكفون عما تأتون مما حرمه الله.

فأما لعل ففيها قولان ههنا عن بعض أهل اللغة:

أحدهما: معناه: ((كي تتقوا)) والذي يذهب إليه سيبويه في مثل هذا أنه ترج لهم كما قال في قصة فرعون ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[طه: ٤٤] كأنه قال: اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما والله -عز وجل- من وراء ذلك، وعالم بما يؤول إليه أمر فرعون.

وأما إعراب ﴿يَا أَيُّهَا﴾ فـ ((أي)) اسم مبهم مبني على الضم لأنه منادى مفرد والناس صفة لأي لازمة تقول: ((يا أيها الرجل أقبل)) ولا يجوز: ((يا لرجل)) لأن ياء التنبيه بمنزلة التعريف في الرجل فلا يجمع بين ((ياء)) وبين الألف واللام فتصل إلى الألف واللام بـ ((أي)).

((وها)) لازمة لـ ((أي)) للتنبيه وهي عوض من الإضافة في ((أي)) لأن أصل ((أي)): أن تكون مضافة في الاستفهام والخبر.

وزعم سيبويه عن الخليل أن المنادى المفرد مبني وصفته مرفوعة رفعاً صحيحاً، لأن النداء يطرد في كل اسم مفرد فلما كانت البنية مطردة في المفرد خاصة شبه بالمرفوع فرفعت صفته والمازني[1] يجيز في: ((يا أيها الرجل)) النصب في ((الرجل)) ولم يقل بهذا القول أحد من البصريين غيره وهو قياس لأن موضع المفرد المنادى نصب فحملت صفته على موضعه وهذا في غير: ((يا أيها الرجل)) جائز عند جميع النحويين نحو قولك: ((يا زيد الظريفَ والظريفُ)) والنحويون لا يقولون إلا: ((يا أيها الرجلُ يا أيها الناسُ)) والعرب لغتها في هذا الرفع ولم يرد عنها غيره وإنما المنادى في الحقيقة ((الرجل)) ولكن ((أي)) صلة إليه.

وقال أبو الحسن الأخفش: إن ((الرجل)) أن يكون صلة لـ ((أي)) أقيس وليس أحد من البصريين يتابعه على هذا القول.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً﴾؛ ومعناه: وطأة لم يجعلها حزنة غليظة لا يمكن الاستقرار عليها.

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ كل ما علا على الأرض فاسمه: ((بناء)) ومعناه: إنه جعلها

---

(١) أحد الأئمة في النحو، من أهل البصرة، له تصانيف منها كتاب: ((ما تلحن فيه العامة))، توفي عام (٢٤٩هـ= ٨٦٣م).

سقفاً كما قال -عز وجل-: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً﴾ ويجوز في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ﴾ وجهان: الإدغام والإظهار تقول: ﴿جَعَل لَّكُمُ﴾، و﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ﴾ فمن أدغم فلاجتماع حرفين من جنس واحد، وكثرة الحركات ومن أظهر -وهو الوجه وعليه أكثر القراء- فلأنهما منفصلان من كلمتين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ هذا احتجاج عليهم لإقرارهم بأنه الله خالقهم فقيل لهم: لا تجعلوا لله أمثالاً وأنتم تعلمون أنهم لا يخلقون والله الخالق، وفي اللغة: فلان نِدُّ فلان ونَدِيد فلان [(١)] ، قال جرير[(٢)]:

أَتَيْماً تَجْعَلون إليّ نِدًّا ... وما تيمٌ لِذِي حَسَبٍ نديدُ[(٣)]

فهذه الآية والتي قبلها احتجاج عليهم في تثبيت توحيد الله -عز وجل- ثم احتج عليهم فيما يلي هذه الآية بتثبيت أمر النبي ﷺ فقال ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾.

﴿فِي رَيْبٍ﴾ معناه: في شك.

وقوله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ للعلماء فيه قولان:

أحدهما: قال بعضهم: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾: من مثل القرآن كما قال -عز وجل-: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[هود: ١٣].

وقال بعضهم ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ من بشر مثله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي: ادعوا من استدعيتم طاعته، ورجوتم معونته في الإتيان بسورة من مثله.

---

(١) قال الراغب: نديد الشيء: مشاركه في جوهره، وذلك ضرب من المماثلة؛ فإن المثل يقال في أي مشاركة كانت، فكل ند مثل، وليس كل مثل نداً، ويقال: نده ونديده ونديدته.

(٢) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم: أشعر أهل عصره. ولد ومات في اليمامة. وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم - وكان هجاءاً مراً - فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. وكان عفيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً. وقد جمعت نقائضه مع الفرزدق، وأخباره مع الشعراء وغيرهم كثيرة جداً. وكان يكنى بأبي حزرة. وفاته جرير (١١٠ هـ).

انظر ترجمته في: وفيات الأعيان (١٠٢/١)، والشعر والشعراء (ص: ١٧٩)، والخزانة (٣٦/١)، والأعلام (جرير).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٥٢/٩)، فتح القدير (٤٦٧/٤)، تفسير البيضاوي (٢٢٢/١).

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾؛ قيل لهم هذا بعد أن ثبت عليهم أمر التوحيد وأمر النبي ﷺ فودعوا بالعذاب إن لم يؤمنوا بعد ثبوت الحجة عليهم وجزم ﴿لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ لأن ﴿لَّمْ﴾ أحدثت في الفعل المستقبل معنى المضي فجزمته وكل حرف لزم الفعل فأحدث فيه معنى فله فيه من الإعراب على قسط معناه فإن كان ذلك الحرف «أن» وأخوتها نحو: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾، و﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾[التوبة: ٣٢]، فهو نصب، لأن «أن» وما بعده بمنزلة الاسم فقد ضارعت «أن» الخفيفة «أن» المشددة وما بعدها، لأنك إذا قلت: «ظننت أنك قائم» فمعناه: ظننت قيامك وإذا قلت: «أرجو أن تقوم» فمعناه: «أرجو قيامك» فمعنى «أن» وما عملت فيه كمعنى «أن» المشددة وما عملت فيه فلذلك نصبت «أن» وجزمت «لم» لأن ما بعدها خرج من تأويل الاسم.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؛ عرفوا عذاب الله -عز وجل- بأشد الأشياء التي يعرفونها، لأنه لا شيء في الدنيا أبلغ فيما يؤلم من النار، فقيل لهم: إن عذاب الله من أشد الأجناس التي يعرفونها إلا أنه من هذا الشديد الذي يعرفونه ويقال: إن الحجارة هنا تفسيرها حجارة الكبريت[1].

وقوله ﴿وَقُودُهَا﴾؛ الوقود: هو الحطب وكل ما أوقد به فهو وقود ويقال: هذا وقودك ويقال: قد وقدت النار وُقُوداً، فالمصدر مضموم، ويجوز فيه الفتح وقد روي: وقِدت النَّار وَقوداً وقبلت الشيء قَبولاً فقد جاء في المصدر «فَعُول» والباب الضم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

ذكر ذلك للمؤمنين وما أعد لهم جزاء لتصديقهم بعد أن ذكر لهم جزاء الكافرين وموضع ﴿أَنَّ﴾ نصب؛ معناه: بشرهم بأن لهم جنات، فلما سقطت الباء أفضى الفعل إلى «أن» فنصبت.

وقد قال بعض النحويين: إنه يجوز أن يكون موضع مثل هذا خفضاً، وإن سقطت

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣/١)، تفسير ابن كثير (٩١/١)، تفسير القرطبي (٢٧٦/١)، فتح القدير (٨٣/١)، تفسير البغوي (٧٢/١)، تفسير البيضاوي (٢٣٦/١)، الوجيز للواحدي (٩٦/١)، تفسير النسفي (٢٩/١)، روح المعاني (١٩٨/١)، زاد المسير (٥١/١)، الكشاف (٥٠/١)، تفسير الصنعاني (٤٠/١)، مفردات القرآن (٢٩٨/١).

الباء من «أن» و﴿جَنَّاتٍ﴾ في موضع نصب بـ «أن» إلا أن التاء تاء جماعة المؤنث، هي في الخفض والنصب على صورة واحدة كما أن ياء الجمع في النصب والخفض على صورة واحدة تقول: «رأيت الزيدين ومررت بالزيدين ورأيت الهندات ورغبت في الهندات».

والجنة في لغة العرب: البستان والجنات: البساتين وهي التي وعد الله بها المتقين وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

قوله -عز وجل-: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾.

قال أهل اللغة: معنى «متشابه»: يشبه بعضه بعضاً في الجودة والحسن وقال أهل التفسير [1] وبعض أهل اللغة «متشابهاً» يشبه بعضه بعضاً في الصورة، ويختلف في الطعم ودليل المفسرين قوله: ﴿هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ لأن صورته الصورة الأولى ولكن اختلاف الطعوم على اتفاق الصورة أبلغ وأعرف عند الخلق لو رأيت تفاحاً فيه طعم كل الفاكهة لكان غاية في العجب والدلالة على الحكمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: أنهن لا يحتجن إلى ما يحتاج إليه نساء أهل الدنيا من الأكل والشرب ولا يحضن ولا يحتجن إلى ما يتطهر منه، وهن على هذا طاهرات طهارة الأخلاق والعفة فـ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ تجمع الطهارة كلها لأن مطهرة أبلغ في الكلام من طاهرة ولأن ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ إنما يكون للكثير وإعراب أزواج الرفع بـ﴿وَلَهُمْ﴾ وإن شئت بالابتداء.

ويجوز في ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أن يكون واحدتهن زوجاً وزوجة، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥] وقال الشاعر[2] [من الكامل]:

فَبَكى بَناتي شَجوَهُنَّ وَزَوجَتي ... وَالأَقرَبونَ إِلَيَّ ثُمَّ تَصَدَّعوا[3]

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

إن قال قائل: ما معنى ذكر هذا المثل بعقب ما وعدت به أهل الجنة وما أعد للكافرين ؟

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٢٤٠)، وتفسير ابن كثير (١/٦٤)، وتفسير الثعالبي (١/٤١).

(٢) هو عبدة بن الطيب.

(٣) انظر: أوضح المسالك (٢/١١٦)، الخصائص (٣/٢٩٥)، المزهر في علوم اللغة (١/١٦٩).

قيل[1]: يتصل هذا بقوله: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَندَاداً﴾ لأن الله -عز وجل- قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾[الحج: ٧٣]، وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾[العنكبوت: ٤١] فقال الكافرون: إن إله محمد يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت فقال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: لهؤلاء الأنداد الذين اتخذتموهم من دون الله لأن هذا في الحقيقة مثل هؤلاء الأنداد[2].

فأما إعراب ﴿بَعُوضَةً﴾ فالنصب من جهتين في قولنا وذكر بعض النحويين جهة ثالثة فأما أجود هذه الجهات: فأن تكون «ما» زائدة مؤكدة كأنه قال: إن الله لا يستحي أن يضرب بعوضة مثلاً ومثلاً بعوضة وما زائدة مؤكدة نحو قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٩]؛ المعنى: فبرحمة من الله حقاً.

فـ «ما» في التوكيد بمنزلة حق، إلا أنه لا إعراب لها والخافض والناصب يتخطاها إلى ما بعدها؛ فمعناها: التوكيد ومثلها في التوكيد «لا» في قوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾[الحديد: ٢٩]؛ معناه: لأن يعلم أهل الكتاب ويجوز أن يكون «ما» نكرة فيكون المعنى: إن الله ليستحي أن يضرب شيئاً مثلاً، وكأن ﴿بَعُوضَةً﴾ في موضع وصف شيء كأنه قال: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً شيئاً من الأشياء بعوضة فما فوقها.

وقال بعض النحويين: يجوز أن يكون معناه: ما بين بعوضة إلى ما فوقها والقولان الأولان قول النحويين القدماء.

والاختيار عند جمع البصريين أن يكون «ما» لغواً والرفع في بعوضة جائز في الإعراب ولا أحفظ من قرأ به، ولا أعلم هل قرأ به أحد أم لا ؟ فالرفع على إضمار «هو» كأنه قال: مثلاً الذي هو بعوضة، وهذا عند سيبويه ضعيف وعنه مندوحة ولكن من قرأ ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾[الأنعام: ١٥٤]، وقد قرىء به، جاز أن يقرأ ﴿مَثَلاً مَّا بَعُوضَةٌ﴾، ولكنه في ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أقوى لأن «الذي» أطول[3] وليس «للذي» مذهب غير الأسماء.

وقالوا في معنى قوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ قالوا في ذلك قولين:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٢٨٣)، تفسير البيضاوي (١/٢٥٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٩٧)، تفسير البغوي (١/٧٦).

(٣) يريد أن صلة «الذي» أطول من صلة «ما».

قالوا ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: أكبر منها وقالوا ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الصغر.

وبعض النحويين يختارون الأول، لأن البعوضة كأنها نهاية في الصغر فيما يضرب به المثل والقول الثاني مختار أيضاً لأن المطلوب هنا والغرض الصغر وتقليل المثل بالأنداد.

قوله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ يعني: صدقوا.

﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ أن هذا المثل حق.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـذَا مَثَلاً﴾ أي: ما أراد بالذباب والعنكبوت مثلاً ؟

فقال الله -عز وجل-: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾؛ أي: يدعو إلى التصديق به الخلق جميعاً فيكذب به الكفار فيضلون به.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ﴾ يدل على أنهم المضلون به.

﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ يزاد به المؤمنون هداية، لأن كلما ازدادوا تصديقاً فقد ازدادوا هداية.

والفاء دخلت في جواب ((أما)) في قوله: ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ لأن ((أما)) تأتي بمعنى الشرط والجزاء كأنه إذا قال: ((أما زيد فقد أمن وأما عمرو فقد كفر))؛ فالمعنى: مهما يكن من شيء فقد آمن زيد ومهما يكن من شيء فقد كفر عمرو.

وقوله ﴿مَاذَا﴾ يجوز أن يكون ((ما)) و((ذا)) اسماً واحداً يكون موضعهما نصباً؛ المعنى: أي شيء أراد الله بهذا مثلاً، ويجوز أن يكون ((ذا)) مع ((ما)) بمنزلة ((الذي))؛ فيكون المعنى: ما الذي أراده الله بهذا مثلاً، ويكون ((ما)) هنا رفعاً بالابتداء، و((ذا)) في معنى ((الذي)) وهو خبر الابتداء.

وإعراب ﴿الفَاسِقِينَ﴾ نصب، كأن المعنى: وما يضل به إلا الفاسقين.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾.

﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾ هنا -والله أعلم- ما أخذ على النبيين ومن اتبعهم ألا يكفروا بأمر النبي ﷺ دليل ذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران: ٨١]، فهذا هو

العهد المأخوذ على كل من أتبع الأنبياء عليهم السلام: أن يؤمنوا بالرسول المصدق لما معهم، و﴿إِصْرِي﴾ مثل: ((عهدي)).

ويجوز أن يكون ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾ الذي أخذه من بني آدم من ظهورهم حين قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[الأعراف: ١٧٢].

وقال قوم: إن ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾ هو الاستدلال على توحيده، وأن كل ذي تمييز يعلم أن الله خالق فعليه الإيمان به، والقولان الأولان في القرآن ما يصدق تفسيرهما.

فأما إعراب ﴿الَّذِينَ﴾ فالنصب على الصفة للفاسقين وموضع قوله: ﴿أَن يُوصَلَ﴾ خفض على البدل من الهاء؛ والمعنى: ما أمر الله بأن يوصل.

وموضع ﴿أُوْلَئِكَ﴾ رفع بالابتداء و﴿هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ خبر الابتداء.

و﴿هُمُ﴾ بمعني الفصل وهو الذي يسميه الكوفيون العماد، ويجوز أن يكون ﴿أُوْلَئِكَ﴾ رفعاً بالابتداء و﴿هُمُ﴾ ابتداء ثان و﴿الخَاسِرُونَ﴾ خبر لـ﴿هُمُ﴾، و﴿هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ خبر عن ﴿أُوْلَئِكَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

فكونهم أمواتاً أولاً أنهم كانوا نطفاً ثم جعلوا حيواناً ثم أميتوا ثم أحيوا ثم يرجعون إلى الله -عز وجل- بعد البعث كما قال ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾[القمر: ٨] أي: مسرعين، وقوله -عز وجل- ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً﴾[المعارج: ٤٣] والأجداث:القبور.

وتأويل ﴿كَيْفَ﴾ أنها استفهام في معنى التعجب، وهذا التعجب إنما هو للخلق وللمؤمنين، أي: اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون وقد ثبتت حجة الله عليهم.

ومعنى ﴿وَكُنتُمْ﴾ وقد كنتم، وهذه الواو للحال، وإضمار ((قد)) جائز إذا كان في الكلام دليل عليه، وكذلك قوله ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[النساء: ٩٠]، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾[يوسف: ٢٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾؛ موضع ((ما)) مفعول به، وتأويله: أن جميع ما في الأرض منعم به عليكم فهو لكم.

وفيه قول آخر: أن ذلكم دليل على توحيد الله -عز وجل-.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ فيه قولان:

قال بعضهم: ﴿اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ عمد وقصد إلى السماء كما تقول: «قد فرغ الأمير من بلد كذا وكذا ثم استوى إلى بلد كذا» معناه: قصد بالاستواء إليه.

وقد قيل أيضاً: ﴿اسْتَوَى﴾ أي: صعد أمره إلى السماء؛ وهذا قول ابن عباس.

والسماء لفظها لفظ الواحد ومعناها معنى الجميع، والدليل على ذلك قوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾؛ ويجوز أن يكون السماء جمعاً كما أن السماوات جمع كأن واحده: «سماة وسماوة»، و«سماء» للجميع.

وزعم أبو الحسن الأخفش أن السماء جائز أن يكون واحداً يراد به الجمع كما تقول: «كثر الدرهم والدينار في أيدي الناس».

«والسماء» في اللغة: السقف، ويقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو، وكل سقف فهو سماء -يا فتى- ومن هذا قيل للسحاب لأنها عالية [(١)] .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

قال أبو عبيدة «إذ» ههنا زائدة، وهذا إقدام من أبي عبيدة، لأن القرآن لا ينبغي أن يتكلم فيه إلا بغاية تجري إلى الحق، ﴿وَإِذْ﴾ معناها: الوقت وهي اسم، فكيف يكون لغواً ومعناها الوقت ؟

والحجة في ﴿وَإِذْ﴾: أن الله تعالى ذكر خلق الناس وغيرهم فكأنه قال: ابتدأ خلقكم إذ قال ربك للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وفي ذكر هذه الآية احتجاج على أهل الكتاب بتثبيت نبوة النبي ﷺ أن خبر آدم وما أمره الله به من سجود الملائكة له معلوم عندهم، وليس هذا من علم العرب الذي كانت تعلمه، ففي إخبار النبي ﷺ دليل على تثبيت رسالته، إذ آتاهم بما ليس من علم العرب وإنما هو خبر لا يعلمه إلا من قرأ الكتاب أو أوحي إليه به.

---

(١) قال الراغب: سماء كل شيء: أعلاه، قال بعضهم: كل سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماء، وبالإضافة إلى ما فوقها فأرض إلا السماء العليا فإنها سماء بلا أرض، وسمي المطر سماء لخروجه منها، قال بعضهم: إنما سمي سماء ما لم يقع بالأرض اعتباراً بما تقدم، وسمي النبات سماء؛ إما لكونه من المطر الذي هو سماء؛ وإما لارتفاعه عن الأرض. والسماء المقابل للأرض مؤنثة، وقد تذكر، ويستعمل للواحد والجمع. انظر: مفردات الراغب «سما».

وتأويل قوله -عز وجل-: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾: روي أن خلقاً يقال لهم: «الجان» كانوا في الأرض، فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله ملائكته فأجلتهم من الأرض[١].

وقيل: إن هؤلاء الملائكة صاروا سكان الأرض بعد الجان.

فقالوا: يارب ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وتأويل استخبارهم هذا على جهة الاستعلام وجهة الحكمة لا على الإنكار، فكأنهم قالوا يا الله: إن كان هذا ظنًّا فعرفنا وجه الحق فيه.

وقال قوم: المعنى في هذا: -وهو- أن الله -عز وجل- أعلم الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، وأن من الخليقة فرقة تسفك الدماء وهي فرقة من بني آدم، وأذن الله -عز وجل- للملائكة أن يسألوه عن ذلك، وكان إعلامه إياهم هذا زيادة في التثبيت في نفوسهم أنه يعلم الغيب، فكأنهم قالوا: أتخلق فيها قوماً يسفكون الدماء ويعصونك ؟ وإنما ينبغي إذا عرفوا أنك خلقتهم أن يسبحوا بحمدك كما نسبح، ويقدسوا كما نقدس، ولم يقولوا هذا إلا وقد أذن لهم.

ولا يجوز على الملائكة أن تقول شيئاً تتظنى فيه لأن الله -تعالى- وصفهم بأنهم يفعلون ما يؤمرون.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أبتلي من تظنون أنه يطيع فيهديه الابتلاء، فالألف ههنا إنما هي على إيجاب الجعل في هذا القول كما قال جرير [من الوافر]:

أَلَستُم خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا ... وَأَندى العالَمينَ بُطونَ راحِ[٢]

ومعنى ﴿وَيَسْفِكُ﴾ يصب، يقال: سفك الشيء إذا صبه.

ومعنى ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ نبرئك من السوء، وكل من عمل عملاً قصد به الله فقد

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣٠٢/١)، تفسير الثعالبي (٤٣/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦١/١٠)، تفسير القرطبي (٢٨٢/٣)، فتح القدير (٤٢٥/١)، تفسير البغوي (٣٢٢/١)، تفسير البيضاوي (٣٢٤/١)، روح المعاني (١٩٧/١٨)، زاد المسير (٦٠/١)، تفسير الثعالبي (٢٠٨/١)، الكشاف (٩٥٨/١)، الجمل في النحو (٧٥/١)، الخصائص (٤٦٣/٢)، حروف المعاني (١٩/١)، مغني اللبيب (٢٥/١)، الأغاني (٩/٨)، خزانة الأدب (٣١٣/٢)، دلائل الإعجاز (١٥٠/١)، لسان العرب (١٠٠/٧).

سبَّح، يقال: «فرغت من تسبيحي» أي: من صلاتي.

وقال سيبويه وغيره من النحويين: إن معنى «سبحان الله»: براءة الله من السوء وتنزيهه من السوء، وقال الأعشى [من السريع]:

أَقولُ لمَّا جَاءَنِي فَخْرُه سبحانَ مِن عَلْقَمَةَ الفاخِرِ[1]

المعنى: البراءة منه ومن فخره.

ومعنى ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نطهر أنفسنا لك، وكذلك من أطاعك نقدسه أي: نطهره، ومن هذا: «بيت المقدس» أي: البيت المطهر، أو المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ﴾.

قال أهل اللغة: علم آدم أسماء الأجناس[2] ، وعرض أصحاب الأسماء من الناس وغيرهم على الملائكة، فلذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ لأن فيهم من يعقل وكل ما يعقل يقال لجماعتهم «هم». و«هم» يقال للناس ويقال للملائكة ويقال للجن ويقال للجان ويقال للشياطين، فكل مميز في الإضمار «هم» هذا مذهب أهل اللغة.

وقد قال بعض أهل النظر: إن الفائدة في الإتيان بالأسماء أبلغ منها هي الفائدة بأسماء معاني كل صنف من هذه، لأن الحجة في هذا: أن الخيل إذا عرضت فقيل ما اسم هذه ؟ قيل: خيل، فأي اسم وضع على هذه أنبأ عنها، وإنما الفائدة أن تنبئ باسم كل معنى في كل جنس، فيقال هذه تصلح لكذا.

فهذه الفائدة البينة التي يتفق فيها أن تسمى الدابة والبعير بأي اسم شئت، والمعنى الذي فيها وهو خاصها معنى واحد وإن اختلفت عليه الأسماء -والله أعلم-.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾؛ قرأت القراء ﴿لِلْمَلائِكَةِ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤٠/١)، تفسير القرطبي (٣١٧/١)، فتح القدير (٩٩/١)، تفسير البيضاوي (٢٨٨/١)، تفسير أبي السعود (٨٥/١)، الدر المنثور (١٨٢/٥)، روح المعاني (٢٢٦/١)، معاني القرآن (١١٨/٤)، مفردات القرآن (٦٤٥/١)، الخصائص (١٩٧/٢)، صبح الأعشى (٤٤٤/١)، لسان العرب (٤٧٠/٢)، تاج العروس (١١١٧/١).

(٢) معنى كلامه أو بعضه في هذا الموضع وارد في كتب المفسرين واللغويين، انظر: تفسير القرطبي (٣٢٠/١)، تفسير الطبري (٢٥١/١)، فتح القدير (١٠٢/١)، تفسير الجلالين (٨/١)، تفسير أبي السعود (٨٣/١)، زاد المسير (٦٢/١)، مفردات القرآن (٧١٩/١)، المزهر في علوم اللغة (٧/١)، دلائل الإعجاز (٣٩٢/١)، لسان العرب (٣٩٧/١٤)، تاج العروس (٨/١).

اسْجُدُوا﴾ بالكسر، وقرأ أبو جعفر المدني[١] وحده «للملائكةُ اسجدوا» بالضم.

وأبو جعفرمن جلة أهل المدينة، وأهل الثبت في القراءة إلا أنه غلط في هذا الحرف، لأن «الملائكة» في موضع خفض، فلا يجوز أن يرفع المخفوض، ولكنه شبَّه تاء التأنيث بكسر ألف الوصل، لأنك إذا ابتدأت قلت: «اسجدوا»، وليس ينبغي أن يقرأ القرآن بتوهم غير الصواب.

﴿وَإِذْ﴾ في موضع نصب عطف على «إذ» التي قبلها.

والملائكة: واحدهم «ملك»، والأصل فيه: «ملاك» أنشد سيبويه [من الطويل]:

فَلَستَ لإنسيٍ وَلكِن لملاكٍ تَنَزَّلَ مِن جَوّ السَّماءِ يَصوبُ[٢]

ومعناه: صاحب رسالة، ويقال: «مَأْلُكة ومَأْلَكة ومَأْلُك» جمع: «مَأْلَكة» قال الشاعر[٣] [من الرمل]:

أَبلِغِ النُعمانَ عَنّي مَأْلَكاً إِنَّني قَد طالَ حَبسي وَانتِظاري[٤]

---

(١) أبو جعفر القارئ، أحد القرّاء العشرة من التابعين، كان إمام المدينة في القراءة. توفي عام (١٣٢هـ= ٧٥٠م).

(٢) والبيت لأبي وجزة السعدي. وورد البيت في: تفسير الطبري (١/١٨٢)، تفسير القرطبي (١/٣٠٢)، فتح القدير (٣/٣١)، زاد المسير (١/٥٩)، الأصول في النحو (٣/٣٣٩)، اللباب علل البناء والإعراب (٢/٢٥٨)، إصلاح المنطق (١/٧١)، لسان العرب (١/٥٣٤)، تاج العروس (١/٦٦٩).

(٣) هو عدي بن زيد بن حماد بن زيد العبادي التميمي: شاعر، من دهاة الجاهليين. كان قروياً، من أهل الحيرة، فصيحاً، يحسن العربية والفارسية والرمي النشاب، ويلعب لعب العجم بالصوالجة على الخيل. وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، اتخذ في خاصته وجعله ترجماناً بينه وبين العرب. فسكن المدائن. ولما مات كسرى أنو شروان وولي ابنه هرمز أقر عدياً ورفع منزلته ووجهه رسولاً إلى ملك الروم في القسطنطينية، بهدية، فزار بلاد الشام، وعاد إلى المدائن بهدية قيصر. ثم تزوج هندا بنت النعمان بن المنذر ووشى به أعداء له إلى النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله في سجنه بالحيرة. وقال ابن قتيبة: كان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف فثقل لسانه، وعلماء العربية لا يرون شعره حجة. وجمع ما بقي من شعره في ديوان. وفاته (نحو ٣٥ قبل الهجرة).

انظر ترجمته في: خزانة الأدب للبغدادي (١: ١٨٤ - ١٨٦)، والأغاني (٢: ٩٧)، والنجوم الزاهرة (١: ٢٤٩)، وجمهرة الأنساب (ص: ٢٠٣)، والشعر والشعراء (ص: ٦٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١/٢٣٢)، تفسير القرطبي (١/٣٠٢)، فتح القدير (١/٩٩)، زاد المسير (١/٥٩)، الأغاني (٢/١٠٥)، شرح كتاب الأمثال (١/٢٦٦)، لسان العرب (١/٥٨٣)، تاج العروس (١/٣٤٠٦).

وقوله: ﴿لِآدَمَ﴾ آدم في موضع جر إلا أنه لا ينصرف لأنه على وزن «أَفْعَل».

يقول أهل اللغة: إن اشتقاقه من أديم الأرض لأنه خلق من تراب، وكذلك «الأدمة» إنما هي مشبهة بلون التراب.

فإذا قلت: «مررت بآدم وآدم آخر» فإن النحويين يختلفون في أفعل الذي يسمى به، وأصله: الصفة، فسيبويه والخليل ومن قال يقولهما يقولون: إنه ينصرف في النكرة لأنك إذا نكرته رددته إلى حال قد كان فيها ينصرف.

وقال أبو الحسن الأخفش: إذا سميت به رجلاً فقد أخرجته من باب الصفة، فيجب إذا نكرته أن تصرفه فتقول: «مررت بآدم وآدم آخر».

ومعنى السجود لآدم عبادة الله -عز وجل- لا عبادة آدم لأن الله -عز وجل-: إنما خلق ما يعقل لعبادته.

فإذا ابتدأت قلت: «اسْجُدُوا» فضممت الألف، والألف لا حظ لها في الحركة أعني هذه الهمزة المبتدأ بها. وإنما أدخلت للساكن الذي بعدها، لأنه لا يبتدأ بساكن فكان حقها الكسر، لأن بعدها ساكناً، وتقديرها السكون، فيجب أن تكسر لالتقاء الساكنين، ولكنها ضمت لاستثقال الضمة بعد الكسر، وكذلك كل ما كان ثالثه مضموماً في الفعل المستقبل نحو قوله ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾[النساء: ٥٠]، ونحو ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾[يوسف: ٩] لأنه من «نَظَر يَنْظُر وقَتَل يَقْتُل».

وإنما كرهت الضمة بعد الكسرة لأنها لا تقع في كلام العرب -لثقلها- بعدها، فليس في الكلام مثل: «فِعُل» ولا مثل «إفْعَل».

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

قال قوم: إن إبليس كان من الملائكة فاستثني منهم في السجود[1].

---

(١) وهو قول ابن عباس قال البغوي في تفسيره (١/٨١): واختلفوا فيه -أي: حقيقة إبليس- فقال ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر المفسرين: كان إبليس من الملائكة، وقال الحسن: كان من الجن ولم يكن من الملائكة.

وانظر أيضاً تفصيل القولين في: تفسير الطبري (١/٢٦١)، تفسير ابن كثير (١/١١٢)، تفسير القرطبي (١/٣٣٢)، فتح القدير (٣/١٨٧)، الدر المنثور (٥/٤٠٢)، روح المعاني (٨/٨٧)، الكشاف (١/٦٤١)، معاني القرآن (٣/١٤).

وقال قوم من أهل اللغة: لم يكن إبليس من الملائكة[1]، والدليل على ذلك قوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ﴾[الكهف: ٥٠]؛ فقيل لهؤلاء فكيف جاز أن يستثنى منهم؟

فقالوا: إن الملائكة -وإياه- أمروه بالسجود، قالوا: ودليلنا على أنه أمر معهم قوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾ فلم يأب إلا وهو مأمور.

وهذا القول هو الذي نختاره، لأن إبليس كان من الجن كما قال -عز وجل-، والقول الآخر غير ممتنع ويكون ﴿كَانَ مِنَ الجِنِّ﴾ أي: كان ضالاً كما أن الجن كانوا ضالين، فجعل منهم كما قال في قصته.

﴿وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ فتأويلها: أنه عمل عملهم فصار بعضهم كما قال -عز وجل- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾[التوبة: ٦٧].

وفي هذه الآية من الدلالة على تثبيت الرسالة للنبي ﷺ كما في الآية التي قبلها والتي تليها لأنه إخبار بما ليس من علم العرب، ولا يعلمه إلا أهل الكتاب أو نبي أوحي إليه.

وإبليس: لم يصرف لأنه اسم أعجمي اجتمع فيه العجمة والمعرفة، فمنع من الصرف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾؛ الرغد: الكثير الذي لا يعنيك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: إن عملتما بأعمال الظالمين صرتما منهم.

ومعنى ﴿وَلاَ تَقْرَبَا﴾ ههنا – لا تأكلا ودليل ذلك قوله: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: لا تقرباها في الأكل.

﴿وَلاَ تَقْرَبَا﴾ جزم بالنهي.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ نصب لأن جواب النهي بالفاء نصب، ونصبه عند سيبويه والخليل بإضمار «أن»؛ والمعنى: لا يكن منكما قرب لهذه الشجرة فَكَوْنٌ من الظالمين.

ويجوز أن يكون ﴿فَتَكُونَا﴾ جزم على العطف على قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾.

---

(١) وقالوا: إن الأمر شمله لأن أكثر الحاضرين وأغلبهم ملائكة فاستثني من جملة المأمورين. انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (٩١/١).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾؛ معناه: أنهما أزلا بإغواء الشيطان إياهما، فصار كأنه أزلهما كما تقول للذي يعمل ما يكون وصلة إلى أن يزلك من حال جميلة إلى غيرها: «أنت أزللتني عن هذا» أي: قبولي منك أزلني فصرت أنت المزيل لي.

ومعنى الشيطان في اللغة: الغالي في الكفر المتبعد فيه من الجن والإنس، والشَّطَنُ في لغة العرب: الخبل، والأرض الشطون: البعيدة(١).

وإنما الشيطان «فَيْعَال» من هذا، وقد قرىء: «فأَزَالَهُمَا الشيطان» من: «زُلْتُ وأَزَالَني غيري»، و«أَزَالَّهُما» من: «زَلَلْت وأَزَلَّني غيري».

ولـ «زللت» ههنا وجهان:

---

(١) الشّيْطان: مخلوق شرّير مُضل. وقد تردَّد لفظ إبليس والشيطان في مواضع متعددة من القرآن الكريم، أما لفظ إبليس فقد ورد مفردًا في أحد عشر موضعًا من القرآن، وأما لفظ الشيطان فقد جاء مفردًا ومجموعًا في ثمانية عشر موضعًا. عدا المواضع التي ورد فيها لفظ الجِنّ والجِنَّة التي يراد بكثير منها الشيطان، مفردًا ومجموعًا.

إبليس يُطلق على ذلك المخلوق من النار، الذي كان يجالس الملائكة، ويتعبَّد الله معهم، وليس من جنسهم، فلما أمر الله ملائكته بالسجود لآدم. سجود تكريم لا سجود عبادة. خالف أمر ربه بتكبُّره على آدم عليه السلام، لادعائه أن النار التي خُلق منها خير من الطين الذي خُلق منه آدم، فكان جزاء هذه المخالفة أن طرده الله عن باب رحمته، وسمّاه إبليس، إعلامًا له بأنه قد أُبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض، فسأل الله النظِرة أي الإبقاء حيًا إلى يوم البعث، فأنظره -أمهله- الله الذي لا يعجل على من عصاه، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال كما حكى الله عنه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وإبليس واحد من الجن، وهو أبو الشياطين والمحرِّك لهم لفتنة الناس وإغوائهم، وقد ذكره الله في قصة امتناعه من السجود لآدم في آيات كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقد أطلق القرآن عليه اسم الشيطان في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وأما لفظ الشيطان فقد يُراد به إبليس خاصة، كما في قصة امتناعه عن السجود لآدم، لقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، وقد يُراد بالشيطان كل شرّير مفسد، داع للبغي والفساد من الجن والإنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام: ١١٢].

يصلح أن يكون ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾: أكسبهما الزلة والخطيئة.

ويصلح أن يكون ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ نحاهما، وكلا القراءتين صواب حسن.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ جمع الله للنبي ﷺ قصة هبوطهم، وإنما كان إبليس أهبط أولاً، والدليل على ذلك قوله -عز وجل- ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[الحجر: ٣٤]، وأهبط آدم وحواء بعد، فجمع الخبر للنبي ﷺ لأنهم قد اجتمعوا في الهبوط، وإن كانت أوقاتهم متفرقة فيه.

وقوله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إبليس عدو للمؤمنين من ولد آدم، وعداوته لهم كفر، والمؤمنون أعداء إبليس وعداوتهم له إيمان.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: مقام وثبوت.

وقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾؛ قال قوم: معنى «الحين» ههنا إلى يوم القيامة.

وقال قوم: إلى فناء الآجال أي: كل مستقر إلى فناء أجله.

«والحين والزمان» في اللغة منزلة واحدة، وبعض الناس يجعل «الحين» في غير هذا الوضع ستة أشهر دليله قوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم: ٢٥]، وإنما ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ ههنا جعل لمدة معلومة.

«والحين» يصلح للأوقات كلها إلا أنه -في الاستعمال- في الكثير منها أكثر يقال: «ما رأيتك منذ حين» تريد منذ حين طويل، والأصل على ما أخبرنا به(١).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

الكلمات -والله أعلم-: اعتراف آدم عليه السلام وحواء بالذنب لأنهما قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣] اعترفا

---

(١) قال الراغب: الحين: وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[ص: ٣]، ومن قال حين يأتي على أوجه: للأجل، نحو: ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[الصافات: ١٤٨]، وللسنة نحو قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم: ٢٥]، وللساعة نحو: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[الروم: ١٧]، وللزمان المطلق، نحو: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[ص: ٨٨].

فإنما فسر ذلك بحسب ما وجده قد علق به، ويقال: عاملته محاينة، حيناً وحيناً، وأحينت بالمكان: أقمت به حيناً، وحان حين كذا، أي: قرب أوانه، وحينت الشيء: جعلت له حيناً، والحين عبر به عن حين الموت.

بذنبهما وتابا.

وفي هذه الآية موعظة لولدهما وتعريفهم كيف السبيل إلى التنصل من الذنوب، وأنه لا ينفع إلا الاعتراف والتوبة، لأن ترك الاعتراف بما حرم الله -عز وجل- حرام وكفر بالله، فلا بد من الاعتراف مع التوبة، فينبغي أن يفهم هذا المعنى فإنه من أعظم ما يحتاج إليه من الفوائد.

وقرأ ابن كثير: «فتلقى آدمَ من ربه كلمات» والاختيار ما عليه الإجماع وهو في العربية أقوى، لأن آدم تعلم هذه الكلمات فقيل: تلقى هذه الكلمات، والعرب تقول: «تلقيت هذا من فلان»؛ المعنى: قبله من لفظه.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ الفائدة في ذكر الآية أنه -عز وجل- أعلمهم أنه يبتليهم بالطاعة، وأنه يجازيهم بالجنة عليها، وبالنار على تركها، وأن هذا الابتلاء وقع عند الهبوط على الأرض.

وإعراب «إما» في هذا الموضع إعراب حروف الشرط والجزاء، إلا أن الجزاء إذا جاء في الفعل معه النون الثقيلة أو الخفيفة لزمتها «ما»، ومعنى لزومها إياها معنى التوكيد، وكذلك معنى دخول النون في الشرط التوكيد، والأبلغ فيما يؤمر العباد به التوكيد عليهم فيه.

وفتح ما قبل النون في قوله: ﴿يَأْتِيَنَّكُم﴾ لسكون الياء وسكون النون الأولى، وجواب الشرط في الفاء مع الشرط الثاني وجوابه، وهو ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، وجواب ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ قوله ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

و﴿هُدَايَ﴾: الأكثر في القراءة والرواية عن العرب ﴿هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ﴾ فالياء في ﴿هُدَايَ﴾ فتحت لأنها أتت بعد ساكن، وأصلها الحركة التي هي الفتح، فالأصل أن تقول: «هذا غلامي قد جاء» -بفتح الياء- لأنها حرف في موضع اسم مضمر منع الإعراب فألزم الحركة كما ألزمت «هو»، وحذف الحركة جائز لأن الياء من حروف المد واللين فلما سكن ما قبلها لم يكن بد من تحريكها، فجعل حظها ما كان لها في الأصل من الحركة وهو الفتح.

ومن العرب من يقولون: «هُدَيَّ وعَصَيَّ» فمن قرأ بهذه القراءة فإنما قلبت الألف إلى الياء للياء التي بعدها، إلا أن شأن ياء الإضافة أن يكسر ما قبلها، فجعل بدل كسر ما قبلها -إذ كانت الألف لا يكسر ما قبلها ولا تكسر هي- قبلها ياء.

وطيئ تقول في: ((هُدَىً وعَصَىً وأفعىً)) وما أشبه هذا في الوقف، ((هُدَيْ وعَصَيْ وأفعي بغير إضافة، وأنشد أبو الحسن الأخفش وغيره من النحويين [من الرجز]:

تُبَشَّري بِالرِفهِ وَالماءِ الرِوى وَفَرَجٍ مِنكِ قَريبٍ قَد أَتى[1]

وبعض العرب يجري ما يجريه في الوقف -في الأصل- مجراه في الوقف وليس هذا الوجه الجيد.

وزعم سيبويه أن الذين أبدلوا من الألف الياء أبدلوها في الوقف ليكون أبين لها.

وحكى أيضاً: أن قوماً يقولون في الوقف: ((حبلو وأفعو)).

وإنما يحكي أهل اللغة والعلم بها كل ما فيها ليتميز الجيد المستقيم المطرد من غيره ويجتنب غير الجيد.

فالباب في هذه الأشياء أن ينطق بها في الوصل والوقف بألف، فليس لك أن تقلب الشيء لعلةٍ، ثم تنطق به على أصله والعلة لم تزل، فالقراءة التي ينبغي أن تلزم هي ﴿هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ﴾ إلا أن تثبت برواية صحيحة ((هدي)) فيقرأ بها، ووجهه من القياس ما وصفنا.

فأما قوله: ﴿هَـذَا صِـرَاطٌ عَلَـيَّ مُسْـتَقِيمٌ﴾[الحجر: ٤١]، وقوله: ﴿إِلَـيَّ مَـرْجِعُكُمْ﴾[العنكبوت: ٨] فلا يجوز أن يقرأ: ((هـذا صـراط عـلاي)) ولا ((ثـم إلآي مرجعكم)) لأن الأصل كان في هذا: ((إلآي)) و((علاي))، لكن الألف أبدلت منها مع المضمرات الياء ليفصل بين ما آخره مما يجب أن يعرب ويتمكن، وما آخره مما لا يجب أن يعرب فقلبت هذه الألف ياء لهذه العلة.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ نصب ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لأنه نداء مضاف، وأصل النداء النصب لأن معناه معنى ((ناديت)) و((دعوت)).

و﴿إِسْرَائِيلَ﴾ في موضع خفض إلا أنه فتح آخره لأنه لا ينصرف، وفيه شيئان يوجبان منع الصرف، وهما أنه أعجمي وهو معرفة، وإذا الاسم كذلك لم ينصرف إذا جاوز ثلاثة أحرف عند النحويين.

في قوله: ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾؛ وجهان:

أجودهما فتح الياء، لأن الذي بعدها ساكن وهو لام المعرفة، فاستعمالها كثيراً في

---

(١) وهو: للشماخ، انظر: لسان العرب (١٤/٣٤٥).

الكلام فاختير فتح الياء معها لالتقاء الساكنين، ولأن الياء لو لم يكن بعدها ساكن كان فتحها أقوى في اللغة، ويجوز أن تحذف الياء في اللفظ لالتقاء الساكنين فتقرأ ((نعمتِ التي أنعمت)) بحذف الياء، والاختيار إثبات الياء وفتحها لأنه أقوى في العربية وأجزل في اللفظ وأتم للثواب، لأن القارئ يجازي على كل ما يقرؤه من كتاب الله بكل حرف حسنة، فإن إثباته أوجه في اللغة، فينبغي إثباته لما وصفنا.

فأما قوله -عز وجل-: ﴿هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾[طه: ٣٠، ٣١] فلم يكثر القراء فتح هذه الياء، وقال أكثرهم بفتحها مع الألف واللام.

ولعمري إن اللام المعرفة أكثر في الاستعمال ولكني أقول: الاختيار ((أخي أشدد)) بفتح الياء لالتقاء الساكنين، كما فتحوا مع اللام، لأن اجتماع ساكنين مع اللام وغيرها معنى واحد، وإن حذفت فالحذف جائز حسن، إلا أن الأحسن ما وصفنا.

وأما معنى الآية في التذكير بالنعمة: فإنهم ذُكِّروا بما أنعم به على آبائهم من قبلهم، وأنعم به عليهم، والدليل على ذلك قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً﴾[المائدة: ٢٠]، فالذين صادفهم النبي ﷺ لم يكونوا أنبياء، وإنما ذكروا بما أنعم به على آبائهم وعليهم في أنفسهم وفي آبائهم.

وهذا المعنى موجود في كلام العرب معلوم عندها، يفاخر الرجل فيقول هزمناكم يوم ((ذي قار)) ويقول: قتلناكم يوم كذا؛ معناه: قتل آباؤنا آبائكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾؛ نصب بالأمر كأنه في المعنى ((أرهبوني))، ويكون الثاني تفسير هذا الفعل المضمر، ولو كان في غير القرآن لجاز: ((وأنا فارهبون)) ولكن الاختيار في الكلام والقرآن والشعر ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ حذفت الياء؛ وأصله: ((فارهبوني)) لأنها فاصلة، ومعنى فاصلة رأس آية ليكون النظم على لفظ متسق، ويسمي أهل اللغة رؤوس الآي: ((الفواصل)) وأواخر الأبيات: ((القوافي)).

ويقال: ((وَفيْت له بالعهد فأنا وافٍ به وأَوفيت له بالعهد فأنا موفٍ به))، والاختيار: ((أوفيت)) وعليه نزل القرآن كله قال الله -عز وجل-: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، وقال ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾[النحل: ٩١]، وقال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾[الأعراف: ٨٥]، وكل ما في القرآن بالألف.

وقال الشاعر[1] في «أوفيت»: «ووفيت» فجمع بين اللغتين في بيت واحد [من البسيط]:

أَمّا اِبنُ عَوفٍ فَقَد أَوفى بِذِمَّتِهِ   كَما وَفى بِقِلاصِ النَّجمِ حاديها[2]

وقوله -عز وجل-: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾.

يعني: القرآن ويكون أيضاً ﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ بكتابكم وبالقرآن، إن شئت عادت الهاء على قوله: ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾.

وإنما قيل لهم ﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ لأن الخطاب وقع على حكمائهم، فإذا كفروا كفر معهم الأتباع فلذلك قيل لهم: ﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾.

فإن قال قائل: كيف تكون الهاء لكتابهم ؟

قيل له: إنهم إذا كتموا ذكر النبي ﷺ في كتبهم فقد كفروا به، كما أنه من كتم آية من القرآن فقد كفر به.

ومعنى ﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ -إذا كان بالقرآن- لا مؤنة فيه لأنهم يظهرون أنهم كافرون بالقرآن.

ومعنى ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ﴾: أول الكافرين.

قال بعض البصريين في هذا قولين: قال الأخفش معناه: أول من كفر به.

وقال البصريون أيضاً: معناه ولا تكونوا أول فريق كافر به أي: بالنبي ﷺ؛ وكلا القولين صواب حسن.

وقال بعض النحويين: إن هذا إنما يجوز في فاعل ومفعول؛ تقول: «الجيش منهزم والجيش مهزوم»، ولا يجوز فيما ذكر: «الجيش رجل والجيش فرس» وهذا في فاعل ومفعول أبين، لأنك إذا قلت: «الجيش منهزم» فقد علم أنك تريد هذا الجيش فنطقت في

---

(١) هو: طفيل الغنوي، واسمه: طفيل بن عوف بن كعب، من بني غني، من قيس عيلان: شاعر جاهلي فحل، من الشجعان. وهو أوصف العرب للخيل، وربما سمي (طفيل الخيل) لكثرة وصفه لها. ويسمى أيضاً (المحبر) بتشديد الباء، لتحسينه شعره. عاصر النابغة الجعدي، وزهير بن أبي سلمى، ومات بعد مقتل هرم بن سنان. له ديوان شعر. وفاته (نحو ١٣ قبل الهجرة).

انظر ترجمته في: الشعر والشعراء ١٧٣، وخزانة البغدادي (٣: ٦٤٣)، والأعلام (طفيل الغنوي).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣١/٦)، فتح القدير (٥/٢)، زاد المسير (٧٣/١)، الخصائص (٣٧٠/١)، سر صناعة الإعراب (٨٢٩/٢)، لسان العرب (٧٩/٧)، تاج العروس (٤٥١٩/١).

لفظه بفاعل، لأن المعنى الذي وضع عليه الجيش معنى يدل على جمع فهو فَعال ومفْعُول يدل على ما يدل عليه الجيش، وإذا قلت: «الجيش رجل» فإنما يكره في هذا أن يتوهم أنك تقلله، فأما إذا عرف معناه فهو سائغ جيد، تقول: «جيشهم إنما هو فرس ورجل» أي: ليس بكثير الأتباع، فيدل المعنى على أنك تريد الجيش خيل ورجال، وهذا في فاعل ومفعول أبين كما وصفنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾؛ اللغة العليا والقدمى الفتح في الكاف وهي لغة الحجاز، والإمالة في الكاف أيضاً جيد بالغ في اللغة، لأن فَاعِلاً إذا سلم من حروف الإطباق وحروف المستعلية كانت الإمالة فيه سائغة، إلا في لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة بني تميم وغيرهم من العرب، ولسان الناس الذين هم بالعراق جار على لفظ الإمالة، فالعرب تقول: «هذا عابد وهو عابد» فيكسرون ما بعدها، إلا أن تدخل حروف الإطباق وهي: «الطاء والظاء والصاد والضاد» لا يجوز في قولك: «فلان ظالم: ظالم» ممال، ولا في «طالب: طالب» ممال، ولا في «صابر: صابر» ممال، ولا في «ضابط: ضابط» ممال، وكذلك حروف الاستعلاء وهي: «الخاء والغين والقاف» لا يجوز في «غافل: غافل» ممال، ولا في «خادم: خادم» ممال، ولا في «قاهر: قاهر» ممال، وباب الإمالة يطول شرحه إلا أن هذا في هذا الموضع هو المقصود وقدر الحاجة.

قوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ﴾؛ يقال لبَسْت عليهم الأمر أَلْبِسُه إذا أعميته عليهم، ولَبِست الثوب أَلْبَسُه.

ومعنى الآية: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ﴾ والحق: ههنا أمر النبي ﷺ وما أتى به من كتاب الله -عز وجل-.

وقوله ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بما يحرفون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تأتون لبسكم الحق وكتمانه على علمٍ منكم وبصيرة.

وإعراب ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا﴾ الجزم بالنهي وعلامة الجزم سقوط النون، أصله: «تلبسون»، و«تكتمون» يصلح أن يكون جزماً على معنى: ولا تكتموا الحق، ويصلح أن يكون نصباً وعلامة النصب أيضاً سقوط النون، أما إذا نصبت فعلى معنى الجواب بالواو.

ومذهب الخليل وسيبويه والأخفش وجماعة من البصريين أن جميع ما انتصب في هذا الباب فبإضمار «أن» كأنك قلت: لا يكن منكم إلباس الحق وكتمانه، كأنه قال: وأن

تكتموه، ودل ﴿تَلْبِسُوا﴾ على لَبْسٍ كما تقول: من كذب كان شراً، ودل ما في صدر كلامك على الكذب فحذفته.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

فالألف ألف استفهام؛ ومعناه: التقرير والتوبيخ ههنا، كأنه قيل لهم: أنتم على هذه الطريقة.

ومعنى هذا الكلام -والله أعلم- أنهم كانوا يأمرون أتباعهم بالتمسك بكتابهم ويتركون هم التمسك به، لأن جحدهم النبي ﷺ هو تركهم التمسك به.

ويجوز -والله أعلم- أنهم كانوا يأمرون ببذل الصدقة وكانوا يضنون بها، لأنهم وُصفوا بأنهم قست قلوبهم، وأكلوا الربا والسحت وكانوا قد نهوا عن الربا، فمنع الصدقة داخل في هذا الباب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾.

إن قال: لم قيل لهم: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ وما الفائدة فيها ؟

فإن هذا الخطاب أصله خطاب أهل الكتاب، وكانت لهم رئاسة عند أتباعهم فقيل لهم: استعينوا على ما يذهب شهوة الرياسة بالصلاة، لأن الصلاة يتلى فيها ما يرغب فيما عند الله ويزهد في جميع أمر الدنيا، ودليل ذلك قوله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ﴾؛ المعنى: إن الصلاة التى معها الإيمان بالنبي ﷺ كبيرة تكبر على الكفار وتعظم عليهم مع الإيمان بالنبي ﷺ.

والخاشع: المتواضع المطيع المجيب، لأن المتواضع لا يبالي برياسة كانت له مع كفر إذا انتقل إلى الإيمان.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾؛ الظن ههنا في معنى اليقين.

والمعنى: الذين يوقنون بذلك ولو كانوا شاكين كانوا ضلالاً كافرين، والظن بمعنى اليقين موجود في اللغة[1].

---

(١) وموجود في القرآن بمعانيه أيضاً يقول الراغب: اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم، وقال: علم اليقين في الآية =

قال دريد بن الصمة[(١)] [من الطويل]:

فقلتُ لهُمْ ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَراتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسرَّدِ[(٢)]

ومعناه: أيقنوا.

وقد قال بعض أهل العلم من المتقدمين: إن الظن يقع في معنى العلم الذي لم تشاهده وإن كان قام في نفسك حقيقته، -وهذا مذهب- إلا أن أهل اللغة لم يذكروا هذا.

قال أبو إسحاق: وهذا سمعته من إسماعيل بن إسحاق[(٣)] القاضي -رحمه الله- رواه

=

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾[التكاثر: ٥]، وعين اليقين في الآية: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، وحق اليقين في الآية: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[الواقعة: ٩٥].

فعلم اليقين كعلمنا بدخول الجنة، فإذا رأيناها فهو عين اليقين، فإذا دخلناها فهو حق اليقين، يقال: استيقن وأيقن، قال تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَناً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[الجاثية: ٣٢]، ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠]، ﴿لِقَوْمٍ يُوْمِنُونَ﴾[البقرة: ١١٨] وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[النساء: ١٥٧] أي: ما قتلوه قتلاً تيقنوه، بل إنما حكموا تخميناً ووهماً.

(١) هو دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوازن: شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية. كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها. وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية يوم حنين، وكانت هوازن خرجت لقتال المسلمين فاستصحبته معها تيمناً به، وهو أعمى، فلما انهزمت جموعها أدركه ربيعة بن رفيع السلمي فقتله. له أخبار كثيرة. والصمة لقب أبيه معاوية بن الحارث. وفاته (٨ هـ).
انظر ترجمته في: الأغاني (١٠: ٣)، والخزانة (٤: ٤٤٦) والروض الأنف (ص: ٢٨٧) والأعلام (دريد ابن الصمة).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٠٠/١)، تفسير ابن كثير (١٢٧/١)، تفسير القرطبي (٢٥٢/١)، فتح القدير (٦٩/١)، روح المعاني (٨١/٢٠)، الكشاف (٩٣٣/١)، أسرار العربية (١٥٠/١)، ديوان الحماسة (٣٣٧/١)، شرح كتاب الأمثال (٣٥٣/١)، لسان العرب (٢٧٢/١٣).

(٣) هو إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن يزيد بن درهم، الجهضمي، الأزدي، أبو إسحاق، مولى آل جرير ابن حازم، أصله من البصرة، واستوطن بغداد، وروى عن سليمان بن حرب وابن المديني، وغيرهما، وسمع من أبيه إسحاق، وأبي بكر بن أبي شيبة، وتفقه بابن المعذل، وكان يقول: أفخر على الناس برجلين: ابن المعذل يعلمني الفقه، وابن المديني يعلمني الحديث.
وقد روى عنه ابنه أبو عمر القاضي، وأخوه، وأبو القاسم البغوي، وعبد الله ابن الإمام أحمد، وغيرهم كالنسائي وخلق عظيم، وتفقه عليه أهل العراق من المالكية. قال أبو بكر الخطيب: كان فاضلاً، عالما، متفنناً، فقيهاً في مذهب مالك، شرح مذهبه، ولخصه، واحتج له.

=

عن زيد بن أسلم.

وقوله ﴿أَنَّهُم﴾ ههنا لا يصلح في موضعها ((إنهم)) بالكسر، لأن الظن واقع فلا بد من أن تكون تَلِيه ((أَنَّ)) إلا أن يكون في الخبر لام.

ويصلح في ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ الفتح والكسر، إلا إن الفتح هو الوجه الذي عليه القراءة.

فإذا قلت: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ -في الكلام- حملت الكلام على المعنى كأنه ((وهم إليه راجعون))، ودخلت ((أن)) مؤكدة، ولولا ذلك لما جاز إبطالك الظن مع اللام، إذا قلت: ظننت أنك لعالم.

ومعنى ﴿مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ ملاقون ربهم، لأن اسم الفاعل ههنا نكرة، ولكن النون تحذف استخفافاً، ولا يجوز في القرآن إثباتها، لأنه خلاف المصحف، ولا يجوز أن يقع شيء في المصحف مجمع عليه فيخالف، لأن اتباع المصحف أصلُ اتباع السنة.

وقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ذكرهم الله -عز وجل- نعمته عليهم في أسلافهم، والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ والمخاطبون بالقرآن لم يروا فرعون ولا آله، ولكنه -عز وجل- ذكَّرهم أنه لم يزل منعماً عليهم، لأن إنعامه على أسلافهم إنعام عليهم،

= ولي قضاء بغداد، وجمعت له في وقت واحد - ولم تجمع لأحد قبله وأضيف إليه - قضاء المدائن والنهروانات، ثم ولي قضاء القضاة، فحاز المالكية قضاء عواصم الإسلام في القرن الثالث، إذ كان إسماعيل قاضي القضاة الأعلى ببغداد، والحارث بن مسكين بمصر، وسحنون قاضي القضاة بالقيروان وممالك إفريقيا، ويحيى بن يحيى مستشاراً في تعيين قضاة الأندلس في عصر متقارب.

وصنف المسند، وكتباً عديدة، من علوم القرآن، منها كتاب: أحكام القرآن لم يُسبق لمثله، وكتابه في القراءات كتاب جليل القدر، عظيم الخطر، وكتاب في معاني القرآن، وهذان كتابان شهد بتفضيله فيهما المبرد، وله إعراب القرآن في خمسة وعشرين جزءاً، وله كتاب المبسوط في الفقه، ومختصره. ولد سنة مائتين، وتوفي سنة (٢٨٢ هـ).

انظر ترجمته في: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٢/١٠٢: ١٠٤).

وزيد بن أسلم هو: فقيه، مفسر، كانت له حلقة في المسجد الأموي، وله كتاب في التفسير. توفي عام (١٣٦هـ= ٧٥٣م).

والدليل على ذلك: أن العرب وسائر الناس يقولون: ((أكرمتك بإكرامي أخاك))، وإنما الأثرة وصلت إلى أخيك، والعرب خاصة تجعل ما كان لآبائها فخراً لها، وما كان فيه ذم يعدونه عاراً عليهم، وإن كان فيما قدم من آبائها وأسلافها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾؛ يعني يوم القيامة، وكانت اليهود تزعم أن آبائها الأنبياء تشفع لها عند الله، فأيئسهم الله من ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

العدل ههنا: الفدية، ومعنى: ﴿لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ أي: لا تجزي فيه، وقيل: لا تجزيه، وحذف ((فيه)) ههنا سائغ لأن ((فيه)) مع الظرف محذوفة، تقول: ((أتيتك اليوم وأتيتك في اليوم)) فإذا أضمرت قلت: ((أتيتك اليوم)) ويجوز أن تقول: ((أتيتكه)) قال الشاعر:

ويوماً شَهِدْناه سُلَيْماً وعامِراً قَليلاً سِوَى الطَّعْنِ النِّهَالِ نَوافِلُهْ[1]

أراد: شهدناه فيه.

وقال بعض النحويين: إن المحذوف هنا الهاء، لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها - وهذا قول الكسائي-، والبصريون وجماعة من الكوفيين يقولون: إن المحذوف ((فيه)).

وفصل النحويون في الظروف وفي الأسماء غير الظروف؛ فقالوا: إن الحذف مع الظروف جائز كما كان في ظاهره، فكذلك الحذف في مضمره لو قلت: ((الذي سرت اليوم)) تريد: الذي سرت فيه، جائز لأنك تقول: ((سرت اليوم وسرت فيه)) ولو قلت: ((الذي تكلمت فيه زيد)) لم يجز: ((الذي تكلمت زيد)) لأنك تقول: ((تكلمت اليوم وتكلمت فيه)) ولا يجوز في قولك: ((تكلمت زيداً)).

وقوله -عز وجل-: ﴿يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾؛ مرفوع لأنه اسم ما لم يسم فاعله، والاسم إذا لم يسم من فعل به رفع، لأن الفعل يصير حديثاً عنه كما يصير حديثاً عن الفاعل، وتقول: ((لا يقبل منها شفاعة، ولا تقبل)) لأن معنى تأنيث ما لا ينتج غير حقيقة فلك في لفظه في الفعل التذكير والتأنيث، تقول: ((قبل منك الشفاعة وقد قبلت منك الشفاعة)) وكذلك ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾[البقرة: ٢٧٥] لأن معنى ((﴿مَوْعِظَةٌ﴾ ((وعظ وشفاعة

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤١٩/١)، فتح القدير (١٢٥/٢)، روح المعاني (٨٤/١)، الكشاف (٨١١/١)، مغني اللبيب (٦٥٤/١)، لسان العرب (١٤٥/١٤).

وشفع›› واحد فلذلك جاء التذكير والتأنيث على اللفظ والمعنى، وأما ما يعقل ويكون منه النسل والولادة نحو: ‹‹امرأة ورجل وناقة وجمل›› فيصح في مؤنثه لفظ التذكير، ولو قلت: ‹‹قام جارتك›› ونحو: ‹‹ناقتك›› كان قبيحاً، وهو جائز على الناقة والجارة تدلان على معنى التأنيث، فاجتزئ بلفظهما عن تأنيث الفعل.

فأما الأسماء التي تقع للمذكرين وأصحاب المؤنث فلا بد فيها من علم التأنيث، لأن الكلام للفائدة والقصد به الإبانة، فلو سميت امرأة بقاسم لم يجز أن يقال: ‹‹جاءني قاسم›› فلا يعلم أمذكراً عنيت أم مؤنثاً، وليس إلى حذف هذه التاء إذا كانت فارقة بين معنيين سبيل.

كما أنه إذا جرى ذكر رجلين لم يجز أن تقول: ‹‹قد قام››، ولا يجوز إلا أن تقول: ‹‹قاما›› فعلامة التأنيث فيما فيه اللبس كعلامة التثنية ههنا.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ موضع ‹‹إذ›› نصب كأنه قال: واذكروا إذ نجيناكم، ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ اتباعه ومن كان على دينه، وكذلك آل الأنبياء -صلوات الله عليهم- من كان على دينهم، وكذلك قولنا: صلى الله على محمد وآله، معنى ‹‹آله››: من اتبعه من أهل بيته وغيرهم.

ومعنى خطابهم ههنا: تذكيرهم بالنعمة عليهم في أسلافهم كما وصفنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ في اللغة: يولونكم[1].

ومعنى ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ شديد العذاب، وإن كان العذاب كله سواء فإنما نكر في هذا الموضع لأنه أبلغ ما يعامل به مرعي[2]، فلذلك قيل: ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: ما يبلغ في الإساءة ما لا غاية بعده وفسره بقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ والقراءة المجمع عليها ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ بالتشديد، ورواية شاذة: ‹‹يَذْبَحُون أبناءكم›› والقراءة المجمع عليها أبلغ لأن ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ للتكثير، و‹‹يَذْبَحُون›› يصلح أن يكون للقليل وللكثرة، فمعنى التكثير ههنا أبلغ.

---

(١) قال الراغب: السوم أصله: الذهاب في ابتغاء الشيء، فهو لفظ لمعنى مركب من الذهاب والابتغاء، وأجري مجرى الذهاب في قولهم: سامت الإبل، فهي سائمة، ومجرى الابتغاء في قولهم: سمت كذا. ومنه قيل: سيم فلان الخسف، فهو يسام الخسف، ومنه: السوم في البيع.

(٢) مفرد ‹‹رعايا››.

و ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ جمع ((ابن))، والأصل: كأنه إنما جمع: ((بني وبنو)) ويقال: ((ابن)) بيّن البنوة فهي تصلح أن تكون ((فعَل)) و ((فِعْل)) كأنه أصله ((بنيانه))، والذين قالوا: ((بنون)) كأنهم جمعوا ((بَنا وبنون)) فأبناء جمع ((فعَل وفعُل)) و((بِنْتٌ)) يدل على أنه يستقيم أن يكون ((فِعْلاً)) ويجوز أن يكون ((فَعَل)) نقلت إلى ((فِعْل)) كما نقلت ((أخت)) من ((فَعَل)) إلى ((فُعْل)).

فأما ((بنات)) فهو ليس بجمع ((بنت)) على لفظها، إنما ردت إلى أصلها فجمعت ((بنات)) على أن الأصل في ((بنت: فِعْله)) كأنها مما حذفت لامه.

والأخفش: يختار أن يكون المحذوف من ((ابن)) الواو قال: ((لأن أكثر ما تحذف الواو بثقلها)) والياء تحذف أيضاً للثقل.

قال أبو إسحاق: والدليل على ذلك أن ((يداً)) قد أجمعوا على أن المحذوف منه ((الياء))، ولهم دليل قاطع على الإجماع قال: ((يديت إليه يداً))، و((دم)) محذوف منه الياء يقال: ((دم ودميان))، قال الشاعر[(١)] [من الوافر]:

فَلَو أَنّا عَلى حَجَرٍ ذُبِحنا جَرى الدَّمَيانِ بِالخَبَرِ اليَقينِ[(٢)]

((والبنوة)) ليست بشاهد قاطع في الواو، لأنهم يقولون: ((الفتوة والفتيان)) في التثنية قال -عز وجل-: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[يوسف: ٣٦]، فـ ((ابن)) يجوز أن يكون المحذوف منه الواو أو الياء، وهما عندي متساويان.

وفي قوله -عز وجل-: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ يعني: في النجاة من آل فرعون.

والبلاء ههنا: النعمة، يروى عن الأحنف أنه قال: ((البلاء ثم الثناء)) أي: الإنعام والشكر.

قال زهير [من الطويل]:

رَأى اللهُ بِالإِحسانِ ما فَعَلا بِكُم فَأَبلاهُما خَيرَ البَلاءِ الَّذي يَبلو[(٣)]

---

(١) هو: المثقب العبدي.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/٣١٧)، الأصول في النحو (٣/٣٢٤)، الإنصاف في مسائل الخلاف (١/٣٥٧)، سر صناعة الإعراب (١/٣٩٥)، الأغاني (٢٤/٢٥٤)، لسان العرب (١٤/١٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/٣٠٨)، وتفسير ابن كثير (١/١٣١)، وتفسير القرطبي (١/٤٢٤)، وتفسير القرطبي (١٥/٩٥)، وفتح القدير (١/١٣٠)، وروح المعاني (١٣/١٩٠)، والكشاف (١/٤٥٢)، والتحرير =

وقال الله -عز وجل-: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾[الأنفال: ١٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ موضع ﴿وَإِذْ﴾ نصب كالتي قبلها.

ومعنى ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾: جاء تفسيره في آية أخرى، وهو قوله -عز وجل-: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[الشعراء: ٦٣]، أي: فانفرق البحر فصار كالجبال العظام وصاروا في قراره، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾[طه: ٧٧] معناه: طريقاً ذا يبس.

وقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ فيه قولان:

قالوا: وأنتم ترونهم يغرقون، ويجوز أن يكون: ﴿وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي: وأنتم مشاهدون تعلمون ذلك، وإن شغلهم عن أن يروه في ذلك الوقت شاغل، يقال من ذلك: «دور آل فلان تنظر إلى دور بني فلان» أي: هي بإزائها والدور يعلم أنها لا تبصر شيئاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ ويقرأ: ﴿وَإِذْ وَاعِدْنَا مُوسَى﴾ وكلاهما جائز حسن، واختار جماعة من أهل اللغة: «وإذا وعدنا بغير ألف» وقالوا: إنما اخترنا هذا لأن المواعدة إنما تكون لغير الآدميين فاختاروا: «وعدنا» وقالوا: دليلنا قوله -عز وجل- ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾[إبراهيم: ٢٢] وما أشبه هذا، وهذا الذي ذكروه ليس مثل هذا.

و﴿وَاعَدْنَا﴾ هنا جيد بالغ، لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة، فهو من الله -عز وجل- وعد، ومن موسى قبول واتباع، فجرى مجرى المواعدة.

وقوله -عز وجل- ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ ذكرهم بكفر آبائهم مع هذه الآيات العظام، وأعلمهم أن كفرهم بالنبي ﷺ مع وضوح أمره وما وقفوا عليه من خبره في كتبهم ككفر آبائهم.

وكان في ذكر هذه الأقاصيص دلالة على تثبيت نبوة النبي ﷺ لأن هذه الأقاصيص ليست من علوم العرب، وإنما هي من علوم أهل الكتاب فأنبأهم النبي ﷺ بما في كتبهم،

= والتنوير (١/٢٨١)، ومعاني القرآن (٦/٤٠٧)، والخصائص (١/١٣٧)، وكتاب الأفعال (١/١٠٤)، وأدب الكاتب (١/٢٥٩)، ولسان العرب (١٤/٨٣).

وقد علموا أنه من العرب الذين لم يقرؤوا كتبهم فعلموا أنه لم يعلم هذه الأقاصيص إلا من جهة الوحي، ففي هذه الآيات أذكارهم بالنعمة عليهم في أسلافهم وتثبيت أمر الرسالة كما وصفنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿آتَيْنَا﴾ بمعنى: أعطينا و ﴿الْكِتَابَ﴾ مفعول به ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ عطف عليه، ويجوز أن يكون «الفرقان» الكتاب بعينه إلا أنه أعيد ذكره وعني به أنه يفرق بين الحق والباطل.

وقد قال بعض النحويين -وهو قطرب-: «المعنى: وآتينا محمداً الفرقان» ودليله قوله -عز وجل- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ يعنى به القرآن والقول الأول هو القول، لأن الفرقان قد ذكر لموسى في غير هذا الموضع قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[الأنبياء: ٤٨].

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ «لعل» إنما ذكرت هنا والله يعلم أيهتدون أو لا يهتدون على ما يفعل العباد ويتخاطبون به، أي: أن هذا يرجى به الهداية، فخوطبوا على رجائهم.

ومثله قوله: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[طه: ٤٤]، إنما المعنى: اذهبا على رجائكما، والله -عز وجل- عالم بما يكون وهو من ورائه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾.

والقراءة: ﴿يَا قَوْمِ﴾ بكسر الميم، وهو نداء مضاف، والاختيار فيه حذف الياء، لأن الياء حرف واحد، والنداء باب حذف، وهي في آخر الاسم كما أن التنوين في آخره فحذفت الياء وبقيت الكسرة تدل عليها، ويجوز في الكلام أربعة أوجه.

فأما في القرآن فالكسر وحذف الياء لأنه أجود الأوجه، وهو إجماع القراء، ويجوز: ﴿يَا قَوْمِ﴾ بإثبات الياء وسكونها، ويجوز: ﴿يَا قَوْمِ﴾ بتحريك الياء فهذه ثلاثة أوجه في الإضافة، ويجوز ﴿يَا قَوْمُ﴾ بضم الميم، على معنى: يا أيها القوم.

ومعنى قوله ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾: يقال لكل من فعل فعلاً يعود عليه بمكروه إنما أسأت إلى نفسك وظلمت نفسك.

وأصل الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه، والعرب تقول: «ومن أشبه أباه فما ظلم»، معناه: لم يقع له الشبه غير موقعه، ويقال: «ظلم الرجل سقاءه من اللبن» إذا

شرب منه قبل إدراكه، «وأرض مظلومة» إذا حفر فيها قبل ولم يكن حفر فيها قبل، أو جاء المطر بقربها وتخطاها قال النابغة[1] [من البسيط]:

إلاَ الأَوارِيَّ لأَياً ما أُبَيِّنها ... وَالنُؤيَ كَالحَوضِ بِالمَظلومَةِ الجَلَدِ[2]

ومعنى قوله ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ أي: اتخذتموه إلهاً.

ومعنى قوله ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي: إلى خالقكم.

يقال: «برأ الله الخلق»، «فالبارئ»: الخالق، «والبرية والخلق»: المخلوقون، إلا أن البرية وقعت في أكثر كلامهم غير مهموزة وأصلها ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[البينة: ٧]، وأكثر القراءة والكلام «البرية» بغير همز، وقد قرأ قوم «البريئة» بالهمز، والاختيار ما عليه الجمهور.

وروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قرأ: ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ بإسكان الهمز، وهذا رواه سيبويه باختلاس الكسرة، وأحسب أن الرواية الصحيحة ما روى سيبويه، فإنه أضبط لما روى عن أبي عمرو، والإعراب أشبه بالرواية عن أبي عمرو لأن حذف الكسر في مثل هذا وحذف الضم إنما يأتي باضطرار من الشعر، أنشد سيبويه، وزعم أنه مما يجوز في الشعر خاصة [من الرجز]:

---

(١) هو: النابغة الذبياني زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة: شاعر جاهلي، ومن الطبقة الأولى. من أهل الحجاز. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. وكان أبو عمرو بن العلاء يفضله على سائر الشعراء. وهو أحد الأشراف في الجاهلية. وكان حظياً عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجردة -زوجة النعمان- فغضب النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام، وغاب زمناً. ثم رضي عنه النعمان، فعاد إليه. شعره كثير، وجمع بعضه في ديوان صغير. وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، ولا تكلف في شعره ولا حشو. وعاش عمراً طويلاً، وفاته نحو (١٨ ق هـ - نحو ٦٠٤ م).

انظر ترجمته في: الأعلام (النابغة الذبياني)، وشرح شواهد المغني (ص:٢٩)، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٣٣)، والشعر والشعراء (ص: ٣٨)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/ ٢٨٧ و ٤٢٧ ثم ٤: ٩٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/١٠٧)، وتفسير القرطبي (٥/٢٩٧)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/٢٦٩)، واللمع في العربية (١/٦٧)، وإصلاح المنطق (١/٤٧)، والأغاني (١١/٣٣)، ولسان العرب (٣/١٢٤)، وتاج العروس (١/٧٩٨١).

* إِذا اعْوَجَجْنَ قُلْتُ صاحِبْ قَوِّمِ[(١)]*

بإسكان الباء، وأنشد أيضاً [من السريع]:

فاليومَ أشرَبْ غيرَ مُستَحقِبٍ إثماً مِنَ اللهِ ولا واغلِ[(٢)]

فالكلام الصحيح أن تقول: ((يا صاحبُ أقبل، أو يا صاحبَ أقبل)) ولا وجه للإسكان، وكذلك ((فاليوم أشربَ)) -يا هذا-، وروى غير سيبويه هذه الأبيات على الاستقامة، وما ينبغي أن يكون في الكلام والشعر.

ورووا هذا البيت على ضربين:

رووا: ((فاليوم فاشرب غير مستحقب))، ورووا أيضاً: ((فاليوم أسقي غير مستحقب)). ورووا أيضاً: ((إذا اعوججن قلت: صاح قوم))، ولم يكن سيبويه ليروي -إن شاء الله- إلا ما سمع، إلا أن الذي سمعه هؤلاء هو الثابت في اللغة، وقد ذكر سيبويه أن القياس غير الذي رُوي، ولا ينبغي أن يقرأ إلا ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ بالكسر وكذلك ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾.

ومعنى ﴿فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ؛ امتحنهم الله -عز وجل- بأن جعل توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً، فيقال: إنهم صفوا صفين يقتل بعضهم بعضاً فمن قتل كان شهيداً، ومن لم يقتل فتائب مغفور له ما تقدم من ذنبه[(٣)].

ويقال: إن السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ لم يكونوا ممن عبد العجل وإنهم هم الذين كانوا يقتلون، والأول أشبه بالآية، لأن قوله -عز وجل- ﴿فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يدل على أنها توبة عبدة العجل، وإنما امتحنهم الله -عز وجل- بهذه المحنة العظيمة لكفرهم بعد الدلالات والآيات العظام.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٢١/١٠)، وتفسير القرطبي (٤٤٠/١)، والخصائص (٧٥/١)، ولسان العرب (٤٣١/١٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٥/٩)، وفتح القدير (٧١٣/٢)، وروح المعاني (٤٠/١٢)، والكشاف (٧٦٨/١)، والأصول في النحو (٣٦٤/٢)، والخصائص (٧٤/١)، واللباب علل البناء والإعراب (١١٠/٢)، وشرح شذور الذهب (٢٧٦/١)، والمزهر في علوم اللغة (٢٥٦/١)، ولسان العرب (٤٢٦/١٠)، وتاج العروس (٧٥٧٨/١).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٣٢٥/١).

معنى ﴿جَهْرَةً﴾ غير مستتر عنا بشيء، يقال: «فلان يجاهر بالمعاصي» أي: لا يستتر من الناس منها بشيء.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ معنى الصاعقة: ما يصعقون منه، أي: يموتون فأخذتهم الصاعقة فماتوا.

الدليل على أنهم ماتوا قوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وفي هذه الآية ذُكر البعث بعد موت وقع في الدنيا، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، ومثل قوله -عز وجل-: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ وذلك احتجاج على مشركي العرب الذين لم يكونوا موقنين بالبعث، فأتى النبي ﷺ بالإخبار عمن بعث بعد الموت في الدنيا مما توافقه عليه اليهود والنصارى وأرباب الكتب، فاحتج عليهم ﷺ بحجة الله التي يوافقه عليها جميع من خالفه من أهل الكتاب.

وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: في أن بعثكم بعد الموت، وأعلمكم أن قدرته عليكم هذه القدرة، وأن الإقالة بعد الموت لا شيء بعدها، وهي كالمضطرة إلى عبادة الله.

وقوله ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ﴾؛ سخر الله لهم السحاب يظلهم حين خرجوا إلى الأرض المقدسة، وأنزل عليهم ﴿المَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

وجملة ﴿المَنَّ﴾ ما يمن الله به مما لا تعب فيه ولا نصب، وأهل التفسير يقولون: إن المنَّ شيء يسقط على الشجر حلو يشرب، ويقال إنه «التَّرَنْجِين»[(١)].

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين**»[(٢)] ومعنى المن

---

(١) قال الشوكاني في فتح القدير (١/١٣٨): قيل هو -أي المن-: الترنجين، وقال النحاس: هو بتشديد الراء وإسكان النون، ويقال: الطرنجين بالطاء وعلى هذا أكثر المفسرين، وهو طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ.

وقيل: إن المن العسل، وقيل: الشراب الحلو، وقيل: خبز الرقاق، وقيل: إنه مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع.

(٢) متفق عليه، ورواه البخاري (٤/١٦٢٧، ورقم: ٤٢٠٨)، ومسلم (٣/١٦١٩، ورقم: ٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد.

و«الكمأة»: نوع من الدرنيات والجذور التي لا ورق لها ولا ساق، وتخرج في الأرض بدون زرع، وتكثر أيام الخصب وكثرة المطر والرعد.

=

على ما وصفنا في اللغة: ما يمن الله به من غير تعب ولا نصب.

والسلوى: طائر كالسماني[(١)]، وذُكر أنهم كان يأتيهم من هذين ما فيه كفايتهم.

وقوله ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ قالوا: إن معناه من هذين الطيبات وقالوا أيضاً: مما هو حلال لكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾.

الرغد: الواسع الذي لا يعني.

وقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ أمروا بأن يدخلوا ساجدين.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ معناه: ((وقولوا: مسألتنا حطة)) أي: حط ذنوبنا عنا، وكذلك القراءة، ولو قرئ ((حَطَّةً)) كان وجهاً في العربية، كأنه قيل لهم: ((قولوا: احطط عنا ذنوبنا حطة))، فحرفوا هذا القول وقالوا لفظة غير هذه اللفظة التي أمروا بها، وجملة ما قالوا إنه أمر عظيم سماهم الله به فاسقين.

وقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ جزم جواب الأمر؛ المعنى: أن تقولون ما أمرتم به نغفر لكم خطاياكم، وقرأ بعضهم ((نغفر لكم خطيئاتكم)) والقراءة الأولى أكثر، فمن قال

=

وقوله: ((من المن)) قيل: أي نوع ما أنزل على بني إسرئيل، وقيل: تشبيه من حيث المعنى فإنها مما يمن الله تعالى به على عباده بدون جهد منهم.

وقوله: ((شفاء للعين)) هذا من طبه ﷺ، ونحن نؤمن بذلك إيمان اليقين، ولكن ينبغي الرجوع في ذلك إلى ذوي الاختصاص المؤمنين، ولأن وصفة الطبيب لا يجوز استعمال أي مريض لها بدون مراجعته، وبل الذي يقرره الأطباء ضرورة رجوع المريض نفسه إلى الطبيب الذي أعطاه الوصفة، وليقرر له هل يناسب استعمالها الآن مزاجه فيكررها أم لا.

(١) قال الراغب مفردات القرآن (ص: ٧١٢) السلوى: أصلها ما يسلي الإنسان ومنه: السلوان والتسلي وقيل: السلوى: طائر كالسماني. قال ابن عباس: المن الذي يسقط من السماء والسلوى: طائر، وقال بعضهم: أشار ابن عباس بذلك إلى ما رزق الله تعالى عباده من اللحوم والنبات وأورد بذلك مثالاً وأصل السلوى من التسلي يقال: سليت عن كذا وسلوت عنه وتسليت: إذا زال عنك محبته. قيل: والسلوان: ما يسلي وكانوا يتداوون من العشق بخرزة يحكونها ويشربونها ويسمونها السلوان. وقول ابن عباس رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٨/١)، وابن قتيبة في غريب القرآن (ص: ٥٠). وقال القلقشندي في صبح الأعشى (٢٦٧/١٣): قال قتادة: هو طائر إلى الحمرة كانت تحشره عليهم الجنوب.

((خطيئاتكم)) فهو جمع: ((خطيئة)) بالألف والتاء نحو: ((سفينة وسفينات وصحيفة وصحيفات)) والقراءة كما وصفنا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾.

والأصل في ((خطايا)): ((خطائئ)) فتجمع همزتان تقلب الثانية ياء فتصير ((خطائي)) فاعِل، مثل ((حظاعي)) ثم يجب أن تقلب الياء والكسرة إلى الفتحة والألف، فتصير: ((خطاءَ)) مثل: ((حظاعاً))، فيجب بأن تبدل الهمزة ياء لوقوعها بين ألفين، لأن الهمزة مجانسة للألفات فاجتمعت ثلاثة ألفات من جنس واحد، وهذا الذي ذكرناه مذهب سيبويه، ولسيبويه مذهب آخر أصله للخليل وهو: أنه زعم أن ((خطايا)) أصلها: ((فعائل)) فقلبت إلى ((فَعَالى)) فكان الأصل عنده ((خطائى)) مثل: ((خطائع)) -فاعلم- ثم قدمت الهمزة فصارت: ((خطائي)) مثل: ((خطاعي)) ثم قلبت بعد ذلك إلى المذهب الأول، وهذا المذهب ينقص في الإعلال مرتبة واحدة، واللفظ يؤول في اللفظين ((خطايا)).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

الرجز: العذاب وكذلك الرجس، قال الشاعر[1] [من الرجز]:

ما رامَنَا مِنْ ذي عَديدٍ مُبزِ إلا وَقُمنا كَيدهُ بِالرِّجزِ[2]

وقوله -عز وجل-: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: تبديلهم ما أمروا به من أن يقولوا: حطة.

ويقال: فَسَقَ يفْسُق ويفْسِق ويفْسُق على اللغتين، وعليها القراءة.

ومعنى الفسق: الخروج عن القصد، والحق: كل ما خرج عن شيء فقد فسق، إلا أنه خص من خرج عن أمر الله، بأن قيل: فاسق ولم يحتج إلى أن يقال فسق عن كذا، كما أنه يقال: لكل من صدق بشيء هو مؤمن بكذا ويقال للمصدق بأمر الله مؤمن، فيكفى، والعرب تقول: ((فسَقت الرطبة)) إذا خرجت عن قشرتها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾؛ وموضع ﴿وَإِذِ﴾ نصب على ما تقدمه كأنه قيل: واذكر إذ استسقى موسى لقومه، إلا أن ﴿وَإِذِ﴾ لا يظهر فيها الإعراب، لأنها لا تتم إلا بأن توصل، وجميع ما لا يتم من هذه المهمة إلا بصلة لا يعرب، لأنه بعض اسم ولا يعرب إلا الاسم التام، ولكن إذ كبرت لالتقاء الساكنين.

---

(١) هو: رؤبة بن العجاج.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٢٩/٥)، ولسان العرب (٣١٦/٥)، وتاج العروس (٣٦٨١/١).

ومعنى ﴿اسْتَسْقَى﴾ استدعى أن يسقى قومه، وكذلك «استنصرت» استدعيت النصرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾؛ أكثر القراء ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ﴾ بإسكان الشين، ولغة أخرى «اثنتا عشِرة» عيناً -بكسر الشين-، وقد قرأ بعض القراء: «عَشِرَة» على هذه اللغة وكلاهما جيد بالغ.

و﴿عَيْناً﴾ نصب على التمييز، وجمع ما نصب على التمييز في العدد على معنى دخول التنوين، وإن لم يذكر في «عشرة» لأن التنوين حذف ههنا مع الإعراب، ومعنى قول الناس: «عندي عشرون درهماً» معناه: عندي عشرون من الدراهم، فحذف لفظ الجمع، و«من» هذه التي خلص بها جنس من جنس، وعبر الواحد عن معنى الجمع فهذا جملة ما انتصب من العدد على التمييز.

وفي التفسير[1]: أنهم فجر الله لهم من حجر اثنتى عشرة عيناً لاثني عشر فريقاً، لكل فريق عين يشربون منها تتفجر إذا نزلوا، فإذا ارتحلوا غارت العين، وحملوا الحجر غير متفجر من ماء.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ كان يتفجر لهم الماء من اثني عشر موضعاً لا يختلف في كل منزل فيعلم كل أناس مشربهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ يقال: عَثَا يَعْثَا عَثْواً وعُثُوّاً، والعثو: أشد الفساد.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾.

﴿يُخْرِجْ﴾ مجزوم، وفيه غير قول: قال بعض النحويين: «المعنى: سله وقل له: أخرج لنا، يخرج لنا هو»، وقال في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[الإسراء: ٥٣] قالوا: «المعنى: قل لهم قولوا التي هي أحسن أن يقولوا».

وقال قوم: معنى ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ معنى الدعاء، كأنه قال: أخرج لنا، وكذلك ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾[إبراهيم: ٣١]، المعنى: قل لعبادي أقيموا، ولكنه صار قبله: «أدع» و«قل» فجعل بمنزلة جواب الأمر.

وكلا القولين مذهب، ولكنه على الجواب أجود، لأن ما في القرآن من لفظ الأمر الذي ليس معه جازم مرفوع قال الله -عز وجل- ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٤٢/٢)، والتحرير والتنوير (٢٩٦/١).

سَبِيلِ اللهِ﴾ ثم جاء بعد تمام الآية ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الصف: ١١، ١٢] المعنى: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا يغفر لكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾؛ في «القثاء» لغتان:

يقال: «القُثَّاء والقِثَّاء» -يا هذا-، وقد قرأ بعضهم: ﴿وَقُثَّائِهَا﴾ بالضم والأجود الأكثر ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ بالكسر.

﴿وَفُومِهَا﴾؛ الفوم: الحنطة، ويقال: الحبوب، وقال بعض النحويين: إنه يجوز عنده الفوم ههنا الثوم، وهذا ما لا يعرف أن الفوم الثوم، وههنا ما يقطع هذا: محالٌ أن يطلب القوم طعاماً لا بر فيه والبر أصل الغذاء كله، وسائر الحبوب التي تخبز يلحقها اسم الفوم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾؛ يعني أن المن والسلوى أرفع من الذي طلبتم و﴿أَدْنَى﴾ القراءة فيه بغير الهمز وقد قرأ بعضهم «أدنا» ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وكلاهما له وجه في اللغة، إلا أن ترك الهمزة أولى بالاتباع.

أما ﴿أَدْنَى﴾ غير مهموز فمعناه: الذي هو أقرب وأقل قيمة كما تقول: هذا ثوب مقارب، فأما الخسيس فاللغة فيه أنه مهموز، يقال: «دنُوء دَناءةً وهو دَنِيء» بالهمزة ويقال: هذا أدنى منه بالهمزة.

وقوله -عز وجل-: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ الأكثر في القراءة إثبات الألف.

وقد قرأ بعضهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرَ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ بغير ألف، فمن قرأ ﴿مِصْراً﴾ بالألف فله وجهان: جائز أن يراد بها مصراً من الأمصار، لأنهم كانوا في تيه، وجائز أن يكون أراد «مصر» بعينها فجعل مصراً اسماً للبلد، فصرف لأنه مذكر سمي مذكراً، وجائز أن يكون ﴿مِصْرَ﴾ بغير ألف على أنه يريد مصراً بعينها كما قال -عز وجل-: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾[يوسف: ٩٩]، وإنما يصرف لأنه للمدينة فهو مذكر سمي به مؤنث.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾.

﴿الذِّلَّةُ﴾: الصغار.

﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾: الخضوع، واشتقاقه: من السكون إنما يقال مسكين للذي أسكنه الفقر أي: قلل حركته.

وقوله جل وعز: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾؛ يقال:

((بؤت بكذا وكذا)) أي: احتملته.

وقوله جل وعز: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾.

معنى ذلك -والله أعلم-: الغضب حل بهم بكفرهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾؛ القراءة المجمع عليها في: ((النبيين والأنبياء والبرية)) طرح الهمزة، وجماعة من أهل المدينة يهمزون جميع ما في القرآن من هذا فيقرؤون ((النبيئين بغير حق)) و((الأنبياء))، واشتقاقه من: ((نَبَّأَ وأَنْبَأَ)) أي: أخبر، والأجود: ترك الهمزة لأن الاستعمال يوجب أن ما كان مهموزاً من ((فعيل)) فجمعه: ((فعلاء)) مثل: ((ظريف وظرفاء ونبي وأنبياء)).

وقد جاء ((أفعلاء)) في الصحيح وهو قليل، قالوا: ((خميس وأخمساء وأخمس، ونصيب وأنصباء)) فيجوز أن يكون ((نبي من: و أنبأت)) مما ترك همزة لكثرة الاستعمال، ويجوز أن يكون من: ((نبأ ينبوء)) إذ ارتفع، فيكون ((فعيلاً)) من الرفعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾.

لا يجوز أن يكون لأحد منهم إيمان إلا مع إيمانه بالنبي ﷺ، ودليل ذلك قوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[محمد: ١، ٢]، فتأويله: من آمن بالله واليوم الآخر وآمن بالنبي ﷺ فلهم أجرهم.

وجاز أن يقال: ((فلهم)) لأن ((من)) لفظها لفظ الواحد وتقع على الواحد والاثنين والجمع والتأنيث والتذكير فيحمل الكلام على لفظها فيوحد ويذكر ويحمل على معناها فيثنى ويجمع ويؤنث، قال الشاعر(١) [من الطويل]:

تَعَالَ فإنْ عاهَدْتَني لاَ تَخُونُني ... نكنْ مثْل مَنْ يا ذئْبُ يَصْطَحِبانِ(٢)

و﴿هَادُوا﴾ أصله في اللغة: تابوا، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٥٦] أي: تبنا إليك.

---

(١) هو: أبو الأحرز الحماني.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٥٨/١)، وتفسير القرطبي (٤٧١/١)، والأغاني (٣١٠/١٠)، وصبح الأعشى (٢٨٧/٢)، ولسان العرب (٤١٥/١٣).

وواحد ((النصارى)) قيل فيه قولان: يجوز أن يكون واحدهم: ((نصران)) كما ترى، فيكون: ((نصران، ونصارى)) على وزن: ((ندمان وندامى))، قال الشاعر:

فَكِلْتاهُما خرَّتْ وأَسْجَدَ رأْسُها   كما أَسْجَدَتْ نَصْرانَة لم تحَنَّفِ [١]

فنصرانة تأنيث: ((نصران)).

ويجوز أن يكون ((النصارى)) واحدهم: ((نصري)) مثل: ((بعير مهري وإبل مهارى)).

ومعنى ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الخارجين من دين إلى دين، يقال: ((صبأ فلان)) إذا خرج من دينه، ((يَصْبَأ)) -يا هذا-، ويقال: ((صَبأْت النجوم)) إذا ظهرت، ((وَصَبَأ)) نابه إذا خرج.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ القراءة الجيدة الرفع، وكذلك إذا كررت ((لا)) في الكلام قلت: ((لا رجل عندي ولا زيد)) [ونحو قوله -تعالى-:][٢] ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[الصافات: ٤٧]، وإن قرىء: ((فلا خوفَ عليهم)) فهو جيد بالغ الجودة، وقد قرىء به.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

المعنى: واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم.

والطور: ههنا الجبل، ومعنى ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾: يجوز أن يكون ما أخذه الله -عز وجل- حين أخرج الناس كالذر، ودليل هذا قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[الأعراف: ١٧١] ثم قال من بعد تمام الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الأعراف: ١٧٢] فهذه الآية كالآية التي في البقرة، وهو أحسن المذاهب فيها.

وقد قيل: إن أخذ الميثاق هو ما أخذ الله من الميثاق على الرسل ومن اتبعهم، ودليله قوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾[آل عمران: ٨١] فالأخذ على النبيين -صلى الله عليهم وسلم- الميثاق يدخل فيه من اتبعهم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي: جئناكم بآية عظيمة، وهي أن الطور -وهو الجبل- رفع

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٥٨/١)، وتفسير القرطبي (٤٧١/١)، وفتح القدير (١٤٧/١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٤٤٥/٢)، ولسان العرب (٢١٠/٥)، وتاج العروس (٣٥٤٢/١).

(٢) من زيادتنا فالمقام يقتضيها.

فوقكم حتى أظلهم، وظنوا أنه واقع بهم فأخبر الله بعظم الآية التى أروها بعد أخذ الميثاق.

وأخبر بالشيء الذي لو عذبهم بعده لكان عدلاً في ذلك، ولكنه جعل لهم التوبة بعد ذلك قال ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من الآيات العظام.

﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: لولا أن مَنَّ الله عليكم بالتوبة بعد أن كفرتم مع عظيم هذه الآيات ﴿لَكُنتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾[1].

موضع ﴿مَا﴾ نصب و﴿مَا آتَيْنَاكُم﴾ هو الكتاب الذي هو التوراة ومعنى «خذوه بقوة» أي: خذوه بجد واتركوا الريب والشك لما بان لكم من عظيم الآيات.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ معناه: ادرسوا ما فيه، وجاز في اللغة أن تقول: «خذ وخذا» وأصله: «أوخذ» وكذلك «كل» أصله: «أوكل»، ولكن: «خذ وكل» اجتمع فيهما كثرة الاستعمال والتقاء همزتين وضمة، فحذفت فاء الفعل وهي الهمزة التي كانت في: «أخذ وأكل» فحذفت لما وصفنا من كثرة الاستعمال واجتماع ما يستثقلون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾.

معنى ﴿عَلِمْتُمُ﴾ هنا: عرفتم، ومثله قوله -عز وجل- ﴿لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ومعناه: لا تعرفونهم الله يعرفهم.

ومعنى ﴿اعْتَدَوْا﴾: ظلموا وجاوزوا ما حد لهم، كانوا أمروا ألا يصيدوا في السبت، وكانت الحيتان تجتمع لأمنها في السبت، فحبسوها في السبت وأخذوها في الأحد، فعدوا في السبت لأن صيدهم منها من التصرف، فجعل الله جزاءهم في الدنيا -بعدما أراهم من الآيات العظام- بأن جعلهم ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[2].

معنى ﴿خَاسِئِينَ﴾: مبعدين يقال: «خَسَأْت الكلب أَخْسَؤُه خَسْئاً» أي: باعدته وطردته.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾.

«ها» هذه تعود على الأمة التي مسخت، ويجوز أن يكون للفعلة.

ومعنى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يحتمل شيئين من التفسير: يحتمل أن يكون ﴿لِّمَا بَيْنَ

---

(١) عاد إلى تفسيرها مرة أخرى وقد سبق أن تعرض لها.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٧٠)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٥٠).

﴿يَدَيْهَا﴾ لما أسفلت من ذنوبها، ويحتمل أن يكون ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ للأمم التي تراها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ما يكون بعدها، ومعنى قولك: «نكلت به» أي: جعلت غيره ينكل أن يفعل مثل فعله فينال مثل الذي ناله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: يتعظ بها أهل التقوى فيلزمون ما هم عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

المعنى: واذكروا إذ قال موسى لقومه؛ أمروا بذبح بقرة[1] يضرب ببعضها قتيل، تشاجروا فيمن قتله، فلم يعلم قاتله، فأمر الله -عز وجل- بضرب المقتول بعضو من أعضاء البقرة.

وزعموا في التفسير أنهم أمروا أن يضربوا بالفخذ اليمنى أو الذنب[2]، وأحب الله تعالى أن يريهم كيف إحياء الموتى.

وفي هذه الآية احتجاج على مشركي العرب، لأنهم لم يكونوا مؤمنين بالبعث، فأعلمهم النبي ﷺ هذا الخبر الذي لا يجوز أن يعلمه إلا من قرأ الكتب، أو أوحي إليه، وقد علم المشركون أن النبي ﷺ أمي، وأن أهل الكتاب يعلمون -وهم يخالفون- أن ما

---

(١) انظر ما كان من أمرهم وقصتهم في: تفسير الطبري (١/٣٧٨) عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس، وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير (١/١٥٣)، وتفسير القرطبي (١/٤٨٢)، وفتح القدير (١/١٥٤)، وتفسير البغوي (١/١٠٥) ، وتفسير البيضاوي (١/٣٣٨)، وتفسير أبي السعود (١/١١٠)، والدر المنثور (١/١٨٦)، وروح المعاني (١/٢٨٥)، وزاد المسير (١/٩٦)، وتفسير الثعالبي (١/٧٦)، والكشاف (١/٧٣)، وتفسير مجاهد (١/٧٨).

(٢) وهو مروي عن عكرمة رواه الطبري في تفسيره (١/٤٠٢)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/١٥٣)، وقيل: ضربوه باللسان، وقال القرطبي في تفسير القرطبي (١/٤٩٣): قيل: باللسان لأنه آلة الكلام، وقيل: بعجب الذنب إذ فيه يركب خلق الإنسان، وقيل: بالفخذ، وقيل: بعظم من عظامها والمقطوع به عضو من أعضائها فلما ضرب به حيي وأخبر بقاتله ثم عاد ميتاً كما كان. وانظر أيضاً: فتح القدير (١/١٥٧)، وجمع أبو السعود الأقوال في عبارة واحدة فقال في تفسيره (١/١١٤): المعنى ببعض البقرة، وقيل: بأصغريها، وقيل: بلسانها، وقيل: بفخذها اليمنى، وقيل: بأذنها، وقيل: بعجبها، وقيل: بالعظم الذي يلي الغضروف.

وانظر أيضاً: الدر المنثور (١/١٨٨)، وتفسير النسفي (١/٥٢)، وزاد المسير (١/١٠١)، وتفسير الثعالبي (١/٧٨)، والكشاف (١/٧٣).

أخبر به من هذه الأقاصيص حق.

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ فانتفى موسى من الهزؤ، لأن الهازئ جاهل لاعب فقال: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾.

فلما وضح لهم أنه من عند الله ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ وإنما سألوا ما هي لأنهم لا يعلمون أن بقرة يحيا بضرب بعضها ميت.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ﴾؛ ارتفع ﴿فَارِضٌ﴾ بإضمار «هي».

ومعنى ﴿لاَّ فَارِضٌ﴾: لا كبيرة ﴿وَلاَ بِكْرٌ﴾ لا صغيرة، أي: ليست بكبيرة ولا صغيرة.

﴿عَوَانٌ﴾ والعوان: دون المسنة وفوق الصغيرة، ويقال: من الفارض فرضت تَفرِض فُروضاً، ومن العوان قد عوَّنت تُعَوِّن، ويقال: «حرب عوان» إذا لم تكن أول حرب وكانت ثانية، قال زهير [من الطويل]:

إذا لَقِحَت حَربٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ ضَروسٌ تُهِرُّ الناسَ أَنيابُها عُصلُ(١)

ومعنى ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين البكر والفارض وبين الصغيرة والكبيرة، وإنما جاز ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ و«بين» لا يكون إلا مع اثنين أو أكثر، لأن ذلك ينوب عن الجمل فتقول: «ظننت زيداً قائماً» فيقول القائل «ظننت ذلك».

وقوله -عز وجل-: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾؛ موضع ﴿مَا﴾ رفع بالابتداء، لأن تأويله الاستفهام، كقولك: ادع لنا ربك يبين لنا أي شيء لونها مثله ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾[الكهف: ١٩]، ولا يجوز في القراءة ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ على أن يجعل ﴿مَا﴾ لغواً ولا يقرأ القرآن إلا كما قرأت القراء المجمع عليهم في الأخذ عنهم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا﴾: ما بعد القول من باب «إن» مكسور أبداً، كأنك تذكر القول في صدر كلامك، وإنما وقعت «قلت» في كلام العرب أن يحكى بها ما كان كلاماً يقوم بنفسه قبل دخولها، فيؤدى مع ذكرها ذلك اللفظ تقول: «قلت: زيد منطلق»، كأنك قلت: «زيد منطلق» وكذلك: «إن زيداً منطلق» لا اختلاف بين النحويين في ذلك، إلا أن قوماً من العرب -وهم بنو سليم- يجعلون باب «قلت» كباب «ظننت» فيقولون: «قلت زيداً منطلقاً» فهذه لغة لا يجوز أن يوجد شيء منها في كتاب الله -عز وجل-، ولا يجوز: «قال أنه يقول إنها» لا يجوز إلا الكسر.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٤٨٥)، والكشاف (١/٩٨٨).

وأما قوله غز وجل: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾.

﴿فَاقِعٌ﴾: نعت للأصفر الشديد الصفرة، يقال: «أصفر فاقع وأبيض ناصع وأحمر قان» قال الشاعر[1] [من الكامل]:

يَسعى بها ذو تُومتين مُشَمِّرٌ قنَأَت أناملُهُ منَ الفُرصادِ[2]

أي: احمرت حمرة شديدة، ويقال: أحمر قاتم وأبيض يَقَقٌ ولَهِق ولهاق، وأسود حالك وحَلُوك وحلوكِيّ ودَجُوجيّ، فهذه كلها صفات مبالغة في الألوان.

وقد قالوا إن ﴿صَفْرَاءُ﴾ ههنا: سوداء.

ومعنى ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي: تعجب الناظرين.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ﴾.

معناه: ليست بذلول ولا مثيرة.

وقوله: ﴿وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ﴾ يقال: «سقيته» إذا ناولته فشرب، «وأسقيْته» جعلت له سقياً، فيصح ههنا ولا تسقى بالضم.

وقوله: ﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ أي: ليس فيها لون يفارق لونها.

والوشي في اللغة: خلط لون بلون، وكذلك في الكلام يقال: «وشَيْت الثوب أَشِيه شِيَةَ ووَشْياً» كقولك: «وَديْت فلاناً أَدِيه دِيَةً» ونصب ﴿لا شِيَةَ﴾ فيه على النفي، ولو قرئ: «لا شيةٌ فيها» لجاز، ولكن القراءة بالنصب.

وقوله: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾؛ فيه أربعة أوجه حكى بعضها الأخفش: فأجودها «قَالُوا الآنَ» بإسكان اللام وحذف الواو من اللفظ، وزعم الأخفش أنه يجوز قطع ألف الوصل ههنا فيقول: «قالوا ألآن جئت بالحق» وهذه رواية وليس له وجه في القياس، ولا هي عندي جائز ولكن فيها وجهان غير هذين الوجهين: -وهما جيدان في العربية- يجوز «قالوا لآن» على إلقاء الهمزة وفتح اللام من «الآن» وترك الواو محذوفة لالتقاء الساكنين ولا يعتد بفتحة اللام. ويجوز «قالوا لان جيت بالحق» ولا أعلم أحداً قرأ بها، فلا يقرأن بحرف لم يقرأ به، وإن كان ثابتاً في العربية.

والذين أظهروا الواو أظهروها لحركة اللام لأنهم كانوا حذفوها لسكونها فلما تحركت ردوها.

---

(١) هو: الأسود بن يفعر.

(٢) انظر: خزانة الأدب (٢/٣٧٦)، ولسان العرب (١/١٣٤)، وتاج العروس (١/١٩٤).

والأجود في العربية حذفها في مثل «الأحمر» فيلقون الهمزة فيقولون «لحمر» فيفتحون اللام ويقرؤون ألف الوصل، لأن اللام في نية السكون، وبعضهم يقول: «لحمر» ولا يقرأ ألف الوصل يريد الأحمر.

فأما نصب ﴿الآنَ﴾ فهي حركة لالتقاء الساكنين ألا ترى أنك تقول: «أنا الآن أكرمك، ومن الآن فعلت كذا وكذا» وإنما كان في الأصل مبنياً وحرك لالتقاء الساكنين وبني «الآن» وفيه الألف واللام، لأن الألف واللام دخلتا بعهد غير متقدم، إنما تقول: «الغلام فعل كذا وكذا» إذا عهدته أنت ومخاطبتك، وهذه الألف واللام تنوبان عن معنى الإشارة؛ المعنى: أنت إلى هذا الوقت تفعل، فلم يعرب «الآن» كما يعرب «هذا».

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾؛ معناه: فتدارأتم فيها، أي: تدافعتم، أي: ألقى بعضكم على بعض.

يقال: «درأْتُ فلاناً» إذا دافعته، «ودَارَيْتُه» إذا لاينته، «ودَرَّيْتُه» إذا ختلته، ولكن التاء أدغمت في الدال لأنهما من مخرج واحد، فلما أدغمت سكنت فاجتلبت لها ألف الوصل فتقول: «ادارأ القوم» أي: تدافع القوم.

وقوله -عز وجل-: ﴿مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ الأجود في ﴿مُخْرِجٌ﴾ التنوين، لأنه إنما هو لما يستقبل أو للحال، ويجوز حذف التنوين استخفافاً فيقرأ: «مخرجُ ما كنتم تكتمون» فإن كان قرىء به، وإلا فلا يخالف القرآن كما شرحنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾؛ القراءة في هذا على أوجه فأجودها والأكثر: ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ على فتح الهاء والتخفيف، ويجوز «تَشَّابه علينا، ويَشَّابه علينا» بالتاء والياء، وقد قرىء: «إن الباقر يشابه علينا» والعرب تقول في جمع البقر والجمال: «الباقر والجامل» يجعلونه اسماً للجنس، قال طرفة بن العبد [من السريع]:

وَجامِلٍ خَوَّعَ مِن نيبِهِ زَجرُ المُعَلّى أُصُلاً وَالسَّفيح[1]

ويروي «مني به» وهو أكثر الرواية وليس بشيء، وقال الشاعر [من الكامل]:

مالي رَأَيتُكَ بَعدَ أَهلِكَ موحِشاً خَلَقاً كَحَوضِ الباقر المُتَهَدِّمِ[2]

وما كان مثل: «بقرة وبقر ونخلة ونخل وسحابة وسحاب» فإن العرب تذكره وتؤنثه،

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/٤٨٥)، وتاج العروس (١/٥١٩٩).

(٢) انظر: الأغاني (٣/٣٣٢).

فتقول: ((هذا بقر وهذه بقرة وهذا نخل وهذه نخل)) فمن ذكر فلأن في لفظ الجمع أن يعبر عن جنسه فيقال: فتقول هذا جمع، وفي لفظه أن يعبر عن الفرقة والقطعة، فتقول: ((هذه جماعة وهذه فرقة)) قال الله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾[النور: ٤٣] فذكّر، وواحدته: ((سحابة))، وقال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ فجمع على معنى جماعة ولفظها واحد.

فمن قرأ ﴿إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ فمعناه: أن جماعة البقر تتشابه علينا فأدغمت التاء في الشين لقرب مخرج التاء من الشين، ومن قرأ: ((تَشَّابه علينا)) أراد تتشابه فحذف التاء الثانية لاجتماع تاءين كما قرىء ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ومن قرأ: ((يَشَّابه علينا)) -بالياء- أراد جنس البقر أيضاً، والأصل: يتشابه علينا، فأدغم التاء في الشين.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

تأويل ﴿قَسَتْ﴾ في اللغة: غلظت ويبست وصلبت، فتأويل القسو في القلب: ذهاب اللين والرحمة والخضوع والخشوع منه، ومعنى ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد إحياء الميت لكم بعضو من أعضاء البقرة، وهذه آية عظيمة كان يجب على من يشاهدها من قدرة -عز وجل- ما يزيل كل شك، أن يلين قلبه ويخضع.

ويحتمل أن يكون ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد إحياء الميت والآيات التي تقدمت ذلك نحو: مسخ القردة والخنازير، ونحو: رفع الجبل فوقهم، ونحو: انبجاس الماء من حجر يحملونه معهم، وإنما جاز ﴿ذَلِكَ﴾ وهؤلاء الجماعة مخاطبون ولم يقل: ((ذلكم))، ولو قال: ((ذلكم)) كان جيداً، وإنما جاز أن تقول للجماعة: ((بعد ذلك وذلكم)) لأن الجماعة تؤدي عن لفظها الجميع والفريق، فالخطاب في لفظ واحد والمعنى جماعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، وقد روي: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ ومعنى تشبيه القسوة بالحجارة قد بيناه، ودخول ﴿أَوْ﴾ ههنا لغير معنى الشك، ولكنها ﴿أَوْ﴾ التي تأتي للإباحة تقول: ((الذين ينبغي أن يؤخذ عنهم العلم الحسن أو ابن سيرين)) فلست بشاك، وإنما المعنى ههنا: هذان أهل أن يؤخذ عنهما العلم فإن أخذته عن ابن سيرين فأنت مصيب، وإن أخذته عنهما جميعاً فأنت مصيب.

فالتأويل: اعلموا أن قلوب هؤلاء إن شبهتم قسوتها بالحجارة فأنتم مصيبون، أو بما هو أشد فأنتم مصيبون، ولا يصلح أن تكون ((أو)) ههنا بمعنى الواو، وكذلك قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً.... أَوْ كَصَيِّبٍ﴾[البقرة: ١٧- ١٩] أي: إن مثلتهم بالمستوقد فذلك

مثلهم، وإن مثلتهم بالصيب فهو لهم مثل وقد، شرحناه في مكانه شرحاً كافياً إن شاء الله.

فمن قرأ ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ رفع ﴿أَشَدُّ﴾ بإضمار «هي» كأنه قال: أو هي أشد قسوة ومن نصب ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ فهو على خفض في الأصل بمعنى الكاف، ولكن ﴿أَشَدَّ﴾ أفعل لا ينصرف، لأنه على لفظ الفعل وهو نعت ففتح وهو في موضع جر، ويجوز في قوله تعالى ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ «فَهْي كالحجارة» -بإسكان الهاء- لأن الفاء مع «هي» قد جعلت الكلمة بمنزلة «فَخْذ» فتحذف الكسرة استثقالاً، وقد روى بعض النحويين أنه يجوز في «هي» الإسكان في الياء من «هي»، ولا أعلم أحداً قرأ بها، وهي عندي لا يجوز إسكانها ولا إسكان الواو في «هو» لا يجوز «هُوْ ربكم»، وقد روى الإسكان بعض النحويين وهو رديء، لأن كل مضمر فحركته -إذا انفرد- الفتح، نحو: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ﴾[النازعات: ٢٤]، فكما لا تسكن نون «أنا» لا تسكن هذه الواو.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾؛ بين -عز وجل- كيف كانت قلوبهم أنها أشد قسوة وأصلب من الحجارة، وأعلم أن الحجارة تتفجر منها الأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، يعني: العيون التي تخرج الحجارة، ولا تكون أنهاراً، ومنها ما يهبط من خشية الله.

فقالوا: إن الذي يهبط من خشية الله نحو: الجبل الذي تجلى الله له حين كلم موسى عليه السلام.

وقال قوم: إنها أثر الصنعة التي تدل على أنها مخلوقة، وهذا خطأ لأن ليس منها شيء ليس أثر الصنعة بيناً في جميعها، وإنما الهابط منها مجعول فيه التمييز كما قال -عز وجل-: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[الحشر: ٢١]، وكما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾، ثم قال: ﴿وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ﴾[الحج: ١٨] فأعلم أن ذلك تمييز أراد الله منها، ولو كان يراد بذلك الصنعة لم يقل: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ لأن أثر الصنعة شامل للمؤمن وغيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾.

هذه الألف ألف استخبار وتجري في كثير من المواضع مجرى الإنكار والنهي، إذا لم يكن معها نفي، كأنه أيسهم من الطمع في إيمان هذه الفرقة من اليهود، فإذا كان في أول الكلام نفي فإنكار النفي تثبيت نحو قوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى﴾[الملك: ٨، ٩].

فجواب ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: «لا» كما وصفنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

يروى في التفسير[1]: أنهم سمعوا كلام الله لموسى -عليه السلام- فحرفوه، فقيل في هؤلاء الذين شاهدهم النبي ﷺ: إنهم كفروا وحرفوا فلهم سابقة في كفرهم.

وقوله -عز وجل- ﴿وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾.

المعنى: أتخبرونهم بأن النبي ﷺ ذكره موجود في كتابكم وصفته.

﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: لتكون لهم الحجة في إيمانهم بالنبي ﷺ عليكم إذ كنتم مقرين به تخبرون بصحة أمره من كتابكم، فهذا بيّن حجته عليكم عند الله.

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعقلون حجة الله عليكم في هذا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾.

معنى «الأمي» في اللغة: المنسوب إلى ما عليه جبلة أمته، أي: لا يكتب فهو في أنه لا يكتب على ما ولد عليه.

وارتفع ﴿أُمِّيُّونَ﴾ بالابتداء ﴿وَمِنْهُمْ﴾ الخبر.

ومعنى ﴿إِلا أَمَانِيَّ﴾ قال الناس في معناه قولين:

قالوا: «معناه: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة» كما قال -عز وجل-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته.

وقد قيل: «الأماني: أكاذيب العرب» تقول: أنت إنما تتمنى هذا القول أي: تختلقه.

ويجوز أن يكون آماني منسوباً إلى القائل إذا قال ما لا يعلمه فكأنه إنما يتمناه، وهذا مستعمل في كلام الناس؛ تقول للذي يقول ما لا حقيقة له وهو يحبه: هذا مُنىً وهذه أُمْنِيّة.

---

(١) قالوا في التفسير: المراد بهم اليهود. انظر: تفسير الطبري (١/٤٠٩)، وتفسير ابن كثير (١/١٦٣)، وتفسير القرطبي (٢/٥)، وتفسير أبي السعود (١/٢١٣)، والدر المنثور (١/١٩٨)، وزاد المسير (١/١٠٣)، والكشاف (١/٧٧).

وفي لفظ أماني وجهان: العرب تقول: ((هذه أمانٍ وأَمانِي)) -يا هذا-بالتشديد والتخفيف، فمن قال ((أمانيّ)) بالتشديد فهو مثل: ((أحدوثة وأحاديث، وقرقورة وقراقير))، ومن قال: ((أمان)) بالتخفيف فهو مما اجتمعت فيه الياءان أكثر لثقل الياء، والعرب تقول في ((أثفية)): ((أثافيّ وأثافٍ)) والتخفيف أكثر لكثرة استعمالهم: ((أثافٍ))، والأثافي: الأحجار التي تجعل تحت القدر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

الويل في اللغة: كلمة يستعملها كل واقع في هلكة، وأصله: في العذاب والهلاك.

وارتفع ﴿فَوَيْلٌ﴾ بالابتداء، وخبره ﴿لِّلَّذِينَ﴾ ولو كان في غير القرآن لجاز: ((فويلاً للذين)) على معنى: جعل الله ويلاً للذين، والرفع على معنى: ثبوت الويل ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

يقال: إن هذا في صفة النبي ﷺ كتبوا صفته على غير ما كانت عليه في التوراة[1].

ويقال في التفسير: إنهم كتبوا صفته: ((أنه آدم طويل، وكانت صفته فيها أنه آدم ربعة))[2] فبدلوا فألزمهم الله الويل بما كتبت أيديهم، ومن كسبهم على ذلك لأنهم أخذوا عليه الأموال وقبلوا الهدايا.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾.

﴿تَمَسَّنَا﴾ نصب بـ﴿لَن﴾؛ وقد اختلف النحويون في علة النصب بلن:

فروي عن الخليل قولان: أحدهما: أنها نصبت كما نصبت ((أن))، وليس ما بعدها بصلة لها، لأن ((لن يفعل)) نفي ((سيفعل)) فقدم ما بعدها عليها نحو قولك: ((زيداً لن أضرب)) كما تقول: ((زيداً لم أضرب)).

وقد روى سيبويه عن بعض أصحاب الخليل عن الخليل أنه قال: ((الأصل في ((لن)): ((لا أن)) ولكن الحذف وقع استخفافاً.

وزعم سيبويه أن هذا ليس بجيد، لو كان ذلك لم يجز: ((زيداً لن أضرب)) وعلى

---

(١) هو مروي عن أبي العالية رواه الطبري في التفسير (١/٤٢١)، وهو ما قاله الواحدي في الوجيز (١/١١٤)، وانظر أيضاً: روح المعاني (١/٣٠٢).

(٢) انظر: تفسير البغوي (١/١١٥).

مذهب سيبويه جميع النحويين، وقد حكى هشام[1] عن الكسائي في «لن» مثل هذا القول الشاذ عن الخليل، ولم يأخذ به سيبويه ولا أصحابه.

ومعنى ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ قالوا: إنما نعذب لأننا عبدنا العجل أياماً.

قيل في عددها قولان:

قيل: سبعة أيام، وقيل: أربعون يوماً.

وهذه الحكاية عن اليهود هم الذين قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً﴾.

بقطع الألف هي تقرأ على ضربين: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ بتبين الذال، وتختم بإدغام الذال في التاء، والألف قطع لأنها ألف استفهام وتقرير.

وقوله -عز وجل-: ﴿عِندَ اللهِ عَهْداً﴾؛ المعنى: عهد الله إليكم في أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾؛ أي: إن كان لكم عهد فلن يخلفه الله.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم قال -عز وجل-: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ رداً لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فألحق في هذه الآية، والإجماع أن هذا لليهود خاصة لأنه -عز وجل- في ذكرهم.

وقد قيل: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الشرك بالله.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾: الكبائر، والذي جرى في هذه الأقاصيص إنما هو إخبار عن اليهود.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ﴾؛ القراءة على ضربين: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ و﴿يَعْبُدُونَ﴾ بالياء والتاء، وقد روي وجه ثالث لا يؤخذ به لأنه مخالف للمصحف: قرأ ابن مسعود: «لا تعبدوا».

ورفع ﴿لاَ تَعْبُدُونَ﴾ بالتاء على ضربين:

على أن يكون ﴿لاَ﴾ جواب القسم، لأن أخذ الميثاق بمنزلة القسم، والدليل على

---

(١) نحوي، وضرير من أهل الكوفة، ومن كتبه: الحدود، والمختصر، والقياس كلها في النحو. توفي عام (٢٠٩هـ= ٨٢٤م).

ذلك قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٨٧] فجاء جواب القسم باللام، فكذلك هو بالنفي بـ «لا» ويجوز أن يكون رفعه على إسقاط «أن» على معنى «ألا تعبدوا»، فلما سقطت «أن» رفعت، وهذا مذهب الأخفش وغيره من النحويين.

فأما القراءة بالتاء فعلى معنى الخطاب والحكاية كأنه قيل: قلنا لهم: لا تعبدون إلا الله، وأما «لا يعبدون» بالياء، فإنهم غيب وعلامة الغائب الياء.

ومعنى أخذ الميثاق والعهد قد بيناه قبل هذا الموضع.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾؛ نصب على معنى: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، بدل من اللفظ: «أحسنوا».

﴿وَذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾: جمع على «فعالى» كما جمع: «أسير» على «أسارى»، يقال: «يَتِم يَيْتَم يُتْمَاً ويَتْماً»: إذا فقد أباه، هذا للإنسان، فأما غيره فيتمه من قبل أمه، أخبرني بذلك محمد بن يزيد[1] عن الرياشي[1] عن الأصمعي: إن اليتيم في الناس من قبل

---

(١) هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، الثمالي، الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد.

إمام العربية في زمانه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، مولده بالبصرة سنة (٢١٠ هـ = ٨٢٦ م)، ووفاته ببغداد سنة (٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م).

وكان المبرد إمام العربية في حياته، وكان فصيحاً بليغاً، طلق اللسان، وصادقاً صدوقاً، عرف بالثقة في كل أخباره، كما عرف بظرفه وغريب نوادره.

نشأ بالبصرة من قبيلة ثمالة وهي من الأزد، وتتلمذ على أبي حاتم السجستاني، وقرأ على أبي عمر الجرمي كتاب سيبويه، ولما توفي الجرمي انتقل إلى حلقة المازني ليكمل عليه قراءة كتاب سيبويه، وقد رأى فيه أساتذته السجستاني والجرمي والمازني غزارة في الأدب والعلم وكثرة في الحفظ وجمالاً في الإشارة.

وقد تصدر أبو العباس المبرد حلقات البصرة دارساً وشارحاً، فقد أجازه أساتذته التدريس وهو صغير السن.

وتتلمذ على المبرد كثير من علماء عصره منهم نِفْطَوَيْه، وأبو بكر الصولي، ومحمد بن جعفر الخرائطي، وعبد الله بن جعفر درستويه، وغيرهم، وكلهم بلغ من العلم درجة رفيعة منهم البصري ومنهم الكوفي، وانتشر علمه وشاع ذكره حتى وصل دار الخلافة وصار من جلساء المتوكل ومقربيه ونال عنده مكانة عالية لم ينلها غيره من علماء عصره.

=

الأب، وفي غير الناس من قبل الأم.

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ مأخوذ من السكون، واحدهم: «مسكين» كأنه قد أسكنه الفقر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ فيها ثلاثة أقوال:

﴿حُسْناً﴾ بالتنوين وإسكان السين، و «حسَناً» بالتنوين وفتح السين، وروى الأخفش «حسنى» غير منون، فأما الوجهان الأولان فقرأهما الناس، وهما جيدان بالغان في اللغة، وأما «حسنى» فكان لا ينبغي أن يقرأ به لأنه باب «الأفعل والفعلى» نحو: «الأحسن والحسنى، والأفضل والفضلى» لا يستعمل إلا بالألف واللام كما قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾[الأنبياء: ١٠١] وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦].

وفي قوله: ﴿حُسْناً﴾ بالتنوين قولان:

المعنى: قولوا للناس قولاً ذا حسن.

وزعم الأخفش أنه يجوز أن يكون ﴿حُسْناً﴾ في معنى حَسَناً، فأما ﴿حُسْناً﴾ فصفة؛ المعنى: قولاً حَسَناً.

وتفسير: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ مخاطبة لعلماء اليهود، قيل لهم: أصدقوا في صفة النبي ﷺ.

=

ولأن المبرد كان رأس المدرسة البصرية في عصره فقد كان بينه وبين أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب رأس المدرسة الكوفية في عصره منافرة وجدل أكثر من ذكرها أصحاب كتب الطبقات والمهتمين بأخبار النحويين واللغويين، وكان أكثر أهل العلم يفضلون المبرد على ثعلب، وكان الناس بالبصرة يقولون: ما رأى المبرد مثل نفسه.

وكان المبرد يحب مناظرة ثعلب والاستكثار منه وكان ثعلب يكره ذلك ويمتنع منه.

وقد شهد الذهبي بعلم المبرد فقال: وكان آية في النحو.

وقد ترك لنا المبرد تصانيف كثيرة منها كتاب: معاني القرآن، والكامل في اللغة والأدب، والمقتضب، والروضة، والمقصور والممدود، وإعراب القرآن، وشرح لامية العرب والمذكر والمؤنث وغير ذلك.

انظر ترجمته في: سير النبلاء (٥٧٦/١٣ - ٥٧٧)، ووَفَيَات الأعيان (٣١٣/٤ - ٣٢٢)، وتاريخ بغداد (٣٨٠/٣ - ٣٨٧)، ومعجم الأدباء (٤٧٩/٥ - ٤٨٥)، والأعلام (١٤٤/٧).

(١) والرياشي المذكور بعده، لغوي، وعارف بأيام العرب، ومن أهل البصرة بالعراق، وقتل فيها أيام فتنة صاحب الزنج، ومن كتبه: الخيل، توفي عام (٢٥٧هـ= ٨٧١م).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾: اعلموا أنه قد أخذ عليهم فيه بالصدق في صفة النبي ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ﴾.

يعني: أوائلهم الذين أخذ عليهم الميثاق.

وقوله ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: وأنتم أيضاً كأوائلكم في الإعراض عهد إليكم فيه.

ونصب ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ على الاستثناء، والمعنى: استثنى قليلاً منكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، يقال سفكت الدم أسفكته سفكاً إذا صببته.

ورفع: ﴿لاَ تَسْفِكُونَ﴾ على القسم وعلى حذف «أن» كما وصفنا في قوله: ﴿لاَ تَعْبُدُونَ﴾ ومثل حذف «أن» قول طرفة [من الطويل]:

أَلاَ أَيُّهذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الْوَغَى وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي(1)

وواحد «الدماء»: «دم» -يا هذا- مخفف، وأصله: «دمي» في قول أكثر النحويين، ودليل من قال إن أصله دمي قول الشاعر(2) [من الوافر]:

فَلَو أَنَّا عَلى حَجَرٍ ذُبِحنا جَرى الدمَيانِ بِالخَبَرِ اليَقينِ(3)

وقال قوم: أصله: «دمي» إلا أنه لما حذف ورُدَّ إليه ما حذف منه حركت الميم لتدل الحركة على أنه استعمل محذوفاً.

وقوله عز وجل: ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ عطف على: ﴿تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٣٢/١)، وتفسير القرطبي (٢٤٢/١٥)، وفتح القدير (١٦٨/١)، وتفسير البيضاوي (٣٥٢/١)، وروح المعاني (٣٣/٢١)، وزاد المسير (٢٩٦/٦)، والكشاف (٧٩/١)، والأصول في النحو (١٧٦/٢)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٥٦٠/٢)، وسر صناعة الإعراب (٢٨٥/١)، وشرح ابن عقيل (٢٤/٤)، وشرح شذور الذهب (١٩٨/١)، ومغني اللبيب (٥٠٢/١)، والمزهر في علوم اللغة (٢٦٧/١)، وفقه اللغة (١٢٧٢/١) وفي لسان العرب (٢٨/١٣).

(٢) هو: المثقب العبدي.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣١٧/١)، وروح المعاني (٣١١/١)، والجمل في النحو (٢٤٠/١)، والأصول في النحو (٣٢٤/٣)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٣٥٧/١)، والمفصل في صنعة الإعراب (٢٣١/١)، وسر صناعة الإعراب (٣٩٥/١)، والأغاني (٢٥٤/٢٤)، ولسان العرب (١٩/١٤)، وتاج العروس (٨٣٨٥/١).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي: اعترفتم بأن هذا أُخذ عليكم في العهد، وأُخذ على آبائكم، وأنتم أيها الباقون المخاطبون تشهدون أن هذا حق.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ﴾: الخطاب وقع لليهود من بني قريظة وبني النضير لأنهم نكثوا، فقتل بعضهم بعضاً، وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وهذا نقض لعهدهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

قرئت بالتخفيف والتشديد ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ و ﴿تَظَّاهَرُونَ﴾ فمن قرأ بالتشديد فالأصل: ((تتظاهرون)) فأدغم فحذفت التاء الثانية لاجتماع تاءين.

وتفسير ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ تتعاونون، يقال: ((قد ظَاهَرَ فلان فلاناً)) إذا عاونه، منه قوله: ﴿وَكَانَ الكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾[الفرقان: ٥٥] أي: معيناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ العدوان: الإفراط في الظلم، ويقال: عدا فلان في ظلمه عدواً وعُدواً وعدواناً وعداءً، وهذا كله معناه ((المجاوزة في الظلم))، وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾[النساء: ١٥٤] إنما هو من هذا، أي: لا تظلموا فيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾؛ القراءة في هذا على وجوه: ((أسرى تفدوهم))، و((أسرى تفادوهم)) و﴿أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾، ويجوز ((أَسَارَى)) ولا أعلم أحد قرأ بها، وأصل الجمع ((فعالى)).

أعلم الله مناقضتهم في كتابه، وأنه قد حرم عليهم قتلهم، وإخراجهم من ديارهم، وأنهم يفادونهم إذا أسروا ويقتلونهم ويخرجونهم من ديارهم، فوبخهم فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

يعني: ما نال بني قريظة وبني النضير، لأن بني النضير أجلوا إلى الشام، وبني قريظة أبيدوا، حكم فيهم بقتل المقاتلة وسبي الذراري فقال الله -عز وجل-: ذلك لهم خزي في الدنيا، ولغيرهم من سائر الكفار الخزي في الدنيا: القتل وأخذ الجزية مع الذلة والصغار(١).

ثم أعلم الله -عز وجل- أن ذلك غير مكفر عن ذنوبهم وأنهم صائرون بعد ذلك إلى عذاب عظيم فقال: ﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/٤٤٠)، وتفسير ابن كثير (١/١٧٠)، وتفسير القرطبي (٢/٢٣)، وتفسير البيضاوي (١/٣٥٤)، والدر المنثور (١/٢١١)، وروح المعاني (١/٣١٤)، والكشاف (١/٧٩).

ومعنى ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

﴿هَؤُلاءِ﴾ في معنى «الذين»، وتقتلون صلة لهؤلاء: «كقولك ثم أنتم الذين تقتلون أنفسكم»، ومثله قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾[طه: ١٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ على ضربين: جائز أن يكون إضمار الإخراج الذى تقدم ذكره قال: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ ثم بين لتراخي الكلام أن ذلك الذي حُرِّم الإخراج، وجائز أن يكون للقصة والحديث والخبر كأنه قال: والخبر محرم عليكم إخراجهم، كما قال -عز وجل-: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١] أي: الأمر الذى هو الحق توحيد الله -عز وجل-.

﴿خِزْيٌ﴾ يقال في الشر والسوء: «خَزِيَ الرجل خَزياً» ويقال في الحياء «خَزي يخزي خِزَاية».

ومعنى ﴿يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ﴾، و﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، و﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أن العذاب على ضربين على قدر المعاصي والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[الليل: ١٤-١٦] فهذه النار الموصوفة ههنا لا يدخلها إلا الكفار.

وقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ﴾ يعنى التوراة.

وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾: أي: أرسلنا رسولاً يقفو رسولاً في دعائه إلى توحيد الله والقيام بشرائع دينه، يقال من ذلك: «فلان يقفو فلاناً» إذا اتبعه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ﴾.

معنى ﴿وَآتَيْنَا﴾ أعطينا.

ومعنى ﴿البَيِّنَاتِ﴾ الآيات التي يعجز عنها المخلوقون مما أعطيه عيسى ﷺ من إحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ﴾؛ معنى «أيدنا» في اللغة قوينا وشددنا، قال الشاعر(١)[من الرجز]:

* من أن تبدلت بآد آدا *

---

(١) هو: العجاج.

يريد: من أن تبدلت بأيد أداً، يريد: بقوة قوة، الأد والأيد: القوة.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾:

((روح القدس)) جبريل عليه السلام، والقدس: الطهارة وقد بيناه.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾.

نصب ((كلما)) كنصب سائر الظروف.

ومعنى ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنفتم وتعظمتم من أن تكونوا أتباعاً، لأنهم كانت لهم رياسة وكانوا متبوعين فآثروا الدنيا على الآخرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ تقرأ على وجهين: ((غُلْف وغُلُف)) وأجود القراءتين: ((غُلْف)) بإسكان اللام، لأن له شاهداً من القرآن.

ومعنى ﴿غُلْفٌ﴾ ذوات غلف، الواحد منها: أغلف وغلف، مثل: ((أحمر وحمر))، فكأنهم قالوا: قلوبنا في أوعية، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[فصلت: ٥]، ومن قرأ: ((غُلُف)) فهو جمع: ((غِلاف وغَلَف)) مثل: ((مِثَال ومُثَل وحِمار وحُمر)) فيكون معنى هذا: إن قلوبنا أوعية للعلم[١]، والأول أشبه.

ويجوز أن تسكن ((غلف)) فيقال: ((غُلْف)) كما يقال في جمع: ((مِثَال ومُثْل)).

فأعلم الله -عز وجل- أن الأمر على خلاف ما قالوا فقال: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

معنى: ﴿لَّعَنَهُمُ اللهُ﴾ في اللغة: أبعدهم، فالتأويل -والله أعلم- بل طبع الله على قلوبهم كما قال: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[البقرة: ٧].

ثم أخبر الله -عز وجل- أن ذلك مجازاة منه لهم على كفرهم فقال ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ واللعن كما وصفنا الإبعاد قال الشماخ[٢] [من الوافر]:

---

(١) يقصدون أن في قلوبهم علماً بما يصلحهم، ولا حاجة مع ذلك إلى الإسلام، وهذا في زعمهم.

(٢) هو: الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم، وأدرك الجاهلية والاسلام. وهو من طبقة لبيد والنابغة. كان شديد متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقاً. وكان أرجز الناس على البديهة. شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان. وأخباره كثيرة. قال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار، والشماخ لقبه، وفاته (٢٢ هـ = ٦٤٣ م).

انظر ترجمته في: الإصابة (ت: ٣٩١٣) والأغاني (٨/٩٧)، والأعلام (الشماخ).

وَماءٍ قَد وَرَدتُ لِوَصلِ أَروى   عَلَيهِ الطَّيرُ كَالوَرَقِ اللَّجينِ[(١)]

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ تقرأ﴿جَاءَهُمْ﴾ بفتح الجيم والتفخيم، وهي لغة أهل الحجاز، وهي اللغة العليا القدمى، والإمالة إلى الكسر لغة بني تميم وكثير من العرب، ووجهها أنها الأصل من ذوات الياء فأميلت لتدل على ذلك ،

ومعنى «كتاب الله» ههنا القرآن: واشتقاقه من الكتب وهي جمع كتبة وهي الخرزة، وكل ما ضممت بعضه إلى بعض على جهة التقارب والاجتماع فقد كتبته، والكتيبة الفرقة التي تحارب من هذا اشتقاقها، لأن بعضها منضم إلى بعض، ويسمى كلام الله -عز وجل- الذي أنزل على نبيه كتاباً وقرآناً وفرقاناً.

فقد فسرنا معنى «كتاب»؛ ومعنى «قرآن»: معنى الجمع يقال: «ما قرأت هذه الناقة سلى قط» أي: لم يضم رحمها على ولد قط، قال الشاعر[(٢)] [من الوافر]:

* هَجانِ اللَّونِ لَم تَقرَأ جَنينا[(٣)] *

قال أكثر الناس: لم تجمع جنيناً أي: لم تضم رحمها على جنين.

وقال قطرب في «قرآن» قولين:

أحدهما هذا وهو المعروف الذي عليه أكثر الناس والقول الآخر ليس بخارج من الصحة وهو حسن، قال: «لَم تَقرَأ جَنينا» _ لم تلقه مجموعاً، وقال: يجوز أن يكون معنى «قرأت» لفظت به مجموعاً، كما أن «لفظت» من اللفظ اشتقاقه من: «لفظت كذا وكذا» إذا ألقيته، فكأن: «قرأت القرآن» لفظت به مجموعاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: يصدق بالتوراة والإنجيل ويخبرهم بما في كتبهم مما لايعلم إلا بوحي أو قراءة كتب، وقد علموا أن النبي ﷺ كان أمياً لا يكتب.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/٣٧٨)، وتاج العروس (١/٨١٦١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/٥٤٦).

(٢) هو: أمية بن أبي الصلت.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/٦٧)، وتفسير القرطبي (٣/١٠٧)، وفتح القدير (١/٣٥٧)، وروح المعاني (٢٩/١٤٢)، وزاد المسير (٢/١٤٤)، والتبيان تفسير غريب القرآن (١/١٢٠)، ولسان العرب (١/١٢٨)، وتاج العروس (١/١٩٠).

وقوله: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ضم ﴿قَبْلُ﴾ لأنها غاية «كان» يدخلها بحق الإعراب الكسر والفتح، فلما عدلت عن بابها بنيت على الضم، فبنيت على ما يدخلها بحق الإعراب، وإنما عدلت عن بابها، لأن أصلها إضافة، فجعلت مفردة تنبئ عن الإضافة؛ المعنى: وكانوا من قبل هذا.

ومعنى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ قيل فيه قولان:

قال بعضهم: كانوا يخبرون بصحة أمر النبي ﷺ(١).

وقيل: وكانوا يستفتحون على الذين كفروا، يستنصرون بذكر النبي ﷺ، فلما جاءهم ما عرفوا أنهم متعمدون للشقاق وعداوة الله(٢).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾؛ قد فسرنا «اللعنة» وجواب ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾ محذوف، لأن معناه معروف دل عليه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾.

«بئس» إذا وقعت على «ما» جعلت معها بمنزلة منكور، وإنما ذلك في «نعم وبئس» لأنهما لا يعملان في اسم علم، إنما يعملان في اسم منكور دال على جنس، أو اسم فيه ألف ولام يدل على جنس، وإنما كانتا ذلك لأن «نعم» مستوفية لجميع المدح و«بئس» مستوفية لجميع الذم، فإذا قلت: «نعم الرجل زيد» فقد استحق زيد المدح الذي يكون في سائر جنسه.

قال أبو إسحاق: وفي «نعم الرجل زيد» أربع لغات: «نَعِم الرجل زيد، ونِعْم الرجل زيد، ونَعْمَ الرجل زيد، ونِعِمَ الرجل زيد» وكذلك إذا قلت: «بئس الرجل زيد» دللت على أنه استوفى الذم الذي يكون في سائر جنسه، فلم يجز إذا كان يستوفي مدح الأجناس أن يعمل في غير لفظ جنس، فإذا كان معها اسم جنس بغير ألف ولام فهو نصب أبداً، وإذا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٧٥)، وقاله قتادة. انظر: فتح القدير (١/١٧٧)، وانظر أيضاً: الدر المنثور (١/٢١٦)، وتفسير الصنعاني (١/٥٢).

(٢) قاله ابن زيد، ورواه الطبري في تفسير الطبري (١/٤٥٤)، وهو مروي عن ابن عباس. انظر: تفسير القرطبي (٢/٢٩).

وانظر أيضاً: تفسير البيضاوي (١/٣٥٩)، وتفسير أبي السعود (١/١٢٨)، وتفسير النسفي (١/٥٧)، وروح المعاني (١/٣٢٠)، وزاد المسير (١/١١٣)، وتفسير الثعالبي (١/٨٨)، والكشاف (١/٨٠)، ومعاني القرآن (١/٤٣٤).

كانت فيه الألف واللام فهو رفع أبداً، وذلك كقولك: ((نعم رجلاً زيد، ونعم الرجل زيد)) فلما نصب ((رجل)) فعلى التمييز لأنك إذا قلت: ((نعم الرجل)) لم يعلم من تعني فقولك: ((زيد)) تريد به هذا الممدوح هو زيد.

وقال سيبويه والخليل: جميع ما قلنا فى ((نعم وبئس)) وقالا: إن شئت رفعت ((زيدا)) لأنه ابتداء مؤخر، كأنك قلت: -حين قلت- ((نعم رجلاً زيداً)) نعم زيد نعم الرجل، وكذلك كانت ((ما)) في ((نعم)) بغير صلة لأن الصلة توضح وتخصص والقصد في ((نعم)) أن يليها اسم منكور أو جنس.

فقوله ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ بئس شيئاً اشتروا به أنفسهم، وقوله -عز وجل-: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ كأنه قال: فنعم شيئاً هي، وقال قوم: إن ((نعم)) مع ((ما)) بمنزلة: ((حب)) مع ((ذا)) تقول: ((حبذا زيد وحبذا هي)) و ((نعما هي))، والقول الأول هو مذهب النحويين، وروى جميع النحويين ((بئسما تزويج ولا مهرة؛ والمعنى فيه: بئس شيئاً تزويج ولا مهر.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾؛ موضعه رفع؛ المعنى: ذلك الشيء المذموم أن يكفروا بما أنزل الله.

وقوله -عز وجل-:﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

معناه: أنهم كفروا بغياً وعداوة للنبي ﷺ، لأنهم لم يشكوا في نبوته ﷺ، وإنما حسدوه على ما أعطاه الله من الفضل؛ المعنى: كفروا بغياً لأن نزل الله الفضل على النبي ﷺ.

ونصب ﴿بَغْياً﴾ مصدراً مفعولاً له كما تقول: ((فعلت ذلك حذر الشر)) أي: لحذر الشر، كأنك قلت: ((حذرت حذراً))، ومثله من الشعر قول الشاعر وهو حاتم الطائي [من الطويل]:

وَأَغفِرُ عَوراءَ الكَرِيمِ اِدِّخارَهُ ... وَأَصفَحُ مِن شَتمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّما(١)

المعنى: أغفر عوراء الكريم لادخاره وأعرض عن شتم اللئيم للتكرم، وكأنه قال:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٣٢/٢)، وتفسير القرطبي (١٩٩/٢)، وفتح القدير (٢٥٥/١)، وتفسير البيضاوي (١٩٩/١)، وروح المعاني (١٧٤/١)، وأسرار العربية (١٧٣/١)، والجمل في النحو (١٢٢/١)، والأصول في النحو (٢٠٧/١)، وشرح ابن عقيل (١٩٠/٢)، واللمع في العربية (٥٩/١)، ولسان العرب (٦١٢/٤)، وتاج العروس (٣٢٥٦/١).

أدخر الكريم ادخاراً وأتكرم على الكريم تكرماً، لأن قوله: ((أغفر عوراء الكريم)) معناه: أدخر الكريم، وقوله: ((وأعرض عن شتم تكرماً)) معناه: أتكرم على اللئيم.

وموضع ((أن)) الثانية نصب؛ المعنى أن يكفروا بما أنزل الله لأن ينزل الله أي: كفروا لهذه العلة فشرحه كهذا الذي شرحناه.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾.

معنى ((باءوا)) في اللغة: احتملوا يقال: قد بؤت بهذا الذنب أي: تحملته؛ ومعنى ﴿بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ فيه قولان:

قال بعضهم: ﴿بِغَضَبٍ﴾ من أجل الكفر بالنبي ﷺ، ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ على الكفر بعيسى ﷺ يعنى بهم اليهود.

وقيل: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي: بإثم استحقوا به النار على إثم تقدم، أي: استحقوا به أيضاً النار.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ أي: بالقرآن الذي أنزل الله على النبي ﷺ.

﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وقد بين الله أنهم غير مؤمنين بما أنزل عليهم، وقد بينا ذلك فيما مضى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾.

معناه: ويكفرون بما بعده، أي: بما أنزل عليهم.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فهذا يدل على أنهم قد كفروا بما معهم إذ كفروا بما يصدق ما معهم، نصب ﴿مُصَدِّقاً﴾ على الحال، وهذه حالة مؤكدة.

زعم سيبويه والخليل وجميع النحويين الموثوق بعلمهم أن قولك ((هو زيد قائماً)) خطأ، لأن قولك: ((هو زيد)) كناية عن اسم متقدم، فليس في الحال فائدة لأن الحال توجب ههنا أنه إذا كان قائماً فهو زيد، فإذا ترك القيام فليس بزيد، وهذا خطأ.

فأما قولك: ((هو زيد معروفاً))، ((وهو الحق مصدقاً))، ففى الحال فائدة كأنك قلت: ((انتبه له معروفاً)) وكأنه منزلة قولك: ((هو زيد حقاً)) فـ ((معروفاً)) حال لأنه إنما يكون ((زيداً)) لأنه يعرف بزيد، وكذلك ((الحق)) القرآن هو الحق إذ كان ((مصدقاً)) لكتب الرسل.

أكذبهم الله في قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ فقال: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ

﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أي كتاب جوز فيه قتل نبي، وأي دين وإيمان جوز فيه ذلك.

فإن قال قائل: فلم قيل لهم: فلم تقتلون أنبياء الله من قبل وهؤلاء لم يقتلوا نبياً قط؟

قيل له: قال أهل اللغة في هذا قولين:

أحدهما: إن الخطاب لمن شوهد من أهل مكة ومن غاب خطاب واحد، فإذا قتل أسلافهم الأنبياء وهم مقيمون على ذلك المذهب فقد شركوهم في قتلهم.

وقيل أيضاً: لم رضيتم بذلك الفعل، وهذا القول الثاني يرجع إلى معنى الأول.

وإنما جاز أن يذكر هنا لفظ الاستقبال والمعنى المضي لقوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ ودليل ذلك قوله ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾[آل عمران: ١٨٣].

فقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ بمنزلة: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: «فلم قتلتم».

وقيل في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قولان:

أحدهما: ما كنتم مؤمنين، وقيل: إن إيمانكم ليس بإيمان، وإيمان ههنا واقع على أصل العقد والدين، فقيل لهم: ليس إيمانٌ إيماناً إذا كان يدعو إلى قتل الأنبياء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾؛ قد بيناه فيما مضى.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ معناه: سقوا حب العجل، فحذف «حب» وأقيم «العجل» مقامه كما قال الشاعر[1][من المتقارب]:

وَكيفَ تُواصِلُ مَن أَصبَحَت   خِلالَتُهُ كَأَبي مَرحَبِ[2]

---

(١) هو: النابغة الجعدي، واسمه: قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة الجعدي العامري، وأبو ليلى: شاعر مفلق، وصحابي: من المعمرين. اشتهر في الجاهلية. وسمي النابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقوم الشعر ثم نبغ فقاله. وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر، وقبل ظهور الإسلام. ووفد على النبي ﷺ فأسلم، وأدرك صفين، فشهدها مع علي. ثم سكن الكوفة، فسيره معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها، فمات فيها وقد كف بصره، وجاوز المئة وفاته (نحو ٥٠ هـ = نحو ٦٧٠ م).

انظر ترجمته في: طبقات فحول الشعراء (ص: ١٠٣)، والأعلام (النابغة الذبياني).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/١٧٤)، وتفسير القرطبي (٢/٢٣٣)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/٦٢)، ودلائل الإعجاز (١/٢٣٢)، ولسان العرب (١/٤١٣)، وتاج العروس (١/٥٢١).

أي: كخلالته أبي مرحب، وكما قال الشاعر(١):

وَشَرُّ المَنايا مَيْتٌ وَسطَ أَهلِهِ كَهَلكِ الفَتَاةِ أَيقَظَ الحَيَّ حاضِرُه(٢)

المعنى: وشر المنايا منية ميت.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: فعل الله ذلك بهم مجازاة لهم على الكفر كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء: ١٥٥].

وقوله: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قد فسرناه، أي: ما كنتم مؤمنين، فبئس الإيمان يأمركم بالكفر.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾.

قيل لهم هذا لأنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[المائدة: ١٨]، فقيل لهم: إن كنتم عند أنفسكم صادقين فيما تدعون فتمنوا الموت، فإن من كان لا يشك في أنه صائر إلى الجنة، فالجنة عنده آثر إلى الدنيا، فإن كنتم صادقين فتمنوا الأثرة والفضل.

وللنبي ﷺ وللمسلمين في هذه الآية أعظم حجة وأظهر آية وأدلة على الإسلام، وعلى صحة تثبيت رسالة النبي ﷺ لأنه قال لهم: تمنوا الموت، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً، فلم يتمنه منهم واحد لأنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم، فالدليل على علمهم بأن أمر النبي ﷺ حق أنهم كفوا عن التمني ولم يقدم واحد منهم عليه، فيكون إقدامه دفعاً لقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً﴾؛ أو يعيش بعد التمني فيكون قد رد ما جاء به النبي ﷺ فالحمد لله الذي أوضح الحق وبينه وقمع الباطل وأزهقه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

يعني ما قدمت من كفرهم بالنبي ﷺ، لأنهم كفروا وهم يعلمون أنه حق، وأنهم إن تمنوه ماتوا، ودليل ذلك إمساكهم عن تمنيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ الله -عز وجل- عليهم بالظالمين وغير الظالمين، وإنما الفائدة ههنا أنه عليم بمجازاتهم، وهذا جرى في كلام الناس المستعمل

---

(١) هو: الحطيئة.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/١٧١)، وزاد المسير (١/١١٦)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/٦١).

بينهم إذا أقبل الرجل على رجل قد أتى إليه منكراً قال: أنا أعرفك وأنا بصير بك، تأويله: أنا أعلم ما أعاملك به وأستعمله معك.

فالمعنى: إنه عليم بهم وبصير بما يعلمون أي: يجازيهم عليه بالقتل في الدنيا أو بالذلة والمسكنة وأداء الجزية.

ونصب ﴿وَلَن﴾ كما تنصب «أن» وقد شرحنا نصبها فيما مضى، وذكرنا ما قاله النحويون فيه ونصب ﴿أَبَدًا﴾ لأنه ظرف من الزمان؛ المعنى: لن يتمنوه طول عمرهم إلى موتهم، وكذلك قولك: لا أكلمك أبداً؛ المعنى: لا أكلمك ما عشت. ومعنى ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما تقدمه أيديهم، ويصلح أن يكون بالذي قدمته أيديهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾؛ يعني به علماء اليهود هؤلاء؛ المعنى: أنك تجدهم في حال دعائهم إلى تمني الموت أحرص الناس على حياة، ومعنى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾: لتعلمنهم، ومعنى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: ولتجدنهم أحرص من الذين أشركوا، وهذا نهاية في التمثيل، والذين أشركوهم هم المجوس ومن لا يؤمن بالبعث.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

ذكرت الألف لأنها -نهاية ما كانت المجوس- تدعو به لملوكها كان الملك يحيا بأن يقال عش ألف نيروز ألف مهرجان، يقول: فهؤلاء الذين يزعمون أن لهم الجنة وأن نعيم الجنة له الفضل لايتمنون الموت، وهم أحرص ممن لا يؤمن بالبعث، وكذلك يجب أن يكون هؤلاء لأنهم كفار بالنبي ﷺ، وهو عندهم حق فيعلمون أنهم صائرون إلى النار لا محالة، فهم أحرص لهذه العلة، ولأنهم يعلمون أنهم لو تمنوا الموت لماتوا لأنهم علموا أن النبي ﷺ حق لولا ذلك لما أمسكوا عن التمني، لأن التمني من واحد منهم كان يثبت قولهم.

وإنما بالغنا في شرح هذه الأيات لأنها نهاية في الاحتجاج في تثبيت أمر النبي ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾.

هذا كناية عن ﴿أَحَدُهُمْ﴾ الذي جرى ذكره كأنه قال: وما أحدهم بمزحزحة من العذاب تعميره، ويصلح أن تكون «هو» كناية عما جرى ذكره من طول العمر فيكون: وما تعميره بمزحزحه من العذاب ثم جعل أن يعمر مبنياً عن «هو» كأنه قال: ذلك الذي ليس بمزحزحة ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾.

وقد قال قوم: إن ((هو)) لمجهول وهذا عند قوم لايصلح في ((ما)) إذا جاء في خبرها الباء مع الجملة، لا يجيز البصريون: ((ما هو زيد يريدون ما الأمر قائماً زيد ولا كان هو قائماً زيد)) يريدون: ما الأمر قائماً زيد، ولا كان هو قائماً زيد، يريدون: كان الأمر قائماً زيد، وكذلك لا يجيزون: ما هو بقائم زيد يريدون ما الأمر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ شرحه تقدم في الآية التي قبل هذه.

وتقول في ﴿يَوَدُّ﴾: وددت الرجل أوده وُداً أو وِداداً ومَودة ((ووَدادة))، وحكى الكسائي: ((وَدْتُ الرجل)) والذي يعرفه جميع الناس: ((وَدِدْتُه)) ولم يحك إلا ما سمع، إلا أنه سمع ممن لا يجب أن يؤخذ بلغته، لأن الإجماع على تصحيح: ((أَوَدُّ وأَوَدُّ)) لا يكون ماضيه: ((ودَدَت))، فالإجماع يبطل: ((وَدْتُ))، أعني الإجماع في قولهم: ((أَوَدُّ)).

قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾.

((جبريل)) في اسمه لغات قرئ ببعضها، ومنها ما لم يقرأ به فأجود اللغات: ((جَبْرَئيل)) ـ بفتح الجيم والهمز لأن الذي يروى عن النبي ﷺ في صاحب الصور ((جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره))[1] هذا الذي ضبطه أصحاب الحديث، ويقال بفتح الجيم وكسرها ويقال أيضاً: ((جبرأل)) بحذف الياء وإثبات الهمزة وتشديد اللام ويقال: ((جبرين)) بالنون وهذا لايجوز في القرآن أعني إثبات النون لأنه خلاف المصحف قال الشاعر[2] [من الطويل]:

نَصرنا فَما تَلقى لَنا مِن كَتيبَةٍ يَدَ الدَّهرِ إلا جِبرِئيلُ أَمامَها[3]

وهذا البيت على لفظ ما في الحديث وما عليه من القراء، وقد جاء في الشعر ((جبريل)) قال الشاعر[4] [من الوافر]:

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٧٦/١)، وانظر: أيضاً: الدر المنثور (٢٢٣/١)، وتفسير ابن كثير (٥٩/٣)، وفتح القدير (٣٣٢/٣)، وتفسير البغوي (١٢٤/١)، وتفسير البيضاوي (٣٦٦/١)، وتفسير أبي السعود (١٣٣/١)، وروح المعاني (٣٣١/١)، والكشاف (٨٤/١).

(٢) هو: حسان بن ثابت.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣٨/٢)، وروح المعاني (٣٣٢/١)، ولسان العرب (١١٣/٤)، وتاج العروس (٢٥٨٦/١).

(٤) هو: حسان بن ثابت.

وَجِـبريلٌ أَمينُ اللهِ فينا وَروحُ القُدسِ لَيسَ لَهُ كِفاءُ(١)

وإنما جرى ذكر هذا لأن اليهود قالوا للنبي ﷺ: جبريل عدونا فلو آتاك ميكائيل لقبلنا منك، فقال الله -عز وجل-: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني ما تقدم من الكتب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونصب ﴿مُصَدِّقاً﴾ على الحال.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾.

((ميكائيل)) فيه لغات: ((ميكائيل وميكال))، وقد قرىء بهما جميعاً، ﴿وَمِيكَالَ﴾ بهمزة بغير ياء.

وهذه أسماء أعجمية دفعت إلى العرب فلفظت بها بألفاظ مختلفة، أعني: ((جبريل، وميكائيل))، وإسرائيل فيه لغات أيضاً: إسراييل وإسرال وإسرايل، وإبراهيم وإبراهَم وأبرهم وإبْرَاهام، والقرآن إنما أتى بإبراهيم فقط وعليه القراءة، وأكثر ما أرويه من القراءة في كتابنا هذا فهو عن أبي عبيد مما رواه إسماعيل بن إسحاق عن أبي عبد الرحمن عن أبي عبيد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

((الآيات)) التي جرى ذكرها مما قد بيناه، والآية في اللغة: العلامة، و﴿بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات، و((قد)) إنما تدخل في الكلام لقوم لا يتوقعون الخبر، واللام في ((لقد)) لام قسم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الفَاسِقُونَ﴾؛ يعني الذين قد خرجوا عن القصد، وقد بينا أن قول العرب: ((فسقت الرطبة)): خرجت عن قشرتها.

وقوله -عز وجل-: ﴿أو كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾.

معنى ﴿نَّبَذَهُ﴾: رفضه ورمى به قال الشاعر(٢) [من الطويل]:

---

(١) انظر: تفسير البغوي (١/١٢٥)، وروح المعاني (١/٣١٧)، وزاد المسير (١/١١٨)، ولسان العرب (١/١٣٩)، وتاج العروس (١/٢٠٠)، والفائق (٣/٢٦٨).

(٢) هو: أبو الأسود الدؤلي واسمه: ظَالِم بن عمرو بن جَندل بن سفيان، ومن بني الدؤيل بن بكر من كنانة، وأمه من بني عبد الدار بن قصي من قريش:

ولد أبو الأسود قُبيل الهجرة، ولكن لم تصح له شهرة إلا في أيام الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. ويبدو أنه سكن البصرة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان أبو الأسود من أشياع عليّ =

نَظَرتَ إلى عِنوانِهِ فَنَبَذتَهُ كَنَبذِكَ نَعلاً أَخلَقَت مِن نِعالِكا[١]

ونصب ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا﴾ على الظرف، وهذه الواو في ﴿أَوَ كُلَّمَا﴾ تدخل عليها ألف الاستفهام لأن الاستفهام مستأنف والألف أم حروف الاستفهام[٢]، وهذه الواو تدخل على «هل» فتقول: «وهل زيد عاقل» لأن معنى ألف الاستفهام موجود في «هل» فكأن التقدير: «أَوَهَل» إلا أن «ألف الاستفهام وهل» لا يجتمعان لإغناء «هل» عن الألف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ يعني به النبي ﷺ لأن الذي جاء به مصدق التوراة والإنجيل، و«لما» يقع بها الشيء لوقوع غيره ﴿مُصَدِّقٌ﴾ رفع صفة الرسول لأنهما نكرتان، ولو نصبت كان جائزاً لأن ﴿رَسُولٌ﴾ قد وصف بقوله: ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ فلذلك صار النصب يحسن.

=

رضي الله عنه، وشهد معه صِفِّين ثم تولى له حرب الخوارج. وأدرك أبو الأسود معاوية بن أبي سفيان، ولكن لم يكن مطمئناً إلى الحكم الأموي فلم يمدح الأمويين ولم يعرض بهم.

وتوفي أبو الأسود الدؤلي في البصرة، وفي طاعونها الجارف سنة (٦٩هـ = ٦٨٨م)، وفي نحو الخامسة والسبعين من العمر.

انظر ترجمته في: تاريخ الأدب العربي (١/٣٤٨، ٣٤٩).

(١) انظر: تفسير الطبري (١/٤٨٧)، وتفسير ابن كثير (١/١٨٧)، وتفسير القرطبي (٢/٤٠)، وفتح القدير (١/١٨٥)، واتفاق المباني وافتراق المعاني (١/١٧٣)، وإصلاح المنطق (١/٢٢٥)، والأغاني (١٢/٣٥٧)، ولسان العرب (١٠/٨٥)، وتاج العروس (١/٦٢٩٤).

(٢) يُسأل بالألف في الاستفهام عند إسناد الحدَث إلى الفاعل، ومثل: أَسَافَر أخوك؟ والجواب بـ: نعم، وفي الإثبات، وبـ: لا، وفي النفي. ومثل: ألم يسافر أخوك؟ والجواب، وبـ: نعم، وفي النفي، وبـ: بلى، وفي الإثبات.

والألف جعلت أم الباب كما أشار المصنف ودلل على ذلك بكلامه عن الألف وهل وذلك لقوة الألف، وفإن الواو تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف فإن الواو تكون عقبها نحو: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾. انظر: تفسير القرطبي (٧/٢١٠)، وحروف الاستفهام إن قال قائل كم عددها؟ قيل: ثلاثة أحرف الهمزة وأم وهل وما عدا هذه الثلاثة فأسماء وظروف أقيمت مقامها فالأسماء من وما وكم وكيف والظروف أين وأنى ومتى وأي حين وأيان وأي يحكم عليها بما تضاف إليه، وبل إن الهمزة لأصالتها جاز فيها ما لا يجوز في غيرها من بقية حروف الاستفهام انظر: أسرار العربية (١/٣٣٢)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٦١٧)، وانظر أيضاً: الواو المزيدة (ص: ١٢٤)، واللباب علل البناء والإعراب (٢/١٢٩)، ولسان العرب (١١/٥٧٢).

وموضع ((ما)) في ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ جر بلام الإضافة و((مع)) صفة لها والناصب لـ((مع)) الاستقرار؛ المعنى: لما استقر معهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ يعني به اليهود، والكتاب هنا التوراة و﴿كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فيه قولان: جائز أن يكون القرآن، وجائز أن يكون التوراة، لأن الذين كفروا بالنبي قد نبذوا التوراة.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

أعلم أنهم علماء بكتابهم وأنهم رفضوه على علم به وعداوة للنبي صلى الله عليه وسلم. وأعلم أنهم نبذوا كتاب الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾؛ ما كانت تتلوه والذي كانت الشياطين تلته في ملك سليمان كتاب من السحر، فلبهت اليهود وكذبهم ادعوا أن هذا السحر أخذوه عن سليمان، وأنه اسم الله الأعظم يتكسبون بذلك؛ فأعلم الله -عز وجل- أنهم رفضوا كتابه واتبعوا السحر.

ومعنى ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ على عهد ملك سليمان عليهم فبرأ الله -عز وجل- سليمان من السحر وأظهر محمداً ﷺ على كذبهم، وقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ لأن الله جعل الإتيان من سليمان بالسحر كفراً فبرأه منه، وأعلم أن الشياطين كفروا فقال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ((فمن شدد)) ﴿وَلَكِنَّ﴾ نصب الشياطين ومن خفف رفع فقال: ﴿وَلَكِنَ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ وقد قرىء بهما جميعاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ﴾؛ وقد قرىء ﴿عَلَى المَلِكَيْنِ﴾ و﴿المَلَكَيْنِ﴾ أثبت في الرواية والتفسير جميعاً؛ المعنى: يعلمون الناس السحر ويعلمون ما أنزل على الملكين، فموضع ((ما)) نصب نسق على السحر، وجائز أن يكون ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ واتبعوا ما أنزل على الملكين، فتكون ((ما)) الثانية عطفاً على الأولى.

وقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾؛ فيه غير قول:

أحدهما: -وهو أثبتها- أن الملكين كانا يعلمان الناس السحر، ((وعَلَّمت وأَعْلَمت)) جميعاً في اللغة بمعنى واحد.

وكانا يعلمان نبأ السحر ويأمران باجتنابه، وفي ذلك حكمة لأن سائلاً لو سأل: ما

الزنى وما القذف ؟ لوجب أن يوقف ويعلم أنه حرام، فكذلك مجاز إعلام الملكين الناس وأمرهما باجتنابه بعد الإعلام يدل على ما وصفنا فهذا مستقيم بين، ولا يكون على هذا التأويل تعلم السحر كفراً إنما يكون العمل به كفراً، كما أن من عرف الزنى. لم يأت بأنه عرفه وإنما يأثم بالعمل به.

وفي قول آخر جائز أن يكون الله -عز وجل- امتحن بالملكين الناس في ذلك الوقت، وجعل المحنة في الكفر والإيمان؛ أن يقبل القابل تعلم السحر، فيكون بتعلمه كافراً، وبترك تعلمه مؤمناً، لأن السحر قد كان كثر، وكان في كل أمة، والدليل على ذلك أن فرعون فزع في أمر موسى ﷺ إلى السحر – فقال: ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[يونس: ٧٩]، وهذا ممكن أن يمتحن الله به كما امتحن بالنهر في قوله ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[البقرة: ٢٤٩].

وقد قيل: إن السحر ما أنزل على الملكين ولا أمراً به، ولا أتى به سليمان عليه السلام، فقال قوم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ﴾ فيكون ((ما)) جحداً ويكون ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ من صفة الشياطين، على تأويل هؤلاء، كان التأويل عندهم على مذهب هؤلاء: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ كقول الغاوي والخليع: أنا في ضلال فلا ترد ما أنا فيه.

فهذه ثلاثة أوجه؛ والوجهان الأولان أشبه بالتأويل وأشبه بالحق عند كثير من أهل اللغة، والقول الثالث له وجه إلا أن الحديث وما جاء في قصة الملكين أشبه وأولى أن يؤخذ به[1].

وإنما نذكر مع الإعراب المعنى والتفسير لأن كتاب الله ينبغي أن يتبين، ألا ترى أن الله يقول: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ﴾[النساء: ٨٢] فحضضنا على التدبر والنظر، ولكن لا ينبغي لأحد أن يتكلم إلا على مذهب اللغة، أو ما يوافق نقلة أهل العلم والله أعلم بحقيقة

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١٩٣/١): وقد روي في قصة ((هاروت وماروت)) عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها: راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، وإذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب، وفنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال.

تفسير هذه الآية.

فإن النحويين قد ترك كثير منهم الكلام فيها لصعوبتها وتكلم جماعة منهم وإنما تكلمنا على مذاهبهم.

وقال بعض أهل اللغة: إن الذي أنزل على الملكين كلام ليس بسحر إلا أنه يفرق به بين المرء وزوجه، فهو من باب السحر في التحريم، وهذا يحتاج من الشرح إلى مثل ما يحتاج إليه السحر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ ليس «يتعلمون» بجواب لقوله ﴿فَلاَ تَكْفُرْ﴾ وقد قال أصحاب النحو في هذا قولين:

قال بعضهم: إن قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ عطف على قوله ﴿يُعَلِّمُونَ﴾، وهذا خطأ لأن قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ دليل ههنا على أن التعلم من الملكين خاصة.

وقيل ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ عطف على ما يوجبه معنى الكلام؛ المعنى: إنما نحن فتنة فلا تكفر، فلا تتعلم ولا تعمل بالسحر فيأبون ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ وهذا قول حسن.

والأجود في هذا أن يكون عطفاً على: «يعلمان فيتعلمون»، واستغنى عن ذكر يعلمان بما في الكلام من الدليل عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

الإذن هنا يكون الأمر من الله -عز وجل- لأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولكن المعنى: إلا بعلم الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾؛ المعنى: أنه يضرهم في الآخرة وإن تعجلوا في الدنيا نفعاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾.

«الخلاق» النصيب الوافر من الخير، ويعني بذلك الذين يعلمون السحر لأنهم كانوا من علماء اليهود.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

فيه قولان: قالوا: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني به: الذين يعلمون السحر. والذين علموا أن العالم به لا خلاق له هم المعلمون.

قال أبو إسحاق: والأجود عندي أن يكون ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ راجعاً إلى هؤلاء

الذين قد علموا أنه لا خلاق لهم في الآخرة، أي: لمن علم السحر، ولكن قيل: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان علمهم ينفعهم لسموا عالمين، ولكن علمهم نبذوه وراء ظهورهم، فقيل لهم: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس يوفون العلم حقه، لأن العالم إذا ترك العمل بعلمه قيل له: لست بعالم.

ودخول اللام في ﴿وَلَقَدْ﴾ على جهة القسم والتوكيد، وقال النحويون في ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ قولين:

جعل بعضهم «من» بمعنى الشرط، وجعل الجواب ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾؛ وهذا ليس بموضع شرط ولا جزاء، ولكن المعنى: ولقد علموا الذي اشتراه ما له في الآخرة من خلاق: كما تقول: «والله لقد علمت للذي جاءك ماله من عقل» فأما دخول اللام في الجزاء في غير هذا الموضع، وفيمن جعل هذا موضع شرط وجزاء مثل قوله: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[الروم: ٥٨]، ونحو ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾[البقرة: ١٤٥]، فاللام الثانية هي لام القسم في الحقيقة، لأنك إنما تحلف على فعلك لا على فعل غيرك في قولك: «والله لئن جئتني لأكرمنك»، فزعم بعض النحويين أن اللام لما دخلت في أول الكلام أشبهت القسم فأجيبت بجوابه، وهذا خطأ، لأن جواب القسم ليس يشبه القسم ولكن اللام الأولى دخلت إعلاماً أن الجملة بكاملها معقودة للقسم، لأن الجزاء وإن كان للقسم عليه فقد صار للشرط فيه حظ فلذلك دخلت اللام.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

«مثوبة» في موضع جواب «لو» لأنها تنبى عن قولك: «لأثيبوا»؛ ومعنى الكلام: أن ثواب الله خير لهم من كسبهم بالكفر والسحر.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لو كانوا يعلمون بعلمهم ويعلمون حقيقة ما في الفضل.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾.

وقرأ الحسن ﴿لاَ تَقُولُوا رَاعِنًا﴾ بالتنوين، والذي عليه الناس ﴿رَاعِنَا﴾ غير منون، وقد قيل في ﴿رَاعِنَا﴾ بغير تنوين ثلاثة أقوال:

قال بعضهم ﴿رَاعِنَا﴾: ارعنا سمعك، وقيل: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ «راعنا»، وكانت اليهود تتساب بينها بهذه الكلمة، وكانوا يسبون النبي ﷺ في نفوسهم، فلما سمعوا

هذه الكلمة اغتنموا أن يظهروا سبه بلفظ يسمع ولا يلحقهم به في ظاهره شيء، فأظهر الله النبي ﷺ والمسلمين على ذلك، ونهى عن هذه الكلمة[1].

وقال قوم: ﴿لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ من المراعاة والمكافأة، فأمروا أن يخاطبوا النبي ﷺ بالتقدير والتوقير، فقيل لهم ﴿لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي: كافنا في المقال كما يقول بعضهم لبعض، ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أي: أمهلنا، ﴿وَاسْمَعُوا﴾ كأنه قيل لهم استمعوا.

وقال قوم إن ﴿رَاعِنَا﴾ كلمة تجري على الهزء والسخرية، فنهى المسلمون أن يلتفظوا بها بحضرة النبي ﷺ.

وأما قراءة الحسن ﴿رَاعِنًا﴾ فالمعنى فيه: لا تقولوا حمقاً من الرعونة.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلاَ المُشْرِكِينَ﴾؛ المعنى: ولا من المشركين الذين كفروا من أهل الكتاب: اليهود، والمشركون في هذا الوضع عبدة الأوثان.

﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ ويقرأ أن ينزل عليكم بالتخفيف والتثقيل جميعاً، ويجوز في العربية «أن ينزل عليكم»، ولا ينبغي أن يقرأ بهذا الوجه الثالث، إذ كان لم يقرأ به أحد من القراء المشتهرين.

وموضع ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ رفع؛ المعنى: ما يود الذين كفروا والمشركون أن ينزل عليكم خير من ربكم، ولو كان هذا في الكلام لجاز: «ولا المشركون» ولكن المصحف لا يخالف، والأجود ما ثبت في المصحف أيضاً، ودخول «من» ههنا على جهة التوكيد والزيادة كما في «ما جاءني من أحد» وما جاءني أحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ أي: يختص بنبوته من يشاء من أخبر -عز وجل- أنه مختار.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾.

في ﴿نُنسِهَا﴾ غير وجه قد قرئ به: «أو نُنْسِهَا، ونَنْسَهَا، ونَنْسَؤُهَا».

فأما «النسخ» في اللغة : فإبطال شيء وإقامة آخر مقامه، العرب تقول: «نسخت

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/٥٣٠)، وتفسير الطبري (١/٥٣٠)، وتفسير ابن كثير (١/٢٠٦)، وتفسير البغوي (١/١٣٢)، وتفسير البيضاوي (١/٣٧٥)، وتفسير أبي السعود (١/١٤١)، وتفسير النسفي (١/٦٢)، وروح المعاني (١/٣٤٨)، وزاد المسير (١/١٢٦)، والكشاف (١/٨٦).

الشمس الظل» والمعنى: أذهبت الظل وحلت محله، وقال أهل اللغة في معنى ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قولين: قال بعضهم ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ من النسيان، وقالوا دليلنا على ذلك قوله -عز وجل- ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[الأعلى: ٦، ٧] فقد أعلم الله أنه يشاء أن ينسى، وهذا القول عندي ليس بجائز لأن الله -عز وجل-: قد أنبأ النبي ﷺ في قوله ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[الإسراء: ٨٦] أنه لا يشاء أن يذهب بالذي أوحى به إلى النبي ﷺ.

وفي قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قولان يبطلان هذا القول الذي حكينا عن بعض أهل اللغة؛ أحدهما: ﴿فَلاَ تَنسَى﴾ أي: لست تترك إلا ما شاء الله أن تترك، ويجوز أن يكون ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما يلحق بالبشرية ثم تذكر بعد ليس أنه على طريق السلب للنبي ﷺ شيئاً أوتيه من الحكمة.

وقيل في ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قول آخر -وهو خطأ أيضاً- قالوا: أو نتركها، وهذا يقال فيه نسيت إذا تركت ولا يقال أنسيت أي: تركت؛ وإنما معنى ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أو نتركها أي: نأمر بتركها.

فإن قال قائل: ما معنى تركها غير النسخ وما الفرق بين الترك والنسخ ؟

فالجواب في ذلك: أن النسخ يأتي في الكتاب في نسخ الآية بآية فتبطل الثانية العمل بالأولى، ومعنى الترك أن تأتي الآية بضرب من العمل فيؤمر المسلمون بترك ذلك بغير آية تأتي ناسخة للتي قبلها نحو ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ ثم أمر المسلمون بعد ذلك بترك المحنة، فهذا معنى الترك ومعنى النسخ قد بيناه، فهذا هو الحق.

ومن قرأ «أَوْ نَنْسَؤُهَا» أراد نؤخرها.

«والنسء» في اللغة التأخير، يقال: «نسأ الله في أجله وأنسأ الله أجله»، أي: آخر أجله.

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾؛ المعنى: بخير منها لكم.

﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ فأما ما يؤتى فيه بخير من المنسوخ فتمام الصيام الذي نسخ الإباحة في الإفطار لمن استطاع الصيام، ودليل ذلك قوله: وتكملوا العدة فهذا هو خير لنا كما قال الله -عز وجل-.

وأما قوله ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي: نأتي بآية ثوابها كثواب التي قبلها، في ذلك أن يكون الناسخ أسهل في المأخذ من المنسوخ، والإيمان به أسوغ والناس إليه أسرع، نحو القبلة

التي كانت على جهة ثم أمر الله النبي ﷺ بجعل البيت قبلة المسلمين، وعدل بها عن القصد لبيت المقدس، فهذا -وإن كان السجود إلى سائر النواحي متساوياً في العمل والثواب- فالذي أمر الله به في ذلك الوقت كان الأصلح والأدعى للعرب وغيرهم إلى الإسلام.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ لفظ ﴿أَلَمْ﴾ ههنا لفظ الاستفهام، ومعناه: التوقيف وجزم ﴿أَلَمْ﴾ ههنا كجزم «لم»، لأن حرف الاستفهام لا يغير العامل عن عمله.

ومعنى «الملك» في اللغة: تمام القدرة واستحكامها، فما كان مما يقال فيه مَالِك فهو «مِلْك» تقول: «مَلَكت الشيء أَملِكه مِلْكاً» وكقوله تعالى ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: في سلطانه وقدرته، وأصل هذا من قولهم: «ملكت العجين أملكه» إذا بالغت في عجنه، ومن هذا قيل في التزويج: «شهدنا إملاك فلان» أي: شهدنا عقد أمر نكاحه وتشديده.

ومعنى الآية: إن الله يملك السماوات والأرض ومن فيهن، فهو أعلم بوجه الصلاح فيما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ ومتروك وغيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾؛ هذا خطاب للمسلمين يخبرون فيه أن من خالفهم فهو عليهم، وأن الله جل وعز ناصرهم والفائدة فيه أنه بنصره إياهم يغلبون من سواهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾.

أجود القراءة بتحقيق الهمزة ويجوز جعلها بين بين، يكون بين الهمزة والياء فليلفظ بها «سُيل».

وهذا إنما تحكمه المشافهة لأن الكتاب فيه غير فاصل بين المتحقق والملين، وما جعل ياء خالصة، ويجوز: «كما سيل موسى من قبل» من قولك «سلت» أسال في معنى: «سُئِلت أُسْأَل» وهي لغة للعرب حكاها جميع النحويين، ولكن القراءة على الوجهين اللذين شرحناهما قبل هذا الوجه من تحقيق الهمزة وتليينها.

ومعنى ﴿أَمْ﴾ ههنا وفي كل مكان لا تقع فيه عطفاً على ألف الاستفهام -إلا أنها لا تكون مبتدأة- أنها تؤذن بمعنى: «بل، ومعنى ألف الاستفهام»؛ المعنى: بل أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل.

فمعنى الآية: أنهم نهوا أن يسألوا النبي ﷺ ما لا خير لهم في السؤال عنه، وما يكفرهم وإنما خوطبوا بهذا بعد وضوح البراهين لهم، وإقامتها على مخالفيهم، وقد شرحنا

ذلك في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ وما أشبه ذلك مما تقدم شرحه.

فأعلم المسلمون أن السؤال بعد قيام البراهين كفر، كما قال -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[المائدة: ١٠١].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: من يسأل -عما لا يعنيه- النبي ﷺ بعد وضوح الحق فقد ضل سواء السبيل، أي: قصد السبيل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً﴾؛ يعني به علماء اليهود.

وقوله: ﴿حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾.

﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ موصول بـ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لا بقوله ﴿حَسَداً﴾ لأن حسد الإنسان لا يكون من عند نفسه، ولكن المعنى: مودتهم بكفركم من عند أنفسهم لا أنهم عندهم الحق الكفر، ولا أن كتابهم أمرهم بما هم عليه من الكفر بالنبي ﷺ، الدليل على ذلك قوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾؛ هذا في وقت لم يكن المسلمون أمروا فيه بحرب المشركين، وإنما كانوا يدعون بالحجج البينة وغاية الرفق حتى بين الله أنهم إنما يعاندون بعد وضوح الحق عندهم، فأمر المسلمون بعد ذلك بالحرب.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: قدير على أن يدعو إلى دينه بما أحب، مما هو عنده الأحكم والأبلغ.

ويقال: «أَقدر على الشيء قَدْراً وقَدَراً وقُدْرة وقُدْرَاناً ومَقْدِرَة ومقدُرة ومقدَرة» هذه سبعة أوجه مروية كلها وأضعفها «مقدرة» بالكسر .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾.

الإخبار في هذا عن أهل الكتاب، وعقد النصارى معهم في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ لأن الفريقين يقرآن التوراة ويختلفان في تثبيت رسالة موسى وعيسى، فلذلك قال الله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا﴾ فأجملوا.

فالمعنى: أن اليهود قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، والنصارى قالت: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وجاز أن يلفظ بلفظ جمع لأن معنى ﴿مَن﴾ معنى جماعة، فحمل الخبر على المعنى؛ والمعنى: إلا الذين كانوا هوداً وكانوا نصارى.

وهو جمع: «هَائِد وهُودْ» مثل: «حائل وحول، وبازل وبزل» وقد فسرنا واحد النصارى وجمعه فيما مضى من الكتاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ هذا كما يقال للذي يدعي ما لا يبرهن حقيقته: «إنما أنت متمن».

و﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ مشددة، ويجوز في العربية: «تلك أمانِيْهم» ولكن القراءة بالتشديد لا غير، للإجماع عليه ولأنه أجود في العربية.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: إن كنتم عند أنفسكم صادقين، فبينوا ما الذي دلكم على ثبوت الجنة لكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ﴾؛ أي: فهذا يدخل الجنة.

فإن قال قائل: فما برهان من آمن في قولكم ؟ قيل: ما بيناه من الاحتجاج للنبي ﷺ ومن إظهار البراهين، بإنبائهم ما لا يعلم إلا من كتاب أو وحي، وبما قيل لهم في تمني للموت، وما أتى به النبي ﷺ من الآيات الدالة على تثبيت الرسالة، فهذا برهان من أسلم وجهه لله .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ﴾.

يعني به أن الفريقين يتلوان التوراة وقد وقع بينهم هذا الاختلاف، وكتابهم واحد، فدل بهذا على ضلالتهم، وحذر بهذا وقوع الاختلاف في القرآن، لأن اختلاف الفريقين أخرجهما إلى الكفر؛ فتفهموا هذا المكان، فإن فيه حجة عظيمة وعظة في القرآن.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ يعني به الذين ليسوا بأصحاب كتاب، نحو: مشركي العرب والمجوس؛ المعنى: أن هؤلاء أيضاً قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾؛ المعنى: يريهم من يدخل الجنة عياناً ويدخل النار عياناً، وهذا هو حكم الفصل فيما تصير إليه كل فرقة، فأما الحكم بينهم في العقيدة فقد بينه الله -عز وجل- فيما أظهر من حجج المسلمين، وفي عجز الخلق عن أن يأتوا بمثل القرآن.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾.

موضع ((مَنْ)) رفع، ولفظها لفظ استفهام؛ المعنى: وأي أحد أظلم ممن منع مساجد الله و﴿أَظْلَمُ﴾ رفع بخبر الابتداء، وموضع ((أن)) نصب على البدل من ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾؛ المعنى: ومن أظلم ممن منع أن يذكر في مساجد الله اسمه.

وقد قيل في شرح هذه الآية غير قول: جاء في التفسير أن هذا يعني به الروم لأنهم كانوا دخلوا بيت المقدس وخربوه.

وقيل: يعني به مشركو مكة لأنهم سعوا في منع المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام[١].

وقال بعض أهل اللغة غير هذا، زعم أنه يعني به جميع الكفار الذين تظاهروا على الإسلام، ومنعوا جملة المساجد لأن من قاتل المسلمين حتى منعهم الصلاة فقد منع جميع المساجد، وكل موضع متعبد فيه فهو مسجد، ألا ترى أن النبي ﷺ قال: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً))[٢].

فالمعنى على هذا المذهب: ومن أظلم ممن خالف ملة الإسلام.

وقوله -عز وجل-: ﴿أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾؛ أعلم الله في هذه الآية أن أمر المسلمين يظهر على جميع من خالفهم، حتى لا يمكن دخول مخالف إلى مساجدهم إلا خائفاً، وهذا كقوله -عز وجل-: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

يرتفع ﴿خِزْيٌ﴾ من وجهتين؛ إحداهما: الابتداء، والأخرى: الفعل الذي ينوب عنه

---

(١) والمراد به بختنصر قاله قتادة. انظر: تفسير الطبري (١/٥٤٥)، وانظر أيضاً: تفسير البيضاوي (١/٣٨٥).

و في سبب نزولها قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٣٤) فيه قولان:

أحدهما: أنها نزلت في الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، فخرب وطرحت الجيف فيه قاله ابن عباس في آخرين.

والثاني: أنها في المشركين الذين حالوا بين رسول الله ﷺ وبين مكة يوم الحديبية قاله ابن زيد.

(٢) رواه البخاري (١/١٢٨، ورقم: ٣٢٨) عن جابر بن عبد الله، وأخرجه مسلم (١/٣٧١، ورقم: ٥٢٢) عن حذيفة. والترمذي (٤/١٢٣، ورقم: ١٥٥٣) عن أبي هريرة. وأحمد (١/٢٥٠، ورقم: ٢٢٥٦) عن ابن عباس.

((لهم))؛ المعنى: وجب لهم خزي في الدنيا وفي الآخرة عذاب عظيم.

والخزي الذي لهم في الدنيا أن يقتلوا إن كانوا حرباً، ويجزوا إن كانوا ذمة، وجعل لهم عظيم العذاب لأنهم أظلم من ظلم لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ يرتفعان كما وصفنا من جهتين ومعنى ﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: هو خالقهما.

وقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

﴿تُوَلُّوا﴾ جزم بـ((أينما))، والجواب: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وعلامة الجزم في ﴿تُوَلُّوا﴾ سقوط النون، و((ثم)) موضع نصب، ولكن مبني على الفتح لا يجوز أن تقول: ((ثما زيد))، وإنما بني على الفتح لالتقاء الساكنين، و((ثم)) في المكان إشارة بمنزلة: ((هنا زيد))، فإذا أردت المكان القريب قلت: ((هنا زيد))، وإذا أردت المكان المتراخي عنك قلت: ((ثم زيد وهناك زيد)) فإنما منعت ((ثم)) الإعراب لإبهامها، ولا أعلم أحداً شرح هذا الشرح لأن هذا غير موجود في كتبهم.

ومعنى الآية: أنه قيل فيها أنه يعني به البيت الحرام فقيل أينما تولوا فثم وجه الله أي: فاقصدوا وجه الله بتيممكم القبلة، ودليل من قال هذا القول قوله: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[البقرة: ١٤٩].

فقد قيل: إن قوماً كانوا في سفر فأدركتم ظلمة ومطر فلم يعرفوا القبلة فقيل: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1].

وقال بعض أهل اللغة: إنما المعنى معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤]، فالمعنى على قوله هذا: أن الله معكم أينما تولوا، كأنه أينما تولوا فثم الله وهو معكم، وإنما حكينا في هذا ما قال الناس وليس عندنا قطع في هذا والله -عز وجل- أعلم بحقيقته ولكن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يدل على توسيعه على الناس في شيء رخص لهم به.

---

(١) ولعل أصحاب هذا القول يستندون إلى ما روي في سنن الترمذي (٥/٢٠٥، ورقم: ٢٩٥٧) عن عبد الله ابن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفرة في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية.

ورواه أيضاً: الطبري (١/٥٠٣)، والدارقطني (١/٢٧٢)، والطيالسي (١/١٥٦).

وانظر تفسير القرطبي (٢/٧٧) فقد أورد الأقوال في سبب نزول هذه الآية، وذكر هذا الحديث.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ هو للنصارى ومشركي العرب، لأن النصارى قالت: المسيح ابن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله، فقال الله -عز وجل-: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

«القانت» في اللغة: المطيع، وقال الفراء: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ هذا خصوص إنما يعني به أهل الطاعة، والكلام يدل على خلاف ما قال، لأن قوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ «كل» إحاطة، وإنما تأويله: كل ما خلق في السماوات والأرض فيه أثر الصنعة فهو قانت لله، والدليل على أنه مخلوق.

والقانت في اللغة: القائم أيضاً، ألا ترى أن القنوت إنما يسمى به من دعا قائماً في الصلاة قانتاً؛ فالمعنى: كل له قانت بأنه خالقه، لأن أكثر من يخالف ليس بدفع أنه مخلوق، وما كان غير ذلك فأثر الصنعة بين فيه فهو قانت على العموم، وإنما القانت الداعي.

وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ يعني أنشأهما على غير حذاء ولا مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له: أبدعت، ولهذا قيل لكل من خالف السنة والإجماع: «مبتدع» لأنه يأتي في دين الإسلام بما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون.

وقوله: -عز وجل-: ﴿وَإِذَا قَضَى أمراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

رفع ﴿فَيَكُونُ﴾ من جهتين: إن شئت على العطف على يقول: وإن شئت الاستئناف؛ المعنى: فهو يكون، ومعنى الآية قد تكلم الناس فيها بغير قول: قال بعضهم: إنما يقول له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ إنما يريد فيحدث كما قال الشاعر(١) [من الرجز]:

امتلأَ الحوْضُ وقَالَ قَطْنِي ... مَهْلاً رُوَيداً قَد مَلأْتَ بَطْنِي(٢)

والحوض: لم يقل.

وقال بعض أهل اللغة : ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ يقول له: وإن لم يكن حاضراً:

(١) لم يعرف، وإلا أن البيت من شواهد النحاة، وارد في كتب التفسير واللغة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٣/٢)، وروح المعاني (١٤٧/٧)، ومعاني القرآن (٢٥٠/٦)، ومفردات القرآن (١٢٢٥/١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١٣٠/١)، والخصائص (٢٣/١)، وكتاب اللامات (ص: ١٤٠)، ومسائل خلافية في النحو (٣٨/١)، وإصلاح المنطق (٣٤٢/١)، وخزانة الأدب (١٣٢/٢)، وفقه اللغة (١٣٠٤/١)، ولسان العرب (٣٨٠/٧)، وتاج العروس (٤٩٧٣/١) يكْسِرُو.

((كن)) لأن ما هو معلوم عنده بمنزلة الحاضر.

وقال قائل: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ له معنى ((من أجله)) فكأنه إنما يقول من أجل إيرادته إياه ﴿كُن﴾ أي: أحدث فيحدث.

وقال قوم: هذا يجوز أن تكون لأشياء معلومة أحدث فيها أشياء فكانت، نحو قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[البقرة: ٦٥] والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

﴿لَوْلا﴾ في معنى هلا، المعنى: هلا يكلمنا الله أو تأتينا آية، فأعلم الله -عز وجل- أن كفرهم في التعنت بطلب الآيات على اقتراحهم كقول الذين من قبلهم لموسى: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾[النساء: ١٥٣] وما أشبه هذا، فأعلم الله أن كفرهم متشابه، وأن قلوبهم قد تشابهت في الكفر.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ المعنى فيه: أن من أيقن وطلب الحق فقد أتته الآيات بالبينات نحو المسلمين، ومن لم يشاق من علماء اليهود، لأنه لما أتاهم ﷺ بالآيات التي يعجز عنها من إنبائهم بما لا يعلم إلا من وحي، ونحو انشقاق القمر وآياته التي لا تحصى عليه السلام، والقرآن الذي قيل لهم فأتوا بسورة من مثله فعجزوا عن ذلك، ففي هذا برهان شاف.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾.

نصب ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ على الحال، ومعنى ﴿بَشِيراً﴾ أي: مبشراً المؤمنين بما لهم من الثواب وينذر المخالفين بما أعد لهم من العقاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾؛ وتقرأ ﴿وَلاَ تَسْأَلُ﴾ ورفع القراءتين جميعاً من جهتين؛ إحداهما: أن يكون ﴿وَلاَ تُسْأَلُ﴾ استئنافاً، كأنه قيل: ولست تسأل عن أصحاب الجحيم، كما قال -عز وجل- ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[الرعد: ٤٠]، ويجوز أن يكون له الرفع على الحال، فيكون المعنى: أرسلناك غير سائل عن أصحاب الجحيم.

ويجوز أيضاً: ﴿وَلاَ تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ وقد قرئ به فيكون جزماً بـ ((لا)).

وفيه قولان على ما توجبه اللغة: أن يكون أمره الله بترك المسألة، ويجوز أن يكون النهي لفظاً، ويكون المعنى على تفخيم ما أعد لهم من العقاب، كما يقول لك القائل الذي تعلم أنت أنه يجب أن يكون من تسأل عنه في حال جميلة أو قبيحة فتقول: ((لا تسأل عن

فلان» أي: قد صار إلى أكثر مما تريد، ويقال: سألته أسأله مسألة وسؤالاً ، والمصادر على «فعال» تقل في غير الأصوات والأدواء، فأما في الأصوات فنحو الدعاء والبكاء والصراخ، وأما في الأدواء فنحو: الزكام والسعال وما أشبه ذلك.

وإنما جاء في السؤال لأن السؤال لا يكون إلا بصوت.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى﴾.

قد شرحنا معنى اليهود والنصارى.

و ﴿تَرْضَى﴾ يقال في مصدره: رضي يرضي رضاً ومرضَاة ورُضوانا ورِضواناً، ويروى عن عاصم في كل ما في القرآن من «رضوان» الوجهان جميعاً، فأما ما يرويه عنه أبو عمرو فرِضوان بالكسر، وما يرويه أبو بكر بن عياش: فرُضوان، والمصادر تأتي على «فُعلان وفِعلان» فأما «فِعلان» فقولك: «عرفته عِرفاناً وحسبته حِسباناً» وأما «وفُعلان» كقولك: «غُفرانك لا كُفرانك».

وقوله -عز وجل-: ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

﴿تَتَّبِعَ﴾ نصب بـ﴿حَتَّى﴾ والخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه يقولون: إن الناصب للفعل بعد حتى «أن»؛ إلا أنها لا تظهر مع «حتى»، ودليلهم أن «حتى» غير ناصبة هو: أن «حتى» بإجماع خافضة قال الله -عز وجل-: ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ﴾[القدر: ٥] فخفض ﴿مَطْلَعِ﴾ بـ﴿حَتَّى﴾، ولا نعرف في العربية أن ما يعمل في اسم يعمل في فعل، ولا ما يكون خافضاً لاسم يكون ناصباً لفعل، فقد بان أن «حتى» لا تكون ناصبة كما أنك إذا قلت: «جاء زيد ليضربك» فالمعنى: جاء زيد لأن يضربك، لأن اللام خافضة للاسم ولا تكون ناصبة لفعل، وكذلك: «ما كان زيد ليضربك» اللام خافضة، والناصب «ليضربك»: «أن» المضمرة ولا يجوز إظهارها مع هذه اللام، وإنما لم يجز لأنها جواب لما يكون مع الفعل وهو حرف واحد يقول القائل: «سيضربك وسوف يضربك» فجعل الجواب في النفي بحرف واحد كما كان في الإيجاب بشيء واحد.

ونصب ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ بـ﴿تَتَّبِعَ﴾، ومعنى ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ في اللغة: سنتهم وطريقتهم، ومن هذا الملة أي: الموضع الذي يختبز فيه، لأنها تؤثر في مكانها كما يؤثر في الطريق.

وكلام العرب إذا اتفق لفظه فأكثره مشتق بعضه من بعض، وأخذ بعضه برقاب بعض.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى﴾؛ أي: الصراط الذي دعا إليه هو الطريق، أي: طريق الحق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾؛ إنما جمع ولم يقل: ((هواهم)) لأن جميع الفرق مما خالف النبي ﷺ لم يكن ليرضيهم منه إلا اتباع هواهم.

وجمع ((هوى)) على: ((أهواء)) كما يقال: ((جمل وأجمال وقتب وأقتاب)).

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾؛ الخفض في ﴿نَصِيرٍ﴾ القراءة المجمع عليها، ولو قرئ: ((ولا نصيرٌ)) بالرفع كان جائزاً لأن معنى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾: مالك من الله ولي ولا نصير.

ومعنى الآية[1]: أن الكفار كانوا يسألون النبي ﷺ الهدنة، ويرون أن هادنهم وأمهلهم أسلموا، فأعلم الله -عز وجل- أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فنهاه الله ووعظه في الركون إلى شيء مما يدعون إليه، ثم أعلمه الله -عز وجل- وسائر الناس أن من كان منهم غير متعنت ولا حاسد ولا طالب لرياسة تلا التوراة كما أنزلت، فذكر فيها أن النبي ﷺ حق فأمن به فقال -تعالى-: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ يعني: أن الذين تلوا التوراة على حقيقتها أولئك يؤمنون بالنبي ﷺ.

وفي هذا دليل أن غيرهم جاحد لما يعلم حقيقته لأن هؤلاء كانوا من علماء اليهود، وكذلك من آمن من علماء النصارى ممن تلا كتبهم.

و﴿الَّذِينَ﴾ يرفع بالابتداء وخبر الابتداء ﴿يَتْلُونَهُ﴾ وإن شئت كان خبر الابتداء ﴿يَتْلُونَهُ﴾ و﴿أُوْلَئِكَ﴾ جميعاً، فيكون للابتداء خبران كما تقول: ((هذا حلو حامض)).

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ نصب، لأنه نداء مضاف، وأصل النداء النصب ألا ترى أنك إذا قلت: يا بني زيد فقال لك قائل: ما صنعت ؟ قلت: ناديت بني زيد، فمحال أن تخبره بغير ما صنعت، وقد شرحناه قبل شرحاً أبلغ من هذا.

وإسرائيل لا يتصرف وقد شرحنا شرحه في مكانه وما فيه من اللغات.

وقوله -عز وجل-: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨/٢)، وتفسير ابن كثير (٢٢٥/١)، وتفسير القرطبي (٩١/٢)، وفتح القدير (٢٣٩/١)، وتفسير البغوي (١٤٣/١)، وتفسير البيضاوي (٣٩٣/١)، وتفسير أبي السعود (١٥٣/١)، والدر المنثور (٢٧١/١)، وتفسير النسفي (٦٨/١)، وروح المعاني (١٦٨/١٣)، وزاد المسير (١٥٧/١)، والكشاف (٩١/١).

العَالَمِينَ﴾؛ موضع ((أن)) نصب كأنه قال: اذكروا أني فضلتكم على العالمين، والدليل من القرآن على أنهم فضلوا قول موسى ﷺ كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ﴾[المائدة: ٢٠].

وتأويل تفضيلهم في هذه الآية ما أوتوا من الملك، وأن فيهم أنبياء، وأنهم أعطوا علم التوراة، وأن أمر عيسى ومحمد ﷺ لم يكونوا يحتاجون فيه إلى آية غير ما سبق عندهم من العلم به، فذكرهم الله -عز وجل- بما هم عارفون ووعظهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾.

العدل: الفدية ، وقيل لهم: ﴿وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ لأنهم كانوا يعتمدون على أنهم أنبياء الله، وأنهم يشفعون لهم فأيأسهم الله -عز وجل- من ذلك، وأعلمهم أن من لم يتبع محمداً ﷺ فليس ينجيه من عذاب الله شيء وهو كافر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

المعنى: اذكروا إذ ابتلى إبراهيم ربه، ومعنى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: وفّى بما أمر به فيهن، وقد اختلفوا في ((الكلمات)): فقال قوم: تفسيرها؛ أنه أمره بخمس خلال في الرأس وخمس خلال في البدن، فأما اللاتي في الرأس: فالفرق وقص الشارب والسواك والمضمضة والاستنشاق، وأما التي في البدن فالختان وحلق العانة والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط، فهذا مذهب قوم وعليه كثير من أهل التفسير[1].

---

(١) حوى ابن الجوزي كلام أهل التفسير فقال في زاد المسير (١/١٣٩): وفي ((الكلمات)) خمسة أقوال:

أحدها: ((أنها خمس في الرأس وخمس في الجسد، وأما التي في الرأس فالفرق والمضمضة والاستنشاق وقص الشارب والسواك، وفي الجسد تقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط والاستطابة بالماء والختان)) رواه طاووس عن ابن عباس.

والثاني: ((أنها عشر ست في الإنسان وأربع في المشاعر، وفالتي في الإنسان حلق العانة ونتف الإبط وتقليم الأظافر وقص الشارب والسواك والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة، والتي في المشاعر الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار والإفاضة)) رواه حنش بن عبد الله عن ابن عباس.

والثالث: ((أنها المناسك)) رواه قتادة عن ابن عباس.

والرابع: أنه ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر والهجرة والنار وذبح ولده والختان؛ قاله الحسن.

=

وقال قوم: إن الذي ابتلاه به ما أمره به من ذبح ولده، وما كان من طرحه في النار، وأمر النجوم التى جرى ذكرها في القرآن في قوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً﴾[الأنعام: ٧٦]، وما جرى بعد الكواكب من ذكر القمر والشمس فهذا مذهب قوم.

وجميع هذه الخلال قد ابتلى بها إبراهيم وقد وفَّى بما أمر به، وأتى بما يأتي به المؤمن، بل البر المصطفى المختار، ومعنى ﴿ابْتَلَى﴾ اختبر.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾.

((الأم)) في اللغة القصد ، تقول: أممت كذا وكذا إذا قصدته، وكذلك قوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾[النساء: ٤٣] أي: فاقصدوا، والإمام: الذي يؤتم به فيفعل أهله وأمته كما فعل أي: يقصدون لما يقصد.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؛ فأعلم الله إبراهيم أن في ذريته الظالم وقد قرئت ((لا ينال عهدي الظالمون))، والمعنى في الرفع والنصب واحد لأن النيل مشتمل على العهد وعلى الظالمين، إلا أنه منفي عنهم، والقراءة الجيدة هي على نصب ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لأن المصحف هكذا فيه وتلك القراءة جيدة بالغة، إلا أني لا أقرأ بها، ولا ينبغي أن يقرأ لأنها خلاف المصحف، ولأن المعنى أن إبراهيم عليه السلام كأنه قال: واجعل الإمامة تنال ذريتي، واجعل هذا العهد ينال ذريتي قال الله: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فهو على هذا أقوى أيضاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً﴾.

﴿مَثَابَةً﴾ يثوبون إليه والمثاب والمثابة واحد وكذلك المقام والمقامة قال الشاعر[1] [من الطويل]:

=

والخامس: أنها كل مسألة في القرآن مثل قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً ﴾ [البقرة: ١٢٦] ونحو ذلك؛ قاله مقاتل.

فمن قال هي أفعال فعلها قال معنى ((فأتمهن)): عمل بهن، ومن قال هي دعوات ومسائل قال: معنى ((فأتمهن)) أجابه الله إليهن.

وانظر أيضاً: تفسير القرطبي (٩٣/٢)، وتفسير البغوي (١٤٤/١)، والدر المنثور (٢٧٣/١)، والكشاف (٩٢/١).

(١) هو: الأخطل.

وَإِنّي لَقَوّامٌ مَقاوِمُ لَم يَكُن جَريرٌ وَلا مَولى جَريرٍ يَقومُها[١]

وواحد المقاوم مقام، وقال زهير [من الطويل]:

وَفيهِم مَقاماتٌ حِسانٌ وُجوهُهُم وَأَندِيَةٌ يَنتابُها القَولُ وَالفِعلُ[٢]

وواحد المقامات: مقامة.

والأصل في «مثابة» مثوبة، ولكن حركة الواو نقلت إلى التاء وتبعت الواو الحركة فانقلبت ألفاً، وهذا إعلال اتباع تبع مثابة باب «ثاب» وأصل «ثاب»: ثوب، ولكن الواو قلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها لا اختلاف بين النحويين في ذلك.

وهذا الباب فيه صعوبة إلا أن كتابنا هذا يتضمن شرح الإعراب والمعاني فلا بد من استقصائها على حسب ما يعلم.

ومعنى قوله: ﴿وَأَمْناً﴾؛ قيل: كان من جنى جناية ثم دخل الحرم لم يقم عليه الحد، ولكن لا يبايع ولا يكلم حتى يضطر إلى الخروج منه فيقام عليه الحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾؛ قرئت «واتخذوا» بالفتح والكسر: «وَاتَّخِذُوا، وَاتَّخَذُوا».

روى أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ وقد وقفا على مقام إبراهيم: أليس هذا مقام خليل ربنا ؟ -وقال بعضهم مقام أبينا- أفلا نتخذه مصلى ؟ فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فكان الأمر[٣].

والقراءة ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بالكسر على هذا الخبر أبين، ولكن ليس يمتنع «وَاتَّخَذُوا» لأن الناس اتخذوا هذا فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾، ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ فعطف بجملة على جملة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥٠/٧)، والخصائص (١٤٥/٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١١٠/٢)، وفتح القدير (٢١٥/١)، وروح المعاني (١٨٧/٣٠)، والكشاف (١٣٧٥/١)، ومعاني القرآن (٤٤٥/١)، ولسان العرب (٤٩٦/١٢)، وتاج العروس (٧٨٦٨/١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢٣١/١)، وتفسير البيضاوي (٣٩٨/١)، وتفسير أبي السعود (١٥٧/١)، والدر المنثور (٢٩١/١)، وتفسير النسفي (٦٩/١)، وروح المعاني (٣٨٠/١)، والكشاف (٩٤/١).

معنى ((طهراه)): امنعاه من تعليق الأصنام عليه، والطائفون: هم الذين يطوفون بالبيت، والعاكفون: المقيمون به.

ويقال قد عكف يعكف ويعكف على الشيء عكوفاً ، أي: أقام عليه، ومن هذا قول الناس: فلان معتكف على الحرام، أي: مقيم عليه.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: سائر من يصلي فيه من المسلمين.

و﴿بَيْتِيَ﴾: الأجود فيه فتح الياء، وإن شئت سكنتها.

﴿وَالرُّكَّعِ﴾ جمع راكع مثل: ((غاز وغزى))، و﴿السُّجُودِ﴾ جمع ساجد ، كقولك: ((ساجد وسجود وشاهد شهود)) .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾.

المعنى: واذكروا إذ قال إبراهيم، و﴿آمِناً﴾ ذا أمن.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم﴾.

﴿مِنَ﴾ نصب بدل من أهله؛ المعنى: ارزق من آمن من أهله دون غيرهم، لأن الله تعالى قد أعلمه أن في ذريته غير مؤمن، لقوله: -عز وجل-: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾.

أكثر القراءة على: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ على الإخبار، وقد قرىء أيضاً ﴿فَأَمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرَّهُ﴾ على الدعاء، ولفظ الدعاء كلفظ الأمر مجزوم، إلا أنه استعظم أن يقال ((أمر)) فمسألتك من فوقك، نحو: ((أعطني وأغفر لي)) دعاء ومسألة، ومسألتك من دونك أمر، كقولك لغلامك: ((افعل كذا وكذا)).

والراء مفتوحة في قوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرَّهُ﴾ لسكونها وسكون الراء التي قبلها، الأصل: ثم اضطرره، ويجوز: ((ثم أضطرُه)) ولا أعلم أحداً قرأ بها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾.

﴿الْقَوَاعِدَ﴾ واحدتها: ((قاعدة)) وهي كالأساس والأس للبنيان، إلا أن كل قاعدة فهي للتي فوقها ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ عطف على إبراهيم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾؛ المعنى: يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾، ومثله في كتاب الله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾[الأنعام: ٩٣]، ومثله: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤] أي: يقولون سلام عليكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

تفسير ((المسلم)) في اللغة : الذي قد استسلم لأمر الله كله وخضع له، فالمسلم المحقق هو الذي أظهر القبول لأمر الله كله وأضمر مثل ذلك، وكذلك قوله: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[الحجرات: ١٤]؛ المعنى: قولوا جميعاً خضعنا وأظهرنا الإسلام وباطنهم غير ظاهرهم، لأن هؤلاء منافقون فأظهر الله -عز وجل- النبي على أسرارهم، فالمسلم على ضربين: مظهر القبول ومبطن مثل ما يظهر فهذا يقال له مؤمن، ومسلمٌ إنما يظهر غير ما يبطن فهذا غير مؤمن، لأن التصديق والإيمان هو بالإظهار مع القبول، ألا ترى أنهم إنما قيللهم: ولما الإيمان في قلوبكم أي: أظهرتم الإيمان خشية.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ معناه: عرفنا متعبداتنا، وكل متعبد فهو منسك ومنسك ومن هذا قيل: للعابد ناسك وقيل للذبيحة المتقرب بها إلى الله تعالى النسيكة، وكان الأصل في النسك إنما هو من الذبيحة لله جل وعز.

وتقرأ أيضاً ﴿وَأَرِنَا﴾ على ضربين: بكسر الراء وبإسكانها والأجود الكسر، وإنما أسكن أبو عمرو لأنه جعله بمنزلة فخذ وعضد وهذا ليس بمنزلة فخذ ولا عضد، لأن الأصل في هذا ((أرئنا)) فالكسرة إنما هي كسرة همزة ألقيت وطرحت حركتها على الراء، فالكسرة دليل الهمزة فحذفها قبيح وهو جائز على بعده، لأن الكسر والضم إنما يحذف على جهة الاستثقال، فاللفظ بكسرة الهمزة والكسر التي في بناء الكلمة واللفظ به واحد ولكن الاختيار ما وصفنا أولاً .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

معنى ((مَن)) التقرير والتوبيخ، ولفظها لفظ الاستفهام، وموضعها رفع بالابتداء، والمعنى: ما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه والملة قد بيناها وهي السنة والمذهب.

وقد أكثر النحويون واختلفوا في تفسير ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، وكذلك أهل اللغة فقال الأخفش: أهل التأويل يزعمون أن المعنى: سَفَّه نفسه.

وقال يونس النحوي: أراها لغة.

وذهب يونس إلى أن ((فَعِل)) للمبالغة، كما أن ((فَعَّل)) للمبالغة، فذهب في هذا مذهب التأويل، ويجوز على هذا القول: ((سفهت زيداً)).

وقال أبو عبيدة: معناه أهلك نفسه وأوبق نفسه، فهذا غير خارج من مذهب أهل

التأويل ومذهب يونس.

وقال بعض النحويين: إن ﴿نَفْسَهُ﴾ منصوب على التفسير، وقال: التفسير في النكرات أكثر نحو: «طاب زيد بأمره نفساً وقر به عيناً» وزعم أن هذه المفسرات المعارف أصل الفعل لها، ثم نقل إلى الفاعل نحو: «وجع زيد رأسه»، وزعم أن أصل الفعل للرأس وما أشبهه، وأنه لا يجيز تقديم شيء من هذه المنصوبات، وجعل ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ من هذا الباب.

قال أبو إسحاق: وعندي أن معنى التمييز لا يحتمل التعريف، لأن التمييز إنما هو واحد يدل على جنس أو خلة تخلص من خلال، فإذا عرفه صار مقصوداً قصده وهذا لم يقله أحد ممن تقدم من النحويين.

وقال أبو إسحاق: إن ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ بمعنى سفه في نفسه، إلا أن «في» حذفت كما حذفت حروف الجر في غير موضع، قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ والمعنى: أن تسترضعوا لأولادكم، فحذف حرف الجر في غير ظرف، ومثله قوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي: على عقدة النكاح ومثله قول الشاعر:

نُغالي اللَّحمَ للأَضْيافِ نِيئاً ... ونُرْخِصُهُ إذا نَضِجَ القَدورُ(١)

المعنى: نغالي باللحم، ومثله قول العرب: «ضرب فلان الظهر والبطن» والمعنى: على الظهر والبطن، فهذا الذي استعمل من حذف حرف الجر موجود في كتاب الله وفي أشعار العرب وألفاظها المنثورة وهو عندي مذهب صالح.

والقول الجيد عندي في هذا أن ﴿سَفِهَ﴾ في موضع جهل، فالمعنى: -والله أعلم- إلا من جهل نفسه أي: لم يفكر في نفسه، كقوله -عز وجل-: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ فوضع جهل، وعدي كما عدي، فهذا جميع ما قال الناس في هذا وما حضرنا من القول فيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ معناه: اخترناه ولفظه مشتق من الصفوة.

﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ فالصالح في الآخرة الفائز.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ معناه: اصطفاه إذ قال له ربه أسلم؛ أي: في ذلك

---

(١) انظر: زاد المسير (١/١٤٨)، ولسان العرب (٧/٤٠)، ولسان العرب (١٥/١٣١).

الوقت ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾.

قوله: ﴿بِهَا﴾ هذه الهاء ترجع على الملة، لأن إسلامه هو إظهار طريقته وسنته ويدل على قوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾: قوله: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾؛ وإنما كسرت «إن» لأن معنى وصّى وأوصى: قول؛ المعنى: قال لهم: إن الله اصطفى لكم الدين، ووصّى أبلغ من أوصى لأن أوصى جائز أن يكون قال لهم مرة واحدة، ووصّى لا يكون إلا لمرات كثيرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

إن قال قائل: كيف ينهاهم عن الموت، وهم إنما يُماتون ؟

فإنما وقع هذا على سعة الكلام، وما تكثر استعماله «العرب» نحو قولهم: «لا أرينك ههنا» فلفظ النهي إنما هو للمتكلم وهو في الحقيقة للمكلم؛ المعنى: لا تكونن ههنا، فإن من كان ههنا -رأيته-.

والمعنى في الآية: ألزموا الإسلام فإذا أدرككم الموت صادفكم مسلمين .

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ﴾؛ المعنى: بل أكنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ فقولك: ﴿إِذْ﴾ الثانية موضعها نصب كموضع الأولى وهذا بدل مؤكد.

وقوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾؛ القراءة على الجمع، وقال بعضهم: «وإله أبيك» كأنه كره أن يجعل العم أباه، وجعل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بدلاً من أبيك مبيناً عنه، وبخفض: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ كان المعنى: إلهك وإله أبيك وإله إسماعيل كما تقول: رأيت غلام زيد وعمرو أي: غلامهما، ومن قال: ﴿وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ فجمع وهو المجتمع عليه جعل ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ بدلاً، وكان موضعهم خفضاً على البدل المبين عن آبائك.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلَهاً وَاحِداً﴾؛ منصوب على ضربين: إن شئت على الحال كأنهم قالوا نعبد: إلهك في حال وحدانيته، وإن شئت على البدل، وتكون الفائدة من هذا البدل ذكر التوحيد، فيكون المعنى: نعبد إلهاً واحداً.

وقوله -عز وجل-: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؛ مضت كما تقول لثلاث خلون من الشهر أي: مضين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ المعنى: إنما تسألون عن أعمالكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾؛ المعنى: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى، وجزم: ﴿تَهْتَدُوا﴾ على الجواب للأمر، وإنما معنى الشرط قائم في الكلمة؛ المعنى: إن تكونوا على هذه الملة تهتدوا، فجزم ﴿تَهْتَدُوا﴾ على الحقيقة جواب الجزاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾؛ تنصب الملة على تقدير: بل نتبع ملة إبراهيم، ويجوز أن تنصب على معنى: بل نكون أهل ملة إبراهيم، وتحذف «الأهل» كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[يوسف: ٨٢] لأن القرية لا تسأل ولا تجيب.

ويجوز الرفع «بل ملةُ إبراهيم حنيفاً»، والأجود والأكثر: النصب، ومجاز الرفع على معنى: قل ملتنا وديننا ملة إبراهيم ونصب ﴿حَنِيفاً﴾ على الحال؛ المعنى: بل نتبع ملة إبراهيم في حال حنيفته، ومعنى «الحنيفة» في اللغة: الميل؛ فالمعنى: أن إبراهيم حنيف إلى دين الله دين الإسلام، كما قال -عز وجل-: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران: ١٩] فلم يبعث نبي إلا به، وإن اختلفت شرائعهم فالعقد توحيد الله -عز وجل-، والإيمان برسله وإن اختلفت الشرائع، إلا أنه لا يجوز أن تترك شريعة نبي، أو يعمل بشريعة نبي قبله تخالف شريعة نبي الأمة التي يكون فيها.

وإنما أخذ الحنف من قولهم: «امرأة حنفاء ورجل أحنف»، وهو الذي تميل قدماه كل واحدة منهما بأصابعها إلى أختها بأصابعها، قالت أم الأحنف بن قيس وكانت ترقصه، وخرج سيد بني تميم:

وَاللهِ لَوْلاَ حَنَفٌ فِي رِجْلِهِ ودِقَّةٍ فِي سَاقِهِ مِنْ هَزْلِهِ

مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُم مِن مِثْلِهِ[1]

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ المعنى: لا نكفر ببعض ونؤمن ببعض.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾؛ فإن قال قائل: فهل

---

(١) انظر: فتح القدير (١/٢٢٨).

للإيمان مثل ما هو غير الإيمان ؟

قيل له: المعنى واضح بيّن؛ وتأويله: فإن أتوا بتصديق مثل تصديقهم وإيمانكم بالأنبياء ووحدوا كتوحيدكم فقد اهتدوا، أي: فقد صاروا مسلمين مثلكم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: في مشاقة وعداوة، ومن هذا قول الناس: «فلان قد شق عصا المسلمين» إنما هو قد فارق ما اجتمعوا عليه من اتباع إمامهم وإنما صار في شق غير شق المسلمين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾؛ هذا ضمان من الله -عز وجل- في النصر لنبيه ﷺ، لأنه إنما يكفيه إياهم بإظهار ما بعثه به على كل دين سواه، وهذا كقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[التوبة: ٣٣] فهذا تأويله -والله أعلم-، وكذا قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[المجادلة: ٢١].

فإن قال قائل: فإن من الرسل من قتل؟

فإن تأويل ذلك -والله أعلم- أن الله غالب هو ورسله بالحجة الواضحة والآية البينة، ويجوز أن تكون غلبة الآخرة، لأن الأمر هو على ما يستقر عليه في العاقبة، وقد قيل: إن الله لم يأمر رسولاً بحرب، فاتبع ما أمره الله به في حربه إلا غلب، فعلى هذا التأويل يجوز أن يكون لم يقتل رسول قط محارباً.

وقوله -عز وجل-: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾؛ يجوز أن تكون ﴿صِبْغَةَ﴾ منصوبة على قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ أي: بل نتبع صبغة الله.

ويجوز أن يكون نصبها على بل نكون أهل صبغة الله، كما قلنا في ملة إبراهيم ويجوز أن ترفع الصبغة على إضمار هي كأنهم قالوا: هي صبغة الله، أي: هي ملة إبراهيم صبغة الله.

وقيل: إنما ذكرت الصبغة لأن قوماً من النصارى كانوا يصبغون أولادهم في ماء لهم ويقولون: هذا تطهير، كما أن الختان تطهير لهم: فقيل لهم: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: التطهير الذي أمر به مبالغ في النظافة[1]، ويجوز أن يكون -والله أعلم-

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (١٤٠/٢): وروي عن مجاهد والحسن وأبي العالية وقتادة: الصبغة الدين، وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء وهو الذي يسمونه: «المعمودية» ويقولون: هذا تطهير لهم.

=

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾، أي: خِلقة الله -جل وعز- الخلق، فيكون المعنى: أن الله ابتدأ الخلق على الإسلام، ويكون دليل هذا القول قول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[الأعراف: ١٧٢]، وجاء في الحديث: «أنهم أخرجهم كالذر»[١]، ودليل هذا التأويل أيضاً قوله -عز وجل-: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠]، ويجوز أن يكون منه الخبر: «كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه»[٢].

وصبغت الثوب: إنما هو غيرت لونه وخلقته.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾؛ في ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ في الله لغات فأجودها: ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ بنونين، وإن شئت بنون واحدة – «أتحاجونا» على إدغام الأولى في الثانية، وهذا وجه جيد، ومنهم من إذا أدغم أشار إلى الفتح كما قرؤوا: ﴿مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ على الإدغام والإشارة إلى الضم، وإن شئت حذفت إحدى النونين فقلت «أتحاجونا» فحذف لاجتماع النونين قال الشاعر[٣] [من الوافر]:

=

وقال ابن عباس: هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال لهم: «ماء المعمودية» فصبغوه بذلك ليطهروا به مكان الختان لأن الختان تطهير فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً فرد الله تعالى ذلك عليهم.

وانظر أيضاً: فتح القدير (٢٣٠/١)، وروح المعاني (٣٩٧/١)، وزاد المسير (١٥١/١).

(١) يشهد لذلك ما رواه الحاكم في المستدرك (٨٠/١، ورقم: ٧٥) وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم فأخرج من صلبه ذرية ذرها فنثرهم نثراً بين يديه كالذر الحديث». ورواه أيضاً: الضياء في الأحاديث المختارة (٣٣٨/١٠، ورقم: ٣٦٦)، وأحمد (٢٧٢/١، ورقم: ٢٤٥٥).

(٢) متفق عليه، ورواه البخاري (٤٥٦/١، ورقم: ١٢٩٣)، ومسلم (٢٠٤٧/٤، ورقم: ٢٦٥٨) عن أبي هريرة.

(٣) هو: عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي: فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة. وفد على المدينة سنة ٩ هـ، وفي عشرة من بني زبيد، فأسلم وأسلموا، وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ ارتد عمرو في اليمن. ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية. وكان عصي النفس، وأبيها، وفيه قسوة الجاهلية، ويكنى أبا ثور. وأخبار شجاعته كثيرة. له شعر جيد، توفي على مقربة من الري. وقيل: قتل عطشاً يوم القادسية سنة (٢١ هـ = ٦٤٢ م).

=

تَراهُ كالثَّغامِ يُعَلُّ مِسكاً يَسُوءُ الفالياتِ إذا فَلَيني[١]

يريد: فلينني، ورأيت مذهب المازني وغيره رد هذه القراءة، وكذلك ردوا ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[الحجر: ٥٤]، قال أبو إسحاق: والإقدام على رد هذه القراءة غلط، لأن نافعاً - رحمه الله- قرأ بها، وأخبرني إسماعيل بن إسحاق أن نافعاً -رحمه الله- لم يقرأ بحرف إلا وأقل ما قرأ به اثنان من قراء المدينة، وله وجه في العربية فلا ينبغي أن يرد، ولكن «الفتح» في قوله ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أقوى في العربية.

ومعنى قوله: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أن الله -عز وجل- أمر المسلمين أن يقولوا لليهود الذين ظاهروا من لا يوحد الله -عز وجل- من النصارى وعبدة الأوثان، فأمر الله أن يحتج عليهم بأنكم تزعمون أنكم موحدون ونحن نوحد، فلم ظاهرتم من لا يوحد الله - جل وعز- ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

ثم أعلموهم أنهم مخلصون وإخلاصهم إيمانهم بأن الله -عز وجل- واحد، وتصديقهم جميع رسله، فأعلموا أنهم مخلصون، دون من خالفهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ كأنهم قالوا لهم: بأي الحجتين تتعلقون في أمرنا ؟ أبالتوحيد فنحن موحدون، أم باتباع دين الأنبياء فنحن متبعون.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾؛ تأويله: أن النبي الذي آتانا بالآيات المعجزات وأتاكم بها أعلمكم وأعلمنا أن الإسلام دين هؤلاء الأنبياء.

والأسباط: هم الذين من ذرية الأنبياء، والأسباط اثنا عشر سبطاً، وهو ولد يعقوب - عليه السلام- ومعنى «السبط» في اللغة: الجماعة الذين يرجعون إلى أب واحد، والسبط في اللغة الشجرة، فالسبط الذين هم من شجرة واحدة.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾؛ يعني: بهم هؤلاء الذين هم علماء اليهود، لأنهم قد علموا أن رسالة النبي حق، وإنما كفروا حسداً، كما قال الله -عز

=

انظر ترجمته في: الإصابة (ت ٥٩٧٢)، والشعر والشعراء (ص: ١٣٨)، وخزانة البغدادي (٤٢٥/١ - ٤٢٦)، والأعلام (عمرو الزبيدي).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٩/٧)، ومغني اللبيب (٨٠٨/١)، واتفاق المباني وافتراق المعاني (٢٠٢/١)، ولسان العرب (٢٤٦/٢).

وجل- وطلباً لدوام رياستهم وكسبهم، لأنهم كانوا يتكسبون بإقامتهم على دينهم، فقيل: ومن أظلم ممن كتم أمر النبي ﷺ ولا أحد أظلم منه.

وقوله: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ يعني: من كتمانكم ما علمتوه من صحة أمر النبي ﷺ.

وقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾؛ المعنى: لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم.

وقوله -عز وجل-: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ فيه قولان:

قيل: يعني به كفار أهل مكة، وقيل: يعني به اليهود.

و﴿السُّفَهَاءُ﴾ واحدهم: ((سفيه)) مثل: ((شهيد وشهداء وعليم وعلماء)).

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

معنى ﴿مَا وَلاَّهُمْ﴾: ما عدلهم عنها، يعني قبلة بيت المقدس، لأن النبي ﷺ كان أمر بالصلاة إلى بيت المقدس، لأن مكة وبيت الله الحرام كانت العرب آلفة لحجه، فأحب الله -عز وجل- أن يمتحن القوم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول ممن لا يتبعه، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ فامتحن الله بيت المقدس فيما روى لهذه العلة والله أعلم(١).

وقوله -عز وجل-: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

معناه: حيث أمر الله أن يصلى ويتعبد فهو له وعالم به، وهو فيه كما قال: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾[الأنعام: ٣]، وكما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤]، وكما قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[المجادلة: ٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ معناه: طريق مستقيم، كما يحب الله.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾.

معنى ((الأمة)): الجماعة، أي: جماعة كانت، إلا أن هذه الجماعة وصفت بأنها وسط.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٤٨/١)، وتفسير ابن كثير (٢١٨/١)، وتفسير القرطبي (٧٧/٢)، والدر المنثور (٣٤٢/١)، وتفسير الثعالبي (١١٨/١)، والكشاف (٩٩/١)، وتفسير مجاهد (٩٠/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٣٦٥/١)، ولباب النقول (١٧/١).

وفي ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ قولان: قال بعضهم ﴿وَسَطاً﴾ عدلاً، وقال بعضهم: أخياراً، واللفظان مختلفان، والمعنى واحد، لأن العدل خير والخير عدل.

وقيل في صفة النبي ﷺ: «إنه من أوسط قومه جنساً»[1] أي: من خيارها والعرب تصف الفاضل النسب بأنه: من أوسط قومه وهذا يعرف حقيقته أهل اللغة لأن العرب تستعمل التمثيل كثيراً فتمثل القبيلة بالوادي والقاع وما أشبهه، فخير الوادي: وسطه، فيقال: «هذا من وسط قومه، ومن وسط الوادي، وسَررِ الوادي، وسِرَارة الوادي وسر الوادي» ومعناه كله: من خير مكان فيه، فكذلك النبي ﷺ من خير مكان في نسب العرب، وكذلك جُعلت ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ أي: خياراً.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

﴿لِّتَكُونُوا﴾ في موضع نصب؛ المعنى: جعلناكم خياراً لأن تكونوا شهداء فنصب «تكونوا» بأن و﴿شُهَدَاءَ﴾ نصب خبر، «تكونوا» إلا أن ﴿شُهَدَاءَ﴾ لا ينون لأنه لا ينصرف، لأن فيه ألف التأنيث وألف التأنيث يبنى معها الاسم، ولم يلحق بعد الفراغ من الاسم فلذلك لم تنصرف ﴿شُهَدَاءَ﴾.

فإن قال قائل: فلم جعل الجمع بألف التأنيث ؟

قيل: كما جعل التأنيث في نحو قولك: «جريب وأجربة، وغراب وأغربة، وضارب وضربة، وكاتب وكتبة».

وتأويل ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فيه قولان:

جاء في التفسير: أن أمم الأنبياء تكذب في الآخرة إذا سئلت عمن أرسل إليها، فتجحد أنبياءها، هذا فيمن جحد في الدنيا منهم فتشهد هذه الأمة بصدق الأنبياء وتشهد عليهم بتكذيبهم، ويشهد النبي ﷺ لهذه الأمة بصدقهم، وإنما جازت هذه الشهادة وإن لم يكونوا ليعاينوا تلك الأمم لإخبار النبي ﷺ؛ فهذا قول[2].

---

(١) يشهد لذلك ما رواه البخاري (١٣٠٢/٣، ورقم: ٣٣٥٤) عن أنس بن مالك يصف النبي ﷺ قال: «كان ربعة من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير الحديث».

ورواه مسلم (١٨٢٤/٤، ورقم: ٢٣٤٧) أيضاً عن أنس.

(٢) ويشهد لهذا القول ما أخرجه البخاري (١٢١٥/٣، ورقم: ٣١٦١) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى هل بلغت فيقول نعم أي رب فيقول لأمته هل بلغكم فيقولون =

وقال قوم ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: محتجين على سائر من خالفكم ويكون الرسول محتجاً عليكم ومبيناً لكم.

والقول الأول أشبه بالتفسير وأشبه بقوله: ﴿وَسَطاً﴾ لأن النبي ﷺ يحتج على المسلمين وغيرهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾؛ يعني قبلة بيت المقدس، أي: وإن كان أتباعها لكبيرة، المعنى: إنه كبير على غير المخلصين فأما من أخلص فليست بكبيرة عليه كما قال ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: فليست بكبيرة عليهم.

وهذه اللام دخلت على «إن»، لأن اللام إذا لم تدخل مع «إن» الخفيفة كان الكلام جحداً، فلولا «اللام» كان المعنى: ما كانت كبيرة، فإذا جاءت «إن واللام» فمعناه: التوكيد للقصة، واللام تدخل في الخبر ونحن نشرح دخولها على «الخفيفة» في موضعها إن شاء الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾؛ هذه اللام هي التي يسميها النحويون «لام الجحود» وهي تنصب الفعل المستأنف، وقد أحكمنا شرحها قبل هذا الموضع.

ومعنى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: من كان صلى إلى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة إلى البيت الحرام بمكة فصلاته غير ضائعة وثوابه قائم، وقيل: إنه كان قوم قالوا: فما نصنع بصلاتنا التي صليناها إلى بيت المقدس فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: تصديقكم بأمر تلك القبلة.

وقيل أيضاً: إن جماعة من أصحاب النبي ﷺ توفوا وهم يصلون إلى بيت المقدس

= لا ما جاءنا من نبي فيقول لنوح من يشهد لك فيقول محمد ﷺ وأمته فنشهد أنه قد بلغ» وهو قوله -جل ذكره-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ والوسط: العدل.

وأيضاً ما رواه النسائي في السنن الكبرى (٦/٢٩٢، ورقم: ١١٠٠٧) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي يوم القيامة معه الرجل ويجيء النبي معه الرجلان ويجيء النبي معه أكثر من ذلك فيقال له: هل بلغت قومك ؟ فيقول: نعم، فيدعون فيقال: هل بلغكم ؟ فيقولون: لا، فيقال: من يشهد لك ؟ فيقول: أمة محمد ﷺ فتدعى أمة محمد ﷺ فيقال: هل بلغ هذا ؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم بذلك ؟ فيقولون: أخبرنا رسول الله ﷺ أن الرسل قد بلغوا فصدقناه».

قبل نقل القبلة إلى بيت الله الحرام، فسئل النبي ﷺ عن صلاتهم فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١) إن شئت قلت: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ وإن شئت «لرووف رحيم» فهمزت وخففت.

ومعنى «الرأفة» كمعنى «الرحمة».

وقوله -عز وجل-: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾؛ المعنى: في النظر إلى السماء، وقيل: تقلب عينك، والمعنى واحد لأن التقلب إنما كان لأن النبي ﷺ أمر بترك الصلاة إلى بيت المقدس، فكان ينتظر أن ينزل عليه الوحي إلى أي قبلة يصلي.

و﴿تَقَلُّبَ﴾ مصدر: «تَقَلَّب تَقَلّباً»، ويجوز في الكلام: «تقلاباً»، ولا يجوز في القرآن لأنه تغيير للمصحف.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾؛ قد كان النبي ﷺ بالمدينة حين أمر بأن ينتقل عن الصلاة إلى بيت المقدس، فأمر بأن يصلي إلى بيت الله الحرام.

وقيل في قوله: ﴿تَرْضَاهَا﴾ قولان؛ قال قوم: معناه تحبها لا أن النبي ﷺ لم يكن راضياً بتلك القبلة، لأن كل ما أمر الله الأنبياء -عليهم السلام- به فهم راضون به، وإنما أحبها النبي ﷺ لأنها كانت -فيما يروى- قبلة الأنبياء، وقيل: لأنها كانت عنده أدعى لقومه إلى الإيمان(٢).

---

(١) انظر الأقوال والروايات في الآية في: تفسير الطبري (٨/٢)، وتفسير ابن كثير (٢٥٨/١)، وتفسير القرطبي (١٤٤/٢)، وفتح القدير (٢٣٤/١)، وتفسير البغوي (١٥٨/١)، وتفسير البيضاوي (٤١٥/١)، والدر المنثور (٣٤٢/١)، وروح المعاني (١١٩/١)، وزاد المسير (١٥٤/١)، والكشاف (٩٩/١).

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١٥٦/١) فيما يتعلق بالآية: «سبب نزول الآية: أن النبي ﷺ كان يحب أن يوجه إلى الكعبة. قاله البراء وابن عباس وابن المسيب و أبو العالية وقتادة.

واختلفوا في سبب اختيار النبي الكعبة على بيت المقدس على قولين:

أحدهما: أنها كانت قبلة إبراهيم روي عن ابن عباس.

والثاني: لمخالفة اليهود قاله مجاهد.

ومعنى «تقلب وجهه» نظره إليها يميناً وشمالاً، و«ترضاها» بمعنى تحبها. والشطر: النحو من غير خلاف.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٣/٢)، وتفسير ابن كثير (٢١٨/١)، وتفسير القرطبي (١٤٤/٢)، وفتح القدير (٢٣٨/١)، وتفسير البغوي (١٦١/١)، وتفسير أبي السعود (١٧٤/١)، والدر المنثور (٣٤٢/١)، وتفسير النسفي (٧٦/١)، والكشاف (١٠١/١).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: المسجد الحرام فأمر أن يستقبل وهو بالمدينة مكة والبيت الحرام، وأمر أن يستقبل البيت حيث كان الناس، ومعنى «الشطر»: النحو، و﴿شَطْرَ﴾ منصوب على الظرف، قال الشاعر[١] :

إن العسير بها داءٌ مخامرها فشطرها نظر العينين محسور[٢]

أي: فنحوها ولا اختلاف بين أهل اللغة أن الشطر النحو، وقول الناس: «فلان شاطر» معناه: أخذ في نحو غير الاستواء، فلذلك قيل: «شاطر» لعدوله عن الاستواء، يقال: «قد شطر الرجل يشطر شِطَارة وشَطَارة» ويقال: «هؤلاء قوم مشاطرونا» أي: دورهم تتصل بدورنا، كما تقول: «هؤلاء يناحوننا» أي: نحن نحوهم وهم نحونا فلذلك هم شاطرونا.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾.

إن قائل ما معنى: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ والله -عز وجل- قد علم ما يكون قبل كونه ؟

فالجواب في ذلك: أن الله يعلم من يتبع الرسول ممن لا يتبعه من قبل وقوعه، وذلك العلم لا تجب به مجازاة في ثواب ولا عقاب، ولكن المعنى: ليعلم ذلك منكم شهادة فيقع عليهم بذلك العلم اسم مطيعين أو اسم عاصين، فيجب ثوابهم على قدر عملهم، ويكون معلوم ما في حال وقوع الفعل منهم على شهادة كما قال -عز وجل-: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[الأنعام: ٧٣] فعلمه به قبل وقوعه علم غيب، وعلمه به في حال وقوعه شهادة، وكل ما علمه الله شهادة فقد كان معلوماً عنده غيباً، لأنه يعلمه قبل كونه، وهذا يبين كل ما في القرآن مثله نحو قوله -تعالى-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد: ٣١] .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

زعم بعض النحويين أن «لئن» أجيب بجواب «لو» لأن الماضي وليها كما ولي «لو» فأجيب بجواب «لو»، ودخلت كل واحدة منها على أختها، وقال الله -عز وجل-:

---

(١) هو: قيس بن خويلد بن كاهل. انظر الكامل (١/٣١٠).

(٢) أنشده أبو عبيدة، وقال المبرد: يريد ناحيتها وقصدها، والعسير: التي تعسر بذنبها إذا حملت، وأي تشيله وترفعه، ومنه سمي الذنب عوسراً، وأي تضرب بذنبها. ومعنى ذلك أنه ظهر من جهدها وسوء حالها ما أطيل معه النظر إليها حتى تحسر العينان. انظر الكامل (١/٣١٠).

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ فجرت مجرى: ((ولو أرسلنا ريحاً))، وكذلك قال الأخفش بهذا القول، قال سيبويه وجميع أصحابه: إن معنى ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾: ليظلن، ومعنى ((لئن)) غير معنى ((لو)) فيقول الجماعة: وإن كان هؤلاء قالوا إن الجواب متفق فإنهم لا يدفعون أن معنى ((لئن)) ما يستقبل، ومعنى ((لو)) ماض، وحقيقة معنى ((لو)) أنها يمتنع بها الشيء لامتناع غيره، تقول: ((لو أتيتني لأكرمتك)) أي: لم تأتني فلم أكرمك، فإنما امتنع إكرامي لامتناع إتيانك، ومعنى ((إن)) و((لئن)) أنه يقع الشيء فيهما لوقوع غيره في المستقبل، تقول: ((إن تأتني أكرمك)) فالإكرام يقع بوقوع الإتيان فهذه حقيقة معناهما.

فأما التأويل: فإن أهل الكتاب قد علموا أن النبي ﷺ حق وأن صفته ونبوته في كتابهم، وهم يحققون العلم بذلك، فلا تغني الآيات عند من يجد ما يعرف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾.

لأن أهل الكتاب تظاهروا على النبي ﷺ واليهود لا تتبع قبلة النصارى، ولا النصارى تتبع قبلة اليهود، وهم مع ذلك في التظاهر على النبي متفقون.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: أنك لمنهم إن اتبعت أهواءهم، وهذا الخطاب للنبي ﷺ ولسائر أمته، لأن ما خوطب به من هذا الجنس فقد خوطب به الأمة، والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[الطلاق: ١] أول الخطاب للنبي ﷺ وليس معه لفظ الأمة وآخره دليل أن الخطاب عام .

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾؛ يعني به علماء اليهود.

و﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء وخبر ﴿الَّذِينَ﴾: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾، وفي ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ قولان:

قال بعضهم: يعرفون أن أمر القبلة وتحول النبي ﷺ من قبل بيت المقدس إلى البيت الحرام حق، كما يعرفون أبناءهم، وقيل: معنى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون النبي ﷺ وصحة أمره.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أنه الحق أي: يكتمون صفتهم، ومن لا يعلم أمر النبي ﷺ وما جاء به، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه حق.

وقوله -عز وجل-: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هذا الحق من ربك ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ أي: من الشاكين والخطاب أيضاً عام، أي: فلا تكونوا من الشاكين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

يقال: هذه جهة ووجهة ووجهة ، وكذلك يقال: ضعة ووضعة وضعة، وقيل في قوله ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ قولان: قال بعض أهل اللغة -وهو أكثر القول- «هو» للكل؛ المعنى: هو موليها وجهة، أي: وكل أهل وجهة هم الذين ولو وجوههم إلى تلك الجهة، وقد قرئ أيضاً: «هو مولاها»، وهو حسن.

وقال قوم: أي: الله -على ما يزعمون- يولى أهل كل ملة القبلة التي يريد، وكلا القولين جائز والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾؛ أي: فبادروا إلى القبول من الله -عز وجل-، وولوا وجوهكم حيث أمركم أن تولوا.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾؛ أي: يرجعكم إليه، ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فتوفون ما عملتم، و«أينما» تجزم ما بعدها، لأنها إذا وصلت بـ«ما» جزمت ما بعدها، وكان الكلام شرطاً، وكان الجواب جزماً كالشرط، وإن كانت استفهاماً نحو: «أين زيد» فإن أجبته أجبت بالجزم تقول: «أين بيتك أزرك»، المعنى: إن أعرف بيتك أزرك .

وزعم أن بعض النحويين أن قوله: ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الصف: ١٠] جوابه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾[الصف: ١٢] وهذا خطأ لأنه ليست بالدلالة تجب المغفرة، إنما تجب المغفرة بقبولهم ما يؤدي إليهم النبي ﷺ، ولكن ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ فإنه أمر في لفظ خبر؛ المعنى: آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا يغفر لكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾؛ أي: قد عرَّفكم الله أمر الاحتجاج في القبلة مما قد بيناه، لئلا يكون للناس على الله حجة في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: هو موليها لئلا يكون.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾.

قال بعضهم: لكن الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم، والقول عندي أن المعنى في هذا واضح؛ المعنى: لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له كما تقول: «ما لك علي من حجة إلا الظلم» أي: إلا أن تظلمني؛ المعنى: ما لك على من حجة البتة ولكنك تظلمني، وما لك على حجة إلا ظلمي، وإنما سمى ظلمه هنا «حجة»

لأن المحتج به سماه حجة -وحجته داحضة عند الله-، قال الله -عز وجل-: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[الشورى: ١٦] سميت حجة إلا أنها حجة مبطلة، فليست بحجة موجبة حقاً، وهذا بيان شاف إن شاء الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ أي: عرَّفتكم لئلا يكون عليكم حجة ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ﴾؛ والأجود أن تكون ﴿كَمَا﴾ معلقة بقوله -عز وجل- ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ أي: فاذكروني بالشكر والإخلاص كما أرسلنا فيكم.

فإن قال قائل: فكيف يكون جواب ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فالجواب ههنا إنما يصلح أن يكون جوابين لأن قوله ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أمر، وقوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ جزاء أذكروني، والمعنى: إن تذكروني أذكركم.

ومعنى الآية: أنها خطاب لمشركي العرب فخاطبهم الله -عز وجل- بما دلهم على إثبات رسالة النبي ﷺ فقال: كما أرسلنا فيكم محمداً ﷺ وهو رجل منكم أمي تعلمون أنه لم يتل كتاباً قبل رسالته ولا بعدها، إلا بما أوحي إليه وإنكم كنتم أهل جاهلية لا تعلمون الحكمة ولا أخبار الأنبياء ولا آبائهم ولا أقاصيصهم، فأرسل إليكم النبي ﷺ فأنبأكم بأخبار الأنبياء، وبما كان من أخبارهم مع أممهم لا يدفع ما أخبر به أهل الكتاب، فكما أنعمت عليكم بإرساله فاذكروني بتوحيدي وتصديقه ﷺ ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ أذكركم برحمتي ومغفرتي والثناء عليكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾؛ الأكثر الذي أتى به القراء حذف الياءات مع النون.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ نداء مفرد مبهم و﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع صفة لـ ((أيها)). هذا مذهب الخليل وسيبويه، وأما مذهب الأخفش فـ﴿الَّذِينَ﴾صلة لأي، وموضع ﴿الَّذِينَ﴾رفع بإضمار الذكر العائد على ((أي)) كأنه على مذهب الأخفش بمنزلة قولك: ((يا من الذين)) أي: يامن هم الذين، و((ها)) لازمة لأي عوض عما حذف منها للإضافة وزيادة في التنبيه، و((أي)) في غير النداء لا يكون فيها ((هاء)) ويحذف معها الذكر العائد عليها تقول: ((أضرب أيهم أفضل وأيهم هو أفضل)) تريد الذي هو أفضل.

وأجاز المازني أن تكون صفة أي: نصباً. فأجاز «يا أيها الرجل أقبل» وهذه الإجازة غير معروفة في كلام العرب، ولم يجز أحد من النحويين هذا المذهب قبله، ولا تابعه عليه أحد بعده، فهذا مطروح مرذول لمخالفته كلام العرب والقرآن وسائر الأخبار.

ومعنى ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ أي: بالثبات على ما أنتم عليه، وإن نالكم فيه مكروه في العاجل فإن الله مع الصابرين، وتأويل أن الله معهم أي: يظهر دينه على سائر الأديان، لأن من كان الله معه فهو الغالب، كما قال -عز وجل-: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾[المائدة: ٥٦].

ومعنى: «استعينوا بالصلاة» أي: أنكم إذا صليتم تلوتم في صلاتكم ما تعرفون به أفضل ما أنتم عليه، فكان ذلك لكم عوناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ﴾ بإضمار مكْنِيهِمْ، أي: لا تقولوا هم أموات، فنهاهم الله أن يسموا من قتل في سبيل الله ميتاً، وأمرهم بأن يسموهم شهداء، فقال: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فأعلمنا أن من قتل في سبيل الله حي.

فإن قال قائل: فما بالنا نرى جثة غير متصرفة ؟ فإن دليل ذلك مثل ما يراه الإنسان في منامه وجثته غير متصرفة إلى قدر ما يرى، والله -عز وجل- قد توفى نفسه في نومه فقال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[الزمر: ٤٢]، وينتبه المنتبه من نومه فيدركه الانتباه وهو في بقية من ذلك، فهذا دليل أن أرواح الشهداء جائز أن تفارق أجسامهم، وهم عند الله أحياء، فالأمر فيمن قتل في سبيل الله لا يجب أن يقال له ميت، لكن يقال له: «شهيد» وهو عند الله حي.

وقد قيل فيها قول غير هذا، وهذا القول الذي ذكرته آنفاً هو الذي أختاره، قالوا: معنى «الأموات» أي: لا تقولوا: هم أموات في دينهم بل قولوا إنهم أحياء في دينهم.

وقال أصحاب هذا القول: دليلنا -والله أعلم- قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢] فجعل المهتدي حياً، وأنه حين كان على الضلالة كان ميتاً، والقول الأول أشبه بالدين وألصق بالتفسير.

قوله -عز وجل-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾؛ اختلف النحويون في فتح هذه الواو فقال سيبويه: إنها مفتوحة لالتقاء الساكنين، وقال غيره من أصحابه: إنها

مبنية على الفتح، وقد قال سيبويه في لام «يفعل» لأنها مع ذلك قد تبنى على الفتحة، فالذين قالوا من أصحابه: إنها مبنية على الفتح غير خارجين من قوله، وكلا القولين جائز.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾؛ ولم يقل: «بأشياء» فإنما جاء على الاختصار، والمعنى يدل على أنه: «وشيء من الخوف وشيء من الجوع وشيء من نقص الأموال والأنفس» وإنما جعل الله هذا الابتلاء لأنه أدعى لمن جاء بعد الصحابة، ومن كان في عصر النبي ﷺ إلى اتباعهم، لأنهم يعلمون أنه لا يصبر على هذه الأشياء إلا من قد وضح له الحق وبان له البرهان والله -عز وجل- يعطيهم ما ينالهم من المصائب في العاجل والآجل، وما هو أهم نفعاً لهم، فجمع بهذا الدلالة على البصيرة.

وجوز الثواب للصابرين على ذلك الابتلاء فقال -عز وجل-: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾: بالصلاة عليهم من ربهم والرحمة وبأنهم المهتدون فقال -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: نحن وأموالنا لله ونحن عبيده يصنع بنا ما شاء، وفي ذلك صلاح لنا وخير، ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: أي: نحن مصدقون بأننا نبعث ونعطي الثواب على تصديقنا والصبر على ما ابتلانا به.

وقوله -عز وجل-: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾؛ و «الصلاة» في اللغة على ضربين؛ أحدهما: الركوع والسجود، والآخر: الرحمة والثناء والدعاء، فصلاة الناس على الميت إنما معناها الدعاء، والثناء على الله صلاة، والصلاة من الله -عز وجل- على أنبيائه وعباده معناها الرحمة لهم والثناء عليهم، وصلاتنا الركوع والسجود كما وصفنا، والدعاء صلاة قال الأعشى [من البسيط]:

عَلَيكِ مِثلُ الَّذي صَلَّيتِ فَاغتَمِضي   يَوماً فَإِنَّ لِجَنبِ المَرءِ مُضطَجَعا[1]

ويروى: «مثل الذي صليت» فمن قال: «عليك مثل الذي صليت» فمعناه: أنه يأمرها بأن تدعو له مثل الذي دعا لها، أي: تعيد الدعاء له، ومن روى: «عليك مثل الذي صليت» فهو رد عليها، كأنه قال: عليك مثل دعائك أن ينالك من الخير مثل الذي أردت لي بهذه ودعوت به لي، وقال الشاعر[2] [من السريع]:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦٧/١)، وتفسير القرطبي (٢٠٨/١)، وزاد المسير (٤٨٩/٣)، ومعاني القرآن (٨٤/١)، ولسان العرب (٤٦٤/١٤)، وتاج العروس (٥٣٩٨/١).

(٢) وهو: السفاح اليربوعي، واسمه: السفاح بن بكير بن معدان اليربوعي: شاعر روى له صاحب =

صَلَّى عَلَى يَحْيى وَأَشياعِهِ رَبٌّ رَحيمٌ وَشَفيعٌ مُطاعْ[(١)]

المعنى: عليه الرحمة من الله والثناء الجميل.

وأصل هذا كله عندي من اللزوم يقال: «صَلِيَ وأَصْلَى واصْطَلَى» إذا لزم، ومن هذا ما يصلى في النار أي: أنه يلزم.

وقال: أهل اللغة في «الصلاة» هي من الصَّلْوَيْنِ، وهما مكتنفا ذنب الناقة، وأول موصل الفخذ من الإنسان وكأنهما في الحقيقة مكتنف العصعص، والأصل عندي القول الأول.

ألا ترى أن الاسم «للصيام» هو الإمساك عن الطعام والشراب، وأصل الصيام: الثبوت على الإمساك عن الطعام، وكذلك «الصلاة» إنما هي لزوم ما فرض الله، والصلاة من أعظم الفرض الذي أمر بلزومه.

وأما المصلي الذي يأتي في أثر السابق من الخيل فهو مسمى من «الصلوين» لا محالة وهما مكتنفا ذنب الفرس فكأنه يأتي مع ذلك المكان، قال الشاعر في الصيام الذي هو ثبوت على القيام[(٢)] [من البسيط]:

خَيلٌ صِيامٌ وَخَيلٌ غَيرُ صائِمَةٍ تَحتَ العَجاجِ وَأُخرى تَعلُكُ اللُّجُما[(٣)]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ الأكثرون في قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ تفخيم الألف ولزوم الفتح، وقد قيل: وهو كثير في كلام العرب ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ بإمالة الألف إلى الكسر، وكان ذلك في هذا الحرف بكثرة الاستعمال، وزعم بعض النحويين أن النون كسرت ولم يفهم ما قاله

=

«المفضليات» قصيدة في رثاء يحيى بن شداد بن ثعلبة، ومن بني يربوع.

وكان يحيى مع مصعب بن الزبير في اليوم الذي قتل فيه. وأدرك مصعب أنه مقتول فقال له: انصرف فما لقتلك معنى، وفقال: والله لا تحدث الناس أني رغبت عن مصرعك. وما زال يدافع عنه حتى قتل معه، فرثاه صاحب الترجمته لوفائه. وفاته سنة (بعد ٧١ هـ = بعد ٦٩٠ م).

انظر ترجمته في: الأعلام (ابن بكير).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٧٠)، ولسان العرب (١٤/٤٦٤).

(٢) هو النابغة الذبياني.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢/١٣٤)، وتفسير القرطبي (٢/٢٦٩)، وفتح القدير (١/٢٧٧)، وتفسير أبي السعود (١/١٩٨)، وروح المعاني (٢/٥٦)، ومعاني القرآن (٤/٣٢٦)، والمزهر في علوم اللغة (١/١٣٩)، وخزانة الأدب (٢/٤٢)، ولسان العرب (١٠/٤٦٨)، وتاج العروس (١/٦٧٥٨).

القوم، إنما الألف ممالة إلى الكسرة، وزعم أن هذا مثل قولهم: ((الحمد لله)) فهذا صواب، أعني: قولهم: ((إنا لله)) بالكسر وقولهم: ((الحمد لله)) من أعظم الخطأ فكيف يكون ما هو صواب بإجماع كالخطأ.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

﴿الصَّفَا﴾ في اللغة : الحجارة الصلبة الصلدة التي لا تنبت شيئاً، وهو جمع واحدته: ((صفاة وصفا، مثل: حصاة وحصى))، ﴿وَالْمَرْوَةَ﴾ والمرو: الحجارة اللينة، وهذان الموضعان ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: من أعلام متعبداته، وواحدة ((الشعائر)): شعيرة، والشعائر: كل ما كان من موقف أو مسعى وذبح، وإنما قيل: شعائر لكل علم مما تعبد به لأن قولهم شعرت به: علمته فلهذا سميت الأعلام التي هي متعبدات شعائر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

وإنما كان المسلمون اجتنبوا الطواف بينهما لأن الأوثان كانت قبل الإسلام منصوبة بينهما، فقيل: إن نصب الأوثان بينهما قبل الإسلام لا يوجب اجتنابهما، لأن البيت الحرام والمشاعر طهرت بالإسلام من الأوثان وغيرها، فأعلم الله -عز وجل- أن هذين من شعائره، وأنه لاجناح في الطواف بينهما، وأن من تطوع بذلك فالله شاكر عليم.

والشكر من الله -عز وجل-: المجازاة والثناء والجميل.

والحج والعمرة يكونان فرضاً تطوعاً، والطواف بالبيت: مجراه مجرى الصلاة، إلا أنه يطوف بالبيت الحاج والمعتمر وغير الحاج والمعتمر.

ومعنى قولهم: ((حججت)) في اللغة : قصدت وكل قاصد شيئاً فقد حجه، وكذلك كل قاصد فقد اعتمره، قال الشاعر(١):

يَحُجُّ مأْمومةً في قعْرها لَجَفٌ فاستُ الطبيبِ قذاها كالمغاريدِ(٢)

---

(١) هو: عذار بن درة الطائي، ويصف شجة، ومعنى البيت: ((يحج)) يصلح، و((مأمومة)) شجة بلغت أم الدماغ، و ((لجف)) أن يذهب في إحدى الناحيتين، والطبيب مما يرى من هولها تقذى ((استه))، و((كالمغاريد)) وهم كمئ صغار، ويقال له: ((غماريد)) مقلوب، وهو مثل الجوز، وفي كل شجرة ذات هذَب، والهدب ما كان يشبه ورق السرو مما ذهب طولاً وما ذهب عرضاً فهو ورق. انظر: المعاني الكبير (٢/٤٨٥)، والكامل (١/٦٥)، واللسان مادة: ((غرد، ولجف)).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٧٣)، ومعاني القرآن (١/١١٥)، ومفردات القرآن (١/٢٩٦)، واتفاق المباني وافتراق المعاني (١/٢٠٦)، تاج العروس (١/١٣٥١).

وقال الشاعر[(١)] في قوله اعتمر أي: قصد [من الرجز]:

لَقَد سَما اِبنُ مَعمَرٍ حينَ اِعتَمَر مَغزىً بَعيداً مِن بَعيدٍ وَضَبَر[(٢)]

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ أي: لا إثم عليه، والجناح: أخذ من جنح إذ مال وعدل عن القصد، وأصل ذلك من جناح الطائر.

و﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فيه غير وجه: يجوز: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ و﴿أَن يُطَوِّفَ بِهِمَا﴾ و﴿أَن يَطُوفَ بِهِمَا﴾ فمن قرأ: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أراد أن يتطوف فأدمغت التاء في الطاء لقرب المخرجين، ومن قرأ: ﴿أَن يُطَوِّفَ بِهِمَا﴾ فهو من طَوَّف إذا أكثر التطواف.

وفي قوله -عز وجل-: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾: وجهان: إن شئت قلت ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾ على لفظ المضي، ومعناه الاستقبال، لأن الكلام شرط وجزاء، فلفظ الماضي فيه يؤول إلى معنى الاستقبال، ومن قرأ: ﴿يَطَّوَّعْ﴾ فالأصل: ((يتطوع)) فأدمغت التاء في الطاء، ولست تدغم حرفاً من حرف إلا قلبته إلى لفظ المدغم فيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾؛ هذا إخبار عن علماء اليهود الذين كتموا ما علموه من صحة أمر النبي ﷺ.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ يعني به القرآن، ومعنى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾؛ فيه غير قول، أما ما يروى عن ابن عباس فقال: ﴿اللاَّعِنُونَ﴾ كل شيء في الأرض إلا الثقلين، ويروى عن ابن مسعود أنه قال: ﴿اللاَّعِنُونَ﴾ الاثنان إذا تلاعنا لحقت اللعنة بمستحقها منهما فإن لم يستحقها واحد منهما رجعت على اليهود[(٣)].

---

(١) هو العجاج. انظر: ديوانه (ص: ١٩)، واللسان: ((عَمَرَ)) يمدح عمر بن عبد الله بن معمر التميمي، وكان ذا بلاء حسن في الحروب.

ومعنى: ((ضبر)) أي: الجواد عندما يتهيأ للوثوب، ويريد أنه وثب وثبة عظيمة لغزو عظيم.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٦/٢)، وتفسير القرطبي (١٧٣/٢)، والتبيان تفسير غريب القرآن (١١٥/١)، ولسان العرب (٤٧٩/٤)، وتاج العروس (٣٠٨٦/١).

(٣) حوى ابن الجوزي الأقوال فقال في زاد المسير (١٦٥/١): وفي ((اللاعنين)) أربعة أقوال:

أحدها: أن المراد بهم دواب الأرض. رواه البراء عن النبي ﷺ، وهو قول مجاهد وعكرمة، وقال مجاهد: يقولون إنما منعنا القطر بذنوبكم فيلعنونهم.

والثاني: أنهم المؤمنون. قاله عبد الله بن مسعود.

والثالث: أنهم الملائكة والمؤمنون. قاله أبو العالية وقتادة.

=

وقيل: ﴿اللاَّعِنُونَ﴾ هم المؤمنون، فكل من آمن بالله من الإنس والجن والملائكة فهم اللاعنون لليهود وجميع الكفرة، فهذا ما روي في قوله ﴿اللاَّعِنُونَ﴾ والله -عز وجل- أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على الاستثناء، والمعنى: أن من تاب بعد هذا وتبين منهم أن ما أتى به النبي ﷺ حق قَبِل الله توبته، فأعلم الله -عز وجل-: أنه يقبل التوبة ويرحم ويغفر الذنب الذي لا غاية بعده.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

يعني لم يتوبوا قبل موتهم من كفرهم، ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ واللعنة هي: إبعاد الله وإبعاده عذابه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ المعنى: لعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين، فإن قال قائل: كيف يلعنه الناس أجمعون وأهل دينه لا يلعنونه ؟ قيل له: إنهم يلعنونه في الآخرة كما قال -عز وجل-: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾[العنكبوت: ٢٥].

وقرأ الحسن: «أولئك عليهم لعنة الله والملائكةُ والناسُ أجمعين» وهو جيد في العربية، إلا أني أكرهه لمخالفته المصحف، والقراءة إنما ينبغي أن يلزم فيها السنة، ولزوم السنة فيها أقوى عند أهل العربية، لأن الإجماع في القراءة إنما يقع على الشيء الجيد البالغ.

ورفع «الملائكة» في قراءة الحسن على تأويل: أولئك جزاؤهم أن لعنهم الله والملائكة، فعطف الملائكة على موضع إعراب ﴿اللَّهِ﴾ في التأويل، ويجوز على هذا: «عجبت من ضرب زيد وعمرو، ومن قيامك وأخوك» المعنى: عجبت من أن ضرب زيد

والرابع: أنهم الجن والإنس وكل دابة. قاله عطاء.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (١/١٤١)، وتفسير ابن كثير (١/٢٧٢)، وتفسير القرطبي (٢/١٨١)، وفتح القدير (١/٢٥١)، وتفسير البغوي (١/١٧٥)، وتفسير البيضاوي (١/٤٣٣)، وتفسير أبي السعود (١/١٨٢)، والدر المنثور (١/٣٩٠)، وتفسير النسفي (١/٨١)، وروح المعاني (٢/٢٧)، والكشاف (١/١٠٤).

وعمرو ومن أن قمت أنت وأخوك.

ومعنى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة وخلودهم فيها خلود في العذاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾.

أخبر -عز وجل- بوحدانيته، ثم أخبر بالاحتجاج في الدلالة على أنه واحد فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فهذه الآيات تدل على أنه واحد -عز وجل- فأما الآية في أمر السماء فمن أعظم الآية لأنها سقف بغير عمد، والآية في الأرض عظيمة فيما يرى من سهلها وجبلها وبحارها، وما فيها من معادن الذهب والفضة والرصاص والحديد اللاتي لا يمكن أحد أن ينشئ مثلها، وكذلك في تصريف الرياح، وتصريفها أنها تأتي من كل أفق فتكون شمالاً مرة وجنوباً مرة ودبوراً مرة وصباً مرة، وتأتى لواقح للسحاب، فهذه الأشياء وجميع ما بث الله في الأرض دالة على أنه واحد، كما قال -عز وجل-: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله غيره لأنه لايأتي آت بمثل هده الآيات إلا واحداً .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً﴾.

فأعلم أن بعد هذا البيان والبرهان تتخذ من دونه الأنداد، وهي الأمثال، فأبان أن من الناس من يتخذ نداً يعلم أنه لاينفع ولا يضر ولا يأتي بشيء مما ذكرنا، وعنى بهذا مشركي العرب.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾؛ أي: يسوون بين هذه الأوثان وبين الله -عز وجل- في المحبة.

وقال بعض النحويين: يحبونهم كحبكم أنتم الله، وهذا قول ليس بشيء، ودليل نقضه قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ﴾ والمعنى: إن المخلصين الذين لا يشركون مع الله غيره هم المحبون حقاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

في هذا غير وجه يجوز: «إن القوة لله، وأن الله» ويجوز: «أن القوة لله وإن الله»، «ولو ترى الذين ظلموا»، وتفتح «أن» مع «ترى» وتكسر وكل ذلك قد قرئ بهم.

قرأ الحسن «ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب إن القوة لله جميعاً وإن الله»، ونحن نفسر ما يجب أن يجري عليه هذا إن شاء الله.

من قرأ: ﴿أَنَّ القُوَّةَ﴾ فموضع «أن» نصب بقوله ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لله جَمِيعاً﴾ وكذلك نصب «أن» الثانية؛ والمعنى: ولو يرى الذين ظلموا شدة عذاب الله وقوته لعلموا مضرة اتخاذهم الأنداد وقد جرى ذكر الأنداد في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً﴾؛ ويجوز أن يكون العامل في «أن» الجواب على ما جاء في التفسير: يروى في تفسير هذا: أنه لو رأى الذين كانوا يشركون في الدنيا عذب الآخرة لعلموا حين يرونه أن القوة لله جميعاً[1] ، ففتح «أن» أجود وأكثر في القراءة وموضعها نصب في هاتين الجهتين على ما وصفنا، ويجوز أن تكون «إن» مكسورة مستأنفة فيكون جواب: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ﴾: لرأوا أمراً عظيماً لا تبلغ صفته، لأن جواب «لو» إنما يترك لعظيم الموصوف نحو قوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾[الرعد: ٣١] المعنى: لكان هذا القرآن أبلغ من كل وصف.

وتكون ﴿أَنَّ القُوَّةَ لله جَمِيعاً﴾ على الاستئناف، يخبر بقوله: ﴿أَنَّ القُوَّةَ لله جَمِيعاً﴾، ويكون الجواب المتروك غير معلق بإن.

ومن قرأ ﴿وَلَو تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فإن التاء خطاب للنبي يراد به الناس كما قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[البقرة: ١٠٧]، فهو بمنزلة: ألم تعلموا، وكذلك ﴿وَلَو تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولو ترون، وتكون ﴿أَنَّ القُوَّةَ لله جَمِيعاً﴾ مستأنفة كما وصفنا، ويكون الجواب -والله أعلم-: لرأيتم أمراً عظيماً، كما يقول: «لو رأيت فلاناً والسِّياط تأخذه» فيستغنى عن الجواب لأن المعنى معلوم.

---

(١) رواه الطبري (٧١/٢) عن الربيع.

وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير (٢٧٥/١)، وتفسير القرطبي (١٩٩/٢)، وفتح القدير (٢٥٥/١)، وتفسير البغوي (١٧٨/١)، وتفسير البيضاوي (٤٤٠/١)، وتفسير أبي السعود (١٨٦/١)، وتفسير النسفي (٨٣/١)، وروح المعاني (٣٥/٢)، وزاد المسير (١٧٠/١)، وتفسير الثعالبي (١٢٧/١)، والكشاف (١٠٥/١).

ويجوز فتح «أن» مع «ترى» فيكون[1]: لرأيتم أيها المخاطبون أن القوة لله جميعاً، أو لرأيتم أن الأنداد لم تنفع وإنما بلغت الغاية في الضرر، لأن القوة لله جميعاً.

و ﴿جَمِيعاً﴾ منصوبة على الحال، المعنى: أن القوة ثابتة لله -عز وجل- في حال اجتماعها.

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾؛ يعني به السادة والأشراف، ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وهم الأتباع والسفلة، ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يعني به التابعون والمتبوعون، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ أي: انقطع وصلهم الذي كان جمعهم. كما قال: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[الأنعام: ٩٤] فبينهم وَصْلُهُم؛ والذي تقطع بينهم في الآخرة كان وصل بينهم في الدنيا.

وإنما ضمت الألف في قوله ﴿اتُّبِعُوا﴾ لضمة التاء والتاء ضمت علامة ما لم يسم فاعله، فإن قال قائل: فما لم يسم فاعله مضموم الأول والتاء المضمومة في ﴿اتُّبِعُوا﴾ ثالثة؟ قيل: إنما يضم لما لم يسم فاعله الأول من متحركات الفعل، فإذا كان في الأول ساكن اجتلبت له ألف الوصل وضم ما كان متحركاً، فكان المتحرك من «اتبعوا» التاء الثانية فضمت دليلاً على ترك الفعل، وأيضاً فإن في ﴿اتُّبِعُوا﴾ ألف وصل دخلت من أجل سكون فاء الفعل، لأن مثاله من الفعل: «أفتعلوا» فالألف ألف وصل ولا يبني عليه ضمة الأول في فعل لم يسم فاعله، والفاء ساكنة، والساكن لا يبني عليه، فلم يبق إلا الثالث وهو التاء فضمت علماً للفعل الذي لم يسم فاعله، فكان الثالث لهذه العلة هو الأول.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ﴾؛ أي: عودة إلى الدنيا فنتبرأ منهم؛ موضع ﴿أَنَّ﴾ رفع؛ المعنى: لو وقع لنا كرور لتبرأنا منهم كما تبرأوا منا، يقال: تبرأْتُ منهم تَبرؤًا وبَرِئت منه بَرَاءَة وبَرِئْت من المرض وبَرَأْت أيضاً لغتان «ابْرَأ بُرْءاً»، وبَرَيْت القلم وغيره وأبْريه غير مهموز، وبَرَأَ الله الخلق بَرْءاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كتبري بعضهم من بعض، يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، لأن ما عمله الكافر غير نافعه مع كفره قال الله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ١]، وقال: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾[البقرة: ٢١٧]، ومعنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ لم يجازهم على ما عملوا من

(١) أي: التأويل.

خير، وهذا كما تقول لمن عمل عملاً لم يعد عليه فيه نفع: ((لقد ضل سعيك)) .

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً﴾.

هذا على ضربين: أحدهما الإباحة لأكل جميع الأشياء إلا ما قد حظر الله -عز وجل- من الميتة وما ذكر معها فيكون ﴿طَيِّباً﴾ نعتاً للحلال ويكون ﴿طَيِّباً﴾ نعتاً لما يستطاب، والأجود أن يكون ﴿طَيِّباً﴾ من حيث يطيب لكم، أي: لا تأكلوا وتنفقوا مما يحرم عليكم، كقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٢٦٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أكثر القراءة ﴿خُطُوَاتِ﴾ بضم الخاء والطاء، وإن شئت أسكنت الطاء ((خُطْوات)) لثقل الضمة، وإن شئت ((خَطَوات)) وهي قراءة شاذة، ولكنها جائزة في العربية قوية وأنشد الخليل وسيبويه وجميع البصريين النحويين [من الطويل]:

فَلَمّا رَأَونا بادِياً رُكَباتُنا عَلى مَوطِنٍ لا نَخلِطُ الجِدَّ بِالهَزلِ[1]

ومعنى ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرقه، أي: لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان.

وقوله -عز وجل- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؛ معنى ﴿أَلْفَيْنَا﴾ صادفنا، فعنفهم الله وعاب عليهم تقليدهم آباءهم فقال: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾.

المعنى: أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالاً، وهذه الواو مفتوحة لأنها واو عطف دخلت

---

(١) هو لعمرو بن شأس الأسدي، وقال البطليوسي: أنشده أبو القاسم في باب: تكسير ما كان على ((فعلة)) وقال: ويروى: ركباتنا: بضم الكاف وفتحها، وقوله: ((لا نخلط الجد بالهزل)) جملة في موضع نصب على الحال، وكأنه قال غير خالطين الجد بالهزل.

ويجوز أن تكون في موضع خفض على الصفة لموطن، ولا يستقيم ذلك إلا بأن تقدر في الجملة ضميراً عائداً على الموطن، وكأنه قال: لا نخلط فيه الجد بالهزل؛ لأن الصفة يلزم أن يكون فيها ضمير يعود إلى الموصوف فهي على هذا صفة جرت على غير من هي له، واستتر الضمير، ولأن الفعل يتضمن ضمير الأجنبي، وكما يتضمن غير الأجنبي. ولو صيرتها صفة محضةً لقلت: على موطن غير خالطٍ نحن فيه الجد بالهزل، فبرز الضمير الفاعل، ولم يستتر. انظر: الحلل في إصلاح الخلل (ص: ٤٨٠).

والبيت ورد في: تفسير القرطبي (٢٦٢/١٦).

عليها ألف التوبيخ، وهي ألف الاستفهام فبقيت الواو مفتوحة على ما يجب لها.

قوله -عز وجل-: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

وضرب الله -عز وجل- لهم هذا المثل وشبههم بالغنم المنعوق بها، بما لا يسمع منه إلا الصوت، فالمعنى: مثلك يا محمد ومثلهم كمثل الناعق والمنعوق به بما لا يسمع، لأن سمعهم ما كان ينفعهم، فكانوا في شركهم وعدم قبول ما يسمعون بمنزلة من لم يسمع، والعرب تقول لمن يسمع ولا يعمل بما يسمع: «أصم» قال الشاعر:

* أصم عما ساءه سميع *

وقوله -عز وجل-: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾؛ وصفهم بالبكم وهو الخرس وبالعمى، لأنهم في تركهم ما يبصرون من الهداية بمنزلة العمي، وقد شرحنا هذا في أول السورة شرحاً كافياً -إن شاء الله-.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ النصب في ﴿الْمَيْتَةَ﴾ وما عطف عليها هو القراءة، ونصبه لأنه مفعول به دخلت «ما» تمنع «إن» من العمل، ويليها الفعل، وقد شرحنا دخول ما مع إن، ويجوز: «إنما حرم عليكم الميتةُ» والذي اختاره أن يكون «ما» تمنع «أن» من العمل، ويكون المعنى: ما حرم عليكم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير لأن «إنما» تأتي إثباتاً لما يذكر بعدها لما سواه قال الشاعر[1] [من الطويل]:

أَنا الذائِدُ الحامي الذِّمار وَإِنَّما مُدافِعُ عَن أَحسابِهِم أَنا أَو مِثلي

المعنى: ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلي، فالاختيار ما عليه جماعة القراء لاتباع السنة وصحته في المعنى، ومعنى ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾؛ أي: ما رفع فيه الصوت بتسمية غير الله عليه، وهذا موجود في اللغة ، ومنه الإهلال بالحج: إنما هو رفع الصوت بالتلبية.

والميتة: أصلها «الميّتة» فحذفت الياء الثانية استخفافاً لثقل الياءين والكسرة،

---

(١) هو: الفرزدق، وقال في معاهد التنصيص (٨٩/١): البيت للفرزدق، ومن قصيدة من الطويل، وسببها: أن نساء بني مجاشع بلغهن فحش جرير بهن، فأتين الفرزدق وهو مقيد، وقد قالوا في ترجمته إنه قيد نفسه لحفظ القرآن، فقلن: قبح الله قيدك، وقد هتك جرير عورات نسائك فلحيت شاعر قومٍ، فأحفظنه، وفك القيد، وأنشد القصيدة التي منها البيت.

البيت موجود في كتب البلاغة في شواهد «القصر». انظر: دلائل الإعجاز (٢٥٢/١)، والإيضاح في علوم البلاغة (١٢١/١)، وأورده الألوسي في روح المعاني (٢١/١٤).

والأجود في القراءة ﴿الْمَيْتَةَ﴾ بالتخفيف، وكذلك في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[الأنعام: ١٢٢]: أصله «أو من كان ميّتاً» بالتشديد وتفسير الحذف والتخفيف فيه كتفسيره في الميتة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾؛ في تفسيرها ومعناها ثلاثة أوجه: قال بعضهم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ أي: فمن اضطر جائعاً غير باغ -غير آكلها تلذذاً-، ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ ولا مجاوز ما يدفع عن نفسه الجوع فلا إثم عليه.

وقالوا: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ غير مجاوز قدر حاجته، وغير مقصر عما يقيم به حياته.

وقالوا: -أيضاً- معنى﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على إمام وغير متعد على أمته.

ومعنى «البغي» في اللغة قصد الفساد يقال: بغى الجرح يبغي بغياً، إذا ترمى إلى فساد هذا إجماع أهل اللغة تقول ويقال: «بغى الرجل حاجته يَبْغِيهَا بِغَاءً، والعرب تقول: «خرج في بِغَاء إبله» قال الشاعر[1] [من مجزوء الكامل]:

لا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ بُغاء الخير تَعقادُ التمائمْ
إنَّ الأشائِم كالأيا من والأيامنُ كالأشائِمْ[2]

ويقال: «بغت المرأة تبغي بغاء» إذا فجرت، قال الله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾[النور: ٣٣] أي: على الفجور، ويقال: «ابتغى لفلان أن يفعل كذا» أي: صلح له أن يفعل كذا، وكأنه قال: طلب فعل كذا فانطلب له، أي: طاوعه، ولكن اجتزئ بقولهم: ابتغى.

والبغايا في اللغة: شيئان؛ «البغايا»: الفواجر، «والبغايا» الإماء، قال الأعشى [من الخفيف]:

وَالبَغايا يَركُضنَ أَكسِيَةَ الإِضـ ـريجِ وَالشَّرعَبِيَّ ذا الأَذيالِ[3]

ونصب ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ على الحال.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ﴾ يعني علماء اليهود الذين كتموا أمر النبي ﷺ.

---

(١) هو: المرقش الأكبر.

(٢) انظر: لسان العرب (٧٥/١٤)، وتاج العروس (٨٢٩٤/١).

(٣) انظر: لسان العرب (٧٥/١٤)، وتاج العروس (٦٢١/١).

وقوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي: كتموه لأنهم أخذوا على كتمانه الرشى.

﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾؛ المعنى: أن الذين يأكلونه يعذبون به فكأنهم إنما أكلوا النار، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[البقرة: ٢٧٥]، أي: يصيرهم أكله في الآخرة إلى مثل هذه الحالة.

و﴿الَّذِينَ﴾ نصب بأن وخبر «أن» جملة الكلام وهي ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ و﴿أُوْلَئِكَ﴾ رفع بالابتداء وخبر ﴿أُوْلَئِكَ﴾: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ فيه غير قول؛ قال بعضهم: معناه يغضب عليهم كما تقول: «فلان لا يكلم فلاناً»، تريد هو غضبان عليه.

وقال بعضهم: معنى ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية.

وجائز أن يكون: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ لا يسمعهم الله كلامه، ويكون الأبرار وأهل المنزلة الذين رضي الله عنهم يسمعون كلامه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: لا يثنى عليهم ومن لا يثني الله عليه فهو معذب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معنى أليم مؤلم، ومعنى «مؤلم» مبالغ في الوجع.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾؛ وفيه غير وجه؛ قال بعضهم: أي شيء أصبرهم على النار، وقال بعضهم: فما أصبرهم على عمل يؤدي إلى النار، لأن هؤلاء كانوا علماء بأن من عاند النبي ﷺ صار إلى النار، كما تقول: «ما أصبر فلاناً» أي: ما أبقاه منه.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾؛ المعنى: الأمر ذلك أو ذلك الأمر، ف﴿ذَلِكَ﴾ مرفوع بالابتداء، أو بخبر الابتداء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: بتباعد بعضهم في مشاقة بعض، لأن اليهود والنصارى هم الذين اختلفوا في الكتاب، ومشاقتهم بعيدة.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

المعنى: ليس البر كله في الصلاة ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾... إلى آخر الآية.

فقيل: إن هذا خصوص في الأنبياء وحدهم، لأن هذه الأشياء التي وصفت لا يؤديها بكليتها على الحق الواجب إلا الأنبياء -عليهم السلام-، وجائز أن يكون لسائر الناس لأن الله -عز وجل- قد أمر الخلق بجميع ما في هذه الآية.

ولك في «البر» وجهان: لك أن تقرأ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا﴾، و﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا﴾ فمن نصب جعل «أن» مع صلتها الاسم، فيكون المعنى: ليس توليتكم وجوهكم البر كله، ومن رفع البر فالمعنى: ليس البر كله توليتكم، فيكون البر اسم «ليس» وتكون ﴿أَنْ تُوَلُّوا﴾ الخبر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ إذا شددت ﴿وَلَكِنَّ﴾ نصبت ﴿الْبِرَّ﴾ وإذا خففت رفعت ﴿الْبِرَّ﴾ فقلت: ﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾، وكسرت النون من التخفيف لالتقاء الساكنين والمعنى: ولكن ذا البر من آمن بالله، ويجوز أن تكون: ولكن البرَّ بِرُّ من آمن بالله كما قال الشاعر[1] [من المتقارب]:

وَكيفَ تُواصِلُ مَن أَصبَحَت خِلالَتُهُ كَأَبي مَرحَبِ[2]

المعنى: كخلالة أبي مرحب، ومثله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[يوسف: ٨٢][3] المعنى: واسأل أهل القرية.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾؛ في رفعها قولان؛ الأجود أن يكون مرفوعاً على المدح، لأن النعت إذا طال وكثر رفع بعضه ونصب على المدح.

المعنى: هم الموفون بعهدهم، وجائز أن يكون معطوفاً على ﴿مَنْ﴾. المعنى: ولكن البر وذو البر المؤمنون والموفون بعهدهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾؛ في نصبها وجهان؛ أجودهما: المدح كما وصفنا

---

(١) هو: النابغة الجعدي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/١٧٤)، وتفسير القرطبي (٢/٢٣٣)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/٦٢)، ودلائل الإعجاز (١/٢٣٢)، ولسان العرب (١/٤١٣)، وتاج العروس (١/٥٢١).

(٣) ذكر ذلك الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز (١/٢٣٢) من شواهد حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

في النعت إذا طال، المعنى: أعني الصابرين، قال بعض النحويين: إنه معطوف على ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ كأنه قال: وآتي المال على حبه ذوي القربى والصابرين، وهذا لا يصلح إلا أن يكون ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ رفع على المدح للمضمرين لأن «ما» في الصلة لا يعطف عليه بعد المعطوف على الموصول.

ومعنى ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: شدة الحرب، يقال: قد بَأس الرجل يَبْأس بَأساً وبَأْساً وبؤساً -يا هذا- إذا افتقر، وقد بؤُس الرجل يبؤُس فهو بَئِيس إذا اشتدت شجاعته.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى﴾.

معنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ فرض عليكم، وقوله ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى﴾؛ يقال: إنه كان لقوم من العرب طَول على آخرين، فكانوا يتزوجون فيهم بغير مهور، ويطلبون بالدم أكثر من مقداره فيقتلون بالعبد من عبيدهم الحر من الذين لهم عليهم طول فأنزل الله -عز وجل-: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾؛ أي: من ترك له القتل ورضي منه بالدية وهو قاتل متعمد للقتل عفى له بأن ترك له دمه ورضي منه بالدية قال الله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وذكر أن من كان قبلنا لم يفرض عليهم إلا النفس كما قال -عز وجل-: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[المائدة: ٤٥] أي: في التوراة، فتفضل الله على هذه الأمة بالتخفيف والدية إذا رضي بها ولي الدم.

ومعنى ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ على ضربين: جائز أن يكون: فعلى صاحب الدم اتباع بالمعروف أي: المطالبة بالدية وعلى القاتل أداء بإحسان، وجائز أن يكون الاتباع بالمعروف والأداء بإحسان جميعاً على القاتل -والله أعلم-.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: بعد أخذ الدية، ومعنى ﴿اعْتَدَى﴾: ظلم، فوثب فقتل قاتل صاحبه بعد أخذ الدية، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع.

ورفع ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ على معنى فعليه اتباع، ولو كان في غير القرآن لجاز فاتباعاً بالمعروف وأداءً، على معنى: فليتبع اتباعاً ويؤد أداءً، ولكن الرفع أجود في العربية.

وهو على ما في المصحف وإجماع القراء فلا سبيل إلى غيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.

﴿حَيَاةٌ﴾ رفع على ضربين: على الابتداء وعلى لكم كأنه قال: وثبت لكم في القصاص حياة ﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ أي: يا ذوي العقول.

ومعنى الحياة في القصاص: أن الرجل إذا علم أنه يقتل إن قتل، أمسك عن القتل ففي إمساكه عن القتل حياة الذي هَمَّ هو بقتله، وحياة له، لأنه من أجل القصاص أمسك عن القتل فسلم أن يقتل.

وقوله -عز وجل-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ المعنى: وكتب عليكم، إلا أن الكلام إذا طال استغنى عن العطف بالواو وعلم أن معناه الواو، ولأن القصة الأولى قد استتمت وانقضى معنى الفرض فيها، فعلم أن المعنى: فرض عليكم القصاص وفرض عليكم الوصية.

ومعنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾؛ هذا الفرض بإجماع نسخته آيات المواريث في سورة النساء، وهذا مجمع عليه ولكن لا بد من تفسيره ليعلم كيف كان وجه الحكمة فيه، لأن الله -عز وجل- لا يتعبد في وقت من الأوقات إلا بما فيه الحكمة البالغة فمعنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾: فرض عليكم إن ترك أحدكم مالاً الوصية ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فرفع الوصية على ضربين؛ أحدهما: على ما لم يسم فاعله كأنه قال: كتب عليكم ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ أي: فرض عليكم، ويجوز أن تكون رفع الوصية على الابتداء ويجوز أن تكون ﴿لِلْوَالِدَيْنِ﴾ الخبر ويكون على مذهب الحكاية، لأن معنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: لكم؛ الوصية للوالدين والأقربين، وإنما أمروا بالوصية في ذلك الوقت لأنهم كانوا ربما جاوزوا بدفع المال إلى البعداء طلباً للرياء والسمعة.

ومعنى ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ ليس هو أنه كتب عليه أن يوصي إذا حضره الموت، لأنه إذا عاين الموت يكون في شغل عن الوصية وغيرها، ولكن المعنى: كتب عليكم أن توصوا وأنتم قادرون على الوصية، فيقول الرجل: إذا حضرني الموت أي: إذا أنا مت فلفلان كذا، على قدر ما أمر به، والذي أمر به أن يجتهد في العدل في وقت الإمهال فيوصي بالمعروف كما قال الله -عز وجل- لوالديه ولأقربيه.

ومعنى ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالشيء الذي يعلم ذو التمييز أنه لا حنف فيه ولا جور، وقد قال قوم: إن المنسوخ من هذا ما نسخته المواريث، وأمر الوصية في الثلث باق، وهذا القول ليس بشيء لأن إجماع المسلمين أن ثلث الرجل له إن شاء أن يوصي بشيء فله وإن ترك فجائز، فالآية في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ... الْوَصِيَّةُ﴾ منسوخة بإجماع، وكما وصفنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ نصب على: حق ذلك عليكم حقاً، ولو كان في غير القرآن فرفع كان جائزاً على معنى: ذلك حق على المتقين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ يعني فمن بدل أمر الوصية بعد سماعه إياها، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ على مبدله ليس على الموصي -إذا احتاط أو اجتهد فيمن يوصي إليه- إثم، ولا على الموصى له إثم، وإنما الإثم على الموصي إن بدل.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: قد سمع ما قاله الموصي وعلم ما يفعله الموصى إليه، لأنه -عز وجل- عالم الغيب والشهادة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً﴾؛ أي: ميلاً أو إثماً أو قصداً لإثم ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: عمل بالإصلاح بين الموصى لهم ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لأنه إنما يقصد إلى إصلاح بعد أن يكون الموصي قد جعل الوصية بغير المعروف مخالفاً لأمر الله، فإذا ردها الموصى إليه إلى المعروف فقد ردها إلى ما أمر الله به.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾؛ المعنى: فرض عليكم الصيام فرضاً كالذي فرض على الذين من قبلكم، وقيل إنه قد كان فرض على النصارى صوم رمضان فنقلوه عن وقته وزادوا فيه، ولا أدري كيف وجه هذا الحديث ولا ثقة ناقليه، ولكن الجمة أن الله -عز وجل- قد أعلمنا أنه فرض على من كان قبلنا الصيام، وأنه فرض علينا كما فرضه على الذين من قبلنا[1].

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٨٤) في الذين من قبلنا ثلاثة أقوال:
أحدها: أنهم أهل الكتاب. رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس وهو قول مجاهد.
والثاني: أنهم النصارى. قاله الشعبي والربيع.
والثالث: أنهم جميع أهل الملل. ذكره أبو صالح عن ابن عباس.
وفي كيفية الصوم لمن كانوا قبلنا قال ابن الجوزي: قيل إنه فرض على من قبلنا صوم رمضان بعينه. قال ابن عباس فقدم النصارى يوماً ثم يوماً وأخروا يوماً، ثم قالوا: نقدم عشراً ونؤخر عشراً.
وقال السدي عن أشياخه: اشتد على النصارى صوم رمضان فجعل يتقلب عليهم في الشتاء والصيف فلما رأوا ذلك اجتمعوا فجعلوا صياماً في الفصل بين الشتاء والصيف، وقالوا نزيد عشرين يوماً نكفر بها ما صنعنا.
وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/١٢٠)، وتفسير ابن كثير (١/٢٨٩)، وتفسير القرطبي (٢/١٧٣)، وفتح القدير (١/٢٧٧)، وتفسير البغوي (١/١٩٥)، وتفسير البيضاوي (١/٤٦١)، وتفسير أبي السعود =

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ المعنى: أن الصيام إلى التقى لأنه من البر الذي يكف الإنسان عن كثير مما تتطلع إليه النفس من المعاصي، فلذلك قيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ و«لعل» ههنا على ترجي العباد، والله -عز وجل- من وراء العلم أتتقون أم لا؟ ولكن المعنى: أنه ينبغي لكم بالصوم أن يقوى رجاؤكم في التقوى.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾.

نصب ﴿أَيَّاماً﴾ على ضربين؛ أجودهما: أن تكون على الظرف كأنه كتب عليكم الصيام في هذه الأيام، والعامل فيه الصيام، كان المعنى: كتب عليكم أن تصوموا أياماً معدودات.

وقال بعض النحويين: إنه منصوب مفعول ما لم يسم فاعله نحو: «أعطي زيد المال» وليس هذا بشيء، لأن الأيام ههنا معلقة بالصوم، «وزيد والمال» مفعولان لأعطى، فلك أن تقيم أيهما شئت مقام الفاعل، وليس في هذا إلا نصب الأيام بالصيام.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

أي: فعليه عدة، أو فالذي ينوب عن صومه في وقت الصوم عدة من أيام آخر.

و﴿أُخَرَ﴾ في موضع جر، إلا أنها لا تنصرف ففتح فيها المجرور.

ومعنى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: يطيقون الصوم، ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، أي: إن أفطر وترك الصوم كان فدية تركه طعام مسكين، وقد قرئ: ﴿طَعَامُ مَسَاكِينٍ﴾ فمعنى ﴿طَعَامُ مَسَاكِينٍ﴾ فدية أيام يفطر فيها، وهذا بإجماع وبنص القرآن منسوخ، نسخته الآية التي تلي هذه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ رفع خير خبر الابتداء؛ المعنى: صومكم خير لكم هذا كان خيراً لهم مع جواز الفدية، فأما ما بعد النسخ فليس بجائز أن يقال: الصوم خير من الفدية والإفطار في هذا الوقت، لأنه ما لا يجوز البتة فلا يقع تفضيل عليه، فيوهم فيه أنه جائز.

وقد قيل: إن الصوم الذي كان فرض في أول الإسلام: صوم ثلاثة أيام في كل شهر،

=

(١٩٨/١)، والدر المنثور (٤٢٦/١)، وروح المعاني (٣٠٤/١)، وتفسير الثعالبي (١٣٦/١)، والكشاف (١١١/١).

ويوم عاشوراء، ولكن شهر رمضان نسخ الفرض في ذلك الصوم كله.

وقوله -عز وجل-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.

القراءة بالرفع ويجوز النصب، وهي قراءة ليست بالكثيرة ورفعه على ثلاثة أضرب؛ أحدها: الاستئناف؛ المعنى: الصيام الذي كتب عليكم أو الأيام التي كتبت عليكم شهر رمضان، ويجوز أن يكون رفعه على الابتداء ويكون الخبر ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ والوجهان اللذان شرحناهما الذي فيهما رفع على صفة الشهر، ويكون الأمر بالفرض فيه ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

ومعنى ﴿فَمَن شَهِدَ﴾: من كان شاهداً غير مسافر فليصم، ومن كان مسافراً أو مريضاً فقد جعل له أن يصوم عدة أيام المرض، وأيام السفر من أيام آخر، ومن نصب ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ نصبه على وجهين؛ أحدهما: أن يكون بدلاً من ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ والوجه الثاني: على الأمر، كأنه قال: عليكم شهر رمضان على الإغراء.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ أي: أن ييسر عليكم بوضعه عنكم الصوم في السفر والمرض.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِتُكَمِّلُوا الْعِدَّةَ﴾ قرىء بالتشديد، ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ بالتخفيف، من كَمّل يُكمّل وأَكْمَل يُكْمِل، ومعنى اللام والعطف ههنا معنى لطيف؛ هذا الكلام معطوف محمول على المعنى، المعنى: فعل الله ذلك ليسهل عليكم ولتكملوا العدة، قال الشاعر(١) [من الكامل]:

بادَت وَغَيَّرَ آيَهُنَّ مَعَ البِلى ... إِلا رَواكِدَ جَمرُهُنَّ هَباءُ

وَمُشَجَّجٌ أَمّا سَواءُ قَذالِهِ ... فَبَدا وَغَيَّرَ سارَهُ المَعزاءُ(٢)

فعطف «مشجج» على معنى: «بها رواكد ومشجج» لأنه إذ قال: «بادت إلا رواكد» علم أن المعنى بقيت رواكد ومشجج..

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

المعنى: إذا قال قائل: أين الله؟ فالله -عز وجل- قريب لا يخلو منه مكان، كما قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[المجادلة: ٧]، وكما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤].

---

(١) هو: الشماخ الذبياني.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/٢٩٣)، والجمل في النحو (١/١٦٨).

وقوله -عز وجل-: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

إن شئت قلت إذا دعاني بياء، وإن شئت بغير ياء، إلا أن المصحف يتبع، فيوقف على الحرف كما هو فيه، ومعنى الدعاء لله -عز وجل- على ثلاثة أضرب فضرب منها توحيده والثناء عليه كقولك: ((يا الله لا إله إلا أنت)) وقولك: ((ربنا لك الحمد)) فقد دعوته بقولك: ((ربنا)) ثم أتيت بالثناء والتوحيد ومثله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠] أي: يستكبرون عن توحيدي والثناء علي، فهذا ضرب من الدعاء.

وضرب ثان هو: مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه كقولك: ((اللهم اغفر لنا)).

وضرب ثالث هو مسألته: من الدنيا كقولك: ((اللهم أرزقني مالاً وولداً)) وما أشبه ذلك، وإنما سمي هذا أجمع دعاء؛ لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله: ((يا الله ويا رب ويا حي)) فكذلك سمي دعاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾؛ أي: فليجيبوني قال الشاعر[1] [من الطويل]:

وَداعٍ دعا هَل مَن يُجيبُ إِلى النَّدى ... فَلَم يَستَجِبهُ عِندَ ذاكَ مُجيبُ

أي: فلم يجبه أحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾.

﴿الرَّفَثُ﴾ كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة، والمعنى ههنا: كناية عن الجماع؛ أي: أحل لكم ليلة الصيام الجماع، لأنه كان في أول فرض الصيام الجماع محرماً في ليلة الصيام، والأكل والشرب بعد العشاء الآخرة والنوم، فأحل الله الجماع والأكل والشراب إلى وقت طلوع الفجر.

وقوله -عز وجل-: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾؛ قد قيل فيه غير قول؛ قيل: المعنى فتعانقونهن ويعانقنكم، وقيل كل فريق منكم يسكن إلى صاحبه ويلابسه، كما قال -عز وجل-: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[الأعراف: ١٨٩]، والعرب تسمي المرأة

---

(١) هو كعب بن سعد الغنوي.

وفي معناه قال البغدادي في الخزانة (٣٥٧/٤): وقوله: ((وداع دعا يا من يجيب)) البيت، والواو واو رب. والداعي هنا السائل، ويجيب من أجابه أي رد جوابه، ومفعوله محذوف، وأي: يجيب الداعي.

لباساً وإزاراً قال الشاعر(١) [من المتقارب]:

إِذا ما الضَجيعُ ثَنى جيدَها   تَثَنَّت عَليهِ فَكانَت لِباسا(٢)

وقال أيضاً(٣) [من الوافر]:

أَلاَ أَبْلِغ أَبَا حَفْص رَسُولاً   فدىً لَك مِن أَخي ثِقَةٍ إِزَارِي

قال أهل اللغة: فدى لك امرأتي(٤).

قوله -عز وجل-: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾؛ قالوا معناه الولد، ويجوز أن يكون -وهو الصحيح عندي والله أعلم- ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ اتبعوا القرآن فيما أبيح لكم فيه وأمرتم به فهو المبتغى.

---

(١) هو: النابغة الجعدي.

(٢) أورده القزويني في الإيضاح (٢٣٠/١).

والبيت أورده: تفسير الطبري (١٦٧/٢)، وتفسير ابن كثير (٢٩٨/١)، وتفسير القرطبي (٣٨٠/١)، وفتح القدير (١١٨/١)، وتفسير البيضاوي (٤٨٦/١)، وتفسير أبي السعود (٢٠١/١)، والدر المنثور (٤٧٨/١)، وروح المعاني (٦٥/٢)، والكشاف (١١٤/١)، ولسان العرب (٣١١/٥)، وتاج العروس (٣٦٧٣/١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٢٣/٢)، والفائق (١٠٧/٣).

(٣) منسوب إلى رجل بعث بأبيات منها هذا البيت إلى عمر بن الخطاب وفيها قصة؛ قال ياقوت في معجم الأدباء (١٣٩/٢): ((وللوزير أبي القاسم رواية عن الوزير أبي الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة، وحكى عنه بسنده إلى المدائني أنه قال: كان رجل بالمدينة من بني سليم يقال له: جعدة، وكان يتحدث إليه النساء بظهر المدينة فيأخذ المرأة فيعقلها إلى الحيطان ويثبت العقال، فإذا أرادت أن تثب سقطت وتكشفت، فبلغ ذلك قوماً في بعض المغازي فكتب رجل منهم إلى عمر ﷺ بهذه الأبيات فذكر أبيات أولها هذا البيت)).

وسماه ابن منظور في لسان الغرب في مادة: ((أزر)) فقال: ومنه قول نُفَيْلَةَ الأكبر الأَشْجعِيِ، وكنيته أَبو المِنْهالِ، وكان كتب إِلى عمر بن الخطاب أَبياتاً من الشعر يشير فيها إِلى رجل، وكان والياً على مدينتهم، ويخرج الجواريَ إِلى سَلْعٍ عند خروج أَزْواجهن إِلى الغزو، فيَعْقِلُهُن ويقول لا يمشي في العِقال إِلا الحِصَان، فربما وقعت فتكشفت، وكان اسم هذا الرجل جعدة بن عبد الله السلمي فقال وذكر الأبيات.

(٤) ذكره ابن رشيق ثم علق عليه فقال: قال الأصمعي: إذا قالت العرب: الثوب والإزار، فإنهم يريدون البدن، وأنشد فذكر البيت.

وذكر البيت: تفسير القرطبي (٣٠٩/٢)، وزاد المسير (١٩٢/١)، ومفردات القرآن (٣٤/١)، ولسان العرب (١٦/٤)، وتاج العروس (٢٤٥٣/١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٢٢/٢)، والفائق (٤٠/١).

وقوله -عز وجل-: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾.

هما فجران؛ أحدهما يبدو أسود معترضاً، وهو الخيط الأسود، والأبيض يطلع ساطعاً يملأ الأفق، وحقيقته: حتى يتبين لكم الليل من النهار، وجعل الله عز جل حدود الصيام طلوع الفجر الواضح، إلا أن الله -عز وجل- بيّن في فرضه ما يستوي في علمه أكثر الناس.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ﴾.

معنى المباشرة هنا الجماع.

وكان الرجل يخرج من المسجد وهو معتكف فيجامع ثم يعود إلى المسجد، والاعتكاف أن يحبس الرجل نفسه في مسجد جماعة يتعبد فيه، فعليه إذا فعل ذلك ألا يجامع وألا يتصرف إلا فيما لا بد له منه من حاجته.

وقوله -عز وجل-: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾.

معنى «الحدود» ما منع الله -عز وجل- من مخالفتها، ومعنى الحداد في اللغة: الحاجب وكل من منع شيئاً فهو حداد، وقولهم: «أحدت المرأة على زوجها» معناه: قطعت الزينة وامتنعت منها، والحديد إنما سمي حديداً لأنه يمتنع به من الأعداء، وحد الدار هو ما يمنع غيرها أن تدخل فيها.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: مثل البيان الذي ذكر؛ المعنى: ما أمرهم به ليبين لهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾.

﴿تَأْكُلُوا﴾ جزم بـ «لا»، لأن «لا» التي ينهي بها تلزم الأفعال دون الأسماء، وتأثيرها فيها بالجزم لأن الرفع يدخلها بوقوعها موضع الأسماء، والنصب يدخلها لمضارعة الناصب فيها الناصب للأسماء، وليس فيها بعد هذين الحيزين إلا الجزم.

ومعنى ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بالظلم.

﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ﴾ أي: تعملون على ما يوجبه ظاهر الحكم ويتركون ما قد علمتم أنه الحق.

ومعنى «تدلوا» في اللغة إنما أصله من: أدليت الدلو إذا أرسلتها للملء، ودلوتها إذا أخرجتها، ومعنى «أدلى لي فلان بحجته»: أرسلها وأتى بها على صحة، فمعنى ﴿وَتُدْلُوا

بِهَا إِلَى الحُكَّامِ﴾ أي: تعملون على ما يوجبه الإدلاء بالحجة وتخونون في الأمانة.

﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وأنتم تعلمون أن الحجة عليكم في الباطن، وإن ظهر خلافها ويجوز أن يكون موضع «وتدلوا» جزماً ونصباً، فأما الجزم: فعلى النهي معطوف على: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا﴾، ويجوز أن تكون نصباً على ما تنصب الواو، وهو الذي يسميه بعض النحويين الصرف، ونصبه بإضمار «أن»؛ المعنى: لا تجمعوا بين الأكل بالباطل والإدلاء إلى الحكام، وقد شرحنا هذا قبل هذا المكان.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾.

كان النبي ﷺ سئل عن الهلال في بدئه دقيقاً وعن عظمه بعد، وعن رجوعه دقيقاً كالعرجون القديم[1].

فأعلم الله -عز وجل- أنه جعل ذلك ليعلم الناس أوقاتهم في حجهم، وعدد نسائهم وجميع ما يريدون علمه مشاهرة، لأن هذا أسهل على الناس من حفظ عدد الأيام، ويستوي فيه الحاسب وغير الحاسب.

ومعنى «الهلال» واشتقاقه: من قولهم: «استهل الصبي» إذا بكى حين يولد، أو صاح، وكأن قولهم: «أهلّ القوم بالحج والعمرة» أي: رفعوا أصواتهم بالتلبية، وإنما قيل: له هلال لأنه حين يرى يهل الناس بذكره، ويقال: أَهَلَّ الهلال واستهل، ولا يقال: أُهِلَّ ويقال: «أهللنا» أي: رأينا الهلال، وأهللنا شهر كذا وكذا، أدخلنا فيه.

وأخبرني من أثق به من رواة البصريين والكوفيين جميعاً بما أذكره في أسماء الهلال وصفات الليالي التي في كل شهر: فأول ذلك: إنما سمى الشهر «شهراً» لشهرته وبيانه،

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٩٥)

هذه الآية من أولها إلى قوله: ﴿وَالْحَجِّ﴾ نزلت على سبب وهو: أن رجلين من الصحابة قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد ويمتلىء حتى يستدير ويستوي ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان؟ فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾. هذا قول ابن عباس.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/١٩١)، وتفسير ابن كثير (١/٣٠٦)، وتفسير القرطبي (٢/٣٣٩)، وفتح القدير (١/٢٩١)، وتفسير البغوي (١/٢١١)، وتفسير البيضاوي (١/٤٧٤)، وتفسير أبي السعود (١/٢٠٣)، والدر المنثور (١/٤٩٠)، وروح المعاني (٢/٧٣)، وتفسير الثعالبي (١/١٤٩)، والكشاف (١/١١٦)، ومعاني القرآن (١/١٠٣)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٤٥٣)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٤٥٣).

وسمي «هلالاً» لما وصفنا من رفع الصوت والإخبار عنه.

وقد اختلفت الناس قي تسميته «هلالاً» وكم ليلة يسمى، ومتى يسمى «قمراً»، فقال بعضهم: يسمى «هلالاً» لليلتين من الشهر ثم لا يسمى «هلالاً» إلى أن يعود في الشهر التالي.

وقال بعضهم: يسمى «هلالاً» ثلاث ليالي ثم «قمراً».

وقال بعضهم يسمى «هلالاً» إلى أن يحجر وتحجيره إلى أن يستدير بخطة دقيقة، وهو قول الأصمعي.

وقال بعضهم: يسمى «هلالاً» إلى أن يبهر ضوؤه سواد الليل، فإذا غلب ضوؤه سواد الليل قيل: له «قمر»، وهذا لا يكون إلا في الليلة السابعة.

والذي عندي وما عليه الأكثر أنه يسمى «هلالاً» ابن ليلتين فإنه في الثالثة يبين ضوؤه، واسم «القمر»: الزبرقان واسم دارته: «الهالة» واسم ضوئه «الفَخْتُ»، وقد قال بعض أهل اللغة: لا أدرى «الفَخْتُ» اسم ضوئه أم ظلمته.

واسم ظلمته على الحقيقة واسم ظله: «السمر» ولهذا قيل للمتحدثين ليلاً: « سُمَّاراً» ويقال: «ضاء القمر وأضاء»، ويقال: «طلع القمر» ولا يقال: «أضاءت القمر أو ضاءت».

قال أبو إسحاق وحدثني من أثق به عن الرياشي عن أبي زيد، وأخبرني أيضاً من أثق به عن ابن الأعرابي بما أذكره في هذا الفصل؛ قال أبو زيد الأنصاري: يقال للقمر ابن ليلة: «عتمة سخلية حل أهلها برميلة».

وابن ليلتين: «حديث أمتين كذب ومين» رواه ابن الأعرابي: «بكذب ومين».

وابن ثلاث: «حديث فتيات غير جد مؤتلفات»، وقيل: ابن ثلاث «قليل اللباث».

وابن أربعة: «عتمة ربع لا جائع ولا مرضع» وعن أبي الأعرابي: «عتمة أم الربع».

وابن خمسة: «حديث وأنس»، وقال أبو زيد: «عشا خلفات قُعش».

وابن ست: «سِرْوَبِثْ»، وابن سبع: «دلجة الضبع»، وابن ثمان: «قمر أضحيان»، وابن تسع عن أبي زيد: «انقطع السشع» وعن غيره: «يلتقط فيه الجزع»، وابن عشر: «ثلث الشهر» وعن أبي زيد وغيره: «محنق الفجر».

ولم تقل العرب بعد العشر في صفته: «ليلة ليلة» كما قالت في هذه العشر، ولكنهم جزؤوا صفته أجزاء عشرة، فجعلوا لكل ثلاث ليال صفة، فقالوا: «ثلاث غُرَرٌ، وبعضهم

يقول: «غُرٌ»، وثلاث شُهْبٌ، وثلاث بُهْرٌ وبَهْرٌ وثلاث عُشْرٌ، وثلاث بيض، وثلاث دُرْعٌ ودُرُعٌ، ومعنى الدرع: سواد مقدم الشاه وبياض مؤخرها، وإنما قيل: لها «دُرْعٌ ودُرُعٌ» لأن القمر يغيب في أولها فيكون أول الليل أدرع، لأن أوله أسود، وما بعده مضيء، وثلاث خُنُس لأن القمر ينخنس فيها، أي: يتأخر، وثلاث دهم، وإنما قيل: لها «دهم» لأنها تظلم حتى تدهام».

وقال بعضهم: «ثلاث حَنَادِس وثلاث فُحَمٌ، لأن القمر يتفحم فيها أي: يطلع في آخر الليل، وثلاث دَأْدَي وهي أواخر الشهر، وإنما أخذت من الدَّأْدَاء، وهو ضرب من السير تسرع فيه الإبل، نقل أرجلها إلى موضع أيديها».

فالدأدأة آخر نقل القوائم، فكذلك الدَأْدَي في آخر الشهر.

وجمع «هلال»: أَهِلَّة لأدنى العدد وأكثره، لأن «فِعَالاً» يجمع في أقل العدد على «أَفِعلة» مثل: «مثال وأمثلة، وحمار وأحمرة» وإذا جاوز «أَفِعلة» جمع على «فُعُل» مثل: «حُمُر، ومُثُل» فكرهوا في التضعيف: «فُعُل» نحو: «هُلُل وخلل» فقالوا: «أهلة وأخلة» فاقتصروا على جمع أدنى العدد كما اقتصروا في ذوات الواو والياء على ذلك نحو: «كساء وأكسية ورداء وأردية».

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾[1].

قيل: إنه كان قوم من قريش وجماعة معهم من العرب، إذا خرج الرجل منهم في حاجة فلم يقضها ولم تتيسر له رجع فلم يدخل من باب بيته سنة يفعل ذلك تطيراً، فأعلمهم الله -عز وجل- أن ذلك غير بر، أي: الإقامة على الوفاء بهذه السنة ليس ببر.

وقال الأكثر من أهل التفسير: إنهم «الحمس» وهم قوم من قريش، وبنو عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة، كانوا إذا أحرموا لا يأقطون «الأقط» ولا ينفون الوبر ولا يسلون السمن، وإذا خرج أحدهم من الإحرام لم يدخل من باب بيته، وإنما سموا «الحمس»

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٩٥): من قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ إلى آخرها يدل على سبب آخر غير السبب الوارد في أول الآية وقد سبق-: وهو أنهم كانوا إذا حجوا ثم قدموا المدينة لم يدخلوا من باب ويأتون البيوت من ظهورها، فنسي رجل فدخل من باب فنزلت ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ هذا قول البراء بن عازب.

لأنهم تحمسوا في دينهم[١] أي: تشددوا.

وقال أهل اللغة: الحماسة الشدة في الغضب والشدة في القتال، والحماسة على الحقيقة: الشدة في كل شيء.

وقال العجاج [من الرجز]:

* وَكَم قَطَعنا مِن قِفافٍ حُمسٍ[٢] *

أي: شداد، فأعلمهم الله -عز وجل- أن تشددهم في هذا الإحرام ليس ببر، وأعلمهم أن البر التقي فقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾؛ المعنى: ولكن البر بر من اتقى مخالفة أمر الله -عز وجل- فقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فأمرهم الله بترك سنة الجاهلية في هذه الحماسة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.

قالوا في تفسيره: قاتلوا أهل مكة، وقال قوم: هذا أول فرض الجهاد ثم نسخه ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾[٣].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾؛ أي: لا تظلموا والاعتداء مجاوزة الحق، وقيل في تفسيره قولان؛ قيل: لا تعتدوا، لا تقاتلوا غير من أمرتم بقتاله ولا تقتلوا غيرهم، وقيل ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تجاوزوا إلى قتل النساء والأطفال.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

أي: حيث وجدتموهم يقال: ثَقِفْتُه ثَقْفاً وثَقَافَة، ويقال: رجل ثَقِفٌ لَقِفٌ.

ومعنى الآية: لا تمتنعوا من قتلهم في الحرم وغيره.

---

(١) انظر: لسان العرب (٥٧/٦)، ونقل هذا المعنى عن الزجاج ابن الجوزي في زاد المسير (٢١٤/١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣٣٩/٢)، ولسان العرب (٥٧/٦)، وتاج العروس (٣٩٠٢/١).

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١٩٧/١) اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا على قولين:

أحدهما: أنها منسوخة واختلف أرباب هذا القول في المنسوخ منها على قولين؛ أحدهما: أنه أولها وهو قوله وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم قالوا وهذا يقتضي أن القتال يباح في حق من قاتل من الكفار ولا يباح في حق من لم يقاتل، وهذا منسوخ. والثاني: أن المنسوخ منها: ((ولا تعتدوا)) ولهؤلاء في هذا الاعتداء قولان؛ أحدهما: أنه قتل من لم يقاتل. والثاني: أنه ابتداء المشركين بالقتال وهذا منسوخ بآية السيف.

والقول الثاني: أنها محكمة، ومعناها عند أرباب هذا القول: وقاتلوا في سبيل الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾؛ أي: فكفرهم في هذه الأمكنة أشد من القتل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾.

كانوا قد نهوا عن ابتدائهم بقتل أو قتال حتى يبتدئ المشركون بذلك.

وتقرأ: ((ولا تَقْتُلوهم عند المسجد الحرام حتى يَقْتُلوكم فيه)) أي: لا تبدؤوهم بقتل حتى يبدؤوكم به، وجائز: ((ولا تَقْتُلوهم))، وإن وقع القتل ببعض دون بعض لأن اللغة يجوز فيها: ((قتلت القوم)) وإنما قتل بعضهم، إذا كان في الكلام دليل على إرادة المتكلم.

وقوله -عز وجل-:﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

هذا أمر من الله عز وجل أن يقاتل كل كافر لأن المعنى ههنا في الفتنة والكفر.

وقوله -عز وجل-: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

﴿الشَّهْرُ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ ومعناه: قتال الشهر الحرام.

ويروى أن المشركين سألوا النبي ﷺ عن الشهر الحرام هل فيه قتال: فأنزل الله -عز وجل- أن القتل فيه كبير، أي: عظيم في الإثم، وإنما سألوا ليغروا المسلمين، فإن علموا أنهم لم يؤمروا بقتلهم قاتلوهم فأعلمهم الله -عز وجل- أن القتال فيه محرم، إلا أن يبتدئ المشركون بالقتال فيه، فيقاتلهم المسلمون(١).

---

(١) وسبب ورود الآية الذي ألمح له المصنف يعد قولاً في سبب نزولها، ويقول ابن الجوزي في زاد المسير (٢٠١/١): هذه الآية نزلت على سبب واختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أن النبي ﷺ أقبل هو وأصحابه معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدي فصدهم المشركون فصالحهم نبي الله على أن يرجع عنهم ثم يعود في العام المقبل فيكون بمكة ثلاث ليال، ولا يدخلها بسلاح ولا يخرج بأحد من أهل مكة فلما كان العام المقبل أقبل هو وأصحابه فدخلوها، فافتخر المشركون عليه إذ ردوه يوم الحديبية فأقصه الله منهم وأدخله مكة في الشهر الذي ردوه فيه فقال: ((الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص))، وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس ومجاهد وعطاء وأبو العالية وقتادة.

والثاني: أن مشركي العرب قالوا للنبي ﷺ أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام ؟ قال: ((نعم)) وأرادوا أن يفتروه في الشهر الحرام فيقاتلوه فيه فنزلت هذه الآية، يقول: إن استحلوا منكم شيئاً في الشهر الحرام فاستحلوا منهم مثله. هذا قول الحسن واختاره إبراهيم بن السري والزجاج.

=

فالمعنى في قوله: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ﴾ أي: القتال الشهر الحرام أي: في ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ﴾؛ وأعلم الله -عز وجل- أن هذه الحرمات ﴿قِصَاصٌ﴾ أي: لا يجوز للمسلمين إلا قصاصاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: من ظلم فقاتل فقد اعتدى، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وسمى الثاني اعتداء لأنه مجازاة اعتداء، فسمي بمثل اسمه لأن صورة الفعلين واحدة.

وإن كان أحدهما طاعة والآخر معصية، والعرب تقول: «ظلمني فلان ظلمته» أي: جازيته بظلمه، وجهل علي فجهلت عليه أي: جازيته بجهله قال الشاعر[1] [من الوافر]:

أَلا لا يَجهَلَن أَحَدٌ عَلَينا فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجاهِلِينا[2]

أي: فنكافئ على الجهل بأكثر من مقداره.

وقال الله -عز وجل-: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٥٤]، وقال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾[التوبة: ٧٩]، جعل اسم مجازتهم مكراً كما مكروا، وجعل اسم مجازتهم على سخريتهم سخرياً فكذلك: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: في الجهاد في سبيل الله، وكل ما أمر الله به من الخير فهو من سبيل الله، أي: من الطريق إلى الله -عز وجل- لأن السبيل في اللغة الطريق، وإنما استعمل في الجهاد أكثر لأنه السبيل الذي يقاتل فيه على عقد الدين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؛ أصل ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ «بِأَيِديكم» بكسر الياء، ولكن الكسرة لا تثبت في الياء إذا كان ما قبلها مكسوراً لثقل الكسرة في الياء.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ معناه: إلى الهلاك، يقال: «هلك الرجل يهلك

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٢٠٢)، وتفسير ابن كثير (١/٣٠٩)، وفتح القدير (١/٢٩٥)، وتفسير البغوي (١/٢١٥)، وتفسير البيضاوي (١/٤٧٨)، وتفسير أبي السعود (١/٢٠٤)، والدر المنثور (١/٤٩٦)، وروح المعاني (٢/٧٧)، وتفسير الثعالبي (١/١٥٠)، والكشاف (١/١١٧).

(١) هو: عمرو بن كلثوم.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/٢٥٣)، وتفسير أبي السعود (٦/٢٢٨)، وروح المعاني (٤/٢٣٨)، وزاد المسير (١/٣٦)، وتفسير الثعالبي (١/٥٢٤)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/٢٥٦)، والمزهر في علوم اللغة (١/٢٧٠)، وخزانة الأدب (١/٦٤)، ولسان العرب (٣/١٧٥).

هَلاكاً وهُلْكاً وتَهْلُكة وتَهْلِكة))، وتَهْلُكة: اسم.

ومعناه: إن لم تنفقوا في سبيل الله هلكتم، أي: عصيتم الله فهلكتم، وجائز أن يكون هلكتم بتقوية عدوكم عليكم والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: أنفقوا في سبيل الله، فمن أنفق في سبيل الله فمحسن.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

يجوز في ((العمرة)) النصب والرفع؛ والمعنى في النصب: أتموها، والمعنى في الرفع: وأتموا الحج والعمرة لله أي: هي مما تتقربون به إلى الله -عز وجل- وليس بفرض.

وقيل أيضاً في قوله -عز وجل-: ﴿وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ غير قول:

يروى عن علي وابن مسعود ((رحمة الله عليهما)) أنهما قالا: ((إتمامها أن تحرم من دويرة أهلك)).

ويروى عن غيرهما أنه قال: ((إتمامها أن تكون النفقة حلالاً، وينتهي عما نهى الله عنه))(١).

وقال بعضهم: إن الحج والعمرة لهما مواقف ومشاعر كالطواف والوقف بعرفة وغير ذلك فإتمامها تأدية كل ما فيهما وهذا بين.

ومعنى ((اعتمر)) في اللغة قيل: فيه قولان؛ قال بعضهم: ((اعتمر)): قصد، قال

(١) قال ابن الجوزي مفصلاً هذه الأقوال: في ((إتمامها)) أربعة أقوال:

أحدهما: أن معنى إتمامها أن يفصل بينهما فيأتي بالعمرة في غير أشهر الحج. قاله عمر بن الخطاب والحسن وعطاء.

والثاني: أن يحرم الرجل من دويرة أهله. قاله علي بن أبي طالب وطاوس وابن جبير.

والثالث: أنه إذا شرع في أحدهما لم يفسخه حتى يتم قاله ابن عباس.

والرابع: أنه فعل ما أمر الله فيهما قاله مجاهد.

انظر: زاد المسير (١/٢٠٤)، وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٢١٢)، وتفسير ابن كثير (١/٣١٢)، وتفسير القرطبي (٢/٣٦٣)، وفتح القدير (١/٢٩٩)، وتفسير البغوي (١/٢١٧)، وتفسير البيضاوي (١/٤٧٩)، وتفسير أبي السعود (١/٢٠٥)، والدر المنثور (١/٥٠١)، وروح المعاني (٢/٧٨)، وتفسير الثعالبي (١/١٥٢)، والكشاف (١/١١٨)، وتفسير الثوري (١/٦٠)، وتفسير الصنعاني (١/٧٤)، وتفسير مجاهد (١/٩٩)، ومعاني القرآن (١/١١٢)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٤٨٦)، ولباب النقول (١/١٣٧).

الشاعر[(١)] [من الرجز]:

لَقَد سَما اِبنُ مَعمَرٍ حينَ اِعتَمَر   مَغزىً بَعيداً مِن بَعيدٍ وَضَبَر[(٢)]

المعنى: حين قصد مغزى بعيداً، وقال بعضهم: معنى «اعتمر» زار من الزيارة.

ومعنى «العمرة» في العمل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة فقط، والعمرة للإنسان في كل السنة، والحج وقته وقت واحد من السنة.

ومعنى «اعتمر» عندي في قصد البيت، أنه إنما خص بهذا -أعني بذكر أعتمر-، لأنه قصد العمل في وضع عامر لهذا قيل: معتمر.

وقوله -عز وجل-:﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

الرواية عند أهل اللغة أنه يقال للرجل الذي يمنعه الخوف أو المرض من التصرف: قد أحصر، فهو محصر، ويقال: للرجل الذي حبس قد حصر فهو محصور.

وقال الفراء: لو قيل للذي حبس أُحْصر لجاز، كأنه يجعل حابسه بمنزلة المرض والخوف الذي منعه من التصرف، والحق في هذا ما عليه أهل اللغة من أنه يقال للذي يمنعه الخوف والمرض: «أُحصر» وللمحبوس: «حُصِر»، وإنما كان ذلك هو الحق لأن الرجل إذا امتنع من التصرف فقد حبس نفسه، فكأن المرض أحبسه أي: جعله يحبس نفسه، وقوله: «حَصَرت فلاناً» إنما هو حبسته، لا أنه حَبَس نفسه، ولا يجوز فيه أُحصر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

موضع «ما» رفع؛ المعنى: فواجب عليه ما استيسر من الهدي.

وقد قيل في ﴿الهَدْيِ﴾: «الهديُّ»، والهديُّ جمع: هدية وهَدْي، كقولهم في حَذْية السرج: حَذِيَّة وحَذْيُّ.

وقال بعضهم: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ ما تيسر من الإبل والبقر، وقال بعضهم: بعير أو بقرة أو شاة وهذا هو الأجود.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

قالوا في ﴿مَحِلَّهُ﴾ من كان حاجاً محله يوم النحر، ولمن كان معتمراً يوم يدخل مكة.

---

(١) هو: العجاج.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٦/٢)، وتفسير القرطبي (١٧٣/٢)، والتبيان تفسير غريب القرآن (١١٥/١)، ولسان العرب (٤٧٩/٤)، وتاج العروس (٣٠٨٦/١).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾؛ أي: فعليه فدية، وإنما عليه الفدية إذا حلق رأسه وحل من إحرامه، وقوله أو نسك أي: نسيكة يذبحها والنسيكة: الذبيحة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾.

أي: فعليه ما استيسر من الهدي، وموضع «ما» رفع، ويجوز أن يكون نصباً على إضمار: فليهد ما استيسر من الهدي.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾.

معناه: فعليه صيام، والنصب جائز على: فليصم هذا الصيام، ولكن القراءة لا تجوز بما لم يقرأ به.

وقوله -عز وجل-: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾؛ قيل فيها غير قول؛ قال بعضهم: ﴿كَامِلَةٌ﴾ أي: تكمل الثواب، وقال بعضهم: ﴿كَامِلَةٌ﴾ في البدل من الهدي.

والذي في هذا -والله أعلم- أنه لما قيل: ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، جاز أن يتوهم المتوهم أن الفرض ثلاثة أيام في الحج أو سبعة إلى الرجوع، فأعلم الله -عز وجل- أن العشرة مفترضة كلها؛ فالمعنى: المفروض عليكم صوم عشرة كاملة على ما ذكر من تفرقها في الحج والرجوع.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾؛ أي: هذا الفرض على من لم يكن من أهله بمكة.

و﴿حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ أصله: حاضرين المسجد، فسقطت النون للإضافة، وسقطت الياء في الوصل لسكونها وسكون اللام في المسجد، وأما الوقف فتقول فيه متى اضطررت إلى أن تقف ﴿حَاضِرِي﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾.

قال أكثر الناس: إن أشهر الحج: «شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة»، ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ﴾، وقال بعضهم: لو كانت الشهور التي هي أشهر الحج شوالاً وذا القعدة للذي منزله بينه وبين مكة مسافة أكثر من هذه الأشهر أن يفرض على نفسه الحج، وهذا حقيقته عندي أنه لا ينبغي للإنسان أن يبتدئ بعمل من أعمال الحج قبل هذا الوقت نحو الإحرام، لأنه إذا ابتدأ قبل هذا الوقت أضر بنفسه، فأمر الله -عز وجل- أن

يكون أقصى الأوقات التي ينبغي للإنسان ألا يتقدمها في عقد فرض الحج على نفسه شوالاً.

وقال بعض أهل اللغة: معنى الحج إنما هو في السنة في وقت بعينه، وإنما هو في الأيام التي يأخذ الإنسان فيها في عمل الحج، لأن العمرة له في طول السنة فينبغي له في ذلك الوقت ألا يرفث ولا يفسق.

تأويل: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ﴾ لا جماع ولا كلمة من أسباب الجماع، قال الراجز[1] [من الرجز]:

* عَنِ اللَغا وَرَفَثِ التَكَلُّمِ[2]*

«والرفث»: كلمة جامعة لما يريده الرجل من أهله.

وأما ﴿وَلاَ فُسُوقَ﴾ فإذا نُهي عن الجماع كله فالفسوق داخل فيه، ولكن المعنى -والله أعلم-: ﴿وَلاَ فُسُوقَ﴾ أي: لا يخرج عن شيء من أمر الحج.

وقالوا في قوله ﴿وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾ قولين: قالوا ﴿وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾ لا شك فى الحج، وقالوا: لا ينبغي للرجل أن يجادل أخاة فيخرجه الجدال إلى ما لا ينبغي تعظيماً لأمر الحج، وكلّ صواب.

ويجوز: «فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالٌ في الحج»، وبعضهم يقرأ وهو أبو عمرو: «فلا رفثٌ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج» وكلّ صواب، وقد شرحنا أن لا تنصب النكرات بغير تنوين، وبينا حقيقة نصبها، وزعم سيبويه والخليل أنه يجوز أن ترفع النكرات بتنوين وأن قول العجاج [من الرجز]:

تاللهِ لَولا أَن تَحُشَّ الطُبَّخُ بِيَ الجَحيمَ حينَ لا مُستَصرَخُ[3]

يجب أن يكون رفع مستصرخ بـ«لا»، وأن قوله[4] [من مجزوء الكامل]:

---

(١) هو: العجاج.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/١٦٧)، وتفسير القرطبي (٢/٣٠٩)، وفتح القدير (١/٣٠٦)، وروح المعاني (٤/١٨)، ومفردات القرآن (١/١٣٠٦)، والخصائص (١/٣٣)، وأدب الكاتب (١/٤٢٣)، والمزهر في علوم اللغة (١/١٢)، وصلاح المنطق (١/٩٤)، ولسان العرب (٢/١٥٣)، وتاج العروس (١/١٢٦٢)، وإصلاح المنطق (ص: ٩٤).

(٣) انظر: اللباب علل البناء والإعراب (١/١٧٩)، ولسان العرب (٦/٢٨٣)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٤٨٢).

(٤) هو: سعد بن مالك البكري.

مَن صَدَّ عَن نيرانِها فَأَنا ابنُ قَيسٍ لا بَراحُ(١)

وحقيقة ما ارتفع بعدها عند بعض أصحابه على الابتداء، لأنه إذا لم تنصب فإنما يجري ما بعدها كما يجري ما بعد «هل» أي: لا تعمل فيه شيئاً، فيجوز: «أم يكون لا رفث» على ما قال سيبويه ويجوز: «أم يكون» على الابتداء كما وصفنا، ويكون ﴿فِي الحَجِّ﴾ هو خبر لهذه المرفوعات، ويجوز إذا نصبت ما قبل المرفوع بغير تنوين، وأتيت بما بعده مرفوعاً أن يكون عطفاً على الموضع، ويجوز أن يكون رفعه على ما وصفنا، فأما العطف على الموضع إذا قلت: «لا رجل وغلام في الدار» فكأنك قلت: «ما رجل ولا غلام في الدار».

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

يروى أن قوماً كانوا يخرجون في حجهم يتأكلون الناس، يخرجون بغير زاد فأمروا بأن يتزودوا، وأُعلموا مع ذلك أن خير ما تزود به تقوى الله -عز وجل-(٢).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.

﴿الأَلْبَابِ﴾ واحدها لب وهي العقول ﴿أُوْلِي﴾ نصب لأنه نداء مضاف.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

قيل: إنهم كانوا يزعمون أنه ليس لحمال ولا أجير ولا تاجر حج، فأعلمهم الله -عز وجل- أن ذلك مباح وأنه لا جناح فيه، أي: لا إثم فيه و﴿جُنَاحٌ﴾ اسم ﴿لَيْسَ﴾ والخبر

---

(١) هو من شواهد سيبويه. انظر الكلام عليه في: خزانة الأدب (الشاهد: ٨١).

وانظره في: أوضح المسالك (١/٢٨٥)، والأصول في النحو (١/٩٦)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/٣٦٧)، واللباب علل البناء والإعراب (١/١٧٨)، ومغني اللبيب (ص: ٣١٥)، وجمهرة خطب العرب (٢/٣٦٨)، وديوان الحماسة (١/١٩٣)، ولسان العرب (٢/٤٠٨)، والقاموس المحيط (١/١٧٤٢)، وتاج العروس (١/١٥٥٠).

(٢) هو مروي عن ابن عباس. انظر: العجاب في بيان الأسباب (١/٤٩٦)، ولباب النقول (١/١٣٧).

وأيضاً روي عن قتادة. انظر: تفسير الصنعاني (١/٧٧).

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٢٨٢)، وتفسير ابن كثير (١/٣١٩)، وتفسير القرطبي (٢/٤٠١)، وفتح القدير (١/٣٠٨)، وتفسير البغوي (١/٢٢٥)، وتفسير البيضاوي (١/٤٨٢)، وتفسير أبي السعود (١/٢٠٧)، والدر المنثور (١/٥٢٤)، وروح المعاني (٢/٨٦)، والكشاف (١/١٢٠)، وتفسير الثوري (١/٦٤).

﴿عَلَيْكُمْ﴾ وموضع أن نصب على تقدير: ليس عليكم جناح في أن تبتغوا فلما أسقطت «في» عمل فيها معنى جناح؛ المعنى: لستم تأثمون أن تبتغوا، أي: في أن تبتغوا[1].

وقوله -عز وجل-:﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ قد دل بهذا اللفظ أن الوقوف بها واجب، لأن الإفاضة لا تكون إلا بعد وقوف، ومعنى ﴿أَفَضْتُمْ﴾ دفعتم بكثرة ويقال أفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه وأكثروا التصرف، وأفاض الرجل إناءه إذا صبه، وأفاض البعير بجرته إذا رمى بها متفرقة كثيرة قال الراعي [من الكامل]:

وَأَفَضنَ بَعدَ كُظومِهِنَّ بِجِرَّةٍ ... مِن ذي الأَبارِقِ إِذ رَعَينَ حَقيلا[2]

وأفاض الرجل بالقداح إذا ضرب بها، لأنها تقع منبعثة متفرقة قال أبو ذؤيب[3] [من الكامل]:

وَكَأَنَّهُنَّ رِبابَةٌ وَكَأَنَّهُ ... يَسَرٌ يُفيضُ عَلى القِداحِ وَيَصدَعُ[4]

وكل ما في اللغة من باب الإفاضة فليس يكون إلا من تفرقة أو كثرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾؛ القراءة والوجه الكسر والتنوين، وعرفات: اسم لمكان واحد، ولفظه لفظ الجمع والوجه فيه الصرف عند جميع النحويين، لأنه بمنزلة الزيدين يستوي نصبه وجره وليس بمنزلة هذا التأنيث وقد يجوز منعه من الصرف إذا كان اسماً لواحد، إلا أنه لا يكون إلا مكسوراً وإن أسقطت التنوين، قال امرؤ القيس [من الطويل]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٢٩٣)، وتفسير ابن كثير (١/٣٢٤)، وتفسير القرطبي (١/١١٦)، وفتح القدير (١/٣٠٨)، وتفسير البغوي (١/٢٢٨)، وتفسير البيضاوي (١/٤٨٣)، وتفسير أبي السعود (١/٢٠٨)، والدر المنثور (١/٥٣٤)، وروح المعاني (٢/٨٩)، والكشاف (١/١٢١)، وتفسير الصنعاني (١/٧٨)، وتفسير مجاهد (١/١٠٣)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٤٩٩)، ولباب النقول (١/١٣٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٦/١٥٨)، ولسان العرب (٧/٢١٠)، وتاج العروس (١/٤٧٠٣).

(٣) هو: خويلد بن خالد بن محرث، وأبو ذؤيب، ومن بني هذيل بن مدركة، ومن مضر: شاعر فحل، ومخضرم، وأدرك الجاهلية والإسلام. وسكن المدينة. واشترك في الغزو والفتوح. وعاش إلى أيام عثمان فخرج في جند عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى إفريقية سنة ٢٦ هـ غازياً، فشهد فتح إفريقية وعاد مع عبد الله بن الزبير وجماعة يحملون بشرى الفتح إلى عثمان رضي الله عنه، فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها. وقيل مات بإفريقية (نحو ٢٧ = نحو ٦٤٨ م).

انظر ترجمته في: الأغاني (٦/٥٦)، ومعاهد التنصيص (٢/١٦٥)، والأعلام (أبو ذؤيب الهذلي).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٧/٥٤٧)، وتفسير القرطبي (٣/٥٠)، ولسان العرب (١/٤٠٣)، وتاج العروس (١/٥٠٨)، وتاج العروس (١/٥٠٨).

تَنَوَّرتُها مِن أَذرُعاتٍ وَأَهلُها بِيَثرِبَ أَدنى دارَها نَظَرٌ عالِ[(١)]

فهذا أكثر الرواية وقد أنشد بالكسر بغير تنوين[(٢)]، وأما الفتح فخطأ لأن نصب الجمع وفتحه كسر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

هو مزدلفة وهي جمع يسمى بهما جميعاً المشعر المتعبد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾.

موضع الكاف نصب؛ والمعنى: واذكروه ذكراً مثل هدايته إياكم، أي: يكون جزاء لهدايته إياكم بتوحيده والثناء عليه والشكر.

وقوله -عز وجل- ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾.

معنى ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل هدايته، ومعنى ﴿كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ هذا من التوكيد للأمر كأنه قيل: وما كنتم من قبله إلا ضالين.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾.

قيل: كانت الحمس من قريش وغيرها -وقد بينا الحمس فيما تقدم- لا تفيض مع الناس في عرفة، تتمسك بسنتها في الجاهلية، وتفعل ذلك افتخاراً على الناس وتعالياً عليهم فأمرهم الله -عز وجل- أن يساووا في الفرض، وأن يقفوا مواقفهم، وأن يفيضوا من حيث أفاضوا [(٣)].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: سلوه أن يغفر لكم من مخالفتكم الناس في الإفاضة والمواقف.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٢٩٣)، وتفسير القرطبي (٢/٤٠٩)، وفتح القدير (١/٣٠٨)، وأوضح المسالك (١/٦٩)، والأصول في النحو (٢/١٠٦)، وسر صناعة الإعراب (٢/٤٩٧)، وشرح ابن عقيل (١/٧٦)، وخزانة الأدب (٢/١٣)، ولسان العرب (٨/٩٣)، وتاج العروس (١/٥٢١٩).

(٢) هو من شواهد سيبويه. انظر الكلام عليه في: خزانة الأدب (الشاهد: ٣).

(٣) انظر في سبب نزولها كما أشار المصنف: تفسير الطبري (٢/٣٠٣)، وتفسير القرطبي (٢/٤٢٣)، وفتح القدير (١/٣٠٨)، وتفسير البغوي (١/٢٣٠)، والدر المنثور (١/٥٣٧)، وتفسير البيضاوي (١/٤٨٧)، وروح المعاني (٢/٨٩)، وزاد المسير (١/٢١٢)، وتفسير الثعالبي (١/١٥٧)، والكشاف (١/١٢١)، ومعاني القرآن (١/١٣٨)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٥٠٥)، ولباب النقول (١/١٣٧).

أي: متعبداتكم التي أمرتم بها في الحج، ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾، وكانت العرب إذا قضت مناسكها وقفت بين المسجد بمنى وبين الجبل فتعدد فضائل آبائها، وتذكر محاسن أيامها، فأمرهم الله أن يجعلوا ذلك الذكر له، وأن يزيدوا على ذلك الذكر فيذكروا الله بتوحيده وتعديد نعمه لأنه إن كانت لآبائهم نعم فهي من الله -عز وجل- وهو المشكور عليها.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾.

﴿أَشَدَّ﴾ في موضع خفض، ولكنه لا يتصرف لأنه على مثال «أفعل» وهو صفته، وإن شئت كان نصباً على: وأذكروه أشد ذكراً، و﴿ذِكْراً﴾ منصوب على التميز.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾.

﴿آتِنَا﴾ وقف لأنه دعاء، ومعناه: أعطنا في الدنيا، وهؤلاء مشركو العرب كانوا يسألون التوسعة عليهم في الدنيا ولا يسألون حظاً من الآخرة، لأنهم كانوا غير مؤمنين بالآخرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾؛ يعني: هؤلاء، والخلاق: النصيب الوافر من الخير.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

هؤلاء المؤمنون يسألون الحظ في الدنيا والآخرة، والأصل في «قنا» أَوْقِينَا ، ولكن الواو سقطت كما سقطت من «يقي»، لأن الأصل «يوقي» فسقطت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة، وسقطت ألف الوصل للاستغناء عنها لأنها اجتلبت لسكون الواو، فإذا أسقطت الواو فلا حاجة بالمتكلم إليها، وسقطت الياء للوقف وللجزم في قول الكوفيين، والمعنى: أجعلنا موقين من عذاب النار.

وقوله -عز وجل-: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾؛ أي: دعاؤهم مستجاب، لأن كسبهم ههنا الذي ذكر هو الدعاء، وقد ضمن الله الإجابة لدعاء من دعا إذا كان مؤمناً، لأنه قد أعلمنا أنه يضل أعمال الكافرين ويحبطها ودعاؤهم من أعمالهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾؛ المعنى: أنه قد علم ما للمحاسب وما عليه قبل توقيفه على حسابه، فالفائدة في الحساب علم حقيقته.

وقد قيل في بعض التفسير: إن حساب العبد أسرع من لمح البصر -والله أعلم[(١)].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾؛ قالوا: هي أيام التشريق ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ يستعمل كثيراً في اللغة للشيء القليل، وكل عدد قل أو كثر فهو معدود، ولكن معدودات أدل على القلة، لأن كل قليل يجمع بالألف والتاء نحو: «دريهمات وجماعات» وقد يجوز وهو حسن كثير أن تقع الألف والتاء للكثير، وقد ذكر أنه عيب على القائل[(٢)] [من الطويل]:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُّحى وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَمَا[(٣)]

فقيل له: لم قللت: «الجفنات» ولم تقل: «الجفان»، وهذا الخبر -عندي- مصنوع، لأن الألف والتاء قد تأتي للكثرة، قال الله -عز وجل-:﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[الأحزاب: ٣٥]، وقال: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾[(٤)]، وقال ﴿فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ: ٣٧] فالمسلمون ليسوا في جنات قليلة، ولكن إذا خص القليل في الجمع بالألف والتاء فالألف والتاء أدل عليه لأنه يلي التثنية تقول: «حمام وحمامان وحمامات» فتؤدى بتاء الواحد فهذا أدل على القليل، وجائز حسن أن يراد به الكثير ويدل المعنى المشاهد على الإرادة، كما أن قولك: «جمع» يدل على القليل والكثير.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾؛ أي: من نفر في يومين، ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾؛ قيل: لمن اتقى قتل الصيد، وقالوا: لمن اتقى التفريط في كل حدود الحج، فموسع عليه في التعجل في نفره.

---

(١) قالوا ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[القمر: ٥٠]، وقال القرطبي في تفسير القرطبي (١٧/١٣٠)، وانظر: أيضاً: تفسير البغوي (١/٢٣٣)، والوجيز للواحدي (١/٦١٤)، وزاد المسير (٨/١٠٢)، وتذكرة الأريب تفسير الغريب (١/١٩٣).

(٢) هو: حسان بن ثابت.

(٣) هو من شواهد سيبويه. انظر الكلام عليه في: خزانة الأدب للبغدادي (الشاهد: ٥٩٤).

وانظره في: أسرار العربية (١/٣٠٩)، والأغاني (٨/٣٣٧)، والمثل السائر (٢/٣٠٨)، وصبح الأعشى (٢/٢١١)، وخزانة الأدب للحموي (٢/٧)، وتاج العروس (١/٧٩٩٤).

(٤) ورد هذا الجمع في آيات كثيرة: [التوبة: ٧٢]، و[يونس: ٩]، و[الحجر: ٤٥]، و[الحج: ٥٦]، و[الشعراء: ١٤٧]، و[الصافات: ٤٣]، و[الدخان: ٥٢]، و[الذاريات: ١٥]، و[الطور: ١٧]، و[القمر: ٥٤]، و[الواقعة: ١٢]، و[الصف: ١٢]، و[المعارج: ٣٥]، و[المدثر: ٤٠].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

موضع ﴿مَن﴾ رفع على ضربين: على الابتداء وبالعامل في ﴿مَن﴾ وقد شرحنا هذا الباب، ويروى أن رجلاً من ثقيف كان يعجب النبي ﷺ كلامه ويظهر له من الجميل خلاف ما في نفسه[1].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾.

وإن قلت: ((وَيَشْهَدُ اللهُ على ما في قلبه)) فهو جائز إن كان قرئ به؛ والمعنى: فيه أن الله عالم بما يسره، فأعلم الله -عز وجل- النبي ﷺ حقيقة أمر هذا المنافق، وقال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ﴾؛ ومعنى: ((خصم ألد)) في اللغة: الشديد الخصومة والجدل، واشتقاقه من لُدَيْدَي العنق، وهما صفحتا العنق، وتأويله: أن خصمه في أي وجه أخذ من يمين أو شمال، من أبواب الخصومة غلبه في ذلك، يقال: ((رجل أَلَد وامرأة لَدَّاء وقوم لُدْ، وقد لَدَدْتُ فلاناً أَلُدُّه)) إذا جادلته فغلبته.

وخصام جمع ((خَصْم)) لأن ((فِعْلاً)) يجمع إذا كان صفة على ((فِعَال)) نحو: ((صعب وصعاب وخدل وخدال)) وكذلك إن جعلت ((خِصْمَا)) صفه فهو يجمع على أقل العدد وأكثره على: ((فُعُول وفِعَال)) جميعاً يقال: ((خَصْم وخِصَام وخُصُوم))، وإن كان اسماً فـ((فِعَال)) فيه أكثر العدد نحو: ((فُرْخٌ وأَفْراخٌ)) لأقل العدد، ((وفِرَاخ وفُرُوخ)) لما جاوز العشرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾.

---

(١) هذا وجه من الوجوه التي قيلت في سبب نزولها، وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢١٨) اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في الأخنس بن شريق كان لين الكلام كافر القلب يظهر للنبي ﷺ الحسن ويحلف له أنه يحبه ويتبعه على دينه وهو يضمر غير ذلك هذا قول ابن عباس والسدي ومقاتل.

والثاني: أنها نزلت فيمن نافق فأظهر بلسانه ما ليس في قلبه وهذا قول الحسن وقتادة وابن زيد.

والثالث: أنها نزلت في سرية الرجيع.

وانظر في ذلك أيضاً: تفسير الطبري (٢/٣٢٤)، وتفسير ابن كثير (١/٣٣٢)، وتفسير القرطبي (٣/١٨)، وفتح القدير (١/٣١٩)، وتفسير البغوي (١/٢٣٥)، وتفسير البيضاوي (١/٤٩٠)، وتفسير أبي السعود (١/٢١٠)، والدر المنثور (١/٥٦٠)، وروح المعاني (٢/٩٤)، وتفسير الثعالبي (١/١٦٠)، والكشاف (١/١٢٤)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٥١٩)، ولباب النقول (١/١٣٧).

نصب ﴿لِيُفْسِدَ﴾ على إضمار ((أن))؛ المعنى: لأن يفسد فيها، وعطف ﴿وَيُهْلِكَ﴾ على ﴿لِيُفْسِدَ﴾، ويجوز أن يكون ﴿وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ على الاستئناف، أي: وهو يهلك الحرث والنسل أي: يعتقد ذلك.

وقالوا في ﴿الحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾: إن الحرث النساء والنسل الأولاد، وهذا غير منكر لأن المرأة تسمى حرثاً، قال الله -عز وجل-: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٣] وأصل هذا إنما هو في الزرع، وكل ما حرث فيشبه ما منه الولد بذلك.

وقالوا في ﴿الحَرْثَ﴾: هو ما تعرفه من الزرع، وكل ما حرث فيشبه ما منه الولد بذلك.

وقالوا في ﴿الحَرْثَ﴾ هو ما تعرفه من الزرع، لأنه إذا أفسد في الأرض أبطل بإفساده وإلقائه الفتنة أمر الزراعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ قال أهل اللغة: ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيع نفسه، ومعنى بيعه نفسه: بذلها في الجهاد في سبيل الله، قال الشاعر[1] في ((شريت)) بمعنى ((بعت)):

وَشَرَيتُ بُرداً لَيتَني مِن بَعدِ بُردٍ كُنتُ هامَه

وقال أهل التفسير : هذا رجل كان يقال له: ((صهيب بن سنان)) أراده المشركون مع نفر معه على ترك الإسلام، وقتلوا بعض النفر الذين كانوا معه، فقال لهم صهيب: أنا شيخ كبير إن كنت عليكم لم أضركم، وإن كنت معكم لم أنفعكم فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي، فقبلوا من ماله وأتى المدينة فلقيه أبو بكر الصديق ﷺ فقال له: ((ربح البيع يا

---

(١) هو: يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، وحليفٌ لقريش، ويقال: إنه كان عبداً للضحاك بن عبد عوف الهلالي فأنعم عليه، ويقال سمي أبوه مفرغاً لأنه كان خاطر على شر سقاء لبنٍ، فشربه حتى أتى عليه، ولما ولي سعيد بن عثمان بن عفان خراسان استصحبه، فلم يصحبه، وصحب عباد بن زياد بن أبي سفيان، فلم يحمده، وهو شاعر إسلاميّ من شعراء الدولة الأمويّة، وهو أبو عثمان يزيد ابن ربيعة بن مفرّغ بن ذي العشيرة بن الحارث، وينتهي نسبه إلى زيد بن يحصب الحميريّ. وفاته (٦٩هـ).
انظر ترجمته في: الأعلام (يزيد بن مفرغ الحميري).

صهيب)) فرد عليه: وأنت فربح بيعك يا أبا بكر، وتلا الآية عليه[1].

ونصب ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ على مفعول له؛ المعنى: يشريها لابتغاء مرضاة الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾.

﴿كَافَّةً﴾ بمعنى الجميع الإحاطة، فيجوز أن يكون معناه ادخلوا جميعاً، ويجوز أن يكون معناه: ادخلوا في السلم كله أي: في جميع شرائعه، ويقال: ((السَّلم والسِّلم)) جميعاً، ويعني به الإسلام والصلح، وفيه ثلاث لغات: يقال: السِّلْمُ والسَّلَمُ والسَّلْمُ، وقد قرىء به: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ﴾[النساء: ٩٤].

ومعنى ﴿كَافَّةً﴾ في اشتقاق اللغة: ما يكف الشيء من آخره، من ذلك: ((كفة القميص)) يقال لحاشية القميص: ((كفة))، وكل مستطيل فحرفه: ((كفه))، ويقال في كل مستدير: ((كفه))، وذلك نحو: ((كفة الميزان))، ويقال: إنما سميت كفة الثوب لأنها تمنعه أن ينتشر، وأصل الكف المنع، ومن هذا قيل لطرف اليد ((كف))، لأنها يكف بها عن سائر البدن، وهي الراحة مع الأصابع، ومن هذا قيل: ((رجل مكفوف)) أي: قد كف بصره من أن ينظر.

فمعنى الآية: ابلغوا في الإسلام إلى حيث تنتهي شرائعه، فكفوا من أن تعدوا شرائعه، أو ادخلوا كلكم حتى يكف عن عدد وأَحدٍ لم يدخل فيه.

وقيل في معنى الآية: أن قوماً من اليهود أسلموا فأقاموا على تحريم السبت وتحريم أكل لحوم الإبل، فأمرهم الله -عز وجل- أن يدخلوا في جميع شرائع الإسلام[2].

وقال بعض أهل اللغة: جائز أن يكون أمرهم وهم مؤمنون أن يدخلوا في الإيمان، أي: بأن يقيموا على الإيمان ويكونوا فيما يستقبلون عليه كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[النساء: ١٣٦]، وكلا القولين جائز لأن الله -عز وجل- قد أمر بالإقامة على الإسلام فقال: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: لا تقتفوا آثاره لأن ترككم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٣٢/٢)، وتفسير ابن كثير (٣٣٢/١)، وتفسير البغوي (٢٣٦/١)، وتفسير البيضاوي (٤٩١/١)، وتفسير أبي السعود (٢١١/١)، والدر المنثور (٥٧٦/١)، والكشاف (١٢٥/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٥٢٥/١).

(٢) انظر: معاني القرآن (١٥٤/١).

شيئاً من شرائع الإسلام اتباع الشيطان.

﴿خُطُوَاتِ﴾ جمع خطوة، وفيها ثلاث لغات: خُطُوات وخُطْوات وخَطَوات، وقد بينا العلة في هذا الجمع فيما سلف من الكتاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

يقال: «زَلَّ يَزِل زَلاً وزَلَلاً» جميعاً، ومَزلَّة وزَلَّ في الطين زَلِيْلاً.

ومعنى ﴿زَلَلْتُم﴾ تنحيتم عن القصد والشرائع.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ ومعنى ﴿عَزِيزٌ﴾: لا يعجزونه ولا يعجزه شيء، ومعنى ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: حكيم فيما فطركم عليه وفيما شرع لكم من دينه.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾.

قال أهل اللغة: معناه؛ يأتيهم الله بما وعدهم من العذاب والحساب كما قال: ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾[الحشر: ٢]، أي: آتاهم بخذلانه إياهم.

و﴿ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة، ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ تقرأ على وجهين بالضم والكسر فمن قرأ: ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ بالرفع فالمعنى: ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة، والرفع هو الوجه المختار عند أهل اللغة في القراءة، ومن قرأ: ﴿وَالْمَلائِكَةِ﴾ فالمعنى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام وظلل من الملائكة.

ومعنى ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: فرغ لهم ما كانوا يوعدون، ومعنى ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ و﴿تَرْجِعُ الأُمُورُ﴾ يقرؤون جميعاً، ترد؛ فإن قال قائل: أليست الأمور الآن وفي كل وقت راجعة إلى الله -عز وجل- ؟ فالمعنى في هذا الإعلام في أمر الحساب والثواب والعقاب أي: إليه تصيرون، فيعذب من يشاء ويرحم من يشاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ.

والمعنى له ولسائر المؤمنين وغيرهم؛ المعنى: أنهم أعطوا آيات بينات قد تقدم ذكرها وقد علموا صحة أمر النبي ﷺ وجحدوا وهم عالمون بحقيقته.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾؛ يعني به في هذا الموضع حجج الله الدالة على أمر نبيه ﷺ.

﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ أي: شديد التعذيب.

وقوله -عز وجل-: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ رفع على ما لم يسم فاعله

و﴿زُيِّنَ﴾ جاز فيه لفظ التذكير ولو كانت «زينت» لكان صواباً، «وزين» صواب حسن لأن تأنيث الحياة ليس بالحقيقي، لأن معنى الحياة ومعنى العيش واحد، وقد فصل أيضاً بين الفعل وبين الاسم المؤنث.

وقيل في قوله ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ قولان؛ قال بعضهم: زينها لهم إبليس لأن الله -عز وجل- قد زهد فيها، وأعلم أنها متاع الغرور.

وقال بعضهم: معناه أن الله -عز وجل- خلق فيها الأشياء المعجبة فنظر إليها الذين كفروا بأكثر من مقدارها.

ودليل قول هؤلاء قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[آل عمران: ١٤] وكل جائز.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

كان قوم من المشركين يسخرون من المسلمين، لأن حالهم في ذات اليد كانت قليلة[1]، فأعلم الله -عز وجل- بأن الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة، لأن المسلمين في عليين والفجار في الجحيم، قال الله -عز وجل- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾[المطففين: ٢٩].

ومعنى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: ليس يرزق المؤمن على قدر إيمانه، ولا يرزق الكافر على قدر كفره، فهذا معنى ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: ليس يحاسبه بالرزق في الدنيا على قدر العمل، ولكن الرزق في الآخرة على قدر العمل، وما يتفضل الله به -عز وجل-.

قوله -عز وجل-: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: على دين واحد.

والأمة في اللغة أشياء؛ فمنها: أن الأمة الدين، وهو هذا، والأمة: القامة، يقال: فلان

---

(١) اختار المصنف أن سبب السخرية الفقر، واختاره النحاس في معاني القرآن (١/١٥٨)، ويوجد أقوال أخرى، وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢٢٨): فيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنهم سخروا منهم للفقر. والثاني: لتصديقهم بالآخرة. والثالث: لاتباعهم للنبي ﷺ، وقيل: إنهم كانوا يوهمونهم أنكم على الحق سخرية منهم بهم.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٣٤٦)، وتفسير القرطبي (٣/٣٠)، وفتح القدير (١/٣٢٤)، وتفسير البغوي (١/٢٤٢)، وتفسير البيضاوي (١/٤٩٥)، وتفسير أبي السعود (١/٢١٣)، والدر المنثور (١/٥٨١)، وروح المعاني (٢/٠)، والكشاف (١/١٢٦).

حسن الأمة، أي: حسن القامة، قال الشاعر[1] [من المتقارب]:

فَإِنَّ مُعاوِيَةَ الأَكْرَميـ ـنَ عِظامُ القِبابِ طِوالُ الأُمَم[2]

أي: طوال القامات، والأمة: القرن من الناس، يقولون: قد مضت أمم، أي: قرون، والأمة: الرجل الذي لا نظير له، ومنه قوله -عز وجل- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً﴾[النحل: ١٢٠].

قال أبو عبيدة[3] معنى ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ كان إماماً.

والأمة في اللغة: النعمة والخير، قال عدي بن زيد:

ثُمَّ بَعْدَ الفَلاح والمُلك والأُمّـ ـةِ وارَتْهُـمُ هناك القُبورُ

أي: بعد النعمة والخير، وذكر أبو عمرو الشيباني أن العرب تقول للشيخ إذا كان باقي القوة: فلانٌ بأمة، ومعناه راجع إلى الخير والنعمة، لأن بقاء قوته من أعظم النعمة وأصل هذا كله من القصد، يقال: أممت الشيء إذا قصدته، فمعنى الأمة في الدين أن مقصدهم مقصد واحد، ومعنى الأمة في الرجل المنفرد الذي لا نظير له أن قصده منفرد من قصد سائر الناس.

ويروى: ((أن زيد بن عدي بن نفيل[4] يبعث يوم القيامة أمة واحدة)) وإنما ذلك لأنه

---

(١) هو: الأعشى.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢٥/٢)، ولسان العرب (٢٢/١٢).

(٣) هو مَعْمَر بن المُثَنَّى، التَّيْمِيّ بالولاء، والبصري، أبو عُبَيدة النحوي. من أئمة العلم بالأدب واللغة، وكان عالما بأيام العرب، وجامعا للعلم والأخبار، وحافظاً للرواية والأخبار، ومع ذلك فقد رماه ابن قتيبة وأبو حاتم بالخطأ في أوزان الشعر وإنشاد البيت الواحد مختلف العَرُوض، وكما أُخِذ عليه الخطأ في القرآن الكريم والغلط في الحديث. ولد سنة ١١٠ هـ = ٧٢٨ ووفاته بالبصرة سنة ٢٠٩ هـ = ٨٢٤ م.
روى عن هشام بن عروة وأبي عمرو بن العلاء، وكان أحد أوعية العلم.
له نحو مائتا مؤلَّف منها: ((نقائض جرير والفرزدق))، و((مجاز القرآن))، و((مآثر العرب))، و((المثالب))، و((فتوح أرمينية))، و((معاني القرآن))، و((طبقات الفرسان))، و((طبقات الشعراء))، وغير ذلك.
انظر ترجمته في: سير النبلاء (٤٤٥/٩، ترجمة: ٤٤٧)، وشذرات الذهب (٢٤/٢، ٢٥)، ومعجم الأدباء (٥٠٩/٥ ترجمة: ٥١٤)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢٥٢/١٣-٢٥٨ ترجمة:٧٢١٠)، ووَفَيَات الأعيان (٢٣٥/٥، ٢٣٤، ترجمة:٧٣١)، والتاريخ العربي ومصادره (٥٣٤/٢، ترجمة: ٥٤٤).

(٤) هو: ابن عم عمر بن الخطاب، ونصير المرأة في الجاهلية وأحد الحكماء، وكره عبادة الأوثان وكان لا يأكل مما ذبح لها، ورحل إلى الشام باحثاً عن الأديان، فلم تستمله اليهودية، ولا النصرانية فعاد إلى =

أسلم في الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ فمات موحداً، فهذا أمة في وقته لانفراده وبيت النابغة [من الطويل]:

حَلَفتُ فَلَم أَترُك لِنَفسِكَ ريبَةً وَهَل يَأثَمَن ذو أُمَّةٍ وَهوَ طائِعُ[1]

ويروى «ذو أمة، وذو إمة» ويحتمل ضربين من التفسير: «ذو أمة»: ذو دين، و«ذو أمة»: ذو نعمة أسديت إليه.

ومعنى «الأمة» القامة: سائر مقصد الجسد.

فليس يخرج شيء من هذا الباب عن معنى «أممت» أي: قصدت، ويقال: «إمامنا هذا حسن الإِمة» أي: يقوم بإمامته بنا في صلاته ويحسن ذلك.

وقالوا في معنى الآية غير قول[2]؛ قالوا: كان الناس فيما بين آدم ونوح عليهما السلام – كفاراً فبعث الله النبيين يبشرون من أطاع بالجنة وينذرون من عصي من النار، وقال قوم: معنى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كان كل من بعث إليه الأنبياء كفاراً ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ونصب ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ على الحال، فالمعنى: أن أمم الأنبياء

=

مكة يعبد الله على دين إبراهيم، وجاهر بعداء الأوثان فأخرجوه من مكة؛ فانصرف إلى حراء، ورآه النبي ﷺ قبل البعثة. توفي عام (١٧هـ = ٦٠٦م).

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٤٧/٢)، وتفسير القرطبي (١٦٦/٤)، وفتح القدير (٥٦٠/١)، والدر المنثور (٣٧٢/٧)، وروح المعاني (٢٠١/١٣)، وزاد المسير (٣٥٢/٤) معاني القرآن (٣٤٦/٦)، ومفردات القرآن (٥٥/١)، وإتفاق المباني وافتراق المعاني (٢٣٥/١)، والأغاني (٦/١١)، والإيضاح في علوم البلاغة (٣٤٢/١)، والمثل السائر (٣١٠/٢)، ولسان العرب (٢٢/١٢).

وقع في بعض المصادر مكان الشطرة الثانية قوله: «وَلَيسَ وَراءَ اللهِ لِلمَرءِ مَذهَبُ».

(٢) قال المفسرون: هاهنا ثلاثة أقوال:

أحدها: جميع بني آدم وهو قول الجمهور. والثاني: آدم وحده قاله مجاهد.

قال ابن الإنباري: وهذا الوجه جائز لأن العرب توقع الجمع على الواحد ومعنى الآية: كان آدم ذا دين واحد فاختلف ولده من بعده.

والثالث: آدم وأولاده كانوا على الحق فاختلفوا حين قتل قابيل وهابيل ذكره ابن الإنباري.

انظر: زاد المسير (٢٢٩/١)، وتفسير الطبري (٣٤٧/٢)، وتفسير ابن كثير (٣٣٧/١)، وتفسير القرطبي (٣٢/٣)، وفتح القدير (٣٢٥/١)، وتفسير البغوي (٢٤٣/١)، وتفسير البيضاوي (٤٩٦/١)، وتفسير أبي السعود (٢١٤/١)، والدر المنثور (٥٨٢/١)، وتفسير النسفي (١٠١/١)، وروح المعاني (٠/٢)، وتفسير الثعالبي (١٧٤/٢)، والكشاف (١٢٦/١).

الذين بعث إليهم الأنبياء كانوا كفاراً، كما كانت هذه الأمة قبل مبعث النبي ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: ليفصل بينهم بالحكمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: ما اختلف في أمر النبي ﷺ إلا الذين أعطوا علم حقيقته.

وقوله: ﴿البَيِّنَاتُ بَغْياً﴾، نصب ﴿بَغْياً﴾ على معنى مفعول له؛ المعنى: لم يوقعوا الاختلاف إلا للبغي لأنهم عالمون حقيقة مره في كتبهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ﴾ أي: للحق الذي اختلف فيه أهل الزيغ.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بعلمه، أي: من الحق الذي أمر به.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى طريق الدين الواضح، ومعنى ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: يدله على طريق الهدى إذا طلبه غير متعنت ولا باغ.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ معناه: بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾؛ معنى ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ﴾: أي: صفة الذين، أي: ولما يصبكم مثل الذي أصاب الذين خلوا من قبلكم و﴿خَلَوْا﴾: مضوا،

﴿مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾: ﴿البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾: القتل والفقر، و ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ معنى ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ خُوفوا وحُركوا بما يؤذي، وأصل الزلزلة في اللغة: من زل الشيء عن مكانه، فإذا قلت: «زلزلة» فتأويله: كررت زلزلته من مكانه، وكل ما فيه ترجيع كررت فيه فاء التفعيل تقول: «أقل فلان الشيء» إذا رفعه من مكانه، فإذا كرر رفعه ورده قيل: «قلقله» وكذا: «صل وصلصل وصر وصرصر» فعلى هذا قياس هذا الباب، فالمعنى أنه يكرر عليهم التحريك بالخوف.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾.

قرئت ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ بالنصب، و ﴿يَقُولُ﴾ بالرفع، وإذا نصبت بحتى فقلت: «سرت حتى أدخلها»، فزعم سيبويه والخليل وجميع أهل النحو الموثوق بعلمهم أن هذا

ينتصب على وجهين؛ فأحد الوجهين: أن يكون الدخول غاية السير، والسير والدخول قد نصبا جميعاً، فالمعنى: سرت إلى دخولها وقد مضى الدخول، فعلى هذا نصبت الآية.

المعنى: وزلزلوا إلى أن يقول الرسول، وكأنه حتى قول الرسول، ووجهها الآخر في النصب -أعني سرت حتى أدخلها-: أن يكون السير قد وقع، والدخول لم يقع ويكون المعنى: سرت كي أدخلها، وليس هذا وجه نصب الآية.

ورفع ما بعد «حتى» على وجهين؛ فأحد الوجهين هو وجه الرفع في الآية، والمعنى: سرت حتى أدخلها وقد مضى السير والدخول كأنه بمنزلة قولك: «سرت فأدخلها» بمنزلة: «سرت فدخلتها» وصارت «حتى» ههنا مما لا يعمل في الفعل شيئاً، لأنها تلي الجمل تقول: «سرت حتى أني داخل» وقول الشاعر[1] [من الطويل]:

فَيا عَجَبا حَتّى كُلَيبٌ تَسُبُّني وَكانَت كُلَيبٌ مَدرَجاً لِلمَشاتِمِ[2]

فعملها في الجمل في معناها لا في لفظها، والتأويل: سرت حتى دخولها، وعلى هذا وجه الآية، ويجوز أن يكون السير قد مضى والدخول واقع الآن، وقد انقطع السير تقول: سرت حتى أدخلها الآن ما أمنع فهذه جملة باب «حتى».

ومعنى الآية: أن الجهد قد بلغ بالأمم التي قبل هذه الأمة حتى استبطؤوا النصر فقال الله -عز وجل-: ﴿أَلاَ إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤]، فأعلم أولياءه أنه ناصرهم لا محالة، وأن ذلك قريب منهم كما قال: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغَالِبُونَ﴾[المائدة: ٥٦].

وقوله -عز وجل-: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾؛ قيل: إنهم كانوا سألوا على من ينبغي أن يفضلوا[3] فأعلم الله -عز وجل- أن أول من تفضل عليه الوالدان والأقربون، فقال:

---

(١) هو: الفرزدق.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣/٣٥)، وروح المعاني (١٨/٦٢)، والجمل في النحو (١/٢٠٦)، والأصول في النحو (١/٤٢٥)، والأغاني (٢١/٣٠٩).

(٣) قال المفسرون في ذلك قولان:

أحدهما: أنها نزلت في عمرو بن الجموح الأنصاري وكان له مال كثير فقال يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من ننفق فنزلت هذا الآية رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلاً قال للنبي ﷺ إن لي دينار فقال: «أنفقه على نفسك»، فقال: إن لي دينارين فقال: «أنفقها على أهلك»، فقال: إن لي ثلاثة فقال «أنفقها على خادمك»، فقال: إن لي أربعة، فقال: =

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي: من مال: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: يحصيه وإذا أحصاه جازى عليه كما قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧]، أي: يرى المجازاة عليه، لأن رؤية فعله الماضي لا فائدة فيه، ولا يرى لأنه قد مضى.

ومعنى «ماذا» في اللغة على ضربين؛ فأحدهما: أن يكون «ذا» في معنى «الذي»، ويكون ﴿يُنفِقُونَ﴾ من صلته؛ المعنى: يسألونك أي شيء الذي ينفقون، كأنه أي شيء وجه الذي ينفقون، لأنهم يعلمون ما المنفق ولكنهم أرادوا علم الله وجهه، ومثل جعلهم «ذا» في معنى الذي قول الشاعر[1] [من الطويل]:

عَدَسْ مَا لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ نَجَوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ[2]

والمعنى: والذي تحملينه طليق، فيكون «ما» رفعاً بالابتداء ويكون «ذا» خبرها، وجائز أن يكون «ما» مع «ذا» بمنزلة اسم واحد ويكون الموضع نصباً بـ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ المعنى: يسألونك أي شيء ينفقون، وهذا إجماع النحويين وكذلك الوجه الأول إجماع أيضاً، ومثل جعلهم «ذا» بمنزلة اسم واحد قول الشاعر:

دَعي ماذا علِمْتِ سَأَتَّقِيهِ ولكنْ بالمغيَّب نَبِّئيني[3]

=

«أنفقها على والديك»، فقال: إن لي خمسة، فقال: «أنفقها على قرابتك» فقال: إن لي ستة، فقال: «أنفقها في سبيل الله وهو أحسنها» فنزلت هذه الآية رواه عطاء عن ابن عباس.

انظر: زاد المسير (١/٢٣٣)، وتفسير الطبري (٢/٣٥٥)، ووتفسير ابن كثير (١/٣٤٤)، وتفسير القرطبي (٣/٣٧)، وفتح القدير (١/٣٢٩)، وتفسير البغوي (١/٢٤٤)، وتفسير البيضاوي (١/٤٩٩)، وتفسير أبي السعود (١/٢١٩)، والدر المنثور (١/٥٨٥)، وروح المعاني (١٦/٢٦٢)، وتفسير الثعالبي (١/١٦٥)، والكشاف (١/٥٧)، ومعاني القرآن (١/١٦٥)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٥٣٣)، ولباب النقول (١/١٣٧).

(١) وهو: يزيد بن مفرغ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/٤٠٥)، وتفسير القرطبي (١/٤٦٠)، والجمل في النحو (١/١٨٠)، وأوضح المسالك (٤/٩١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٧١٧)، واللباب علل البناء والإعراب (٢/١٢٠)، وأدب الكاتب (١/٣٢١)، والأغاني (١٨/٢٧٩)، ولسان العرب (٦/٤٦)، وتاج العروس (١/٤٠١٢).

(٣) هو من شواهد سيبويه (١/٤٠٥) لم يعرف قائله، وهو في الخزانة (٦/١٤٢) ولسان العرب (١٥/٤١٧)، وهمع الهوامع (١/٨٤)، ومغني اللبيب (١/٣٩٦)، والقاموس المحيط (١/١٧٤٣).

كأنه بمنزلة: دعي الذي علمت.

وجزم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ بالشرط، واسم الشرط «ما» والجواب ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وموضع «ما» نصب بقوله ﴿تَفْعَلُوا﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾.

معنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ فرض عليكم، والكره يقال فيه: كرهت الشيء كُرهاً وكَرهاً وكَرَاهة وكَرَاهِية، وكل ما في كتاب الله -عز وجل- من الكره فالفتح جائز فيه، تقول: الكُره والكَره، إلا أن هذا الحرف الذي في هذه الآية -ذكر أبو عبيدة- أن الناس مجمعون على ضمه، كذلك قراءة أهل الحجاز وأهل الكوفة جميعاً ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ فضموا هذا الحرف.

ارتفع ﴿كُرْهٌ﴾ لأنه خبر الابتداء، وتأويله: ذو كره، ومعنى كرهتم القتال: أنهم إنما كرهوه على جنس غلظه عليهم ومشتقته لا أن المؤمنين يكرهون فرض الله -عز وجل- لأن الله -عز وجل- لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والصلاح.

وقوله: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني به ههنا القتال، فمعنى الخير فيه: أن من قتل فهو شهيد، وهذا غاية الخير، وهو إن قتل مثاب أيضاً، وهادم أمر الكفر وهو مع ذلك يغنم، وجائز أن يستدعي دخول من يقاتله في الإسلام، لأن أمر قتال أهل الإسلام كله كان من الدلالات التي تثبت أمر النبوة والإسلام، لأن الله أخبر أنه ينصر دينه، ثم أبان النصر بأن العدد القليل يغلب العدد الكثير، فهذا ما في القتال من الخير الذي كانوا كرهوه.

ومعنى: ﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾؛ أي: عسى أن تحبوا القعود عن القتال فتحرموا ما وصف من الخير الذي في القتال.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾.

﴿قِتَالٍ﴾ مخفوض عن البدل من الشهر الحرام؛ المعنى: يسألونك عن قتال في الشهر الحرام، وقد فسرنا ما في هذه الآية فيما مضى من الكتاب.

ورفع ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، ﴿قِتَالٌ﴾ مرتفع بالابتداء و﴿كَبِيرٌ﴾ خبره، ورفع ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ﴾ على الابتداء وخبر هذه الأشياء ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللهِ﴾؛ والمعنى: وصد عن سبيل الله وكفر به وإخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله أي: أعظم إثماً.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾؛ أي: والكفر أكبر من القتل؛ المعنى: وهذه الأشياء كفر، والكفر أكبر من القتل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

﴿يَرْتَدِدْ﴾ جزم بالشرط والتضعيف يظهر مع الجزم لسكون الحرف الثاني وهو أكثر في اللغة، وقرئ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ﴾[المائدة: ٥٤] بالإدغام والفتح وهي قراءة الناس إلا أهل المدينة، فإن في مصحفهم: ﴿مَن يَرْتَدِدْ﴾ وكلاهما صواب، والذي في سورة البقرة لا يجوز فيه إلا: ﴿مَن يَرْتَدِدْ﴾ لأطباق أهل الأمصار على إظهار التضعيف، وكذلك هو في مصاحفهم والقراءة سنة لا تخالف إذا كان في كل المصحف الحرف على صورة لم تجز القراءة بغيره.

ويجوز أن تقول: «من يرتد منكم»[1] فتكسر لالتقاء الساكنين إلا أن تفتح أجود لانفتاح التاء وإطباق القراء عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ نصب بـ﴿إِنَّ﴾ ، و﴿أُوْلَئِكَ﴾ رفع بالابتداء و ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر ﴿أُوْلَئِكَ﴾ و﴿أُوْلَئِكَ﴾ و ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾، وإنما قيل في المؤمنين المجاهدين ههنا: إنهم إنما يرجون رحمة الله لأنهم عند أنفسهم غير بالغين ما يجب لله عليهم، ولا يعلمون ما يختمون به أمرهم.

وجملة ما أخبر الله به عن المؤمنين العاملين الصالحات أنهم يجازون بالجنة قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾[البينة: ٧، ٨].

وقوله -عز وجل-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

﴿الْخَمْرِ﴾ المجمع عليه وقياس كل ما عمل عملها أن يقال له: «خمر»، وأن يكون في التحريم بمنزلها، وتأويل «الخمر» في اللغة: أنه كل ما ستر العقل؛ يقال لكل ما ستر الإنسان من شجر وغيره «خمر»، وما ستره من شجر خاصة: «ضرى» مقصور، ويقال: دخل فلان في خِمَار أي: في الكثير الذي يستتر فيه، وخِمَار المرأة: قناعها، وإنما قيل: له

---

(١) يريد آية المائدة لا آية البقرة.

خمار لأنه يغطي، والْخُمرَة: التي يسجد عليها، إنما سميت بذلك: لأنها تستر الوجه عن الأرض، وقيل للعجين: قد اختمر، لأن فطرته قد غطاها الخمر أعني الاختمار، يقال: قد اختمر العجين وخَمَّرته وفَطَرْته وأَفْطَرْته، فهذا كله يدل على أن كل مسكر خمر، وكل مسكر مخالط العقل ومغط عليه وليس يقول أحد للشارب إلا: «مخمور» من كل سكر، و«به خُمَار» فهذا بين واضح.

وقد لبس على أبي الأسود الدؤلي فقيل له: إن هذا المسكر الذي سموه بغير الخمر حلال، فظن أن ذلك كما قيل له، ثم قاده طبعه إلى أن حكم بأنهما واحد فقال [من الطويل]:

دَعِ الخَمـرَ يَشـرَبها الغُـواةُ فـإنَّني رَأَيـتُ أَخاهـا مُجزِيـاً لِمَكانِهـا
فَـإِن لا يَكُنهـا أَو تَكُنـهُ فَإِنَّـهُ أَخٌ أَرضَـعَتهُ أُمُّهـا بِلِبانِهـا[١]

وقال أهل التفسير[٢] في قوله -عز وجل-: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وقرئت «كثير» قال قوم: زهد فيها في هذا الموضع وبين تحريمها في سورة المائدة في قوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾... إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩٠، ٩١]، ومعنى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ التخضيض على الانتهاء والتهديد على ترك الانتهاء.

وقال قوم: لا بل تحرم بما بيَّن ههنا مما دل عليه الكتاب في موضع آخر لأنه قال: ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وقد حرم الله الإثم نصاً فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وإنما بينا تحريم الخمر، وإن كان مجمعاً عليه ليعلم أن نص ذلك في الكتاب.

فأما الإثم الكبير الذي في الخمر فبيّن، لأنها توقع العداوة والبغضاء وتحول بين المرء وعقله الذي يميز به ويعرف ما يجب لخالقه.

والقمار يورث العداوة والبغضاء، فإن مال الإنسان يصير إلى غيره بغير جزاء يؤخذ عليه.

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٨٢٣)، ولسان العرب (١١/٢٣٣).

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢٤٠): قرأ الأكثرون ﴿كَبِيرٌ﴾ بالباء، وقرأ حمزة والكسائي بالثاء، وانظر أيضاً: تفسير القرطبي (٣/٥٠).

وأما المنافع للناس فيه: فاللذة في الخمر والربح في المتجر فيها، وكذلك المنفعة في القمار يصير الشيء إلى الإنسان بغير كد ولا تعب، فأعلم الله أن الإثم فيهما إثم أكبر من نفعهما.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ﴾.

النصب والرفع في ﴿العَفْوَ﴾ جميعاً من جعل ﴿مَاذَا﴾ اسماً واحداً رد العفو عليه، ومن جعل «ما» اسماً و«إذا» خبرها وهي في معنى: «الذي» رد العفو عليه فرفع، كأنه قال: ما الذي ينفقون ؟ فقال: العفو، ويجوز أن ينصب ﴿العَفْوَ﴾ وإن كان «ما» وحدها اسماً فتحمل العفو على ينفقون كأنه قيل: أنفقوا العفو، ويجوز أيضاً أن ترفع وإن جعلت ﴿مَاذَا﴾ بمنزلة شيء واحد على: «قل هو العفو».

والعفو في اللغة: الفضل والكثرة يقال: عفا القوم إذا كثروا، فأمروا أن ينفقوا الفضل إلى أن فرضت الزكاة فكان أهل المكاسب يأخذ أحدهم من كسبه ما يكفيه ويتصدق بباقيه ويأخذ أهل الذهب والفضة ما يكفيهم في عامهم وينفقون باقيه هذا[1].

قد روي في التفسير والذي عليه الإجماع: أن الزكاة في سائر الأشياء قد بينت ما يجب فيها.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾؛ أي: مثل هذا البيان في الخمر والميسر ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾: لأن خطاب النبي [ﷺ][2] مشتمل على خطاب أمته كما

---

(١) قال المفسرون في العفو أقوال:

أحدها: أنه ما يفضل عن حاجة المرء وعياله. رواه مقسم عن ابن عباس.

والثاني: ما تطيب به أنفسهم من قليل وكثير. رواه عطية عن ابن عباس.

والثالث: أنه القصد بين الإسراف والإقتار. قاله الحسن وعطاء وسعيد بن جبير.

والرابع: أنه الصدقة المفروضة. قاله مجاهد.

والخامس: أنه مالا يتبين عليهم مقداره من قولهم عفا الأثر إذا خفي ودرس.

انظر: زاد المسير (١/٢٤٢)، وتفسير الطبري (٢/٣٦٩)، وتفسير ابن كثير (١/٣٤٤)، وتفسير القرطبي (٣/٥٠)، وفتح القدير (١/٣٣٨)، وتفسير البغوي (١/٢٤٩)، وتفسير البيضاوي (١/٥٠٣)، وتفسير أبي السعود (١/٢١٩)، والدر المنثور (١/٦٠٧)، وروح المعاني (٢/١١٦)، وتفسير الثعالبي (١/١٦٩)، والكشاف (١/١٣٠).

(٢) من زيادتنا.

قال -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[الطلاق: ١]، ومثل هذا في القرآن كثير يحكي مخاطبة الإجماع بذلك، وذلكم أكثر في اللغة، وقد أتي في القرآن في غير «ذلك» للجماعة، قال الله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾[الأحزاب: ٣٠]، والأصل: «ذلكن»، إلا أن الجماعة في معنى القبيل.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

يجوز أن يكون ﴿تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ من صلة تتفكرون؛ المعنى: لعلكم تتفكرون في أمر الدنيا وأمر الآخرة، ويجوز أن يكون في الدنيا والآخرة من صلة: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾، أي: يبين لكم الآيات في أمر الدنيا وأمر الآخرة لعلكم تتفكرون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ هذا مما نحكم تفسيره فى سورة النساء -إن شاء الله- إلا أن جملته: أنهم كانوا يظلمون اليتامى، فيتزوجون العشر ويأكلون أموالهم مع أموالهم، فشدد عليهم في أمر اليتامى تشديداً خافوا معه التزويج بنساء اليتامى ومخالطتهم، فأعلمهم الله أن الإصلاح لهم هو خير الأشياء، وأن مخالطتهم في التزويج وغيره جائزة مع تحري الإصلاح، فقال: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم، فالرفع على هذا، والنصب جائز «وإن تخالطوهم فإخوانكم» أي: فإخوانكم تخالطون، ولا أعلم أحداً قرأ بها فلا تقرأن بها إلا أن تثبت رواية صحيحة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾؛ قال أبو عبيدة: معناه لأهلككم، وحقيقته: ولوشاء الله لكلفكم ما يشتد عليكم فتعنتون.

وأصل «العنت» في اللغة من قولهم: عَنَت البعير يَعْنت إذا حدث في رجله كسر بعد جبر لا يمكنه معه تصريفها، ويقال: «أكمة عَنُوت» إذا كان لا يمكن أن يجازيها إلا بمشقة عنيفة.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: يفعل بعزته ما يحب لا يدفعه عنه دافع، ﴿حكيم﴾ أي: ذو حكمة فيما أمركم به من أمر اليتامى وغيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾.

معنى ﴿وَلاَ تَنكِحُوا﴾ لا تتزوجوا المشركات ولو قرئت: «ولا تُنكِحوا المشركات» كان وجهاً ولا أعلم أحداً قرأ بها؛ والمعنى في هذا: ولا تتزوجوا المشركات حتى يؤمن، ومعنى ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ ههنا كل من كفر بالنبي ﷺ، واللغة تطلق على كل كافر أن يقال له مشرك.

وكان التحريم قد نزل في سائر الكفار في تزويج نسائهم من المسلمين، ثم أحل تزويج نساء أهل الكتاب من بينهم، فقال الله -عز وجل-: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة: ٥] فإن قال قائل: من أين يقال لمن كفر بالنبي ﷺ مشرك وإن قال إن الله -عز وجل- واحد ؟

فالجواب في ذلك: أنه إذا كفر بالنبي ﷺ فقد زعم أن ما أتى به من القرآن من عند غير الله -جل ثناؤه-، والقرآن إنما هو من عند الله -عز وجل- لأنه يعجز المخلوقين أن يأتوا بمثله، فقد زعم أنه قد أتى غير الله بما لا يأتي به إلا الله -عز وجل- فقد أشرك به غيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾.

أي: لا تزوجوهم مسلمة، وقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾؛ معناه: وإن أعجبكم إلا أن «لو» تأتي فتنوب عن «إن» في الفعل الماضي، ومعنى الكلام: أن الكافر شر من المؤمن لكم وإن أعجبكم، أي: أعجبكم أمره في باب الدنيا لأن الكافر والكافرة يدعوان ﴿إِلَى النَّارِ﴾ أي: يعملان بأعمال أهل النار، فكأن نَسْلَكُم يتربى مع من هذه حاله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾.

أي: يدعوكم إلى مخالطة المؤمنين لأن ذلك أوصل لكم إلى الجنة، ومعنى ﴿بِإِذْنِهِ﴾أي: بعلمه الذي أعلم أنه وصلة لكم إليها، ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ﴾ أي: علاماته، يقال: آية وآي وآيات أكثر وعليها أتى القرآن الكريم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ معنى «لعل» ههنا الترجي لهم، أي: ليكونوا هم راجين، والله أعلم أيتذكرون أم لا ؟ ولكنهم خوطبوا على قدر لفظهم واستعمالهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾.

يقال: حَاضَت المرأة تَحِيض حيضاً ومُحَاضاً ومَحِيضاً، وعند النحويين أن المصدر في هذا الباب «المفعل» و«المفعل» جيد بالغ فيه يقال: ما في برك «مكال» أي: كيل ويجوز ما فيه «مكيل» قال الشاعر -وهو الراعي- [من الكامل]:

بُنِيَت مَرافِقُهُنَّ فَوقَ مَزَلَّةٍ لا يَستَطيعُ بِها القُرادُ مَقيلا[١]

أي: قيلولة.

ومعنى الآية: أن العرب كانت تفعل في أمر الحائض ما كانت تفعل المجوس[٢]، فكانوا يجتنبون تكليفها عمل أي شيء وتجتنب في الجماع وسائر ما تكلفه النساء، يريدون أنها نجس فأعلم الله أن الذي ينبغي أن يجتنب منها بضع فقط، وأنها لا تنجس شيئاً، وأعلم أن المحيض أذى، أي: مستقذر، ونهى أن تقرب المرأة حتى تتطهر من حيضها بالماء، بعد أن تطهر من الدم، أي: تنقى منه فقال: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾؛ المعنى: يتطهرن، أي: يغتسلن بالماء ن بعد انقطاع الدم وقرئت: ﴿حَتَّى يَطَّهَّرْنَ﴾ ولكن ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ يدل على ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ وكلاهما ﴿يَطْهُرْنَ﴾ و ﴿يَطَّهَّرْنَ﴾ -وقرئ بهما- جيدان.

ويقال طهرت وطهرت جميعاً وطهرت أكثر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: من الجهات التي يحل فيها أن تقرب المرأة، ولا تقربوهن من حيث لا يجب أعني ولا تقربوهن صاحبات ولا عشيقات، وقد قيل في التفسير[٣]:﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ في الفروج، ولا يجوز أن يقربن

---

(١) مفردات القرآن (١/٣٧٤)، ولسان العرب (٦/٤٤)، وتاج العروس (١/٧١٣٥).

(٢) هكذا في كلام المصنف، وعند البيضاوي وأبو السعود: أنه من فعل اليهود والمجوس، وأكثر كلام أهل التفسير أنهم ذكروا اليهود، وقال المفسرون: روى ثابت عن أنس قال كانت اليهود إذا حاضت المرأة منهن لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسئل النبي ﷺ عن ذلك فنزلت هذه الآية، فأمرهم النبي ﷺ أن يؤاكلوهن ويشاربوهن ويكونوا معهن في البيوت وأن يفعلوا كل شيء ما عدا النكاح.

انظر: زاد المسير (١/٢٤٧)، وتفسير الطبري (٢/٣٩٢) عن قتادة، وتفسير ابن كثير (١/٣٤٨)، وتفسير القرطبي (٣/٧٨)، وفتح القدير (١/٣٤٥)، وتفسير البغوي (١/٢٥٦)، وتفسير البيضاوي (١/٥٠٨)، وتفسير أبي السعود (١/٢٢٢).

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢٤٩) فيه أربعة أقوال:

أحدها: أن معناه من قبل الطهر لا من قبل الحيض قاله ابن عباس وأبو رزين وقتادة والسدي في آخرين.

=

في الدبر، والذي يروى عن مالك ليس بصحيح، لأن إجماع المسلمين أن الوطء حيث يبتغي النسل، وأن أمر الدبر فاحشة، وقد جاء الحديث: ((أن محاش النساء حرام))[1] ويكنى به عن الدبر.

وقوله -عز وجل-: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾؛ زعم أبو عبيدة أنه كناية والقول عندي فيه أن معناه أن نساؤكم حرث لكم منهن تحرثون الولد واللذة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾؛ أي: كيف شئتم، أي: ائتوا موضع حرثكم كيف شئتم، وإنما قيل لهم: كيف شئتم لأن اليهود كانت تقول: إذا جامع الرجل المرأة من خلف خرج الولد أحول[2] ، فأعلم الله أن الجماع إذا كان في الفرج حلال على كل جهة.

=

والثاني: أن معناه فأتوهن من حيث أمركم الله أن لا تقربوهن فيه وهو محل الحيض قاله مجاهد، وقال من نصر هذا القول: إنما قال أمركم الله والمعنى نهاكم لأن النهي أمر بترك المنهي عنه و((من)) بمعنى في.

والثالث: فأتوهن من قبل التزويج الحلال لا من قبل الفجور قاله ابن الحنفية.

والرابع: أن معناه فأتوهن من الجهات التي يحل أن تقرب فيها المرأة ولا تقربوهن من حيث لا ينبغي مثل أن كن صائمات أو معتكفات أو محرمات وهذا قول الزجاج وابن كيسان.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٣٩٢)، وتفسير ابن كثير (١/٣٤٨)، وتفسير القرطبي (٣/٧٨)، وفتح القدير (١/٣٤٤)، وتفسير البغوي (١/٢٥٦)، وتفسير البيضاوي (١/٥٠٨)، وتفسير أبي السعود (١/٢٢٢)، والدر المنثور (١/٦١٩)، وروح المعاني (٢/١٢٣)، وتفسير الثعالبي (١/١٧٢)، والكشاف (١/١٣١).

(١) أخرجه الدارمي (١/٢٧٦، ورقم: ١١٣٧) عن عبد الله بن مسعود موقوفاً، ويرويه عنه أبو القعقاع الجرمي قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال يا أبا عبد الرحمن: آتي امرأتي حيث شئت ؟ قال: نعم؛ قال: ومن أين شئت ؟ قال: نعم، وقال: وكيف شئت ؟ قال: نعم، وفقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن إن هذا يريد السوء، وقال: لا ((محاش النساء عليكم حرام)).

ورواه أيضاً: سعيد بن منصور (٣/٨٦٣، ورقم:٣٧٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/١٩٩، ورقم: ١٣٩٠٧).

والمرفوع منه مروي عن عمران بن حصين، وأخرجه الحارث (١/٥٤٨، ورقم: ٤٩٣)، وأيضاً يروى عن جابر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٢٩٩): وعن جابر بن عبد الله ((أن النبي ﷺ نهى عن محاش النساء)) رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) روي عن جابر، ورواه البخاري (٤/١٦٤٥، ورقم: ٤٢٥٤)، ومسلم (٢/١٠٥٨، ورقم: ١٤٣٥).

=

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله فيما حد لكم من الجماع وأمر الحيض ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ﴾ أي: قدموا طاعته واتباع أمره، فمن اتبع ما أمر الله به فقد قدم لنفسه خيراً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾.

موضع «أن» نصب بمعنى عرضة؛ المعنى: لا تعرضوا باليمين بالله في أن تبروا -فلما سقطت «في» أفضى لمعنى الاعتراض فنصب «أن».

وقال غير واحد من النحويين: إن موضعها جائز أن يكون خفضاً وإن سقطت «في»، لأن «أن» الحذف معها مستعمل تقول: «جئت لأن تضرب زيداً وجئت أن تضرب زيداً» فحذفت اللام مع «أن»، ولو قلت: «جئت ضرب زيد» تريد لضرب زيد لم يجز، كما جاز مع «أن»، لأن «أن» إذا وصلت دل ما بعدها على الاستقبال.

والمعنى: كما تقول: «جئتك أن ضربت زيداً وجئتك أن تضرب زيداً» فلذلك جاز حذف اللام، وإذا قلت: «جئتك ضرب زيد» لم يدل الضرب على معنى الاستقبال، والنصب في «أن» في هذا الموضع هو الاختيار عند جميع النحويين.

ومعنى الآية: أنهم كانوا يعتلون في البر بأنهم حلفوا، فاعلم الله أن الإثم إنما هو في الإقامة على ترك البر والتقوى وأن اليمين إذا كفرت فالذنب فيها مغفور فقال -عز وجل- ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾؛ فقيل في معنى «اللغو» غير قول؛ قال بعضهم معناه: «لا والله» و«بلى والله» وقيل: إن معنى اللغو الإثم، فالمعنى: لا يؤاخذكم الله بالإثم في الحلف إذا كفرتم.

وإنما قيل له: «لغو» لأن الإثم يسقط فيه إذا وقعت الكفارة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ أي: بعزمكم على ألا تبروا وألا تتقوا وإن تعتلوا في ذلك بأنكم قد حلفتم، ويقال: لَغَوت أَلْغو لغواً، ولَغَوت أَلْغَى لَغْواً، مثل: مَحَوتُ أَمْحُو مَحْواً وَأَمْحَى، ويقال: لَغَيْتُ في الكلام أَلْغَى لَغىً إذا أتيت بلغو، وكل ما لا خير فيه مما يؤثم فيه، أو يكون غير محتاج إليه في الكلام فهو لغو ولَغيٍ،

=

وانظر في سبب نزول الآية: تفسير الطبري (٤٠٤/٢)، وتفسير ابن كثير (٣٤٨/١)، وتفسير القرطبي (٨٨/٣)، وفتح القدير (٣٤٥/١)، والدر المنثور (٦٢٧/١)، وروح المعاني (١٢٤/٢)، وتفسير الثعالبي (١٧٢/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٥٥٦/١)، ولباب النقول (١٣/١).

قال العجاج[من الرجز]:

* عَن اللَّغا وَرَفَثِ التَكَلُّمِ[(١)] *

وجملة الحلف أنه على أربعة أوجه؛ فوجهان منها الفقهاء يجمعون أن الكفارة فيهما واجبة، وهو قولك: ((والله لا أفعل أو والله لأفعلن)) ففي هاتين الكفارة، إذا آثر أن يخالف ما حلف عليه إذا رأى غيره خير منه، فهذا فيه الكفارة لا محالة.

ووجهان أكثر الفقهاء لا يرون فيهما الكفارة وهما قولك: ((والله ما قد فعلت)) وقد فعل أو ((والله لقد فعلت)) ولم يفعل، فهذا هو كذب أكده بيمين فينبغي أن يستغفر الله منه، فهذا جملة ما في اليمين.

ويجوز أن يكون موضع ((أن)) رفعاً فيكون؛ المعنى: ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا أولى، أي: البر والتقى أولى، ويكون أولى محذوفاً، كما جاء حذف أشياء في القرآن، لأن في الكلام دليلاً عليها يشبه هذا منه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾[محمد: ٢١] أي: طاعة وقول معروف أمثل، والنصب في ((أن)) والجر مذهب النحويين، ولا أعلم أحداً منهم ذكر هذا المذهب، ونحن نختار ما قالوه لأنه جيد، ولأن الاتباع أحب وإن كان غيره جائزاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ معناه في هذا الموضع يسمع أيمانكم ويعلم ما تقصدون بها.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾.

معنى ﴿يُؤْلُونَ﴾ يحلفون، ومعناه في هذا الموضع أن الرجل كان لا يريد المرأة فيحلف ألا يقربها أبداً، ولا يحب أن يزوجها غيره فكان يتركها لا أيماً ولا ذات زوج، كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية والإسلام، فجعل الله الأجل الذي يعلم به ما عند الرجل في المرأة آخر مداه نهاية أربعة أشهر، فإذا تمت أربعة أشهر ثم لم يفئ الرجل إلى امرأته أي: لم يرجع إليها فإن امرأته بعد الأربعة -في قول بعضهم- قد بانت منه، ذكر الطلاق

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦٧/٢)، وتفسير القرطبي (٣٠٩/٢)، وفتح القدير (٣٠٦/١)، وروح المعاني (٤/١٨)، ومفردات القرآن (١٣٠٦/١)، والخصائص (٣٣/١)، وأدب الكاتب (٤٢٣/١)، والمزهر في علوم اللغة (١٢/١)، وإصلاح المنطق (٩٤/١)، ولسان العرب (١٥٣/٢)، وتاج العروس (١٢٦٢/١)، وإصلاح المنطق (٩٤/١).

بلسانه أم لم يذكره.

وقال قوم: يؤخذ بعد الأربعة بأن يطلق أو يفيء.

ويقال: «آلَيْتُ أُولِي إِيلاءً وأَلِيَّة وأُلْوَة وإِلْوَّة وإِيَل» والكسر أقل اللغات.

ومعنى «التربص» في اللغة: الانتظار.

وقال الذين احتجوا بأنه لا بد أن يذكر الطلاق بقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقالوا ﴿سَمِيعٌ﴾ يدل على أنه استماع الطلاق في هذا الموضع، وهذا في اللغة غير ممتنع، وجائز أن يكون إنما ذكر ﴿سَمِيعٌ﴾ ههنا من أجل حلفه، أي: الله قد سمع حلفه وعلم ما أراده، وكلا الوجهين في اللغة محتمل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

يقال: طلقت المرأة طلاقاً فهي طالق، وقد حكوا طلقت، وقد زعم قوم: أن تاء التأنيث حذفت من «طالقة» لأنه للمؤنث لا حظ للذكر فيه، وهذا ليس بشيء، لأن في الكلام شيئاً كثيراً يشترك فيه المذكر والمؤنث لا تثبت فيه الهاء في المؤنث نحو قولهم: «بعير ضامر، وناقة ضامر، وبعير ساعل وناقة ساعل» وهذا أكثر من أن يحصى.

وزعم سيبويه وأصحابه: أن هذا وقع على لفظ التذكير صفة للمؤنث، لأن المعنى: «شيء طالق» وحقيقته عندهم أنه على جهة النسب نحو قولهم: «امرأة مذكار ورجل مذكار وامرأة مئنات ورجل مئنات» وإنما معناه: ذات ذكران وذات إناث، وكذلك «مطفل» ذات طفل، وكذلك «طالق» معناه ذات طلاق، فإذا أجريته على الفعل قلت: «طالقة»، قال الأعشى:

أيا جارَتي بِينِي فَإِنكِ طالِقَهْ   كَذَاكِ أُمورُ النَّاسِ غادٍ وطارِقَهْ[1]

وأما ﴿ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ فقد اختلف الفقهاء وأهل اللغة في تفسيرها، وقد ذكرنا في هذا الكتاب جملة قول الفقهاء وجملة قول أهل اللغة: فأما أهل الكوفة فيقولون: «الأقراء»: الحيض، وأما أهل الحجاز ومالك فيقولون: «الأقراء»: الطهر.

وحجة أهل الكوفة في أن «الأقراء والقِرَاء والقُرُوء»: الحيض، ما يروى عن أم

---

(١) انظر: أدب الكاتب (١/٢٣٠)، وتاج العروس (١/٦٤٥٦).

سلمة[١] أنها استفتت لفاطمة بنت أبي حبيش وكانت مستحاضة، فقال ﷺ: ((تنتظر أيام إقرائها وتغتسل فيما سوى ذلك)) فهذا يعني أنها تحبس عن الصلاة أيام حيضها، ثم تغتسل فيما سوى أيام الحيض.

وفي خبر آخر: أن فاطمة سألته فقال: ((إذا أتى قرؤك فلا تصلي، فإذا مر فتطهري وصلي ما بين القرء إلى القرء))[٢].

فهذا مذهب الكوفيين والذي يقويه من مذهب أهل اللغة أن الأصمعي كان يقول: ((القرء: الحيض))، ويقال: ((أقرأت المرأة)) إذا حاضت.

وقال الكسائي والفراء جميعاً: ((أقرَأت المرأة)) إذا حاضت فهي مقرىء، وقال الفراء: ((أقرأَت الحاجة)) إذا تأخرت، وأنشدوا في القرء الحيض وهو بالوقت أشبه:

* لَهُ قُرُوءٌ كقُروءِ الحَائِضِ[٣] *

فهذا هو مذهب أهل الكوفة في الأقراء، وما احتج به أهل اللغة مما يقوي مذهبهم.

وقال الأخفش أيضاً: ((أقرأت المرأة: إذا حاضت)) ((وما قرأت حيضة: ما ضمت رحمها على حيضة)).

وقال أهل الحجاز: ((الأقراء والقروء)) واحد، وأحدهما: ((قرء)) مثل قولك: ((فرع))، وهما الأطهار واحتجوا في ذلك بما يروى عن عائشة أنها قالت: ((الأقراء الأطهار)) وهذا مذهب ابن عمرو ومالك وفقهاء أهل المدينة، والذي يقوي مذهب أهل المدينة في أن الأقراء الأطهار، قول الأعشى [من الطويل]:

---

(١) هي: أم سلمة بنت زاد الركب رضي الله تعالى عنها، وهند بنت أمية، وزوجة الرسول، وصحابية قديمة الإسلام، وهاجرت الهجرتين، وقتل زوجها ببدر فتزوجها الرسول، وكانت من أكمل الناس عقلاً وخلقاً وكانت تعرف الكتابة، وعمرت طويلاً وتوفيت بالمدينة (٥٧هـ) ودفنت بالبقيع.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (١/١١٢، ورقم: ٢١٦) عن عروة أن فاطمة بنت أبي حبيش حدثت أنها أتت رسول الله ﷺ فشكت إليه الدم، وفقال لها رسول الله ﷺ: ((إنما ذلك عرق فانظري إذا أتاك قرؤك فلا تصلي فإذا مر قرؤك فتطهري، ثم صلي ما بين القرء إلى القرء)) ثم قال النسائي: هذا الدليل على أن الأقراء حيض.

ورواه أيضاً ابن ماجه (١/٢٠٣، ورقم: ٦٢٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/٣٨٢)، وتفسير القرطبي (١/٤٨٥)، وروح المعاني (١/٢٨٧)، ولسان العرب (٧/٢٠٢)، وتاج العروس (١/٤٥٧٨)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/٢٠٦).

مُوَرِّثَةٍ مالاً وَفي الحَمدِ رِفعَةً لِما ضاعَ فيها مِن قُروءِ نِسائِكا[١]

فالذي ضاع هنا الأطهار لا الحيض.

وفي هذا مذهب آخر وهو: أن ((القرء)): الطهر و((القرء)): الحيض[٢].

قال أبو عبيدة: ((إن القرء يصلح للحيض والطهر)) قال: وأظنه من: ((أقرأت النجوم)) إذا غابت، وأخبرني من أثق به يدفعه إلى يونس أن ((الأقراء)) عنده يصلح للحيض والطهر، وذكر أبو عمرو بن العلاء[٣]: أن القرء الوقت وهو يصلح للحيض ويصلح للطهر ويقال: ((هذا قارىء الرياح)) لوقت هبوبها. وأنشد أهل اللغة [من الوافر]:

شَنِئتُ العَقرَ عَقرَ بَني شَليلٍ إِذا هَبَّت لِقارِئِها الرِياحُ[٤]

أي: لوقت هبوبها وشدة بردها.

ويقال: ((ما قرأت الناقة سلا قط)) أي: لم تضم رحمها على ولد، وقال عمرو بن كلثوم[٥] [من الوافر]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٥٢/٢)، وتفسير ابن كثير (٣٦٣/١)، وفتح القدير (٣٥٧/١)، وتفسير البغوي (٢٦٥/١)، وتفسير البيضاوي (٥١٣/١)، وروح المعاني (١٣١/٢)، وزاد المسير (٢٥٩/١)، ولسان العرب (١٢٨/١)، وتاج العروس (١٨٨/١) ، وغريب الحديث لابن قتيبة (٢٠٥/١).

(٢) أي: ((القرء)) يصلح أن يكون للطهر والحيض سواء.

(٣) هو زبان بن عمار، والتميمي، والبصري، وأبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء، فاشتهر زبان بأبي عمرو بن العلاء. من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة. أحد كبار الأعلام في التاريخ الإسلامي؛ اشتهر بتفسيره، وكما اشتهر بدقة روايته أشعار الجاهليين وأخبارهم، وبتحقيق اللغة العربية ومعرفة غريبها وإقامة قواعدها.

ولد أبو عمرو بن العلاء بمكة سنة (٧٠ هـ = ٦٨٩ م)، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة سنة (١٥٤ هـ = ٧٧١ م).

انظر ترجمته في: وَفَيَات الأعيان (٤٦٦/٣ -٤٧٠)، والشذرات (٢٣٧/١، ٢٣٨)، وغاية النهاية (٢٨٨/١ - ٢٩٢)، وطبقات النحويين واللغويين (ص ٣٥ - ٤٠)، والأعلام (٤١/٣).

(٤) قائله: تأبط شراً، وأورده الطبري في التفسير (٤٥٢/٢).

(٥) هو: عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، وأبو الأسود: شاعر جاهلي، ومن الطبقة الأولى. ولد في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة. وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد. وكان من =

تُريكَ إذا دَخَلتَ عَلى خَلاءٍ وَقَد أَمِنَت عُيونَ الكاشِحينا
ذِراعَي عَيطَلٍ أَدماءَ بِكـرٍ هِجانِ اللَّونِ لَم تَقرَأ جَنينا[1]

وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أنها لم تجمع ولداً قط في رحمها، وذكر قطرب هذا القول أيضاً وزاد في لم تقرأ جنيناً أي: لم تلقه مجموعاً.

فهذا جميع ما قال الفقهاء وأهل اللغة في القرء، والذي عندي أن القرء في اللغة الجمع، وأن قولهم: ((قريت الماء في الحوض)) من هذا، وإن كان قد ألزم الماء فهو جمعته، وقولك: ((قرأت القرآن)) أي: لفظت به مجموعاً ((والقرد يقرىء)) أي: يجمع ما يأكل في بيته، فإنما القرء: اجتماع الدم في البدن، وذلك إنما يكون في الطهر، وقد يكون اجتماعه في الرحم وكلاهما حسن وليس بخارج عن مذاهب الفقهاء، بل هو تحقيق المذهبين.

والمقرَأَة: الحوض الذي يقرأ فيه الماء أي: يجمع، والمقْرَأُ: الإناء الذي يقرأ فيه الضيف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾.

قيل فيه: لا يحل لهن أن يكتمن أمر الولد لأنهن إن فعلن ذلك فإنما يقصدن إلى إلزامه غير أبيه.

وقد قال قوم: هو الحيض، وهو بالولد أشبه لأن ما خلق الله في أرحامهن أدل على الولد، لأن الله جل وعز قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[آل عمران: ٦] وقال ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً﴾[المؤمنون: ١٤] فوصف خلق الولد.

ومعنى: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾؛ تأويله: إن كن يصدقن بالله وبما أرهب به وخوف من عذابه لأهل الكبائر، فلا يكتمن كما تقول لرجل يظلم: ((إن كنت مؤمناً

أعز الناس نفساً، وهو من الفتاك الشجعان. ساد قومه ((تغلب)) وهو فتى، وعمر طويلاً. وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. مات في الجزيرة الفراتية نحو (٤٠ ق هـ = نحو ٥٨٤ م).

انظر ترجمته في: جمهرة أشعار العرب (ص: ٣١)، والشعر والشعراء (ص: ٦٦)، وثمار القلوب (١٠٢)، والأعلام (عمرو بن كلثوم).

(١) انظر: تفسير الطبري (١/٦٧)، والمستطرف (٢/٤٧).

فينبغي أن يحجزك إيمانك عن ظلمي».

وقوله -عز وجل-: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾.

«بعولة»: جمع بعل مثل: «ذكر وذكورة وعم وعمومة» أشبه ببعل وبعولة، ويقال في جمع «ذكر: ذكارة، وحجر: حجارة».

وإنما هذه الهاء زيادة مؤكدة معنى تأنيث الجماعة، ولكنك لا تدخلها إلا في الأمكنة التي رواها أهل اللغة لا تقول في «كعب: كعوبة» ولا في «كلب: كلابة» لأن القياس في هذه الأشياء معلوم، وقد شرحنا شرحاً كثيراً مما فيه فيما تقدم من الكتاب.

ومعنى ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي: في الأجل الذي أمرن أن يتربصن فيه فأزواجهن قبل انقضاء القروء الثلاثة أحق بردهن، إن ردهن على جهة الإصلاح، ألا ترى قوله: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحاً﴾.

ومعنى قوله -عز وجل-: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أي: للنساء مثل الذي عليهن بما أمر الله به من حق الرجل على المرأة، وهو معنى ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾؛ معناه: زيادة فيما للنساء عليهن كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء: ٣٤]، والمعنى: أن المرأة تنال من اللذة من الرجل كما ينال الرجل، وله الفضل بنفقته وقيامه بما يصلحها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ معناه: ملك يحكم بما أراد ويمتحن بما أحب، إلا أن ذلك لا يكون إلا بحكمة بالغة، فهو عزيز حكيم فيما شرع لكم من ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾.

﴿الطَّلاقُ﴾ رفع بالابتداء و﴿مَرَّتَانِ﴾ الخبر، والمعنى: الطلاق الذي تملك فيه الرجعة مرتان يدل عليه ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ المعنى: فالواجب عليكم إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولو كان في الكلام: «فإمساكاً بمعروف» كان جائزاً، على: فأمسوكهن إمساكاً بمعروف، كما قال -عز وجل-: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، ومعنى ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بما يعرف من إقامة الحق في إمساك المرأة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾؛ أي: مما

أعطيتموهن من مهر وغيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ قرئت ﴿يَخَافَا﴾ و﴿يُخَافَا﴾ بالفتح والضم، قال أبو عبيدة وغيره، معنى ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا﴾ إلا أن يوقنا، وحقيقة قوله: ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أن يكون الأغلب عليهما وعندهما أنهما على ما ظهر منهما من أسباب التباعد، الخوف من ألا يقيما حدود الله.

ومعنى ﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾ ما حده الله جل وعز مما لا تجوز مجاوزته إلى غيره.

وأصل «الحد» في اللغة: المنع: يقال: «حددت الدار وحددت حدود الدار» أي: بنيت الأمكنة التي تمنع غيرها أن يدخل فيها، وحددت الرجل أقمت عليه الحد والحد هو الذي به منع الناس من أن يدخلوا فيما يجلب لهم الأذى والعقوبة، ويقال: «أَحَدَت المرأة على زوجها، وحَدَّت فهي حَادٌ ومُحَدٌّ» إذا امتنعت عن الزينة، و«أَحْدَدتُ إليه النظر» إذا منعت نظري من غيره وصرفته كله إليه، و«أحدد السكين إحداداً» قال الشاعر:

إِنَّ العَبَادِي أَحَدَّ فَأْسَه فَعَادَ حَدُّ فَأْسه بِرَأْسِهِ

وإنما قيل للحديد: «حديد» لأنه أمنع ما يمتنع به، والعرب تقول للحاجب والبواب وصاحب السجن: «الحداد»، وإنما قيل له: «حداد» لأنه يمنع من يدخل ومن يخرج وقوله الأعشى:

فَقُمنا وَلَمّا يَصِح ديكُنا إِلى جَونَةٍ عِندَ حَدّادِها[1]

أي: عند ربها الذي منع منها إلا بما يريد.

ومعنى: ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ أي: لا تجاوزوها.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾.

أي: فإن طلقها الثالثة لأن الثنتين قد جرى ذكرهما، أي: فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره، وفعل الله ذلك لعلمه بصعوبة تزوج المرأة على الرجل، فحرم عليه التزويج بعد الثلاث لئلا يعجلوا بالطلاق وأن يثبتوا، وقوله -عز وجل-: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾[الطلاق: ١] يدل على ما قلناه.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ أي: فإن طلقها الزوج الثاني فلا جناح عليها وعلى الزوج الأول أن يتراجعا، وموضع «أن» نصب؛ المعنى: لا

---

(١) انظر: زاد المسير (١/١٩٣)، ولسان العرب (٣/١٤٠)، وتاج العروس (١/١٩٥١).

يأثمان في أن يتراجعا، فلما سقطت «في» وصل معنى الفعل فنصب، ويجيز الخليل أن يكون موضع «أن» خفضاً على إسقاط «في»، ومعنى إرادتها في الكلام، وكذلك قال الكسائي والذي قالاه صواب لأن «أن» يقع فيها الحذف ويكون جعلها موصولة عوضاً مما حذف، ألا ترى أنك لو قلت: «لا جناح عليهما الرجوع» لم يصلح، والحذف مع «أن» سائغ، فلهذا أجاز الخليل وغيره أن يكون موضع جر على إرادة «في».

ومعنى ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾؛ أي: إن كان الأغلب عليهما أن يقيما حدود الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا﴾؛ ويقرأ ﴿نُبَيِّنُهَا﴾ بالياء و النون جميعاً، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون أن وعد الله حق وأن ما أتى به رسوله صدق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ أي: وقت انقضاء عدتهن، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي: اتركوهن حتى ينقضي تمام أجلهن ويكن أملك بأنفسهن.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً﴾؛ أي: لا تمسكوهن وأنتم لا حاجة بكم إليهن.

وقيل: إنه كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء أجلها ثم يراجعها إضراراً بها، فنهاهم الله عن هذا الإضرار بهن[1].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ أي: عرضها لعذاب الله -عز وجل-، لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذابه.

وأصل «الظلم»: وضع الشيء في غير موضعه، وقد شرحنا ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً﴾ أي: ما قد بينه لكم من دلالاته وعلاماته في أمر الطلاق وغيره.

وقيل في هذا قولان؛ قال بعضهم: كان الرجل يطلق ويعتق ويقول: «كنت لاعباً»،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٤٩٣)، وتفسير ابن كثير (١/٣٧٨)، وتفسير القرطبي (٣/١٤٧)، وتفسير القرطبي (٣/١٤٧)، وتفسير البغوي (١/٢٧٤)، وتفسير البيضاوي (١/٥٢١)، وتفسير أبي السعود (١/٢٢٨) ، وروح المعاني (٢/١٤٣)، وزاد المسير (١/٢٦١)، والكشاف (١/١٣٧)، وتذكرة الأريب تفسير الغريب (١/٧٦)، ومعاني القرآن (١/٢٠٩).

فأعلم الله -عز وجل- أن فرائضه لا لعب فيها، وقال قوم: معنى ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً﴾ أي: لا تتركوا العمل بما حدد الله لكم فتكونوا مقصرين لاعبين، كما تقول للرجل الذي لا يقوم بما يكلفه ويتوانى فيه: ((إنما أنت لاعب))[1].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

هذا مخاطبة للأولياء وفي هذا دليل أن أمر الأولياء بيّن، لأن المطلقة التي ترتجع إنما هي مالكة بضعها، إلا أن الولي لا بد منه، ومعنى ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: تمنعوهن وتحبسوهن من أن ينكحن أزواجهن.

والأصل في هذا فيما روي أن معقل بن يسار[2] طلق أخته زوجها، فأبى معقل بن يسار أن يزوجها إياه ومنعها بحق الولاية من ذلك، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه رسول الله ﷺ فقال معقل: ((رغم أنفي لأمر الله))[3].

وأصل ((العضل)) من قولهم: ((عضلت الدجاجة فهي معضل)) إذا احتبس بيضها

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢٦٧): فيه قولان:

أحدهما: أنه الرجل يطلق أو يراجع أو يعتق ويقول كنت لاعباً روي عن عمر و أبي الدرداء والحسن.

والثاني: أنه المضار بزوجته في تطويل عدتها بالمراجعة والطلاق قاله مسروق ومقاتل.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٤٩٣)، وتفسير ابن كثير (١/٣٧٨)، وتفسير القرطبي (٣/١٢٠)، وفتح القدير (١/٣٦٨)، وتفسير البغوي (١/٢٧٤)، وتفسير البيضاوي (١/٥٢١)، والدر المنثور (١/٦٨١)، والكشاف (١/١٣٧)، ومعاني القرآن (١/٢١١)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٥٨٩)، ولباب النقول (١/١٣٧).

(٢) صحابي، أسلم قبل الحديبية، وشهد بيعة الرضوان، وسكن البصرة وتوفي بها، وإليه ينسب نهر معقل حفره بأمر عمر. توفي عام (٦٥هـ= ٦٨٥م).

(٣) وقيل في أن لها سبب آخر لنزولها، فقد ذكر ابن الجوزي ما ذكره المصنف كأول ما قيل في سبب النزول ثم قال:

والثاني: أن جابر بن عبد الله الأنصاري كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة فانقضت عدتها ثم رجع يريد رجعتها، فأبى جابر وقال: طلقت ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية، وكانت المرأة تريد زوجها قد راضته فنزلت هذه الآية. قاله السدي.

انظر: زاد المسير (١/٢٦٨). وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٤٩٧)، وتفسير ابن كثير (١/٣٧٩)، وتفسير القرطبي (٣/٦٤)، وتفسير البغوي (١/٢٧٦)، وتفسير البيضاوي (١/٥٢٢)، والدر المنثور (١/٦٨٥)، وروح المعاني (٢/١٤٤)، والكشاف (١/١٣٧).

ونشب فلم يخرج، ويقال: ((عضلت الناقة)) أيضاً فهي إذا احتبس ما في بطنها.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾؛ أي: بأمر الله الذي تلا عليكم ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: من صدق بأمر الله ووعيده والبعث وأطاع الله في هذه الحدود.

وقال ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾ وهو يخاطب جميعاً وقد شرحنا القول فيه فيما تقدم.

وقال بعض أهل اللغة: أنه توهم أن ((ذا)) مع المعارف كلمة واحدة، ولا أدري -من غير قائل هذا- بهذا التوهم، الله خاطب العرب بما يعقلونه وخاطبهم بأفصح اللغات، وليس في القرآن توهم -تعالى الله عن هذا-، وإنما حقيقة ((ذلك وذلكم)) مخاطبة الجميع، فالجميع لفظه لفظ واحد، فالمعنى: ذلك أيها القليل يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله، وقوله -عز وجل- بعد هذا ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾؛ يدل على أن ((ذلك)) و((ذلكم)) مخاطبة للجماعة.

ومعنى ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: الله يعلم ما لكم فيه الصلاح في العاجل والآجل وأنتم غير عالمين إلا بما أعلمكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ اللفظ لفظ الخبر والمعنى الأمر، كما تقول: ((حسبك درهم)) فلفظه لفظ الخبر، ومعناه: اكتف بدرهم، وكذلك معنى الآية: لترضع الوالدات، يقال: ((أرضعت المرأة فهي مرضعة)) قولهم: ((امرأة مرضع)) بغير هاء معناه: ذات إرضاع، فإذا أردت اسم الفاعل على ((أرضعت)) قلت: ((مرضعة)) لا غير.

ويقال: ((رَضِعَ المولود يُرْضَع ورَضَعَ يرْضَع)) والأولى أكثر وأوضح، ويقال: ((الرَّضاعة والرِّضاعة)) بالفتح والكسر، والفتح أكثر الكلام وأصحه وعليه القراءة، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

وروى أبو الحسن الأخفش أن بعض بني تميم تقول ((الرِّضاعة)) بكسر الراء، وروى الكسر أيضاً غيره، ويقال: ((الرِّضاع والرَّضاع)) ويقال: ما حمله على ذلك إلا اللؤم والرَّضاعة بالفتح لا غير ههنا، ويقال: ما حمله عليه إلا اللؤم.

و((الرِّضع)) مثل: ((الحلف))، و((الرَّضع)) يقالان جميعاً.

ومعنى ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أربعة وعشرون شهراً من يوم يولد إلى يوم يفطم، وإنما قيل: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ لأن القائل يقول: قد مضى لذلك عامان وسنتان، فيجيز أن السنتين قد

مضتا، ويكون أن تبقى منهما بقية إذا كان في الكلام دليل على إرادة المتكلم، فإذا قال: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ لم يجز أن تنقصا شيئاً، وتقرأ: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن تَتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، و ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وهذا هو الحق في الرَّضاعة، إلا أن يتراضيا -أعني الوالدين- في الفطام بدون الحولين ويشاورا في ذلك.

ومعنى ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾.

أي: على الزوج رزق المرأة المطلقة إذا أرضعت الولد وعليه الكسوة، ومعنى ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بما يعرفون أنه العدل على قدر الإمكان.

ومعنى ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾؛ أي: لا تكلف إلا قدر إمكانها.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ قرئت على ضربين ﴿لاَ تُضَارُّ وَالِدَةٌ﴾ برفع الراء على معنى: لا تكلف نفس على الخبر الذي فيه معنى الأمر، ومن قرأ: ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ﴾ بفتح الراء فالموضع موضع جزم على النهي الأصل: لا تضارر، فأدغمت الراء الأولى في الثانية وفتحت الثانية لالتقاء الساكنين، وهذا الاختيار في التضعيف إذا كان قبله فتح أو ألف، الاختيار: «عضَّ يا رجل وضارَّ زيداً يا رجل» ويجوز: «لا تضارِّ والدة» بالكسر ولا أعلم أحداً قرأ بها فلا تقرأن بها، وإنما جاز الكسر لالتقاء الساكنين لأنه الأصل في تحريك أحد الساكنين.

ومعنى ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾: لا تترك إرضاع ولدها غيظاً على أبيه، فتضر به لأن الوالدة أشفق على ولدها من الأجنبية.

﴿وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾؛ أي: لا يأخذه من أمه للإضرار بها فيضر بولده.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: عليه ترك الإضرار.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾؛ أي: فطاماً وتراضيا بذلك بعد أن تشاور وعلما أن ذلك غير مدخل على الولد ضرراً.

﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾: أي: فلا إثم عليهما في الفصال على ما وصفنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ﴾؛ معناه: تسترضعوا لأولادكم غير الوالدة فلا إثم عليكم.

﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ قيل: فيه إذا سلمتم الأمر إلى المسترضعة، وقيل:

إذا أسلمتم ما أعطاه بعضكم لبعض من التراضي في ذلك[١].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾.

هذا للمتوفى عنها زوجها عليها أن تنتظر بعد وفاته إذا كانت غير ذات حمل أربعة أشهر وعشراً، لا تتزوج فيهن ولا تستعمل الزينة.

وقال النحويون في خبر ﴿وَالَّذِينَ﴾ غير قول؛ قال أبو الحسن الأخفش: المعنى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ بعدهم أو بعد موتهم، وقال غيره من البصريين: أزواجهم يتربصن، وحذف أزواجهم لأن في الكلام دليلاً عليه، وهذا إطباق البصريين وهو صواب.

وقال الكوفيون: وهذا القول قول الفراء وهو مذهبه أن الأسماء إذا كانت مضافة إلى شيء وكان الاعتماد في الخبر الثاني أخبر عن الثاني وترك الإخبار عن الأول، وأغنى الإخبار عن الثاني عن الإخبار الأول، قالوا فالمعنى: وإزواج الذين يتوفون يتربصن. وأنشد الفراء [من الطويل]:

فَعَلي إِن مالَت بي الريحُ ميلَةً عَلى اِبنِ أَبي ذَبّانِ اَن يَتَنَدَّما[٢]

المعنى: لعل ابن أبي ذبان أن يتقدم إلى مالت بي الريح ميلة عليه.

وهذا القول غير جائز، لا يجوز أن يبدأ اسم ولا يحدث عنه، لأن الكلام إنما وضع للفائدة، فما لا يفيد فليس بصحيح، وهو أيضاً من قولهم محال؛ لأن الاسم إنما يرفعه اسم إذا ابتدئ مثله أو ذكر عائد عليه، فهذا على قولهم باطل لأنه لم يأت اسم يرفعه ولا ذكر عائد عليه.

والذي هو الحق في هذه المسألة عندي أن ذكر ﴿وَالَّذِينَ﴾ قد جرى ابتداء، وذكر الأزواج قد جرى متصلاً بصلة «الذين» فصار الضمير الذي في ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ يعود على

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢٧٤) في تفسيرها قولان:

أحدهما: إذا سلمتم أيها الآباء إلى أمهات الأولاد أجور ما أرضعن قبل امتناعهن قاله مجاهد والسدي.

والثاني: إذا سلمتم إلى الظئر أجرها بالمعروف قاله سعيد بن جبير ومقاتل.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٥١٤)، وتفسير ابن كثير (١/٣٨٠)، وتفسير القرطبي (٣/١٥٢)، وفتح القدير (١/٣٧١)، والدر المنثور (١/٦٨٦)، وروح المعاني (٤/٢٤٣)، والكشاف (١/١٣٨)، وتفسير مجاهد (١/١٠٩).

(٢) قاله: ثابت بن قطنة.

الأزواج مضافاتٍ إلى «الذين»، كأنك قلت: «يتربصن أزواجهم» ومثل هذا من الكلام قولك: «الذي يموت ويخلف ابنتين ترثان الثلثين»؛ المعنى: ترث ابنتاه الثلثين.

ومعنى قوله -عز وجل-: ﴿وَعَشْراً﴾ يدخل فيها الأيام.

زعم سيبويه أنك إذا قلت «لخمس بقين» فقد علم المخاطب أن الأيام داخلة مع الليالي، وزعم غيره: أن لفظ التأنيث مغلب في هذا الباب.

وحكى الفراء: «صمنا عشراً من شهر رمضان» فالصوم إنما يكون في الأيام، ولكن التأنيث مغلب في الليالي لإجماع أهل اللغة «سرنا خمسة بين يوم وليلة» أنشد سيبويه [من الطويل]:

فَطافت ثلاثاً بَينَ يَومٍ وَلَيلةٍ وَكانَ النَكيرُ أَن تُضيفَ وَتَجأرا[1]

قال سيبويه: هذا باب المؤنث الذي استعمل للتأنيث والتذكير والتأنيث أصله، قال: تقول: «عندي ثلاث بطات ذكور، وثلاث من الإبل ذكور» قال: لأنك تقول: «هذه إبل وكذلك ثلاث من الغنم ذكور»، قال: فإن قلت: «عندي ثلاثة ذكور من الإبل» لم يكن إلا التذكير، لأنك إنما ذكرت ذكوراً، ثم جئت تقول: «من الإبل» بعد أن مضى الكلام على التذكير، وليس بين النحويين البصريين والكوفيين خلاف في الذي ذكرنا من باب تأنيث هذه الأشياء.

فإن قلت: «عندي خمسة بين رجل وامرأة» غلبت التذكير لا غير.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: غاية هذه الأشهر والعشر.

﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: لاجناح عليكم في أن تتركوهن، إذا انقضت هذه المدة أن يتزوجن وأن يتزين زينة لا ينكر مثلها، وهذا معنى ﴿بِالْمَعْروفِ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾.

المعنى: أنه لا جناح على الرجل أن يعرض للمرأة التي هي في عدة بالتزويج، والتعريض: أن يقول: «إني فيك لراغب، وإن قضى الله أمراً كان» وما أشبه هذا من القول، ولا يجوز أن يقطع أمر التزويج والمرأة لم تخرج من عدتها.

---

(١) قائله: النابغة الجعدي، والبيت وارد في: تفسير القرطبي (١٠٢/١٠)، وفتح القدير (٢٤٢/٣)، والجمل في النحو (٢٨٧/١)، ومغني اللبيب (٨٦٧/١)، وأدب الكاتب (٢١٧/١).

ومعنى «خِطْبَة» كمعنى «خَطْب»، أما «خُطْبَة» فهو ماله أول وآخر نحو: الرسالة، وحكي عن بعض العرب «اللهم ارفع عنا هذه الضُّغطَة» فالضُّغطَة: ضغط له أول وآخر متصل.

ومعنى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾.

يقال في كل شيء تستره «أَكْنَنْتُه وكَنَنْتُه وأَكِنُّه» فيما تستره أكثر، وما صنته تقول فيه: «كننته فهو مكنون» قال الله -عز وجل-: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[الصافات: ٤٩] أي: مصون وكل واحدة منهما قريبة من الأخرى.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾.

قال أبو عبيدة: السر: الإفصاح بالنكاح، وأنشد [من الوافر]:

وَيَحرُمُ سِرُّ جارَتِهِم عَلَيهِم وَيَأكُلُ جارُهُم أُنُفَ القِصاعِ(١)

وقال غيره: كأن السر كناية عن الجماع، كما أن العائد كناية عن الموضع، وهذا القول عندي صحيح.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾؛ معناه: لا تعزموا على عقد النكاح، وحذف «على» استخفافاً كما تقول: «ضرب زيد الظهر والبطن» معناه: على الظهر والبطن، وقال سيبويه: إن الحذف في هذه الأشياء لا يقاس.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ﴾؛ معناه: حتى يبلغ فرض الكتاب أجله، ويجوز أن يكون ﴿الكِتَابُ﴾ نفسه في معنى الفرض فيكون المعنى: حتى يبلغ الفرض أجله، كما قال: -عز وجل-: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[البقرة: ١٨٣] أي: فرض عليكم، وإنما جاز أن يقع كتب في معنى فرض لأن ما يكتب يقع في النفوس إنه ثبت.

ومعنى هذا الفرض الذي يبلغ أجله: أيام عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾.

ويقرأ: ﴿تَمَاسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ فقد أعلم الله في هذه الآية أن عند التزويج بغير مهر جائز، وأنه لا إثم على من طلق من تزوج بها من غير مهر، كما أنه لا إثم على من طلق من تزوج بمهر، وأمر بأن تمتع المتزوج بها بغير مهر إذا طلقت ولم يدخل

---

(١) البيت للحطيئة. والبيت وارد في: تفسير الطبري (٥٣١/٢)، وتفسير القرطبي (١٧٨/٣)، وفتح القدير (٣٧٩/١)، وزاد المسير (٢٧٧/١)، ولسان العرب (١٢/٩)، وتاج العروس (٢٩٣٨/١).

بها فقال الله -عز وجل-: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾.

و﴿قَدَرُهُ﴾ يقرآن جميعاً، فقالوا: إن التمتع يكون بأشياء بأن تخدم المرأة وبأن تكسى وبأن تعطى ما تنفقه، أَيَّ ذلك فَعَلَ يُمَتِّع، فذلك جائز له على قدر إمكانه.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بما تعرفون أنه القصد وقدر الإمكان، ويجوز أن يكون نصب ﴿مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ﴾ على قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ متاعاً، ويجوز أن يكون منصوباً على الخروج من قوله: ﴿عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً﴾ أي: ممتعاً متاعاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَقًّا عَلَى المُحْسِنِينَ﴾؛ منصوب على: حق ذلك عليهم حق كما يقال: «حققت عليه القضاء وأحققت» أي: أوجبته.

وقوله عز جل: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾؛ أي: فعليكم نصف ما فرضتم ويجوز النصب «فَنِصْفَ مَا فَرَضْتُمْ»؛ المعنى: فأدوا نصفَ ما فرضتم ولا أعلم أحداً قرأ بها، فإن لم تثبت بها رواية فلا تقرأن بها.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾.

المعنى: إلا أن يعفو النساء أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وهو الزوج أو الولي إذا كان أباً.

ومعنى عفو المرأة: أن تعفو عن النصف الواجب لها من المهر فتتركه للزوج، أو يعفو الزوج عن النصف فيعطيها الكل.

وموضع ﴿أَن يَعْفُونَ﴾ نصب بـ«أن» إلا أن جماعة المؤنث في الفعل المضارع تستوي في الرفع والنصب والجزم وقد بينا ذلك فيما سلف من الكتاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

ظاهر هذا الخطاب للرجال خاصة دون النساء، وهو محتمل أن يكون للفريقين، لأن الخطاب إذا وقع على مذكري ومؤنثين غلب التذكير لأن الأول أمكن.

والأجود في قوله: ﴿وَلاَ تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ الضم ويجوز: «ولا تنسوْا الفضل بينكم »، وقد شرحنا العلة فيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى﴾.

قالوا: «الصلاة الوسطى»: العصر، وهو أكثر الرواية، وقيل: إنها الغداة، وقيل: إنها

الظهر[1].

والله قد أمر بالمحافظة على جميع الصلوات، إلا أن هذه الواو إذا جاءت مخصصة فهي دالة على الفضل للذي تخصصه كما قال: -عز وجل-: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[البقرة: ٩٨] فذكر مخصوصين لفضلهما على الملائكة.

وقال يونس النحوي في قوله -عز وجل-: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[الرحمن:

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢٨٣): في المراد بالوسطى ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها أوسط الصلوات محلاً.

والثاني: أوسطها مقداراً.

والثالث: أفضلها ووسط الشيء خيره وأعدله.

فإن قلنا: إن الوسطى بمعنى الفضلى جاز أن يدعي هذا كل ذي مذهب فيها، وإن قلنا: إنها أوسطها مقداراً فهي المغرب لأن أقل المفروضات ركعتان، وأكثرها أربعاً، وإن قلنا: إنها أوسطها محلاً فللقائلين إنها العصر أن يقولوا قبلها صلاتان في النهار وبعدها صلاتان في الليل فهي الوسطى.

ومن قال: هي الفجر، فقال عكرمة: هي وسط بين الليل والنهار، وكذلك قال ابن الأنباري هي وسط بين الليل والنهار.

وقال وسمعت أبا العباس يعني ثعلباً يقول: ((النهار عند العرب أوله طلوع الشمس)) قاله ابن الأنباري، فعلى هذا صلاة الصبح من صلاة الليل.

قال: وقال آخرون: بل هي من صلاة النهار لأن أول وقتها أول وقت الصوم، قال: والصواب عندنا أن نقول: الليل المحض خاتمته طلوع الفجر، والنهار المحض أوله طلوع الشمس، والذي بين طلوع الفجر وطلوع الشمس يجوز أن يسمى نهاراً، ويجوز أن يسمى ليلاً لما يوجد فيه من الظلمة والضوء فهذا قول يصح به المذهبان.

قال ابن الأنباري: ومن قال: ((هي الظهر)) قال: هي وسط النهار.

فأما من قال: ((هي المغرب)) فاحتج بأن أول صلاة فرضت الظهر فصارت المغرب وسطى.

ومن قال: ((هي العشاء)) فإنه قال هي بين صلاتين لا تقصران.

وانظر: تفسير الطبري (٢/٥٦٩)، وتفسير ابن كثير (١/٢٥٨)، وتفسير القرطبي (٣/١٩٦)، وفتح القدير (١/٣٨٧)، وتفسير البغوي (١/٢٨٧)، وتفسير البيضاوي (١/٥٣٦)، وتفسير أبي السعود (١/٢٣٥)، والدر المنثور (١/٧١٩)، وتفسير النسفي (٤/٣٥٥)، وروح المعاني (٢/١٥٦)، وتفسير الثعالبي (١/١٨٦)، والكشاف (١/١٤٣)، ومعاني القرآن (١/٢٣٩).

قال ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب (١/٥٩٧): قد اختلف في تعيين الوسطى على أقوال كثيرة أصحها أنها العصر.

٦٨] إنما خص النخل والرمان وقد ذكرت الفاكهة لفضلها على سائرها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾.

القانت: المطيع، والقانت: الذاكر الله، كما قال -عز وجل-: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾[الزمر: ٩] وقيل: القانت العابد، وقالوا في قوله -عز وجل-: ﴿وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ﴾[التحريم: ١٢] أي: العابدين.

والمشهور في اللغة والاستعمال أن القنوت: الدعاء في القيام، وحقيقة القانت أنه القائم بأمر الله، فالداعي إذا كان قائماً خص بأن يقال له «قانت» لأنه ذاكر الله -عز وجل- وهو قائم على رجليه.

فحقيقة «القنوت»: العبادة والدعاء لله في حال القيام، ويجوز أن يقع في سائر الطاعة، لأنه إن لم يكن قياماً بالرجلين فهو قيام بالشيء بالنية.

ومعنى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾؛ أي: فصلوا ركباناً أو رجالاً، و«رجال» جمع راجل ورجال مثل صاحب وصحاب، أي: إن لم يمكنكم أن تقوموا قانتين، أي: عابدين موفين الصلاة حقها لخوف ينالكم فصلوا رجالاً أو ركباناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا الله كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فإذا أمنتم فقوموا قانتين مؤدين للفرض.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم﴾ و﴿وَصِيَّةٌ لأَزْوَاجِهِم﴾ يقرءان جميعاً، فمن نصب: أراد فليوصوا وصية لأزواجهم، ومن رفع؛ فالمعنى: فعليهم وصية لأزواجهم.

﴿مَّتَاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: متعوهن متاعاً إلى الحول ولا تخرجوهن، وهذا منسوخ بإجماع، نسخه ما قبله وقد بيناه.

وقيل: إنه نسخته آية المواريث وكلاهما أعني ما أمر الله به من تربص أربعة أشهر وعشراً وما جعل لهن من المواريث قد نسخه[1].

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢٨٦): ذكر علماء التفسير أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات أحدهم مكثت زوجته في بيته حولاً ينفق عليها من ميراثه فإذا تم الحول خرجت إلى باب بيتها ومعها بعرة، فرمت بها كلباً وخرجت بذلك من عدتها، وكان معنى رميها بالعبرة أنها تقول: مكثي بعد وفاة زوجي أهون عندي من هذه البعرة، ثم جاء الإسلام فأقرهم على ما كانوا عليه من مكث الحول بهذه الآية ثم =

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

آياته علاماته ودلالاته على ما فرض عليكم، أي: مثل هذا البيان يبين لكم ما هو فَرْضٌ عليكم، وما فُرِضَ عليكم.

ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ معنى يحتاج إلى تفسير يبالغ فيه، لأن أهل اللغة والتفسير أخبروا في هذا بما هو ظاهر، وحقيقة هذا: أن العاقل ههنا هو الذي يعمل بما افترض عليه، لأنه إن فهم الفرض ولم يعمل به فهو جاهل ليس بعاقل.

وحقيقة «العقل» هو: استعمال الأشياء المستقيمة متى علمت، ألا ترى إلى قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[النساء: ١٧] لو كان هؤلاء جهالاً غير مميزين لأنهم آثروا هواهم على ما علموا أنه الحق.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

معنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم ، أي: لم ينته علمك إلى خبر هؤلاء، وهذه الألف ألف التوقيف و﴿تَرَ﴾ متروكة الهمزة، وأصله: «ألم ترء إلى الذين» والعرب مجمعة على ترك الهمزة في هذا.

ونصب ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ على أنه مفعول له، والمعنى: خرجوا لحذر الموت فلما سقطت اللام نصب على أنه مفعول له، وجاز أن يكون نصبه على المصدر، لأن خروجهم يدل على حذر الموت حذراً.

وقيل في تفسير الآية: إنهم كانوا ثمانية ألوف، أمروا في أيام بني إسرائيل أن يجاهدوا العدو، فاعتلوا بأن الموضع الذي ندبوا إليه ذو طاعون[1].

نسخ ذلك بالآية المتقدمة في نظم القرآن على هذه الآية، ونسخ الأمر بالوصية لها بما فرض لها من ميراثه.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٥٩٢)، وتفسير ابن كثير (١/٣٨٢)، و تفسير القرطبي (٣/١٦٥)، وتفسير البغوي (١/٢٧٩)، والدر المنثور (١/٦٩٢)، والكشاف (١/١٤٤)، والعجاب في بيان الأسباب (١/٦٠٠).

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٢٨٨): ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه وهم مؤتلفون قاله ابن زيد. والثاني: أنه من العدد وعليه العلماء.

واختلفوا في عددهم على سبعة أقوال؛ أحدها: أنهم كانوا أربعة آلاف. والثاني: أربعين ألف والقولان عن ابن عباس. والثالث: تسعين ألفاً قاله عطاء بن أبي رباح. والرابع: سبعة آلاف قاله أبو صالح.

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا﴾؛ معناه: فأماتهم الله، ويقال: إنهم أميتوا ثمانية أيام ثم أحيوا.

فالذين تلا عليهم يعلمون أنه لم يقرأ كتاباً وأنه أمي، فلا يعلم هذه الأقاصيص إلا بوحي، إذ كانت لَمْ تُعلَم إلا من كتاب، فعلم مشركو العرب أن كل من قرأ الكتب يصدقه ﷺ في أخباره أنها كانت في كتبهم، ويعلم العرب الذين نشأ معهم مثل ذلك، وأنه ما غاب غيبة يعلم في مثلها أقاصيص الأمم وأخبارها على حقيقة وصحة.

وفي هذه الآية أيضاً معنى الحث على الجهاد وأن الموت لا يدفع بالهرب منه.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: تفضل على هؤلاء بأن أحياهم بعد موتهم فأراهم البصيرة التي لا غاية بعدها.

وقوله -عز وجل- يعقب هذه الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي: لا تهربوا من الموت كما هرب هؤلاء الذين سمعتم خبرهم فلا ينفعكم الهرب.

ومعنى قوله -عز وجل- مع ذكر القتال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: إن قلتم كما قال الذين تقدم ذكرهم بعلة الهرب من الموت سمع قولكم وعلم ما تريدون.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾.

معنى القرض في اللغة: البلاء السيىء والبلاء الحسن، والعرب تقول: «لك عندي قرض حسن وقرض سيىء» وأصله: ما يعطيه الرجل أو يعمله ليجازى عليه، والله -عز وجل-: لا يستقرض من عوز ولكنه يبلو الأخبار، فالقرض كما وصفنا قال أمية بن أبي الصلت[1] [من البسيط]:

= والخامس: ثلاثين ألفاً قاله أبو مالك. والسادس: بضعة وثلاثين ألفاً قاله السدي. والسابع: ثمانية آلاف قاله مقاتل.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٢/٦٠٠)، وتفسير ابن كثير (١/٤٠٠)، وتفسير القرطبي (٣/٢١٨)، وفتح القدير (١/٣٩٥)، وتفسير البغوي (١/٢٩٢)، وتفسير البيضاوي (١/٥٤١)، والدر المنثور (١/٧٤١)، والكشاف (١/١٤٥)، وتفسير الصنعاني (١/٩٧).

(١) وهو: أمية بن أبي الصلت، أمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف، ومن قريش. من الشعراء المخضرمين، وينحدر من أسرة شاعرة، فأبوه وابنه شاعران.

ذكره ابن سلام الجمحي في طبقة شعراء الطائف. كان قد قرأ الكتب المتقدمة، ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد أظل زمانه، ويمني نفسه أن يكون هو النبي المبعوث من العرب، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ كفر حسداً له، وقال: إنما كنت أرجو أن أكونه. ولما أُنشد النبي شعره =

لا تَخلُطَـــنَّ خَبيثــاتٍ بِطَيبَــةٍ وَاخلَعْ ثِيابَكَ مِنها وَأنجُ عُريانا

كُلُ اِمرِئٍ سَوفَ يُجزى قَرضَهُ حَسَناً أَو سَـيئاً وَمَـديناً كَالَّـذي دانـا

وقال الشاعر[1] [من الرمل]:

فَــإِذا جوزيــتَ قَرضــاً فَــاِجزِهِ إِنَّمـا يَجـزي الفَتـى لَيسَ الجَمَل

الجواب بالفاء، ولو كان قرضاً ههنا مصدراً لكان إقراضاً، ولكن ((قرضاً)) ههنا اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾.

قيل: في هذا غير قول؛ قال بعضهم: معناه يقتر ويوسع.

وقال بعضهم: يسلب قوماً ما أنعم عليهم، ويوسع على آخرين.

وقيل: معنى ﴿يَقْبِضُ﴾ أي: يقبض الصدقات ويخلفها، وإخلافها جائز أن يكون ما يعطي من الثواب في الآخرة، وجائز أن يكون مع الثواب أن يخلفها في الدنيا[2].

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الملأ أشراف القوم ووجوههم، ويروى أن النبي ﷺ سمع رجلاً من الأنصار وقد رجعوا من بدر يقول: ما قتلنا إلا عجائز صلعاً فقال ﷺ: ((أولئك الملأ من قريش لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك)) والملأ في اللغة: الخُلُق، يقال: ((أحسنوا ملأكم)) أي: أخلاقكم قال الشاعر[3]:

=

قال عليه الصلاة والسلام: ((إنه كاد ليسلم)) [رواه مسلم]. وكان في شعره كثير العجائب يذكر فيه خلق السماوات والأرض، ويذكر الملائكة، وقصص الأنبياء، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء لمخالطته أهل الكتاب.

انظر ترجمته في: الأعلام (ابن أبي الصَّلْت).

(١) وهو: لبيد بن ربيعة العامري.

(٢) تفسير الطبري (٢/٦٠٧)، وتفسير ابن كثير (١/٤٠٠)، وتفسير القرطبي (٣/٢٢٥)، وفتح القدير (١/٣٩٦)، وتفسير البغوي (١/٢٩٣)، وتفسير البيضاوي (١/٥٣٨)، وتفسير أبي السعود (١/٢٣٨)، والدر المنثور (١/٧٤٦)، وتفسير النسفي (١/١١٩)، وروح المعاني (٢/١٦٣)، وزاد المسير (١/٢٨٩)، ومعاني القرآن (١/٢٤٨).

(٣) هو: عبد الشارق بن عبد العزى الجهني.

تَنَادَوا يَآلَ بُهثَةَ إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِي ملأً جُهَيْنَا[١]

أي: خُلُقاً، ويقال: «أحسني ممالأة» أي: معاونة، ويقال: «رجل مليء» مهموز، أي: بيّن الملأ -يا هذا-، وأصل هذا كله في اللغة من شيء واحد.

«فالملأ»: الرؤساء إنما سموا بذلك لأنهم ملء بما يحتاج إليه منهم، «والملأ» الذي في الخلق إنما هو الخلق المليء بما يحتاج إليه، «والملا»: المتسع من الأرض -غير مهموز- يكتب بالألف والياء في قول قوم، وأما البصريون فيكتبون بالألف قال الشاعر[٢] في المقصور الذي يدل على المتسع من الأرض:

أَلا غَنِّيَاني وارْفَعا الصَّوْتَ بالمَلا فإِنَّ المَلا عِنْدي يَزيدُ المَدى بُعْدا[٣]

وقوله -عز وجل-: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الجزم في ﴿نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الوجه: على الجواب للمسألة التي في لفظ الأمر، أي: ابعث لنا ملكاً نقاتل أي: إن تبعث لنا ملكاً نقاتل هو الوجه الذي عليه القراء، والرفع بعيد ويجوز على معنى: فإنا نقاتل في سبيل الله، وكثير من النحويين لا يجيز الرفع في ﴿نُّقَاتِلْ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾.

أي: لعلكم أن تَجْبُنُوا عن القتال، وقرأ بعضهم: ﴿هَلْ عَسِيْتُمْ﴾ -بكسر السين- ﴿إِن

---

(١) قال المرزوقي في شرح هذا البيت: واللام من «يآل بهثة» لام الجر، وتعلقت بيا: حرف النداء. ولا يجوز أن يقال تعلقت بالفعل الذي دل عليه «يا»، ولأن ذلك الفعل لما لم يخرج إلى الوجود سقط حكمه. وفتحت لوقوع المنادى موقع المضمر. وبهثة: مدعوةٌ، والجار مع المجرور في موضع نصب لأنه منادىً. وقوله «أحسني ضرباً» يجوز أن يكون ضرباً مفعولاً به من أحسني، ويجوز أن يكون في موضع الحال أي ضاربةً. ويروى: «أحسني ملأً» ومعناه خلقاً. والمراد مخالقة أهل الحرب والمستنصرين؛ وهذه رواية أبي زيد. وقال ابن السكيت: معناه أحسني تمالؤاً أي: تعاوناً. ويقال مالأت على فلان، وكأنه من قولهم رجلٌ مليءٌ، وقد ملؤ بملؤ ملاءةً وملاءً. انظر: شرح ديوان الحماسة (٢١٨/٢).

والبيت وارد في: مفردات القرآن (١٣٨٦/١)، وإصلاح المنطق (٣٨٣/١)، ولسان العرب (١٥٨/١)، وتاج العروس (٢٢٤/١).

(٢) هو: الجهني، والبيت في اللسان: «ملا».

(٣) انظر: لسان العرب (٢٩٠/١٥).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ وهي قراءة نافع، وأهل اللغة كلهم يقولون: «عسين أن أفعل» ويختارونه، وموضع ﴿أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾ نصب أعني موضع «أن»، لأن «أن» وما عملت فيه كالمصدر إذا قلت: «عسيت أن أفعل ذاك» فكأنك قلت: عسيت فعل ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

زعم أبو الحسن الأخفش أن «أن» ههنا زائدة، قال: المعنى: وما لنا لا نقاتل في سبيل الله، وقال غيره: وما لنا في ألا نقاتل في سبيل الله وأسقط «في».

وقال بعض النحويين: إنما دخلت «أن» لأن «ما» معناه ما يمنعنا فلذلك دخلت «أن»، لأن الكلام ما لك تفعل كذا وكذا.

والقول الصحيح عندي أن «أن» لا تلغى هنا، وأن المعنى: وأي شي لنا في أن لا نقاتل في سبيل الله، أي: أي شيء لنا في ترك القتال.

﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾، ومعنى ﴿وَأَبْنَائِنَا﴾ أي: «سبيت ذرارينا»، ولكن «في» سقطت مع «أن» لأن الفعل مستعمل مع «أن» دالاً على وقت معلوم، فيجوز مع «أن» حذف حرف الجر كما تقول: «هربت أن أقول لك كذا وكذا» تريد: «هربت لأن أقول لك كذا وكذا».

وقوله -عز وجل-: ﴿تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾.

﴿قَلِيلاً﴾ منصوب على الاستثناء، فأما من روى «تولوا إلا قليلٌ منهم» فلا أعرف هذه القراءة ولا لها عندي وجه، لأن المصحف على النصب، والنحو يوجبها لأن الاستثناء إذا كان أول الكلام إيجاباً نحو قولك: «جاءني القوم إلا زيداً» فليس في زيد المستثنى إلا النصب؛ والمعنى: تولوا استثني قليلاً منهم، وإنما ذكرت هذه لأن بعضهم روى «فشربوا منه إلا قليلٌ منهم» وهذا عندي ما لا وجه له.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾.

أي: قد أجابكم إلى ما سألتم، من بعث ملك يقاتل وتقاتلون معه.

«وطالوت وجالوت وداود» لا تنصرف لأنها أسماء أعجمية، وهي معارف فاجتمع فيها شيئان: التعريف والعجمة، وأما «جاموس» فلو سميت به رجلاً لأنصرف، وإن كان عجمياً، لأنه قد تمكن في العربية لأنك تدخل عليه الألف واللام فتقول: «الجاموس والراقود»، فعلى هذا قياس جميع الباب.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: من أي: جهة يكون ذلك.

﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ المَالِ﴾ أي: لم يؤت ما تتملك به الملوك، فأعلمهم الله أنه ﴿اصْطَفَاهُ﴾ ومعناه: اختاره وهو ((افتعل)) من الصفوة، والأصل: ((اصتفاه)) فالتاء إذا وقعت بعد الصاد مطبقة، فأبدلوا الطاء من التاء ليسهل النطق بما بعد الصاد، وكذلك ((افتعل)) من الضرب: ((اضطرب)) ، ومن الظلم: ((اظطلم))، ويجوز في ((اظطلم)) وجهان آخران؛ يجوز ((اطّلم)) بطاء مشددة غير معجمة، و((اظّلم)) بظاء مشددة قال زهير [من البسيط]:

هُوَ الجَوادُ الَّذي يُعطيكَ نائِلَهُ ... عَفواً وَيُظلَمُ أَحياناً فَيَظَّلِمُ[1]

و((فيطلم)) و ((فيظلم)).

أعلمهم الله أنه اختاره وأنه قد زِيدَ في العلم والجسم بسطة، وأعلمهم أن العلم هو الذي به يجب أن يقع الاختيار ليس أن الله -جل وعز- لا يُمَلِّك إلا ذا مال، وأعلم أن الزيادة في الجسم مما يهيب به العدو، وأعلمهم أنه يؤتي ملكه من يشاء وهو -جل وعز- لا يشاء إلا ما هو الحكمة والعدل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويعلم أين ينبغي أن تكون السعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾.

أي: علامة تمليك الله إياه ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ وموضع ﴿أن﴾ رفع؛ المعنى: إن آية ملكه إتيان التابوت إياكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: فيه ما تسكنون به إذا أتاكم.

وقيل في التفسير: إن السكينة لها رأس كرأس الهر من زبرجد أو ياقوت ولها جناحان[2].

---

(١) انظر: أوضح المسالك (٣٩٩/٤)، واللباب في علل البناء والإعراب (٣٤٧/٢)، والمفصل في صناعة الإعراب (٥٥٤/١)، ومجمع الأمثال (١٨٨/١)، ولسان العرب (٣٧٣/١٢)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٦٦/٢)، والفائق (٢٤٢/٢).

(٢) قال المفسرون في ((السكينة)) سبعة أقوال:

أحدها: أنها ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان، رواه أبو الأحوص عن علي -رضي الله عنه-.

والثاني: أنها دابة بمقدار الهر لها عينان لها شعاع وكانوا إذا التقى الجمعان أخرجت يدها ونظرت إليهم فيهزم الجيش من الرعب رواه الضحاك عن ابن عباس.

=

وقوله -عز وجل-: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾.

قيل في تفسيره: البقية رضاض الألواح(١)، وأن التوراة فيه وكتاب آخر مع التوراة، وعصا موسى، فهذا ما روي مما فيه، والظاهر أن فيه بقية جائز أن يكون بقية من شيء من علامات الأنبياء، وجائز أن يكون البقية من العلم، وجائز أن يتضمنها جميعاً، والفائدة كانت في هذا التابوت أن الأنبياء -صلوات الله عليهم- كانت تستفتح به في الحروب، فكان التابوت يكون بين أيديهم فإذا سمع من جوفه أنين دف التابوت، أي: سار والجميع

= قال مجاهد: ((السكينة)) لها رأس كرأس الهرة وجناحان.

والثالث: أنها طست من ذهب من الجنة تغسل فيه قلوب الأنبياء، رواه أبو مالك عن ابن عباس.

والرابع: أنها روح من الله تتكلم كانوا إذا اختلفوا في شيء كلمتهم وأخبرتهم ببيان ما يريدون، رواه عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه.

والخامس: أن ((السكينة)) ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها، رواه ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح، وقد ذهب إلى نحوه الزجاج فهو هنا يشير أنها من السكون فمعناه: فيه ما تسكنون إليه إذا أتاكم.

والسادس: أن السكينة معناها هاهنا الوقار، رواه معمر عن قتادة.

والسابع: أن السكينة الرحمة، قاله الربيع بن أنس.

انظر: زاد المسير (١/٢٩٤)، وتفسير الطبري (٢/٦٢٠)، وتفسير ابن كثير (١/٤٠٤)، وتفسير القرطبي (٣/٢٣٦)، وفتح القدير (١/٤٠٣)، وتفسير البغوي (١/٢٩٨)، وتفسير البيضاوي (١/٥٤٤)، وتفسير الثعالبي (١/١٩٤)، والكشاف (١/١٤٦).

(١) قال المفسرون في ((البقية)) تسعة أقوال:

أحدها: أنها رضاض الألواح التي تكسرت حين ألقاها موسى وعصاه، قاله ابن عباس وقتادة والسدي.

والثاني: أنها رضاض الألواح قاله عكرمة، ولم يذكر العصا، وقيل: إنما اتخذ موسى التابوت ليجمع رضاض الألواح فيه.

والثالث: أنها عصا موسى والسكينة قاله وهب.

والرابع: عصا موسى وعصا هارون وثيابهما ولوحان من التوراة والمن، قاله أبو صالح.

والخامس: أن البقية العلم والتوراة، قاله مجاهد وعطاء بن أبي رباح.

والسادس: أنها رضاض الألواح وقفيز من من في طست من ذهب وعصا موسى وعمامته، قاله مقاتل.

والسابع: أنه قفيز رضاض الألواح حكاه سفيان الثوري عن بعض العلماء.

والثامن: أنها عصا موسى والنعلان ذكره الثوري أيضاً عن بعض أهل العلم.

والتاسع: أن المراد بالبقية الجهاد في سبيل الله وبذلك أمروا، قاله الضحاك.

انظر: المراجع السابقة في الكلام على السكينة.

خلفه -والله أعلم- بحقيقة ذلك.

وروي في التفسير: أنه كان من خشب الشمشار[1]، وكان قد غلب جالوت وأصحابه عليه فنزلهم بسببه داء، قيل: هو الناسور الذي يكون في العنب، فعلموا أن الآفة بسببه نزلت فوضعوه، على ثورين فيما يقال.

وقيل معنى ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾ إنها كانت تسوق الثورين، وجائز أن يقال في اللغة: تحمله الملائكة، وإنما كانت تسوق ما يحمله كما تقول: ((حملت متاعي إلى مكة)) أي: كنت سبباً لحمله إلى مكة.

ومعنى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ﴾؛ أي: في رجوع التابوت إليكم علامة أن الله ملك طالوت عليكم، إذ أنبأكم في قصته بغيب.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مصدقين.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾؛ معناه: مختبركم وممتحنكم بنهر، وهذا لا يجوز أن يقوله إلا نبي، لأن الله -عز وجل- قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾[الجن: ٢٦، ٢٧] ومعنى الاختبار بهذا النهر كان ليعلم طالوت ممن له نية القتال معه، ومن ليست له نية، فقال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس من أصحابي ولا ممن تبعني ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: لم يتطعم به.

﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ ((غُرْفة وغَرْفة)) قرئ بهما جميعاً، فمن قال: ((غَرْفة)) كان معناه: غرفة واحدة باليد، ومن قال ((غُرْفة)) كان معناه: مقدار ملء اليد.

ومعنى ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ شربوا منه ليرجعوا عن الحرب لأنه قد أعلمهم ذلك.

وذكر في التفسير: أن القليل الذين لم يشربوا كان عدتهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً كعدد أهل بدر[2].

---

(١) انظر: الكشاف (١٤٧/١).

(٢) غاية ما قال المفسرون في عددهم قولان:

أحدهما: أنهم أربعة آلاف قاله عكرمة والسدي. والثاني: ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وهو الصحيح لما روي عن النبي ﷺ أنه قاله لأصحابه يوم بدر: ((أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت)) وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً.

=

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾؛ أي: جاوز النهر هو والذين معه، قيل: لما رأوا قلتهم قال بعضهم لبعض: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾؛ أي: لا قوة.

يقال: أطقت الشيء إطاقة وطَوْقا، مثل: أَطَعْت طَاعَة وإِطَاعة وطَوْعاً[١].

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ﴾.

قيل فيه قولان؛ قال بعضهم: -وهو مذهب أهل اللغة- قال الذين يوقنون إنهم ملاقو الله، قالوا: ولو كانوا شاكين لكانوا ضلالاً كافرين، وظننت في اللغة: بمعنى أيقنت موجود، قال الشاعر -وهو دريد- [من الطويل]:

فَقُلْتُ لَهُم ظُنّوا بِأَلفَي مُدَجَّجٍ سَراتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ[٢]

أي: أيقنوا، وقال أهل التفسير: معنى ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ﴾ أي: أنهم كانوا يتوهمون أنهم في هذه الموقعة يقتلون في سبيل الله، لقلة عددهم وعظم عدد عدوهم وهم أصحاب جالوت.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أي: كم من فرقة، وإنما قيل للفرقة: ﴿فِئَةٍ﴾ من قولهم: «فأوت رأسه بالعصا، وفأَيْتُ» إذا شققته، فالفئة من هذا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: أن الله ينصر الصابرين إذا صبروا على طاعته، وما يزلف عنده.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾؛ أي: أصبب علينا صباً كما تقول: «أفرغت الإناء» إذا صببت ما فيه.

=

انظر: زاد المسير (١/٢٩٨)، وتفسير الطبري (٢/٦٣١)، وتفسير ابن كثير (١/٤٠٦)، وتفسير القرطبي (٣/٢٣٩)، وفتح القدير (١/٤٠٣)، وتفسير البغوي (١/٣٠١)، وتفسير البيضاوي (١/٥٤٥)، والدر المنثور (١/٧٥٩)، والكشاف (١/١٤٧).

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٦٢٠)، وتفسير البيضاوي (١/٥٤٥)، وتفسير أبي السعود (١/٢٤٣)، والدر المنثور (١/٧٥٩)، وتفسير النسفي (١/١٢١)، والكشاف (١/١٤٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/٣٠٠)، وتفسير ابن كثير (١/١٢٧)، وتفسير القرطبي (١/٤١٨)، وروح المعاني (٢٠/٨١)، وأسرار العربية (١/١٥٠)، وديوان الحماسة (١/٣٣٧)، وشرح كتاب الأمثال (١/٣٥٣)، ولسان العرب (١٣/٢٧٢).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ معناه: كسروهم وردوهم.

وأصل «الهزم» في اللغة: كسر الشيء وثني بعضه على بعض، يقال: «سقاء مهزوم» إذا كان بعضه قد ثني على بعض مع جفاف، وقصب متهزم ومهزوم قد كسر وشقق، والعرب تقول: «هزمت على زيد» أي: عطفت عليه قال الشاعر[1]:

هُزِمْتُ عليكِ اليومَ يا ابنةَ مالكِ فجُودِي علينا بالنَّوالِ وأَنْعِمي[2]

ويقال: سمعت هزمة الرعد، قال الأصمعي: كأنه صوت فيه تشقق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: آتى داود عليه السلام الملك لأنه ملك بعد قتله جالوت وأوتي العلم.

ومعنى ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾؛ قيل: مما علمه الدروع ومنطق الطير.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾.

أي: لولا ما أمر الله به المسلمين من حرب الكافرين لفسدت الأرض، وقيل أيضاً: لولا دفع الله الكافرين بالمسلمين لكثر الكفر فنزلت بالناس السخطة واستوصل أهل الأرض.

ويجوز ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ﴾ ولولا دفاع الله، ونصب ﴿بَعْضَهُم﴾ بدلاً من ﴿النَّاسَ﴾؛ المعنى: ولولا دفع الله بعض الناس ببعض، و﴿دَفْعُ﴾ مرفوع بالابتداء، وقد فسرنا هذا فيما مضى.

وقوله -عز وجل-: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

أي: هذه الآيات التي أَنبأت بها وَأُنبِئت، ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي: علاماته التي تدل على توحيده وتثبيت رسالات أنبيائه، إذ كان يعجز عن الإتيان بمثلها المخلوقون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: وأنت من هؤلاء الذين قصصت آياتهم لأنك قد أعطيت من الآيات مثل الذي أعطوا وزدت على ما أعطوا، ونحن نبين ذلك في الآية التي تليها إن شاء الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

﴿الرُّسُلُ﴾ صفة لـ﴿تِلْكَ﴾ كقولك: أولئك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، إلا أنه

---

(١) هو: أبو بدر السلمي. انظر: اللسان: «هزم».

(٢) انظر: زاد المسير (١/٢٩٩)، ولسان العرب (١٢/٦٠٨)، وتاج العروس (١/٧٩٣٦).

قيل: تلك للجماعة وخبر الابتداء ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ ومعنى ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾: أي: من كلمة الله، والهاء حذفت من الصلة الاسم وهو موسى ﷺ أسمعه الله كلامه من غير وحي أتاه عن الله ملك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: أعطيناه، و﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ الحجج التي تدل على إثبات نبوته ﷺ من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والإنباء بما غاب عنه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ جاء في التفسير: أنه يعني به محمد ﷺ أرسل إلى الناس كافة(١)، وليس شيء من الآيات التي أعطيها الأنبياء والذي أعطى محمد ﷺ أكثر منه، لأنه ﷺ كلمته الشجرة وأطعم من كف التمر خلقاً كثيراً، وأمر يده على شاة أم معبد فدرت وحلبت بعد جفاف.

ومنها: انشقاق القمر فإن النبي ﷺ رأى الآيات في الأرض ورآها في السماء والذي جاء في آيات النبي كثير، فأما انشقاق القمر وصحته فقد روينا فيه أحاديث: حدثني إسماعيل بن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن المنهال، قال: حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: ((سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين))(٢).

حدثني مسدد يرفعه إلى أنس أيضاً مثل ذلك(٣).

ونحن نذكر جميع ما روي في هذا الباب في مكانه -إن شاء الله- ولكنا ذكرنا ههنا

---

(١) قال المفسرون في المراد منه قولان:

أحدهما: عنى بالمرفوع درجات محمداً ﷺ فإنه بعث إلى الناس كافة وغيره بعث إلى أمته خاصة، هذا قول مجاهد.

والثاني: أنه عنى تفضيل بعضهم على بعض فيما آتاه الله، هذا قول مقاتل.

انظر: زاد المسير (٣٠١/١)، وتفسير الطبري (٣/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٠٧/١)، وتفسير القرطبي (٢٤٩/٣)، وفتح القدير (٤٠٦/١)، وتفسير البغوي (٣٠٨/١)، وتفسير البيضاوي (٥٤٩/١)، وتفسير أبي السعود (٢٤٦/١)، والدر المنثور (٣/٢)، وروح المعاني (١٢/٣)، وتفسير الثعالبي (١٩٨/١)، والكشاف (١٤٩/١)، ومعاني القرآن (٢٥٧/١).

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري (١٨٤٤/٤،رقم: ٤٥٨٦)، ومسلم (٢١٥٩/٤، ورقم: ٢٨٠٢) من حديث أنس.

(٣) رواه عن مسدد أيضاً ويرفعه إلى أنس البخاري (١٨٤٤/٤، ورقم: ٤٥٨٧).

جملة من الآيات لنبين بها فضل النبي ﷺ فيما أتى به من الآيات.

ومن أعظم الآيات القرآن الذي أتى به العرب وهم أعلم قوم بالكلام لهم الأشعار ولهم السجع والخطابة وكل ذلك معروف في كلامها، فقيل لهم: ائتوا بعشر سور فعجزوا عن ذلك، وقيل لهم: ائتوا بسورة ولم يشترط عليهم فيها أن تكون كالبقرة وآل عمران، وإنما قيل لهم: ائتوا بسورة فعجزوا عن ذلك، فهذا معنى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم﴾؛ يعني: من بعد الرسل ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾؛ أي: من بعد ما وضحت لهم البراهين، فلو شاء الله ما أمر بالقتال بعد وضوح الحجة، ويجوز أن يكون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ﴾، أي: لو شاء الله أن يضطرهم أن يكونوا مؤمنين غير مختلفين لفعل ذلك، كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾[الأنعام: ٣٥].

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: أنفقوا في الجهاد وليعن بعضكم بعضاً عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ﴾؛ يعني يوم القيامة «والخلة» الصداقة، ويجوز: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ على الرفع بتنوين والنصب بغير تنوين، ويجوز: ﴿لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ بنصب الأول بغير تنوين وعطف الثاني على موضع الأول، لأن موضعه نصب إلا أن التنوين حذف لعلة قد ذكرناها، ويكون دخول «لا» مع حروف العطف مؤكداً، لأنك إذا عطفت على موضع ما بعد «لا» عطفته بتنوين تقول: «لا رجل وغلاماً لك» قال الشاعر[1] [من الطويل]:

ولا أبَ وابناً مثل مروان وابنهِ إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

ومعنى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: هم الذين وضعوا الأمر غير موضعه، وهذا أصل الظلم في اللغة.

وقوله -عز وجل-: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾.

يروى عن ابن عباس -رحمة الله عليه- أنه قال: «أشرف آية في القرآن آية الكرسي»[2].

---

(١) هو: الكميت معروف الأسدي.

(٢) أورده القرطبي في تفسيره (٣/٢٧١).

وإعراب ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ النصب بغير تنوين في ﴿إله﴾؛ المعنى: لا إله لكل مخلوق إلا هو، وهو محمول على موضع الابتداء؛ المعنى: ما إله للخلق إلا هو، وإن قلت في الكلام: «لا إله إلا الله» جاز أما القرآن فلا يقرأ فيه إلا بما قد قرأت القراءة به وثبتت به الرواية الصحيحة، ولو قيل في الكلام: «لا رجل عندك إلا زيداً» جاز، «ولا إله إلا الله» جاز، ولكن الأجود ما في القرآن وهو أجود أيضاً في الكلام، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات: ٣٥]، فإذا نصبت بعد إلا فإنما نصبت على الاستثناء.

وقوله -عز وجل-: ﴿الحَيُّ القَيُّومُ﴾ معنى ﴿الحَيُّ﴾ الدائم البقاء، ومعنى ﴿القَيُّومُ﴾ القائم بتدبير سائر أمر خلقه، ويجوز القيام ومعناهما واحد.

فهو الله -عز وجل- قائم بتدبير أمر الخلق في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم، وهو قوله -عز وجل-: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾[هود: ٦].

ومعنى: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ أي: لا يأخذه نعاس.

﴿وَلاَ نَوْمٌ﴾ وتأويله: أنه لا يغفل عن تدبير أمر الخلق.

ومعنى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: لا يشفع عنده إلا بما أمر به من دعاء بعض المسلمين لبعض، من شفاعة النبي ﷺ، وإنما كان المشركون يزعمون أن الأصنام تشفع لهم، والدليل على ذلك قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣] وذلك قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ﴾[يونس: ١٨] فأنبأ الله -عز وجل- أن الشفاعة ليست إلا ما أعلم من شفاعة بعض المؤمنين لبعض في الدعاء، وشفاعة النبي ﷺ.

ومعنى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: يعلم الغيب الذي تقدمهم والغيب الذي يأتي من بعدهم.

ومعنى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾؛ أي: لا يعلمون الغيب لا مما تقدمهم ولا مما يكون من بعدهم.

ومعنى: ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾: إلا أنبأ به ليكون دليلاً على تثبيت نبوتهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾؛ قيل فيه غير قول؛ قال ابن

عباس: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ علمه»[1]، ويروى عن عطاء أنه قال: «ما السماوات والأرض في الكرسي إلا حلقة في فلاة».

وهذا القول بيّن لأن الذي نعرفه من الكرسي في اللغة: الشيء الذي يعتمد عليه ويجلس عليه، فهذا يدل أن الكرسي عظيم عليه السماوات والأرضون.

والكرسي في اللغة والكراسة: إنما هو الشيء الذي ثبت ولزم بعضه بعضاً، والكرسي: ما تلبد بعضه على بعض في آذان الغنم ومعاطن الإبل.

وقال قوم: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ قدرته التي بها يمسك السماوات والأرض قالوا: وهذا كقولك: اجعل لهذا الحائط كرسياً أي: اجعل له ما يعمده ويمسكه، وهذا قريب منقول ابن عباس رحمه الله.

لأن علمه الذي وسع السماوات والأرض لا يخرج من هذا -والله أعلم- بحقيقة الكرسي إلا أن جملته أنه أمر عظيم من أمره -جل وعز-.

ومعنى: ﴿وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: لا يثقله، فجائز أن تكون الهاء لله -عز وجل-، وجائز أن تكون للكرسي وإذا كانت للكرسي فهو من أمر الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

﴿إِكْرَاهَ﴾ نصب بغير تنوين ويجوز الرفع «لا إكراهٌ» ولا يقرأ به إلا أن تثبت رواية صحيحة.

وقالوا في ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ثلاثة أقوال؛ قال بعضهم: إن هذه نسخها أمر الحرب في قوله -عز وجل-: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[البقرة: ١٩١، والنساء: ٩١].

---

(١) قال المفسرون في المراد «بالكرسي» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كرسي فوق السماء السابعة دون العرش قال النبي ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة» وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء.

والثاني: أن المراد بالكرسي علم الله تعالى، رواه ابن جبير عن ابن عباس.

والثالث: أن الكرسي هو العرش قاله الحسن.

انظر: زاد المسير (٣٠٤/١)، وتفسير الطبري (٦/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٠٩/١)، وتفسير القرطبي (٢٥٦/٣)، وفتح القدير (٤١٠/١)، وتفسير البغوي (٣١٠/١)، وتفسير البيضاوي (٥٥٢/١)، وتفسير أبي السعود (٢٤٨/١)، والدر المنثور (١٠/٢)، وروح المعاني (٩/٣)، والكشاف (١٥٠/١)، ومفردات القرآن (١٢٤٤/١).

وقيل: إن هذه الآية نزلت بسبب أهل الكتاب في أن لا يكرهوا بعد أن يؤدوا الجزية، فأما مشركو العرب فلا يقبل منهم جزية وليس في أمرهم إلا القتل أو الإسلام(١).

وقيل معنى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا تقولوا فيه لمن دخل بعد حرب أنه دخل مكرهاً، لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره.

ومعنى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾؛ قيل: الطاغوت مردة أهل الكتاب، وقيل إن الطاغوت الشيطان، وجملته أن يكفر به، وصدق بالله وما أمر به.

﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: فقد عقد لنفسه عقداً وثيقاً لا تحله حجة.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها، يقال فَصَمت الشيء أَفْصِمه فَصْمَاً أي: قطعته.

ومعنى: ﴿وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: يسمع ما يعقد على نفسه الإنسان من أمر الإيمان ويعلم نيته في ذلك.

وقوله -جل وعز-: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

يقال: «قد تولَّيت فلاناً ووَلَّيت فلاناً وِلايَةً»، والوِلاية بالكسر: اسم لكل ما يتولى،

---

(١) قال المفسرون في سبب نزولها أربعة أقوال:

أحدها: أن المرأة من نساء الأنصار كانت في الجاهلية إذا لم يعش لها ولد تحلف لئن عاش لها ولد لتهودنه، فلما أجليت يهود بني النضير كان فيهم ناس من أبناء الأنصار فقال الأنصار يا رسول الله أبناؤنا فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس.

وقال الشعبي قالت الأنصار والله لنكرهن أولادنا على الإسلام فإنا إنما جعلناهم في دين اليهود إذ لم نعلم ديناً أفضل منه فنزلت هذه الآية.

والثاني: أن رجلاً من الأنصار تنصر هو وولدان قبل أن يبعث النبي ﷺ ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، هذا قول مسروق.

والثالث: أن ناساً كانوا مسترضعين في اليهود فلما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير قالوا والله ليذهبن معهم ولنذهبن بدينهم فمنعهم أهلوهم وأرادوا إكراههم على الإسلام فنزلت هذه الآية.

والرابع: أن رجلاً من الأنصار كان له غلام اسمه صبيح كان يكرهه على الإسلام فنزلت هذه الآية، والقولان عن مجاهد.

انظر: زاد المسير (٣٠٥/١)، وتفسير الطبري (١٥/٣)، وتفسير ابن كثير (٤١٦/١)، وتفسير القرطبي (٧٨/٣)، وفتح القدير (٤١٦/١)، وتفسير البيضاوي (٥٥٧/١)، وتفسير البغوي (٣١٣/١)، والدر المنثور (٢٠/٢)، وروح المعاني (٢٨١/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٦٠٩/١)، ولباب النقول (١٣٧/١).

ومعنى ﴿وَلِيُّ﴾ على ضروب فالله ولي المؤمنين في حجاجهم وهدايتهم، وإقامة البرهان لهم، لأنه يزيدهم بإيمانهم هداية كما قال -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[محمد: ١٧]؛ ووليهم أيضاً في نصرهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم، ووليهم أيضاً بتولي قولهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: يخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور الهدى، لأن أمر الضلالة مظلم غير بيّن وأمر الهدى واضح كبيان النور، وقد قال قوم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يحكم لهم بأنهم خارجون من الظلمات إلى النور، وهذا ليس قول أهل التفسير ولا قول أكثر أهل اللغة، إنما قاله الأخفش وحده[1].

والدليل على أنه يزيدهم هدى ما ذكرناه من الآية، وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[التوبة: ١٢٤].

ومعنى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾؛ أي: الذين يتولون أمرهم هم الطاغوت «وقد فسرنا الطاغوت» و ﴿الطَّاغُوتُ﴾ ههنا واحد في معنى جماعة، وهذا جائز في اللغة، إذا كان في الكلام دليل على الجماعة، قال الشاعر[2] [من الطويل]:

بِها جِيَفُ الحَسرى فَأَمّا عِظامُها فَبيضٌ وَأَمّا جِلدُها فَصَليبُ[3]

«جلدها» في معنى جلودها.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾؛ هذه كلمة يوقف بها المخاطب على أمر يعجب منه ولفظها لفظ استفهام، تقول في الكلام: «ألم تر إلى فلان

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/٣١٧): قال ابن عباس يعني من الكفر إلى النور يعني الإيمان بإذنه أي بأمره ويهديهم إلى صراط مستقيم وهو الإسلام، وقال الحسن: طريق الحق.

(٢) هو: الراعي النميري، واسمه: عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري، أبو جندل: شاعر من فحول المحدثين. كان من جلة قومه، ولقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل. وكان بنو نمير أهل بيت وسؤدد. وقيل: كان راعي إبل، ومن أهل باديه البصرة. عاصر جريراً والفرزدق. وكان يفضل الفرزدق، فهجاه جرير هجاء مراً. وسماه بعض الرواة: «حصين بن معاوية» وفاته: (٩٠ هـ = ٧٠٩ م).

انظر ترجمته في: الأغاني (٢٠/١٦٨)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ١٧٢)، والطبقات لابن سلام (ص: ١١٧)، والشعر والشعراء (ص: ١٥٦)، والأعلام: (الراعي)

(٣) تقدم الكلام عليه.

صنع كذا وكذا وصنع كذا))، وهذا مما أعلمه النبي ﷺ حجة على أهل الكتاب ومشركي العرب لأنه نبأ لا يجوز أن يعلمه إلا من وقف عليه بقراءة كتاب أو تعليم معلم أو بوحي من الله -عز وجل-، فقد علمت العرب الذين نشأ بينهم رسول الله ﷺ أنه أمي وأنه لم يعلم التوراة والإنجيل وأخبار من مضى من الأنبياء، فلم يبق وجه تعلم منه هذه الأحاديث إلا الوحي.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ﴾؛ أي: آتى الكافر الملك، وهذا هو الذي عليه أهل التفسير(١) وعليه يصح المعنى.

وقال قوم: إن الذي آتاه الله الملك إبراهيم -عليه السلام- وقالوا: الله -عز وجل- لا يملك الكفار، وإنما قالوا هذا لذكره -عز وجل-: ﴿آتَاهُ اللهُ المُلْكَ﴾ والله قال: ﴿تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾[آل عمران: ٢٦]؛ فتأويل إيتاء الله الكافر الملك ضرب من امتحانه الذي يمتحن الله به خلقه، وهو أعلم بوجه الحكمة فيه.

والدليل على أن الكافر هو الذي كان ملك أنه قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وأنه دعا برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر(٢)، فلولا أنه كان ملكاً وإبراهيم -عليه السلام- غير ملك لم يتهيأ له أن يقتل، وإبراهيم الملك وهو النبي -عليه السلام-.

وأما معنى احتجاجه على إبراهيم بأنه يحيي ويميت وترك إبراهيم مناقضته في الإحياء والإماتة، فمن أبلغ ما يقطع به الخصوم ترك الإطالة والاحتجاج بالحجة المسكتة، لأن إبراهيم لما قال له: ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ﴾ كان جوابه على حسب ما أجاب في المسألة الأولى أن يقول: فأنا أفعل ذلك فتبين عجزه، وكان في هذا إسكات الكافر، فقال الله -عز وجل-: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ وتأويله: انقطع

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/٢٥)، وتفسير ابن كثير (١/٤١٩)، وفتح القدير (١/٤١٩)، وتفسير البغوي (١/٣١٥)، وتفسير البيضاوي (١/٥٥٩)، وتفسير أبي السعود (١/٢٥١)، والكشاف (١/١٥١)، وتفسير الصنعاني (١/١٠٥).

(٢) رواه ابن جرير في التفسير (٣/٢٥) عن قتادة.

وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير (١/٤١٩)، وتفسير القرطبي (٣/٢٧١)، وفتح القدير (١/٤١٩)، وتفسير البغوي (١/٣١٥)، وتفسير البيضاوي (١/٥٥٩)، والدر المنثور (٢/٢٤)، وروح المعاني (٢٣/١٠٨)، والكشاف (١/١٥١)، وتفسير الصنعاني (١/١٠٣).

وسكت متحيراً.

يقال: بُهِت الرجل يُبْهَت بُهْتاً إذا انقطع وتحير، ويقال بهذا المعنى: ((بَهِتَ الرجل يَبْهَتُ)) ويقال: ((بَهَتُّ الرجل أَبْهَتُه بُهْتَاناً)) إذا قابلته بكذب.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾؛ هذا الكلام معطوف على معنى الكلام الأول، والمعنى -والله أعلم-: أرأيت كالذي مر على قرية، والقرية في اللغة: سميت قرية لاجتماع الناس فيها، يقال: ((قريت الماء في الحوض)) إذا جمعته.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ معنى ﴿خَاوِيَةٌ﴾: خالية، و﴿عُرُوشِهَا﴾؛ قال أبو عبيدة: هي الخيام وهي بيوت الأعراب، وقال غير أبي عبيدة: معنى ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ بقيت حيطانها لا سقوف لها.

ويقال: ((خَوَت الدار والمدينة تَخْوِي خَوَاء)) -ممدود- إذا خلت من أهلها، ويقال فيها: ((خَوِيَت))، والكلام هو الأول، ويقال للمرأة إذا خلا جوفها بعد الولادة وللرجل إذا خلا جوفه من الطعام: ((قد خَوِيَّ وَيَخْوِي خَوىً)) -مقصور-، وقد يقال فيه: ((خَوَى يَخْوِي))، والأول في هذا أجود.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ معناه: من أين يحيي هذه الله بعد موتها.

وقيل في التفسير: ((إنه كان مؤمناً))، وقد قيل: إنه كان كافراً[1]، ولا ينكر أن يكون مؤمناً أحب أن يزداد بصيرة في إيمانه فيقول: ليت شعري كيف تبعث الأموات كما قال إبراهيم -عليه السلام-: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾؛ معناه ثم أحياه لأنه لا يبعث ولا يتصرف إلا وهو حي.

---

(١) قال المفسرون في الذي مر على القرية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عزير، قاله علي بن أبي طالب وأبو العالية وعكرمة وسعيد بن جبير وناجية بن كعب وقتادة والضحاك والسدي و مقاتل.

والثاني: أنه أرمياء، قاله وهب ومجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير.

والثالث: أنه رجل كافر شك في البعث نقل عن مجاهد أيضاً.

انظر: زاد المسير (٣٠٩/١)، وتفسير الطبري (٢٩/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٢١/١)، وتفسير القرطبي (٢٧٥/٣)، وتفسير البغوي (٣١٧/١)، وتفسير البيضاوي (٥٦٠/١)، والدر المنثور (٢٦/٢).

وقوله -عز وجل-: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ يقرأ بتبيين الثاء وبإدغام الثاء والتاء، وإنما أدغمت لقرب المخرجين.

ومعنى: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أنه كان أميت في صدر النهار ثم بعث بعد مائة سنة في آخر النهار، فظن أن مقدار لبثه ما بين أول النهار وآخره، فأعلمه الله أنه قد لبث مائة عام وأراه علامة ذلك ببلى عظام حماره، وأراه طعامه وشرابه غير متغير، وأراه كيف ينشز العظام وكيف تكتسى اللحم، فقال: ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يجوز بإثبات الهاء وبإسقاط الهاء في الكلام، ومعناه: لم تغيره السنون.

فمن قال في «السنة»: «سانهت» فالهاء من أصل الكلمة، ومن قال في «السنة»: «سانيت» فالهاء زيدت لبيان الحركة، ووجه القراءة على كل حال إثباتها والوقوف عليها بغير وصل فمن جعله «سانيت» ووصلها إن شاء، أو وقفها على من جعله من «سانهت»، فأما من قال: إنه من تغير من: «أسن الطعام يأسن» فخطأ.

وقد قال بعض النحويين: إنه جائز أن يكون من التغيير من قولك: «من حمإٍ مسنون» وكأن الأصل عنده «لم يسنن» ولكنه أبدل من النون ياء كما قال [من الرجز]:

* تَقَضِّيَ البازي إِذا البازي كَسَر[1] *

يريد تقضض.

وهذا ليس من ذاك لأن «مسنون» إنما هو مصبوب على سنة الطريق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ يقرأ ﴿نُنشِزُهَا﴾ بالزاي و«ننشرها» بالراء، فمن قرأ «ننشرها» كان معناه: نجعلها بعد بِلاها وهجودها ناشره ينشر بعضها إلى بعض، أي: يرتفع.

والنشر في اللغة: ما ارتفع عن الأرض، ومن قرأ «نُنْشِرها ونَنْشُرها» فهو من أنشر الله الموتى ونشرهم، وقد يقال: نشرهم الله، أي: بعثهم كما قال: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[الملك: ١٥].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) قاله العجاج، والبيت وارد في: تفسير الطبري (٣٦٥/١)، وتفسير القرطبي (١٩٧/١٩)، وتفسير البغوي (٣٥٤/١)، والجمل في النحو (٢٩٨/١)، وسر صناعة الإعراب (٧٥٩/٢)، وأدب الكاتب (٣٧٦/١)، ولسان العرب (٣٥٦/٤)، وتاج العروس (٣١٣٢/١).

معناه: فلما تبين له كيف إحياء الموتى قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن كان كلما قيل: إنه كان مؤمناً فتأويل ذكره: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ليس لأنه لم يكن يعلم قبل ما شاهد، ولكن تأويله: أني قد علمت ما كنت أعلمه غيباً مشاهدة، ومن قرأ: ﴿أَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فتأويله إذا جزم: أنه يقبل على نفسه فيقول: «أَعْلَمْ أيها الإنسان أن الله على كل شيء قدير»، والرفع على الإخبار.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

موضع ﴿وَإِذْ﴾ نصب؛ المعنى: اذكر هذه القصة، وقوله ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾؛ أصله: «أرإني» وقد فسرنا إلقاء هذه الكسرة فيما سلف من الكتاب، وموضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بقوله: ﴿تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: بأي حال تحيي الموتى وإبراهيم -عليه السلام- لم يكن شاكاً[1]، ولكنه لم يكن شاهد إحياء ميت ولا يعلم كيف تجتمع العظام المتفرقة البالية المستحيلة من أمكنة متباينة، فأحب علم ذلك مشاهدة.

ويروى فى التفسير: إنه كان مر بجيفة على شاطئ البحر[2]، والحيتان تخرج من البحر فتنتف من لحم الجيفة، والطير تحط عليها وتنسر منها، ودواب الأرض تأكل منها ففكر كيف يجتمع ما تفرق من تلك الجيفة، فحل في حيتان البحر وطير السماء ودواب الأرض ثم يعود ذلك حياً، فسأل الله تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، فأمره الله أن يأخذ أربعة من الطير وهو قوله -عز وجل-: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ وتقرأ ﴿فَصِرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ بالضم والكسر.

قال أهل اللغة: معنى «صرهن» أَمِلْهن إليك وأجمعهن إليك، قال ذلك أكثرهم، وقال

---

(١) وتفسير سؤاله قال المفسرون: إنه رأى ميتة تمزقها الهوام والسباع فسأل هذا السؤال وهذا ما روي عن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وابن جريج ومقاتل. انظر: زاد المسير (٣١٣/١).

(٢) قيل في الجيفة ثلاثة أقوال:

أحدها: كان رجلاً ميتاً، قاله ابن عباس. والثاني: كان جيفة حمار، قاله ابن جريج ومقاتل. والثالث كان حوتاً ميتاً، قاله ابن زيد.

انظر: زاد المسير (٣١٣/١)، وتفسير الطبري (٤٩/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٢٢/١)، وتفسير البغوي (٣٢٢/١)، وتفسير البيضاوي (٥٦٢/١)، وروح المعاني (٣١/٣)، وتفسير الثعالبي (٢٠٧/١)، والكشاف (١٥٢/١).

بعضهم: «صرهن إليك» أقطعهن، فأما نظير «صرهن» أملهن وأجمعهن فقول الشاعر[١]:

وجَاءَتْ خُلْعة دُهْسٌ صَفَايَا   يَصُورُ عُنُوقَها أَحْوَى زَنِيم[٢]

المعنى: أن هذه الغنم يعطف عنوقها هذا الكبش الأحوى.

ومن قال صرت: قطعت، فالمعنى فخذ أربعة من الطير ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ أي: قطعهن.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً﴾؛ المعنى: اجعل على كل جبل من كل واحد منهن جزءاً. ففعل ذلك إبراهيم -عليه السلام- ثم دعاهن فنظر إلى الريش يسع بعضه إلى بعض، وكذلك العظام واللحم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: لا يمتنع عليه ما يريد، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يدبر لا يفعل إلا ما فيه الحكمة.

فشاهد إبراهيم -عليه السلام- ما كان يعلمه غيباً رأي عين، وعلم كيف يفعل الله ذلك.

فلما قص الله ما فيه البرهان والدلالة على أمر توحيده، وما آتاه الرسل من البينات، حث على الجهاد وأعلن أن من عانده بعد هذه البراهين فقد ركب من الضلال أمراً عظيماً، وأن من جاهد من كفر بعد هذا البرهان فله في جهاده ونفقته فيه الثواب العظيم وأن الله -عز وجل- وعد في الجنة عشر أمثالها من الجهاد، ووعد في الجهاد أن يضاعف الواحد بسبع مائة مرة لما في إقامة الحق من التوحيد، وما في الكفر من عظم الفساد فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: جواد لا ينقصه ما يتفضل به من السعة ﴿عَلِيمٌ﴾ حيث يضعه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾.

فالمن: أن تمن بما أعطيت وتَعْتَدَّ به كأنك إنما تقصد به الاعتداد، والأذى: أن توبخ المعطي.

فأعلم أن الله -عز وجل- أن المن والأذى يبطلان الصدقة كما تبطل نفقة المنافق الذي إنما يعطي وهو لا يريد بذلك العطاء ما عند الله، إنما يعطي ليوهم أنه مؤمن، وقال -

---

(١) هو: معلَّى بن حَمَّال العَبْدِيّ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٩/٣)، ولسان العرب (٤٧١/٤)، وتاج العروس (٣٩٤٩/١).

عز وجل-: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾؛ والصفوان: الحجر الأملس، وكذلك الصفا.

وقوله -عز وجل-: ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾.

والوابل: المطر العظيم القطر، فإذا أصاب هذا المطر الحجر الذي عليه تراب لم يبق عليه من التراب شيء، وكذلك تبطل نفقة المنافق المنان والمؤذي.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: لا يجعلهم بكفرهم مهتدين، وقيل: لا يجعل جزاءهم على الكفر أن يهديهم.

ثم ضرب الله لمن ينفق يريد ما عند الله ولا يمن ولا يؤذي مثلاً، فقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ليطلب مرضاة الله.

﴿وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ينفقونها مقرين أنها مما يثيب الله عليها.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ بفتح الراء، و﴿بِرُبْوَةٍ﴾ بالضم، و﴿بِرِبْوَةٍ﴾ بالكسر، و«بِرِباوة» وهذا وجه رابع.

والربوة: ما ارتفع من الأرض، والجنة: البستان، وكل ما نبت وكثف وكثر وستر بعضه بعضاً فهو جنة، والوضع المرتفع إذا كان له ما يرويه من الماء فهو أكثر ريعاً من المستنفل.

فأعلم الله -عز وجل- أن نفقه هؤلاء المؤمنين تزكو كما يزكو نبت هذه الجنة التي هي في مكان مرتفع.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾: وهو المطر العظيم القطر.

﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: ثمرها، ويقرأ ﴿أُكْلَهَا﴾ والمعنى واحد.

﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مثلين.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾؛ و«الطل» المطر الدائم الصغار القطر، الذي لا يكاد يسيل منه المثاعب.

ومعنى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: عليم، وإذا علمه جازى عليه.

والذي ارتفع عليه ﴿فَطَلٌّ﴾ أنه على معنى فإن لم يصبها وابل فالذي يصيبها طل.

وقوله -جل ثنائه-: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

هذا مثل ضربه الله لهم للآخرة وأعلمهم أن حاجتهم إلى الأعمال الصالحة كحاجة هذا الكبير الذي له ذرية ضعفاء، فإن احترقت جنته وهو كبير وله ذرية ضعفاء انقطع به، وكذلك من لم يكن له في الآخرة عمل يوصله إلى الجنة فحسرته في الآخرة -مع عظيم

الحسرة فيها- كحسرة هذا الكبير المنقطع به في الدنيا.

ومعنى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ الإعصار: الريح التي تهب من الأرض كالعمود إلى نحو السماء، وهي التي تسميها الناس: «الزوبعة» وهي ريح شديدة لا يقال إنها إعصار حتى تهب بشدة قال الشاعر:

* إن كُنتُ ريحاً فَقَد لاقيتَ إعصارَاً[1] *

ومعنى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾؛ أي: كهذا البيان الذي قد تبين الصدقة، والجهاد، وقصة إبراهيم -عليه السلام-، والذي مر على القرية، وجميع ما سلف من الآيات، أي: كمثل بيان هذه الأقاصيص ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ أي: العلامات والدلالات التي تحتاجون إليها في أمر توحيده وإثبات رسالات رسله وثوابه وعقابه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله -تبارك اسمه-: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾.

فالمعنى: أنفقوا من جيد ما كسبتموه من تجارة ومن ورق وعين، وكذلك من جيد الثمار.

ومعنى ﴿أَنفِقُوا﴾: تصدقوا، وكان قوم أتوا في الصدقة برديء الثمار.

ويروى عن النبي ﷺ أنه أمر السعاء ألا يُخَرِّصَ الجُعْرورَ ومَعِي الفأرة، وذلك أنها من رديء النخل فأمر ألا تخرص عليهم، لئلا يعتلوا به في الصدقة[2].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾.

أي: لا تقصدوا إلى رديء المال والثمار فتصدقوا به وأنتم تعلمون أنكم لا تأخذونه إلا بالإغماض فيه.

ومعنى: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾؛ يقول: أنتم لا تأخذونه إلا بوَكْسٍ،

---

(١) من أمثال العرب، ورد عند الزمخشري في المستقصى في أمثال العرب (١/٣٧٣)، وأبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص: ١٦٠)، والعسكري في جمهرة الأمثال (١/٦)، ومجمع الأمثال (١/٣٠)، ولسان العرب (٤/٥٧٥).

(٢) والمراد بالصدقة المعبر عنها بالإنفاق في هذه الآية قيل قولان:
أحدهما: أنها الصدقة المفروضة قاله عبيدة السلماني. والثاني: أنها التطوع.
انظر: زاد المسير (١/٣٢٢).

فكيف تعطونه في الصدقة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: لم يأمركم بأن تتصدقوا من عوز، ولكنه لاختباركم فهو حميد على ذلك وعلى جميع نعمه.

يقال: «قد غَنِي زيد» -مقصور- إذا استغنى، «وقد غَنِي القوم»: إذا نزلوا في مكان يقيهم، والمكان الذي ينزلون فيه: «مَغْنَىً»، «وقد غَنَّى فلان غِناء» بالغ في التطريب في الإنشاد حتى يستغني الشعر أن يزاد في نغمته، «وقد غنيت المرأة غُنْيَاناً»، قال قيس بن الخطيم [من المتقارب]:

أَجَدَّ بِعَمرَةَ غُنيانُها فَتَهجُرَ أَم شَأنُنا شانُها[1]

«غُنيانُها»: غناها.

والغواني: النساء، قيل: إنهن سمين غواني لأنهن غَنَين بجمالهن، وقيل: بأزواجهن.

وقوله -جل وعلا-: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ﴾.

يقال: «الفَقْر والفَقَر» جميعاً، والمعنى: أنه يحملكم على أن تؤدوا في الصدقة رديء المال يخوفكم الفقر بإعطاء الجيد، ومعنى ﴿يَعِدُكُمُ الفَقْرَ﴾: يعدكم بالفقر، ولكن الباء حذفت وأفضى الفعل فنصب، كما قال الشاعر[2] [من البسيط]:

أَمَرتُكَ الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ به فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ[3]

ويقال: وَعدته أَعده وَعْداً ومَوعداً وموعِدَةً ومؤعُوداً ومَوْعُودة.

ومعنى: ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي: بأن لا تتصدقوا فتتقاطعوا.

ومعنى: ﴿وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾؛ أي: يعدكم أن يجازيكم على صدقتكم

(١) انظر: الأغاني (٤١٧/٢)، ولسان العرب (١٧٥/١٣)، وتاج العروس (٨٥٢٨/١).

(٢) هو: عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٧٣/٦)، وتفسير القرطبي (٣١١/٣)، وتفسير البيضاوي (١/-٢١٧)، وتفسير أبي السعود (١١١/١)، وروح المعاني (٦٨/٧)، وزاد المسير (٣٢٣/١)، ومعاني القرآن (٣٧٠/١)، والكشاف (٦٤٧/١)، والأصول في النحو (١٧٨/١)، والمفصل في صنعة الإعراب (٣٨٧/١)،شرح شذور الذهب (٤٧٧/١)، وكتاب اللامات (١٣٩/١)، ومغني اللبيب (٤١٥/١)، وشرح كتاب الأمثال (٢٨١/١).

بالمغفرة ويعدكم أن يخلف عليكم.

ومعنى: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ ﴿وَاسِعٌ﴾ يعطي من سعة، و﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم حيث يضع ذلك ويعلم الغيب والشهادة.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾.

معنى ﴿يُؤْتِي﴾ يعطي، و﴿الْحِكْمَةَ﴾ فيها قولان[1]؛ قال بعضهم: هي، النبوة، ويروى عن ابن مسعود: أن الحكمة هي القرآن، وكفى بالقرآن حكمة، لأن الأمة به صارت علماء بعد جهل، وهو وصلة إلى كل علم يقرب من الله -عز وجل- وذريعة إلى رحمته، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾؛ أي: أعطي كل العلم وما يوصل إلى رحمة الله.

و﴿يُؤْتَ﴾ جزم بـ ((من))، والجواب ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾.

ومعنى ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾؛ أي: ما يفكر فكراً يذكر به ما قص من آيات القرآن إلا أولو الألباب، أي: ذوو العقول.

وواحد ((الألباب)): ((لُبّ))، يقال: ((قد لَبِبْت يا رجل، وأنت تَلَب، لَبابة ولُبّاً))، وقرأت على محمد بن يزيد عن يونس: لَبُبت لَبابَةً، وليس في المضاعف على فعلت غير هذا، ولم يروه أحد إلا يونس وسألت غير البصريين عنه فلم يعرفه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾.

---

(١) ذكر المفسرون في المراد بهذه ((الحكمة)) أحد عشر قولاً:

أحدها: أنها القرآن قاله ابن مسعود ومجاهد والضحاك ومقاتل في آخرين.

والثاني: معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره ونحو ذلك، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: النبوة رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: الفهم في القرآن قاله أبو العالية وقتادة وإبراهيم. والخامس: العلم والفقه رواه ليث عن مجاهد. والسادس: الإصابه في القول، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. والسابع: الورع في دين الله قاله الحسن. والثامن: الخشية لله، قاله الربيع بن أنس. والتاسع: العقل في الدين، قاله ابن زيد. والعاشر: الفهم، قاله شريك. والحادي عشر: العلم والعمل لا يسمى الرجل حكيماً إلا إذا جمعهما قاله ابن قتيبة.

انظر: زاد المسير (١/٣٢٤)، وتفسير الطبري (٣/٨٩)، وتفسير ابن كثير (١/٤٢٨)، وتفسير القرطبي (٣/٣١٣)، وفتح القدير (١/٤٣٨)، وتفسير البغوي (١/٣٣٤)، وتفسير البيضاوي (١/٥٧٠)، وروح المعاني (٣/٤١)، والكشاف (١/١٥٦)، وتفسير مجاهد (١/١١٦).

أي: ما تصدقتم به من فرض لأنه في ذكر صدقة الزكاة وهي الفرض، والنذر: التطوع وكل ما نوى الإنسان أن يتطوع به فهو نذر.

﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ أي: لا يخفى عليه فهو يجازي عليه كما قال جل ثناؤه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧]، يقال: ((نَذَرت النَّذْر أَنذِرُه وأَنْذُرُه))، والجميع: ((النُّذُور))، ((وأَنْذَرْت القوم)) إذا أعلمتهم وخوفتهم إِنْذاراً ونَذِيراً ونُذراً، قال الله -عز وجل-: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[الملك: ١٧]، وقال -جل ثناؤه-: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[القمر: ١٦].

النُّذُر مثل النُّكُر، والنَّذِير مثل النَّكِير.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾.

معنى ﴿إِن تُبْدُوا﴾: تظهروا، يقال: ((بدا الشيء يبدو)) إذا ظهر، ((وأَبدَيته أَنَا إِبدَاءً)) إذا أظهرته، ((وبَدَا لي بُدَاء)) إذا تغير رأيي عما كان عليه.

و﴿تُبْدُوا﴾ جزم بإن، وقوله: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ الجواب، وروى أبو عبيد أن أبا جعفر وشيبة[1] ونافعاً وعاصماً وأبا عمرو بن العلاء قرؤوا: ﴿فَنِعْمَّا هِيَ﴾ بكسر النون وجزم العين وتشديد الميم، وروي أن يحيى بن وثاب والأشمس وحمزة[2] والكسائي قرؤوا: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ بفتح النون وكسر العين.

---

(١) قاضي المدينة وإمام أهلها في القراءات، وكان من ثقات رجال الحديث. توفي عام ١٣٠هـ= ٧٤٧م.

(٢) هو: حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، والتيمي، والكوفي، وأبو عمارة، والمعروف بالزيات، وكان من موالي التيم فنسب إليهم.

أحد القراء السبعة. ولد حمزة سنة (٨٠ هـ = ٦٩٩ م - ٧٠٠م)، وكان يجلب الزيت من الكوفة إلى حُلْوان (في أواخر سواد العراق مما يلي بلاد الجبل).

قرأ على التابعين، فاستفتح القرآن من حمران وعرض على الأعمش وأبي إسحاق، وغيرهم، وتصدر للإقراء فقرأ عليه جل أهل الكوفة، وانعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول، وأخذ القراءة عنه أبو الحسن الكسائي وسليم بن عيسى، وغيرهم.

قال ابن الجزري: ((وإليه صارت الإمامة في القراءة بعد عاصم والأعمش وكان إماماً حجة ثقة ثبتاً رضيّ قيماً بكتاب الله بصيراً بالفرائض عارفاً بالعربية حافظاً للحديث عابداً خاشعاً زاهداً ورعاً قانتاً لله عديم النظير)). وتوفي حمزة سنة (١٥٦ هـ= ٧٧٣ م).

انظر ترجمته في: الزركلي: شذرات الذهب (٢٤٠/١)، ووفيات الأعيان (٢١٦/٢، ت: ٢٠٨) وغاية النهاية (٢٦١/١ - ٢٦٣، ت: ١١٩٠). والطبقات لابن سعد (٣٨٥/٦).

وذكر أبو عبيدة أنه روي عن النبي ﷺ قوله لابن العاص: «نعماً بالمال الصالح للرجل الصالح»[1] فذكر أبو عبيدة أنه يختار هذه القراءة من أجل هذه الرواية.

ولا أحسب أصحاب الحديث ضبطوا هذا، ولا هذه القراءة عند البصريين النحويين جائزة البتة، لأن فيها الجمع بين ساكنين من غير حرف مد ولين.

فأما ما قرأناه من حرف عاصم رواية أبي عمرو ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ بكسر النون والعين فهذا جيد بالغ، لأن ههنا كسر العين والنون، وكذلك قراءة أهل الكوفة «نَعِمَّا هي» جيدة، لأن الأصل في: «نِعْمَ»: «نَعِمَ ونِعِمَ ونِعْمَ» فيها ثلاث لغات، ولا يجوز مع إدغام الميم «نِعْمَّا هي»، و«ما» في تأويل الشيء، زعم البصريون أن «نِعِمَّا هي»: نِعْمَ الشيء هي، وقد فسرنا هذا فيما مضى.

ومعنى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛

هذا كان على عهد رسول الله ﷺ فكان الإخفاء في إيتاء الزكاة أحسن، فأما اليوم فالناس يسيئون الظن فإظهار الزكاة أحسن، فأما التطوع فإخفاؤه أحسن لأنه أدل على أنه يريد الله به وحده .

يقال: «أَخْفَيت الشيء إِخفاء» إذا سترته، «وخَفِي خَفَاء» إذا استتر، وخَفَيْته أَخْفِيه خَفْياً» إذا أظهرته، وأهل المدينة يسمون النباش: «المُخْتَفِي»، قال الشاعر[2] في «خفيته»: أظهرته [من المتقارب]:

فَإِن تَدفُنوا الداءَ لا نُخفِهِ وَإِن تَبعَثوا الحَربَ لا نَقعُدِ[3]

وقوله -عز وجل-: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾.

معناه: إنما عليك الإبلاغ كما قال -جل وعز- ﴿وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[البقرة: ١١٩].

ومعنى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: يوفق من يشاء للهداية، وقال قوم: لو شاء الله لهداهم، أي: لاضطرهم إلى أن يهتدوا، كما قال: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء: ٤]، وكما قال -عز وجل- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ

---

(١) رواه ابن حبان (٦/٨، ورقم: ٣٢١٠)، والحاكم في المستدرك (٣/٢، ورقم: ٢١٣٠) من رواية عمرو.

(٢) وهو: امرئ القيس.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤٠١/٨)، وتفسير القرطبي (١٦٦/١١).

عَلَى الهُدَى﴾[الأنعام: ٣٥] وهذا ليس كذلك، هذا فيه: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾؛ فلا مهتدي إلا بتوفيق الله كما قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾[هود: ٨٨].

ومعنى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾؛ هذا خاص للمؤمنين، أعلمهم أنه قد علم أنهم يريدون بنفقتهم ما عند الله -جل وعز- لأنه إذا أعلمهم ذلك فقد علموا أنهم مثابون عليه كما قال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾(١).

الرفع في ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ والجزم جائزان ويقرأ: «ونكفر عنكم» بالنون والياء، وزعم سيبويه أنه يختار الرفع في ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ قال: لأن ما بعد الفاء قد صار بمنزلته في غير الجزاء، وأجاز الجزم على موضع: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن المعنى: يكن خيراً لكم، وذكر أن بعضهم قرأ: ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرْهُمْ﴾[الأعراف: ١٨٦] بجزم الراء، والاختيار عنده الرفع في قوله ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ وفي «وتكفر» قال: فأما النصب فضعيف جداً، لا يجيز «ونكفرْ عنكم» إلا على جهة الاضطرار، وزعم أنه نحو قول الشاعر(٢):

سَأَتْرُكُ مَنزِلِي لِبَنِي تَمِيمٍ وَأَلحَقُ بِالحِجازِ فَأَسْتَرِيحا(٣)

إلا أن النصب أقوى قليلاً، لأنه إنما يجب به الشيء بوجوب غيره، فضارع الاستفهام وما أشبهه، هذا قول جميع البصريين وهو بيّن واضح.

قوله -عز وجل-: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

«فقراء» جمع فقير مثل ظريف وظرفاء، وقالوا في ﴿أُحْصِرُوا﴾ قولين؛ قالوا: أحصرهم فرض الجهاد فمنعهم من التصرف، وقالوا: أحصرهم عدوهم لأنه شغلهم بجهاده، ومعنى ﴿أُحْصِرُوا﴾ صاروا إلى أن حصروا أنفسهم للجهاد كما تقول: «رابط في

---

(١) عاد المصنف إلى الآية السابقة: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ويبدو أنه عاد إليها لذكر وجه إعرابها.

(٢) ينسب لرجل من بني تميم، وقيل هو: للمغيرة بن حبناء، وحبناء أمه واسمها ليلى وهو: المغيرة بن عمرو بن ربيعة بن أسيد بن عبد عوف بن عامر بن ربيعة وهو ربيعة الوسطي بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ويكنى أبا عيسى. وكان أبرص وهو شاعر المهلب أنفد شعره في مدحه ومدح بنيه وذكر حربهم للأزارقة. انظر: الكتاب لسيبويه (٤٢٣/١)، والمقاصد (٣٩٠/٤).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٨٦/١)، وروح المعاني (٢٠/١٧)، والكشاف (٧٧٨/١)، والأصول في النحو (٢/ ١٨٢)، وشرح شذور الذهب (٣٨٩/١).

سبيل الله)).

ومعنى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: فقد ألزموا أنفسهم أمر الجهاد، فمنعهم ذلك من التصرف وليس لأنهم لا يقدرون أن يتصرفوا، وهذا كقولك: ((أمرني المولى أن أقيم فما أقدر على أن أبرح)) فالمعنى: أني قد ألزمت نفسي طاعته ليس أنه لا يقدر على الحركة، وهو صحيح سوي، ويقال: ((ضَربت في الأرض ضَرْباً وضَرَبَ الفحل الناقة)) إذا حمل عليها ضِرَاباً، ((والضَّريب)) الجليد الذي يسقط على الأرض، يقال: ((ضَرِبَت الأرض وجُلِدت الأرض وجَلِدت الأرض))، وروى الكسائي: ((ضَرِبت الأرض وجَلِدت))، والأكثر: ((ضَرِبَتْ وجُلِدَت)).

ومعنى ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾؛ أي: يحسبهم الجاهل ويخالهم أغنياء من التعفف عن المسألة وإظهار التجمل.

ومعنى: ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾.

روي عن النبي ﷺ أنه قال ((من سأل وله أربعون درهماً فقد أَلْحَفَ)).

ومعنى ((ألحف)) أي: اشتمل بالمسألة وهو مستغن عنها، واللَّحَافُ من هذا اشتقاقه، لأنه يشمل الإنسان في التغطية.

والمعنى: أنه ليس منهم سؤال فيكون منهم إلحاف، كما قال أمرؤ القيس [من الطويل]:

عَلى لاحِبٍ لا يَهتَدي بِمَنارِهِ إِذا سافَهُ العَودُ النُباطِيُّ جَرجَرا[1]

المعنى: ليس به منار فيهتدى بها، وكذلك ليس من هؤلاء سؤال فيقع فيه إلحاف.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء وجاز أن يكون الخبر ما بعد الفاء، ولا يجوز في الكلام ((زيد فمنطلق)) لأن الفاء لا معنى لها، وإنما صلح في ((الذين)) لأنها تأتي بمعنى الشرط والجزاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ

---

(١) انظر: روح المعاني (٢٩١/١)، والكشاف (١٥٧/١)، والإيضاح في علوم البلاغة (١٧٦/١)، وتاج العروس (٥٩٢٧/١).

الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

المعنى: الذين يأكلون الربا لا يقومون في الآخرة إلا كما يقوم المجنون من حال جنونه.

زعم أهل التفسير أن ذلك عَلَم لهم في الموقف، يعرفهم به أهل الموقف(١)، يعلم به أنهم أكلة الربا في الدنيا، يقال: «بفلان مس وهو ألمس وأولق» إذا كان به جنون.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: قد صفح له عما سلف ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الله وليه.

ومعنى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؛ أي: من عاد إلى استحلال الربا فهو كافر، لأن من أحل ما حرم الله فهو كافر، وهؤلاء قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ومن اعتقد هذا فهو كافر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

نزلت في قوم من أهل الطائف، كانوا صُولحوا على أن وضع عنهم ما كان عليهم من الربا، وجعل لهم أن يأخذوا ما لهم من الربا، وكان لهم على قوم من قريش مال فطالبوهم عند المحل بالمال والربا، فقالت تلك الفرقة: «ما بالنا من أشقى الناس يؤخذ منا الربا الذي قد وضع عن سائر الناس» فأمر الله -عز وجل- بترك هذه البقية، وأعلم أن من كان مؤمناً قَبلَ عن الله أمره، ومن أبى فهو حرب، أي: كافر، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾(٢).

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٣٣٠): المس الجنون يقال رجل ممسوس فالناس إذا خرجوا من قبورهم أسرعوا، إلا أكلة الربا، فإنهم يقومون ويسقطون لأن الله أربى الربا في بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإسراع. وقال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا إذا استحله يوم القيامة.
وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٣/١٠١)، وتفسير ابن كثير (١/٤٣٦)، وتفسير القرطبي (٣/٣٣٠)، وتفسير البغوي (١/٣٤٠)، والكشاف (١/١٥٨).

(٢) وقال المفسرون في سبب نزولها ثلاثة أقوال:
أحدها: أنها نزلت في بني عمرو بن عمير بن عوف من ثقيف وفي بني المغيرة من بني مخزوم وكان بنو المغيرة يأخذون الربا من ثقيف، فلما وضع الله الربا طالبت ثقيف بني المغيرة بما لهم عليهم فنزلت هذه الآية والتي بعدها، هذا قول ابن عباس.

=

وقال بعضهم: ((فآذِنوا)) فمن قال ﴿فَأْذَنُوا﴾ فالمعنى: أيقنوا، ومن قال: ((فآذِنوا)) كان معناه: فاعلموا كل من لم يترك الربا أنه حرب.

يقال: ((قد آذَنْتُه بكذا وكذا أُوذِنه إيذَانا)) إذا أعلمته، ((وقد أَذِن به يَأْذَن إِذْناً)) إذا علم به.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾.

أي: وإن وقع ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ ولو قرئت: ((وإن كان ذا عسرة)) لجاز، أي: وإن كان المدين الذي عليه الدين ذا عسرة، ولكن لا يخالف المصحف، والرفع على أنَّ ﴿وَإِن كَانَ﴾ على معنى ((إن وقع)) ذو عسرة، ورفع ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ على: فعلى الذي تعاملونه نظرة أي: تأخير.

يقال: ((بعته بيعاً بنظرة))، ومن قال: ((فناظرة إلى ميسرة)) ففعاله من أسماء المصادر نحو ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ [الواقعة: ٢]﴾، ونحو ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٥]، وإن شئت قلت: ((إلى مَيْسُرة))، فأما من قرأ ((إلى مَيْسُرِهِ) على جهة الإضافة إلى الهاء فمخطئ لأن ((ميسُر)) مفعل وليس في الكلام مفعل.

وزعم البصريون أنهم لا يعرفون ((مفْعَلاً)) إنما يعرفون ((مفْعُلة)).

فأمرهم الله بتأخير رأس المال بعد إسقاط الربا، إذا كان المطالب معسراً، وأعلمهم أن الصدقة برأس المال عليه أفضل فقال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

=

والثاني: أنها نزلت في عثمان بن عفان والعباس كانا قد أسلفا في التمر فلما حضر الجذاذ، قال صاحب التمر: إن أخذتما مالكما لم يبق لي ولعيالي ما يكفي فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما ففعلا، فلما حل الأجل طلبا الزيادة فبلغ ذلك النبي ﷺ فنهاهما فنزلت هذه الآية، هذا قول عطاء وعكرمة.

والثالث: أنها نزلت في العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية وكانا يسلفان بالربا، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فنزلت هذه الآية فقال النبي ﷺ: ((ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس))، هذا قول السدي ومروي عن ابن عباس وعكرمة والضحاك.

انظر: زاد المسير (٣٣٢/١)، وتفسير الطبري (١٠٦/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٤١/١)، وتفسير القرطبي (٢٤٠/٣)، وفتح القدير (٤٥٠/١)، وتفسير البغوي (٣٤٤/١)، والدر المنثور (١٠٧/٢)، والعجاب في بيان الأسباب (٦٣٩/١).

وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

هذا يوم القيامة، ويقال: إنها آخر آية نزلت من كتاب الله جل وعز، كذا جاء في التفسير(١).

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾.

يقال: ((دَايَنْت الرجل)) إذا عاملته بدين، أخذت منه وأعطيته، ((وتَدَايَنَّا)) على: دايَنْتُه، قال الشاعر(٢) [من الرجز]:

دَايَنْت أَرْوَى وَالدُّيونُ تُقْضَى فَمَطَلَتْ بَعْضاً وَأَدَّتْ بَعْضَا(٣)

ويقال: ((دِنْت وأَدَنْتُ)) أي: اقترضت، ((وأَدَنْتُ)) إذا أقرضت. قال الشاعر(٤) [من المتقارب]:

أَدانَ وَأَنبَأَهُ الأَوَّلو نَ أَنَّ المُدانَ المَلِيَّ الوَفِيُّ(٥)

فالمعنى: إذا كان لبعضكم على بعض دين إلى أجل مسمى فاكتبوه، فأمر الله -عز وجل- بكتب الدين حفظاً منه للأموال، وكذلك الإشهاد فيها، وللناس من الظلم لأن صاحب الدين إذا كانت عليه الشهود والبينة قل تحديثه نفسه بالطمع في إذهابه، فأمر الله -جل وعز- بالإشهاد والكتاب

قال بعض أهل اللغة: هذا أدب من الله -عز وجل-، وليس بأمر حتم كما قال -عز وجل-: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة: ٢] فليس يجب كلما يحل من الإحرام أن يصطاد، وكما قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾[الجمعة: ١٠].

وهذا خلاف ما أمر الله به في كتاب الدين والإشهاد، لأن هذين جميعاً إباحة بعد تحريم قال الله -عز وجل-: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾[المائدة: ٩٦]، وقال: ﴿لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]، ثم أباح لهم -إذا زال الإحرام- الصيد،

---

(١) وهو مروي عن ابن عباس رواه ابن جرير في التفسير (٣/١١٥).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٣٣٤) وهو قول: ابن عباس وأبو سعيد الخدري وسعيد بن جبير وعطية ومقاتل.

(٢) هو: رؤبة بن العجاج.

(٣) زاد المسير (١/٣٣٦)، والكشاف (١/١٥٩)، والخصائص (٢/٩٦)، وسر صناعة الإعراب (٢/٤٩٣)، والأغاني (٢٠/٣٥٨)، ولسان العرب (٧/١١٥)، وتاج العروس (١/٤٥٧٠).

(٤) هو: أبو ذؤيب الهذلي.

(٥) انظر: أدب الكاتب (١/٢٧١)، ولسان العرب (١١/٧١٥)، وتاج العروس (١/٧٥٧٠).

وكـذلك قـال: ﴿إِذَا نُـودِيَ لِلصَّـلاةِ مِـن يَـوْمِ الجُمُعَـةِ فَاسْـعَوْا إِلَـى ذِكْـرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ﴾[الجمعة: ٩] فأباح لهم بعد انقضاء الصلاة الابتغاء من فضله والانتشار في الأرض، لِمَا أرادوا من بيع وغيره.

وليست آية الدين كذلك ولكن الذي رخص في ترك الإشهاد في قول قوم قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾[البقرة: ٢٨٣]؛ أي: يكتب بالحق، لا يكتب لصاحب الدين فضلاً على الذي عليه الدين ولا ينقصه من حقه، فهذا العدل.

ومعنى: ﴿وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ﴾.

أي: لا يأب أن يكتب كما أمره الله به من الحق، وقيل ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أي: كما فضله الله بالكتاب فلا يمنعن المعروف بكتابه.

وأبى يأبى في اللغة: منفرد، لم يأت مثله إلا ((قلى يقلَى)) والذي أتى ((أبى يأبَى)) لا غير ((فَعَل يفعَل)) وهذا غير معروف إلا أن يكون في موضع العين من الفعل، أو اللام حرف من حروف الحلق وقد بيناها، ولكن القول فيه أن الألف في ((أبى)) أشبهت الهمزة فجاء يفعَل مفتوحاً لهذه العلة، وهذا القول لإسماعيل بن إسحاق ومثله: ((يلقَى)).

ومعنى قوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقص من شيئاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾.

السفيه: الخفيف العقل، ومن هذا قيل: ((تَسَفَّهَتِ الريح الشيء)) إذا حركته واستخفته قال الشاعر[1] [من الطويل]:

مَشَيْنَ كَما اهتَزَّت رِماحٌ تَسَفَّهَت أَعالِيَها مَرُّ الرِّياحِ النَّواسِمِ[2]

فالنساء والصبيان اللاتي لا يميزن تميزاً صحيحاً سفهاء، والضعيف في عقله ((سفيه))، والذي لا يقدر على الإملاء ((العَيي)).

وجائز أن يكون الجهول ((سفيهاً)) كهؤلاء.

---

(١) وهو: ذو الرمة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٥١/١)، وفتح القدير (٤٥٢/١)، وزاد المسير (٣٤/١)، والتحرير والتنوير (٤١٦/١)، والأصول في النحو (٧٢/٢)، والخصائص (٤١٧/٢)، وشرح ابن عقيل (٥٠/٣)، ولسان العرب (٢٨٧/٣)، وتاج العروس (٢١١٧/١).

ومعنى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: الذي يقوم بأمره، لأن الله أمر ألا نؤتي السفهاء الأموال، وأمر أن يقام لهم بها فقال: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾[النساء: ٥]، فوليه الذي يقوم مقامه في ماله لو كان مميزاً.

وقال قوم: ولي الدين، وهذا بعيد، كيف يقبل قول المدعي وما حاجتنا إلى الكتاب والإشهاد والقول قوله.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ معنى رجالكم من أهل ملتكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾.

أي: فالذي يشهد -إن لم يكن رجلان- رجل وامراتان.

ومعنى ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أي: ممن ترضون مذهبه، ودل بهذا القول أن في الشهود من ينبغي ألا يرضى.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾.

من كسر ﴿أَن﴾ فالكلام على لفظ الجزاء ومعناه؛ المعنى: في «إن تضل» إن تنسى إحداهما تذكرها الذاكرة فتذكر، و«فتذكر» رفع مع كسر «إن» لا غير، ومن قرأ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ﴾ وهي قراءة أكثر الناس فزعم بعض أهل اللغة فيها أن الجزاء فيها مقدم، أصله التأخير وقال: المعنى: استشهدوا امرأتين مكان الرجل كي تذكر الذاكرة الناسية إن نسيت، فلما تقدم الجزاء اتصل بأول الكلام وفتحت «أن» وصار جوابه مردوداً عليه، ومثله: «إني ليعجبني أن يسأل السائل فيعطى» قال: والمعنى: إنما يعجبه الإعطاء إن سأل السائل، وزعم أن هذا قول بيّن.

ولست أعرف لم صار الجزاء إذا تقدم وهو في مكانه أو في غير مكانه وجب أن يفتح «أن» معه.

وذكر سيبويه والخليل وجميع النحويين الموثوق بعلمهم أن المعنى: استشهدوا امرأتين لأن تذكر إحداهما الأخرى، ومن أجل أن تذكر إحداهما الأخرى.

قال سيبويه: فإن قال إنسان فلم جاز ﴿أَن تَضِلَّ﴾ وإنما أعد هذا للإذكار ؟ فالجواب: أن الإذكار لما كان سببه الإضلال جاز أن يذكر ﴿أَن تَضِلَّ﴾ لأن الإضلال هو السبب الذي أوجب الإذكار، قال: ومثله: «أعددت هذا الجذع أن يميل الحائط فأدعمه» وإنما أعددته للدعم لا للميل، ولكن الميل ذكر لأنه سبب الدعم، كما ذكر الإضلال لأنه سبب الإذكار، فهذا هو البيّن إن شاء الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾.

يروى عن الحسن أنه قال: ﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لإبداء الشهادة أي: ولا يأبوا إذا دعوا لإقامتها.

وهذا الذي قال الحسن هو الحق -والله أعلم- لأن الشهداء إذا أبوا -وكان ذلك لهم- أن يشهدوا تَوِيَتْ حقوقهم وبطلت معاملاتهم فيما يحتاجون إلى التوثق فيه.

وقال غير الحسن: ﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ -وكانت في أعناقهم شهادة- أن يقيموها، فأما إذا لم يكونوا شهداء فهم مخيرون في إبداء الشهادة إن شاؤوا شهدوا وإن شاؤوا أبوا.

ويدل على توكيد أن الشاهد ينبغي له إذا ما دعي لإبداء أن يجيب قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ﴾ أي: لا تملوا أن تكتبوا ما أشهدتم عليه.

فقد أمروا بهذا، فهذا يؤكد أن أمر الشهادة في الإبداء واجب، وأنه لا ينبغي أن يمل، ويقال: «سَئِمت أَسْأَم سَآمَة وسَأماً» قال الراجز:

لما رأَيْتُ أَنَّهُ لا قامَهْ وأَنَّني ساقٍ على السَّآمَهْ

نَزَعْتُ نَزْعاً زَعْزَعَ الدِّعامَهْ(1)

ومعنى: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾؛ أكثر القراء على الرفع ﴿تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ﴾ على معنى: إلا أن تقع تجارة حاضرة.

ومن نصب ﴿تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ وهي قراءة عاصم، فالمعنى: إلا أن تكون المداينة تجارة حاضرة، والرفع أكثر وهي قراءة الناس.

فرخص الله -عز وجل- في ترك كتابة ما يديرونه بينهم لكثرة ما تقع المعاملة فيه، وأنه أكثر ما تقع المتاجرة بالشيء القليل وإن وقع فيه الدين.

ووكّد في الإشهاد في البيع فقال: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وقد بيّنا ما الذي رخص في ترك الإشهاد.

ومعنى: ﴿وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾.

قالوا فيه قولين؛ قال بعضهم: ﴿وَلاَ يُضَارَّ﴾: لا يضارر، فأدغمت الراء في الراء وفتحت لالتقاء الساكنين، ومعنى ﴿وَلاَ يُضَارَّ﴾ لا يكتب الكاتب إلا بالحق ولا يشهد الشاهد إلا بالحق.

---

(1) انظر: لسان العرب (١٢/٢٠١).

وقال قوم: ﴿لاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾: لا يدعى الكاتب وهو مشغول لا يمكنه ترك شغله إلا بضرر يدخل عليه، وكذلك لا يدعى الشاهد ومجيئه للشهادة يضر به، والأول أبين لقوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾.

فالفاسق أشبه بغير العدل، وبمن حرَّف الكتاب منه بالذي دعا شاهداً ليشهد، ودعا كاتباً ليكتب وهو مشغول، فليس يسمى هذا فاسقاً ولكن يسمى من كذب في الشهادة ومن حرف الكتاب فاسقاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾؛ قرأ الناس «فرُهُن مقبوضة» و﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، فأما «رُهُن» فهي قراءة أبي عمرو، وذكر فيه غير واحد أنها قرئت: «فرُهُن» ليفصل بين «الرهان» في الخيل، وبين جمع رَهْن في غيرها، ورُهُن ورِهَان أكثر في اللغة.

قال الفراء: «رُهُن» جمع «رِهَان»، وقال غيره: «رُهُن ورَهْن مثل سُقُف وسَقْف»، «وفُعُل وفَعْل» قليل، إلا أنه صحيح قد جاء؛

فأما في الصفة فكثير يقال: «فَرس وَرْد، وَخَيْل وَرْد، ورجل ثَطّ، وقوم ثُطٌّ».

والقراءة على «رُهُن» أعجب إلي لأنها موافقة للمصحف، وما وافق المصحف وصح معناه وقرأت به القراء فهو المختار، و﴿فَرِهَانٌ﴾ جيد بالغ.

يقال: «رهنتُ الرَّهن وأَرْهَنْتُه»، و «أَرْهَنْتُ» أقلهما قال الشاعر[١] في «أَرْهَنْتُ» [من الطويل]:

لَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرَهُم ... نَجَوْتُ وأَرْهَنْتُهُم مالِكَا[٢]

وقال في «رَهَنْت» غير واحد[٣] [من الوافر]:

فَهَل مِن كاهِنٍ أَو ذي إِلَهٍ ... إِذا ما حانَ مِن رَبٍّ أُفولُ

يُراهِنُني فَيُرهِنُني بَنيهِ ... وَأُرهِنُهُ بَنِيَّ بِما أَقولُ

---

(١) وهو: عبد الله بن همام السلولي.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣/٣٨٦)، وفتح القدير (١/٤٥٨)، وشرح ابن عقيل (٢/٢٧٩)، وإصلاح المنطق (١/٢٣١)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/١٦٢)، ومجمع الأمثال (٢/٣٤٢)، ولسان العرب (١٣/١٨٨)، وتاج العروس (١/٨٠٥٤).

(٣) قاله: أحيحة بن الجلاح.

وَمـا يَـدري الفَقيـرُ مَتـى غِنـاهُ وَما يَدري الغَنِيُّ مَتى يُعيلُ[(١)]

وقوله -عز وجل-: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾؛ معناه: هو خالقهما.

﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾.

معناه: إن تظهروا العمل به أو تسروه يحاسبكم به الله، وقد قيل: إن هذا منسوخ، روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((تجوز لهذه الأمة عن نسيانها وما حدثت به أنفسها))[(٢)].

ولما ذكر الله -جل وعز- فرض الصلاة والزكاة والطلاق والحيض والإيلاء والجهاد وأقاصيص الأنبياء والدين والربا ختم السورة بذكر تعظيمه، وذكر تصديق نبيه ﷺ والمؤمنين بجميع ذلك فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: صدق الرسول بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها وكذلك المؤمنون.

﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: صدق بالله وملائكته وكتبه.

وقرأ ابن عباس: ((وكتابه)) وقرأته جماعة من القراء.

فأما ((كُتب)) فجمع: ((كتاب))، مثل: ((مِثال ومُثل، وحمار وحمر)) وقيل لابن عباس في قراءته ((وكتابه)) فقال: ((كتاب أكثر من كتب)) ذهب به إلى اسم الجنس كما تقول: ((كثر الدرهم في أيدي الناس)).

ومعنى: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾؛ أي: لا نفعل كما فعل أهل الكتاب قبلنا، الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، نحو: كفر اليهود بعيسى وكفر النصارى بغيره، فأخبره عن المؤمنين أنهم يقولون ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: ﴿سَمِعْنَا﴾ سمع قابلين، ﴿وَأَطَعْنَا﴾: قبلنا ما سمعنا، لأن من سمع فلم يعمل قيل: له أصم كما قال جل وعز: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[البقرة: ١٨]؛ ليس لأنهم لا يسمعون ولكنهم صاروا في ترك القبول بمنزلة من لا يسمع قال الشاعر:

* أصم عما ساءه سميع *

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٧٣/٣)، وتفسير القرطبي (٩٥/٨)، وزاد المسير (٤١٨/٣)، ولسان العرب (٤٨٨/١١)، وتاج العروس (٧٣٦٧/١).

(٢) متفق عليه، وأخرجه البخاري (٢٠٢٠/٥، ورقم: ٤٩٦٨)، ومسلم (١١٦/١، ورقم: ١٢٧) من حديث أبي هريرة.

ومعنى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾؛ أي: اغفر غفرانك وفعلان من أسماء المصادر نحو: «السلوان والكفران».

ومعنى: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: نحن مقرون بالبعث.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾؛ أي: إلا قدر طاقتها، لا يكلفها فرضاً من فروضه من صوم أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك إلا بمقدار طاقتها.

ومعنى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾؛ أي: لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره -كما قال- جل وعز: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[الأنعام: ١٦٤].

ومعنى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾؛ قيل فيه قولان؛ قال بعضهم إنه على ما جاء عن النبي ﷺ «عفي لهذه الأمة عن نسيانها وما حدثت به أنفسها»[(١)]، وقيل: ﴿إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: إن تركنا، ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: أي: كسبنا خطيئة -والله أعلم-.

إلا أن هذا الدعاء أخبر الله به عن النبي ﷺ والمؤمنين وجعله في كتابه ليكون دعاء من يأتي بعد النبي ﷺ والصحابة -رحمهم الله-، وروي عن النبي ﷺ أن الله -جل وعز- قال في كل فصل من هذا الدعاء: «فعلت فعلت» أي: استجبت.

فهو من الدعاء الذي ينبغي أن يحفظ وأن يدعى به كثيراً.

وقوله جل وعز: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

كل عقد من قرابة أو عهد فهو «إصر»، العرب تقول: «ما تأْصِرُني على فلان آصره» أي: ما تعطفني عليه قرابة ولا منة قال الحطيئة[(٢)][من مجزوء الكامل]:

عَطَفوا عَلَيَّ بِغَيرِ آ صِرَةٍ فَقَد عَظُمَ الأَواصِر

أي: عطفوا علي بغير عهد قرابة، والمأصر من هذا مأخوذ، إنما هو: عقد ليحبس به،

---

(١) مر تخريجه.

(٢) هو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، وأبو ملكية: شاعر مخضرم، وأدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءاً عنيفاً، ولم يكد يسلم من لسان أحد. وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثر من هجاء الزبرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس، فقال: إذاً تموت عيالي جوعاً وفاته: سنة (٤٥ هـ = نحو ٦٦٥ م).

انظر ترجمته في: فوات الوفيات (١/٩٩)، والشعر والشعراء (ص: ١١٠)، والأعلام (الحطيئة).

ويقال للشيء الذي تعقد به الأشياء «الإِصَار».

فالمعنى: لا تحمل علينا أمراً يثقل، كما حملته على الذين من قبلنا، نحو: ما أمر به بنو إسرائيل من قتل أنفسهم أي: لا تمتحنا بما يثقل، أيضاً نحو قوله: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ﴾[الزخرف: ٣٣].

والمعنى: لا تمتحنا بمحنة تثقل.

ومعنى: ﴿وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾؛ أي: ما يثقل علينا.

فإن قال قائل: فهل يجوز أن يحمِّل الله أحداً ما لا يطيق ؟ قيل له: إن أردت ما ليس في قدرته البتة فهذا محال، وإن أردت ما يثقل ويخف فلله -عز وجل- أن يفعل من ذلك ما أحب، لأن الذي كلفه بني إسرائيل من قتل أنفسهم يثقل، وهذا كقول القائل: «ما أطيق كلام فلان» فليس المعنى: ليس في قدرتي أن أكلمه ولكن معناه في اللغة: أنه يثقل علي.

ومعنى: ﴿فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾؛ أي: أنصرنا عليهم في إقامة الحجة عليهم، وفي غلبنا إياهم في حربهم، وسائر أمرهم، حتى تظهر ديننا على الدين كله كما وعدتنا.

* * *

سورة آل عمران[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿الم * اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾.

أجمعت القراء على فتح الميم، وقد روي عن الرواسي «الم الله» بتسكين الميم، وقد روى هذه القراءة بعضهم عن عاصم والمضبوط عن عاصم في رواية أبي بكر بن عياش وأبي عمرو فتح الميم وفتح الميم إجماع.

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة:** سورة آل عمران من سور القرآن الكريم المدنية. ترتيبها في المصحف الشريف الثالثة. عدد آياتها مائتا آية. جاءت تسميتها آل عمران لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» وهو والد مريم أم عيسى، وما تجلى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى -عليهما السلام-.

وسورة آل عمران من السور العظيمة التي تعالج أمور التشريع، وجاء في فضلها ما روي عن رسول الله قوله: «يُؤتَى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به، وتقدمهم سورة البقرة وآل عمران» أخرجه مسلم.

وسورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وتناولت العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جلّ وعلا، فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والردّ على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد ﷺ. وتناولت جانب التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله، وبعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد، وأمور الربا، وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر وغزوة أحد، والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر وهزموا في أحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ، وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيرًا من كلمات الشماتة والتخذيل.

وقد أفاضت السورة الحديث عن النصارى من أهل الكتاب الذين جادلوا في شأن المسيح، وزعموا ألوهيته، وكذبوا برسالة محمد، وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وكان فيها الردّ على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريعات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب. وختمت بتلك الوصية الفذة الجامعة في فضل الجهاد والمجاهدين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقد شرحنا معنى ﴿آلم﴾؛ واختلف النحويون في علة فتح الميم فقال بعض البصريين: جائز أن يكون الميم فتحت لالتقاء الساكنين، وجائز أن يكون طرحت عليها فتحة الهمزة لأن نية حروف الهجاء الوقف، وهذا أيضاً قول الكوفيين.

وذكر أبو الحسن الأخفش أن الميم لو كسرت لالتقاء الساكنين فقيل «آلمِ الله» لجاز، وهذا غلط من أبي الحسن لأن قبل الميم ياء مكسوراً ما قبلها فحقها الفتح لالتقاء الساكنين، وذلك لثقل الكسرة مع الياء.

فأما ﴿الْقَيُّومُ﴾ فقد روي عن عمر وابن مسعود جميعا أنهما قرءَا «القَيَّام»، وقد رويت: «القَيِّم» والذي ينبغي أن يقرأ ما عليه المصحف وهو ﴿الْقَيُّومُ﴾ بالواو و«القَيِّم» أيضاً جيد بالغ كثير في العربية، ولكن القراءة بخلاف ما في المصحف لا تجوز، لأن المصحف مجمع عليه ولا يعارض الإجماع برواية لا يعلم كيف صحتها.

ومعنى ﴿الْقَيُّومُ﴾: القائم بتدبير جميع ما خلق من إحياء وإنشاء ورزق وموت.

وأصل «قيوم»: «قيووم» إلا أن الياء إذا سبقت الواو بسكون قلبت لها الواو، وأدغمت الياء فيها، وكذلك «القيام» أصله: «القيوام».

ومعنى ﴿الْكِتَابَ﴾ ما كتب، يقال للقرآن: «كتاب» لأنه يكتب، ومعنى يكتب في اللغة: يجمع بعضه إلى بعض، و«الكُتْبَة» في اللغة: الخرزة وجمعها كتب، و«الكتيبة»: القطعة من الجيش العظيمة، إنما سميت لاجتماع بعضها إلى بعض.

ومعنى ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾أي: للكتب التي تقدمته والرسل التي أتت بها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: من قبل القرآن.

وقد اختلف النحويون في «توراة» فقال الكوفيون توراة يصلح أن يكون «تفعلة» من: «وريت بك زنادي» فالأصل عندهم: «تورية» إلا أن الياء قلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، «تفعلة» لا تكاد توجد في الكلام إنما قالوا في تُتْفُلَة: «تَتْفَلَة».

وقال بعضهم: يصلح أن يكون «تفعلة» مثل: «توصية» ولكن قلبت من «تَفْعِلَة» إلى «تَفْعَلَة»، وكأنه يجيز في: «توصية: توصاة» وهذا رديء ولم يثبت في: «توفية: توفاة» ولا في: «توقية: توقاء».

وقال البصريون: أصلها: «فَوْعَلَة» وفَوْعَلَة كثير في الكلام مثل: «الحوقلة ودوخلة» وما أشبه ذلك، وكل ما قلت فيه: «فوعلت» فمصدره: «فوعلة» فأصلها عندهم «وورية»

ولكن الواو الأولى قلبت تاء كما في «تولج» وإنما هو فوعل من: «ولجت»، وكما قلبت في «تراث» الياء الأخيرة قلبت أيضاً لتحركها وانفتاح ما قبلها بإجماع.

وإنجيل: إفعيل من: «النجل» وهو الأصل: هكذا يقول جميع أهل اللغة في إنجيل.

ومعنى: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: أي: من قبل القرآن.

ومعنى ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾؛ أي: ما فرق به بين الحق والباطل، وروي عن بعض المفسرين: أن كل كتاب لله فرقان.

ومعنى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أي: قد ذل له كل شيء بأثر صنعته فيه.

ومعنى ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ أي: ذو أنقام ممن كفر به، لأن ذكر الكافرين ههنا جرى.

ومعنى: ﴿لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: هو ظاهر له وهو جل وعز أنشأه.

ومعنى ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾؛ أي: على ما يشاء من عظم وصغر لون وضعف وقوة، وله -جل وعز- في ذلك حكمة كما قال: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقوله جل وعز: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.

روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «المحكمات: الآيات في آخر الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام: ١٥١] إلى آخر هذه الآيات، والآيات المتشابهات: ﴿آلم، والمر﴾ وما اشتبه على اليهود من هذه ونحوها».

وقال قوم: معنى ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ أي: ما أحكمت في الإبانة، فإذا سمعها السامع لم يحتج إلى تأويلها، لأنها ظاهرة بينة نحو ما أنبأ الله من أقاصيص الأنبياء مما اعترف به أهل الكتاب، وما أخبر الله به من إنشاء الخلق من قوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾[المؤمنون: ١٤] فهذا اعترف القوم به وأقروا بأن الله هو خالقهم، وما أخبر الله به من خلقه من الماء كل شيء حي، وما خلق لهم من الثمار وسخر لهم من الفلك والرياح وما أشبه ذلك، فهذا ما لم ينكروه، وأنكروا ما احتاجوا فيه إلى النظر والتدبر من أن الله -عز وجل- يبعثهم بعد أن يصيروا تراباً فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾[سبأ: ٧، ٨]، ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾[الواقعة: ٤٧، ٤٨].

فهذا الذي هو المتشابه عليهم، فأعلمهم الله الوجه الذي ينبغي أن يستدلوا به على أن هذا المتشابه عليهم كالظاهر، إن تدبروه ونظروا فيه فقال -عز وجل-: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً﴾[يس ٧٨ - ٨٠]؛ وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[يس: ٨١]، أي: إذا كنتم قد أقررتم بالإنسان والابتداء، فما تنكرون من البعث والنشور ؟ فهذا قول كثير من الناس وهو بيّن واضح، والقول الأول حسن أيضاً[١].

فأما ﴿وَأُخَرُ﴾ فغير مصروفة، زعم سيبويه والخليل أن ﴿وَأُخَرُ﴾ فارقت أخواتها، والأصل الذي عليه بناء أخواتها لأن آخر أصلها أن تكون صفة بالألف واللام، كما تقول: ((الصغرى والصُّغر والكبرى والكُبَر)) فلما عدلت عن مجرى الألف واللام وأصل ((أَفْعَلُ مِنْكَ)) وهي مما لا تكون إلا صفة منعت الصرف.

---

(١) في هذا المقام كلام مفيد للطاهر بن عاشور في تفسيره ((التحرير والتنوير)) أول سورة آل عمران فهو يقول: وقد اختلف علماء الإسلام في تعيين المقصود من المحكمات والمتشابهات على أقوال: مرجعها إلى تعيين مقدار الوضوح والخفاء. فعن ابن عباس: أن المحكم ما لا تختلف فيه الشرائع كتوحيد الله تعالى وتحريم الفواحش وذلك ما تضمنته الآيات الثلاث من أواخر سورة الأنعام، وأن المتشابه المجملات التي لم تبين كحروف أوائل السور.

وعن ابن مسعود وابن عباس أيضاً: أن المحكم ما لم ينسخ والمتشابه المنسوخ وهذا بعيد عن أن يكون مراداً هنا لعدم مناسبته للوصفين ولا لبقية الآية.

وعن الأصم: المحكم ما اتضح دليله والمتشابه ما يحتاج إلى التدبر.

وللجمهور مذهبان: أولهما أن المحكم ما اتضحت دلالته والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ونسب هذا القول لمالك في رواية أشهب من جامع العتبية، ونسبه الخفاجي إلى الحنفيه وإليه مال الشاطبي في الموافقات.

وثانيهما: أن المحكم الواضح الدلالة والمتشابه الخفيها وإليه مال الفخر: فالنص والظاهر هما المحكم لاتضاح دلالتهما وإن كان أحدهما أي الظاهر يتطرقه احتمال ضعيف، والمجمل والمؤول هما المتشابه لاشتراكهما في خفاء الدلالة وإن كان أحدهما -أي المؤول- دالاً على معنى مرجوح يقابله معنى راجح، والمجمل دالاً على معنى مرجوح يقابله مرجوح آخر ونسبت هذه الطريقة إلى الشافعية.

قال الشاطبي: فالتشابه: حقيقي وإضافي فالحقيقي: ما لا سبيل إلى فهم معناه وهو المراد من الآية والإضافي: ما اشتبه معناه لاحتياجه إلى مراعاة دليل آخر. فإذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه والتشابه بالمعنى الحقيقي قليل جداً في الشريعة وبالمعنى الإضافي كثير.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

الزيغ: الجور والميل عن القصد، ويقال: «زاغ يزيغ إذا جار».

ومعنى ﴿ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ﴾؛ أي: يفعلون ذلك لطلب الفتنة، ولطلب التأويل.

والفتنة في اللغة على ضروب: فالضرب الذي ابتغاه هؤلاء هو فساد ذات البين في الدين والحروب، والفتنة في اللغة: الاستهتار بالشيء والغلو فيه، يقال: «فلان مفتون في طلب الدنيا» أي: قد غلا في طلبها وتجاوز القدرة.

والفتنة: الاختبار كقوله -عز وجل-: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[الأنعام: ٥٣] أي: اختبرنا، ومعنى ابتغائهم تأويله: أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم، فأعلم الله أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله.

والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾[الأعراف: ٥٣] أي: يوم يرون ما وعدوا به من البعث والنشور والعذاب ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: الذين تركوه وتركوا ما أنبأ به النبي ﷺ عن الله -عز وجل- من بعثهم ومجازتهم، وقوله -عز وجل-: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[الأعراف: ٥٣] أي: قد رأينا ما أنبأتنا به الرسل.

فالوقف التام قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أي: لا يعلم أحد متى البعث غير الله.

ومعنى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾ أي: الثابتون.

يقال: «رَسَخَ الشيء يَرْسَخُ رُسوخاً» إذا ثبت، يقولون: صدقنا بأن الله يبعثنا ويؤمنون بأن البعث حق كما أن الإنشاء حق ويقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ويدل على أن الأمر الذي اشتبه عليهم لم يتدبروه قوله -عز وجل-: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾: أي: ذوو العقول.

أي: ما يتذكر القرآن وما آتى به الرسول ﷺ إلا أولو الألباب.

قوله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

أي: لا تملها عن الهدى والقصد، أي: لا تضلنا بعد إذ هديتنا وقيل أيضاً: ﴿لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لا تتعبدنا بما يكون سبباً لزيغ قلوبنا وكلاهما جيد.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ يدل على تأويل قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، فقولهم: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾

إقرار بالبعث، ودليل أنهم خالفوا من يتبع المتشابه لأن الذين ابتغوا المتشابه هم الذين أنكروا البعث.

﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾؛ لا شك فيه، وقد شرح باستقصاء فيما تقدم من كتابنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ فيكون المعنى: جامع الناس لأنك لا تخلف الميعاد، أي: قد أعلمتنا ذلك ونحن غير شاكين فيه.

وقوله جل وعز: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾.

أي: الكفار يعذبون وهم وقود أنفسهم كلما نضجت جلودهم وعظامهم بالاتقاد بدلوا جلوداً غيرها، فعذبهم بجلودهم وعظامهم.

وقوله جل وعز: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: كشأن آل فرعون وكأمر آل فرعون كذا قال أهل اللغة، والقول عندي فيه -والله أعلم-: إن «دأب» ههنا أن اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي ﷺ كتظاهر آل فرعون على موسى -عليه السلام-.

وموضع الكاف رفع وهو في موضع خبر الابتداء؛ المعنى: دأبهم مثل دأب آل فرعون و﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

يقال: «دَأَبْتُ أَدْأَب دَأَباً ودُؤُوباً» إذا اجتهدت في الشيء، ولا يصلح أن تكون الكاف في موضع نصب بـ﴿كَفَرُوا﴾ لأن ﴿كَفَرُوا﴾ في صلة «الذين»، لا يصلح: «أن الذين كفروا ككفر آل فرعون»، لأن الكاف خارجة من الصلة ولا يعمل فيها ما في الصلة.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾؛ وتقرأ ﴿سَيُغْلَبُونَ﴾ فمن قرأ بالتاء فللحكاية والمخاطبة، أي: قل لهم في خطابك ستغلبون، ومن قال ﴿سَيُغْلَبُونَ﴾ فالمعنى: بلغهم أنهم سيغلبون، وهذا فيه أعظم آية للنبي ﷺ لأنه أنبأهم بما لم يكن، وأنبأهم بغيب، ثم بان تصديق ما أنبأ به لأنه ﷺ غلبهم أجمعين كما أنبأهم.

ومعنى ﴿وَبِئْسَ المِهَادُ﴾: بئس المأوى وبئس الفراش.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَقَتَا﴾؛ ﴿آيَةٌ﴾: علامة من أعلام النبي ﷺ التي تدل على تصديقه.

و«الفئة» في اللغة: الفرقة، وهي مأخوذة من قولهم: «فَأَوْتُ رأسه بالسيف، وفأيته» إذا فلقته، ومعنى ﴿فِئَتَيْنِ﴾: فرقتين.

﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾: الرفع والخفض جائزان جميعاً، فأما من رفع؛ فالمعنى: إحداهما تقاتل في سبيل الله والأخرى كافرة، ومن خفض جعل ﴿فِئَةٍ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٍ﴾ بدلاً من ﴿فِئَتَيْنِ﴾، المعنى: قد كان لكم آية في فئة تقاتل في سبيل الله وفي أخرى كافرة.

وأنشدوا بيت كثير على جهتين [من الطويل][1]:

وَكُنت كَذي رِجلَينِ رِجلٍ صَحيحَةٍ وَرِجلٍ رَمى فيها الزَّمانُ فَشلَّتِ[2]

وأنشدوا أيضاً: ((رجلٌ صحيحة، ورجلٌ رمى فيها الزمان))، على البدل من الرجلين.

وقد اختلف أهل اللغة في قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ ونحن نبين ما قالوه إن شاء الله وما هو الوجه -والله أعلم-.

زعم الفراء أن معنى ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرونهم ثلاثة أمثالهم[3].

قال: لأنك إذا قلت: ((عندي ألف وأحتاج إلى مثلها)) فأنت تحتاج إلى ألفين، فكأنك

---

(١) البيت لكثير بن عبد الرحمن، وهو: كثير عزة واسمه: كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، وأبو صخر: شاعر، ومتيم مشهور. من أهل المدينة. أكثر إقامته بمصر. وفد على عبد الملك ابن مروان، فازدرى منظره، ولما عرف أدبه رفع مجلسه، فكان من خاصة بني مروان، يعظمونه ويكرمونه. وكان مفرط القصر دميماً، وفي نفسه شمم وترفع. يقال له: ((ابن أبي جمعة))، و((كثير عزة))، و((الملحي)) نسبة إلى بني مليح، وهم قبيلته.

وهو شاعر أهل الحجاز في الإسلام، ولا يقدمون عليه أحداً. ويذكرون عنه أنه من غلاة الشيعة، وينسبون إليه القول بالتناسخ، وأخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة. وكان عفيفاً في حبه قيل له: هل نلت من عزة شيئاً طول مدتك ؟ فقال: لا والله، وإنما كنت إذا اشتد بي الأمر أخذت يدها فإذا وضعتها على جبيني وجدت لذلك راحة. توفي بالمدينة. (١٠٥ هـ = ٧٢٣ م).

انظر ترجمته في: الأعلام (كثير عزة).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٨٤/١٢)، وتفسير أبي السعود (١٢/٢)، والجمل في النحو (٢٠٧/١)، ومغني اللبيب (٦١٤/١)، ولسان العرب (٧١/٣)، وتاج العروس (١٨٦٩/١).

(٣) وفيه معنى آخر ذكره المفسرون وهو: أن معناه يرونهم ومثلهم، وما ذكره المصنف هو الراجح، وقد نقل ابن الجوزي أن اختيار الزجاج هو الصحيح.

انظر: زاد المسير (٣٥٧/١)، وتفسير الطبري (١٩٣/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٦٧/١)، وتفسير القرطبي (٤ /٢٦)، وفتح القدير (٤٨٥/١)، وتفسير البغوي (١٣/١)، وتفسير البيضاوي (١٣/١)، وتفسير أبي السعود (٢٢٤/٥)، وروح المعاني (٩٦/٣)، والكشاف (١٦٧/١)، ومعاني القرآن (٣٦١/١).

قلت: «أحتاج إلى مثليها»، وإذا قلت: «عندي ألف وأحتاج إلى مثليها» فأنت تحتاج إلى ثلاثة آلاف، وهذا باب الغلط فيه غلط بيّن في جميع المقاييس وجميع الأشياء، لأنا إنما نعقل مثل الشيء ما هو مساوٍ له، نعقل مثليه ما يساويه مرتين، فإذا جهلنا المثل فقد بطل التميز.

وإنما قال هذا لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً وكان المشركون تسعمائة وخمسين رجلاً، فالذي قال يبطل في اللفظ ويبطل في معنى الدلالة على الآية التي تُعْجِز، لأنهم إذا رأوهم على هيئتهم فليس هذا آية، فإن زعم أن الآية في هذا غلبة القليل على الكثير فقد أبطل أيضاً لأن القليل يغلب الكثير موجود ذلك أبداً.

فهذا الذي قال يبطل في اللغة وفي المعنى، وإنما الآية في هذا أن المشركين كانوا تسعمائة وخمسين، وكان المسلمون ثلاثمائة وأربعة عشر فأرى الله -جل وعز- المشركين أن المسلمين أقل من ثلاثمائة، والله قد أعلم المسلمين أن المائة تغلب المائتين، فأراهم المشركين على قدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم ليقوي قلوبهم، وأرى المشركين المسلمين أقل من عدد المسلمين، ثم ألقى مع ذلك في قلوبهم الرعب فجعلوا يرون عدداً قليلاً مع رعب شديد حتى غلبوا.

والدليل على صحة هذا القول قول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كَانَ مَفْعُولاً﴾[الأنفال: ٤٤].

ويجوز نصب ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ ولا أعلم أحداً قرأ بها، ونصبها من وجهين؛ أحدهما: الحال؛ المعنى: التقتا مؤمنة وكافرة، ويجوز نصبها على: أَعني فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾.

قيل: في ﴿زُيِّنَ﴾ قولان؛ قال بعضهم: الله زينها محنة كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الكهف: ٧]، وقال بعضهم: الشيطان زينها، لأن الله قد زهد فيها وأعلم أنها متاع الغرور.

والقول الأول أجود، لأن جعلها زينة محبوبة موجود والله قد زهد فيها بأن أعلم وأرى زوالها.

ومعنى ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ عند العرب الشيء الكثير من المال وهو جمع قنطار.

فأما أهل التفسير فقالوا أقوالاً غير خارجة من مذهب العرب؛ قال بعضهم:

((القنطار)): مِلءُ مَسْكِ ثور ذهباً أو فضة، وقال بعضهم: ((القنطار)): ثمانون ألف درهم، وقال بعضهم: ((القنطار)): ألف دينار، وقال بعضهم ألف رطل ذهباً أو فضة.

فهذه جملة ما قال الناس في القنطار(١).

والذي يخرج في اللغة: أن القنطار مأخوذ من عقد الشيء وحكامه، والقنطرة مأخوذة من ذلك فكأن القنطار هو الجملة من المال التي تكون عقدة وثيقة منه.

فأما من قال من أهل التفسير: إنه شيء من الذهب موف، فأقوى منه عندي ما ذكر من أنه من الذهب والفضة، لأن الله -جل وعز- ذكر القناطير فيهما فلا يستقيم أن يكون القنطار في إحداهما دون الأخرى.

ومعنى ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ في اللغة . الخيل عليها السِّيمَاء، ((والسَّومَة)): وهي العلامة ويجوز وهو حسن . أن يكون ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾: السائمة، وأُسِيمَت: أرعيت.

﴿وَالأَنْعَامِ﴾: المواشي، واحدها: ((نعم)) أكثر استعمالها في الإبل.

---

(١) من كلام المفسرين تبين أن لهم اتجاهين في القنطار الأول أنه محدود، والثاني: أنه غير محدد، فأما الأول ففيه أقوال: أحدها: أنه ألف ومئتا أوقية. رواه أبي بن كعب عن النبي ﷺ وبه قال معاذ بن جبل وابن عمر وعاصم بن أبي النجود والحسن في رواية. والثاني: أنه اثنا عشر ألف أوقية. رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ، وعن أبي هريرة كالقولين، وفي رواية عن أبي هريرة أيضاً اثنا عشر أوقية. والثالث: أنه ألف ومئتا دينار. ذكره الحسن ورواه العوفي عن ابن عباس. والرابع: أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وروي عن الحسن والضحاك كهذا القول والذي قبله. والخامس: أنه سبعون ألف دينار. روي عن ابن عمر ومجاهد. والسادس: ثمانون ألف درهم أو مائة رطل من الذهب، روي عن سعيد بن المسيب وقتادة. والسابع: أنه سبعة آلاف دينار، قاله عطاء. والثامن: ثمانية آلاف مثقال قاله السدي. والتاسع: أنه ألف مثقال ذهب أو فضة، قاله الكلبي. والعاشر: أنه ملء مسك ثور ذهباً، قاله أبو نضرة وأبو عبيدة. والحادي عشر: القنطار رطل من الذهب أو الفضة حكاه ابن الأنباري.

والقول الثاني: أن القنطار ليس بمحدود، وقال الربيع بن أنس القنطار المال الكثير بعضه على بعض.

وروي عن أبي عبيدة أنه ذكر عن العرب: أن القنطار وزن لا يحد وهذا اختيار ابن جرير الطبري، قاله ابن الأنباري، قال بعض اللغويين: القنطار العقدة الوثيقة المحكمة من المال.

انظر: زاد المسير (١/٣٥٩)، وتفسير الطبري (٣/١٩٨)، وتفسير ابن كثير (١/٤٦٨)، وتفسير القرطبي (٤/٢٩)، وفتح القدير (١/٤٨٧)، وتفسير البغوي (١/١٤)، وتفسير البيضاوي (١/١٤)، وتفسير أبي السعود (٢/١٤)، والدر المنثور (٢/١٦١)، وتفسير الثعالبي (١/٢٤٩)، والكشاف (١/١٦٨)، ومعاني القرآن (١/٣٦٧).

﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزرع، وهذا كله محبب إلى الناس كما قال الله -عز وجل- ثم زهد الله في جميعه.

وتأويل التزهيد فيه ليس الامتناع من أن يزرع الناس ولا من أن يكسبوا الشيء من جهة، وإنما وجه التزهيد فيه الحث على الصدقة وسلوك سبل البر التي أمر بها في ترك الاستكثار من المال وغيره، فهذا وجه التزهيد، فقال جل وعز: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما يتمتع به فيها.

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾؛ والمآب في اللغة: المرجع، يقال: «آبَ الرجل يؤُوب أَوْباً وإِيَاباً ومَآباً» .

وأعلم الله -جل وعز- أن خيراً من جميع ما في الدنيا ما أعده لأوليائه فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

الرفع في ﴿جَنَّاتٌ﴾ القراءة، والخفض جائز على أن تكون ﴿جَنَّاتٌ﴾ بدلاً من «خير»؛ المعنى: أؤنبئكم بجنات تجري من تحتها الأنهار، ويكون ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من تمام الكلام الأول.

ومعنى ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: أي: مطهرة من الأدناس، ومطهرة مما يحتاج إليه نساء أهل الدنيا من الحيض وغيره.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أكثر القراءة كسر الراء، وروى أبو بكر بن عياش عن عاصم ﴿وَرُضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ بضم الراء في كل القرآن، ويقال: «رَضِيت الشيء أَرضاهُ رِضاً ومَرضَاة ورُضواناً ورِضواناً» .

وموضع ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ خفض صفة ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ المعنى: للمتقين القائلين، ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ وكذلك ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ ولو كانت رفعاً على الاستئناف لجاز ذلك ولكن القراءة لا تجاوز.

ومعنى ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ أي: القائمين بعبادة الله، وقد فسرنا القنوت فيما مضى.

ومعنى ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ المتصدقين، وجميع ما في سبيل الله.

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾؛ السَحَر: الوقت الذي قبل طلوع الفجر، العرب تقول: «جئتك بأعلى السحر» تريد في أول السَّحر، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر الظاهر البيّن.

فالله -عز وجل- وصف هؤلاء بالتصديق والإنفاق في سبيله والقيام بعبادته، ثم وصفهم بأنهم مع ذلك لشدة خوفهم ووجلهم يستغفرون بالأسحار.

وقوله -عز وجل-: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُو العِلْمِ﴾.

قال أبو عبيدة معنى ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾؛ قضى الله وحقيقته أنه عَلِمَ وبَيّن الله، لأن الشاهد هو: العالم الذي يبين ما علمه، فالله -عز وجل- قد دل على توحيده بجميع ما خلق فبين أنه لا يقدر أحد أن ينشئ شيئاً واحداً مما أنشأ، وشهدت الملائكة لَمَّا علمت من قدرته، وشهد أولو العلم بما ثبت عندهم، وتبين من خلقه الذي لا يقدر عليه غيره.

وأكثر القراءة ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ بفتح الألف في ﴿أَنَّهُ﴾ وقد رويت بالكسر عن ابن عباس، وروى: ﴿أَنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ «بفتح الألف» والأكثر فتح ﴿أَنَّهُ﴾ وكسر ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾.

ومن قرأ ﴿إِنَّهُ﴾ بالكسر، فالمعنى: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، وأنه لا إله إلا هو، والأجود الفتح كما وصفنا في الأول لأن الكلام والتوحيد والنداء بالأذان: «أشهد أن لا إله إلا الله» وأكثر ما وقع: «أشهد» على ذكر التوحيد، وجائز أن يفتح «أن» الأولى و«أن» الثانية، فيكون فتح الثانية على جهتين على: شهد الله أن لا إله إلا هو، وشهد أن الدين عنده الإسلام.

وقوله جل وعز: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾.

لك في ﴿جَاءَهُمُ﴾ الفتح والتفخيم، ولك الإمالة نحو الكسر، فأما الفتح فلغة أهل الحجاز وهي اللغة العليا القدمى، وأما ﴿جَاءَهُمُ﴾ «بالكسر» فلغة تميم وكثير من العرب وهي جيدة فصيحة أيضاً، فالذي يميل إلى الكسر يدل على أن الفعل من ذوات الياء، والذي يفتح فلأن الياء قد انقلبت صورتها إلى الألف وفي الألف حظها من الفتح، وكل مصيب.

ونصب ﴿بَغْياً﴾ بقوله: ﴿اخْتَلَفَ﴾ والمعنى: اختلفوا بغياً، أي: للبغي لم يختلفوا لأنهم رأوا البصيرة والبرهان.

قال الأخفش: المعنى: «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم»، والذي هو الأجود أن يكون ﴿بَغْياً﴾ منصوباً بما دل عليه ﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾ فيكون المعنى: اختلفوا بغياً بينهم.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ أي: سريع الحساب له، والجزم هو الوجه في ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ وهي القراءة، ولو قرئت بالرفع لكان له وجه من القياس ولكن الجزم أجود وأفصح في المعنى.

ومعنى ﴿سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ أي: سريع المجازاة له، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[النحل: ٧٧] وقالوا: جائز أن يكون ﴿سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ سريع التعريف للعامل عمله، لأنه -جل ثنائه- عالم بجميع ما عملوا لا يحتاج إلى ثبات شيء وتذكر شيء.

ونصب ﴿قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾ حال مؤكدة لأن الحال المؤكدة تقع مع الأسماء في غير الإشارة تقول: «إنه زيد معروفاً، وهو الحق مصدقاً ولا إله إلا هو قائماً بالقسط».

والقسط في اللغة: العدل، قال الله ﴿وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾[الرحمن: ٩] أي: بالعدل، ويقال: «أَقْسَط الرجل» إذا عدل، «وقَسِط» إذا جار، والعادل: «مُقْسِط»، والجائر: «قَاسِط» قال الله: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩] أي: اعدلوا إن الله يحب العادلين، وقال: ﴿وَأَمَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[الجن: ١٥].

فإن قال قائل: فمن أين جاء من لفظ «القسط» ما معناه الجور وأصله: العدل ؟ فإنما ذلك كقولك: «عدل الرجل على القوم يعدل عدلاً ومعْدِلة ومَعدَلَةً» إذا هو أنصفهم، وعَدَل عن الحق عَدْلاً إذا جار، فكذلك جاء من لفظ القسط ما معناه الجور كما جاء ما معناه العدل.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾.

إن شئت أسكنت الياء من ﴿وَجْهِيَ﴾، وإن شئت فتحتها فقلت: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ وقد فسرنا أمر هذه الياء فيما سلف؛ والمعنى: أن الله -عز وجل- أمر النبي ﷺ أن يحتج على أهل الكتاب والمشركين بأنه اتبع أمر الله الذي هم أجمعون مقرون بأنه خالقهم، فدعاهم إلى ما أقروه به، وأراهم الدلالات والآيات التي قد شرحنا ذكرها بأنه رسوله ﷺ.

ومعنى ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: قصدت بعبادتي إلى الله -جل ثناؤه- وأقررت أنه لا إله غيره وكذلك ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ويجوز في اللغة: «أسلمت وجهي» أي: أسلمت نفسي، قال الله -عز وجل- ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨]، وقال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن: ٢٧]؛ المعنى: ويبقى ربك؛ والمعنى: كل شيء هالك إلا الله -عز وجل-.

﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ لك حذف الياء وإثباتها، والأحب إلي في هذا اتباع المصحف لأن اتباعه سنة، ومخالفته بدعة وما حذف من هذه الياءات نحو ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾، ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ونحو فيقول ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ فهو على ضربين مع النون، فإذا كان رأس آية فأهل اللغة يسمون أواخر الآي الفواصل، فيجيزون حذف الياءات كما يجيزونه في قوافي الشعر، كما قال الأعشى [من المتقارب]:

وَمِن شانِئٍ كاسِفٍ وَجهُهُ إِذا ما اِنتَسَبتُ لَهُ أَنكَرَن

فَهَل يَمنَعَنّي اِرتِيادي البِلا دَ مِن حَذَرِ المَوتِ أَن يَأتِيَن(١)

المعنى: أن يأتيني وأنكرني، فإذا لم يكن آخر قافية أو آخر آية فالأكثر إثبات الياء، وحذفها جيد بالغ أيضاً، بخاصة مع النونات، إلا أن أصل ﴿اتَّبَعَنِ﴾: «اتبعي» ولكن النون زيدت لتسلم فتحة العين، فالكسرة مع النون تنوب عن الياء، فإذا لم تكن النون نحو: «غلامي وصاحبي» فالأجود إثباتها وحذفها مع غير النون أقل منه مع النون، إلا أنه جائز نقول: «هذا غلام قد جاء» والأجود: «هذا غلامي قد جاء، وغلامي قد جاء» بفتح الياء وإسكانها، وحذفها جائز لأن الكسرة دالة عليها.

وقوله -تبارك اسمه- ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾.

الذين ﴿أُوتُوا الكِتَابَ﴾: اليهود والنصارى، والأميون مشركو العرب، لأنهم إنما نسبوا إلى ما عليه الأَمة في الخلقة، لأن الإنسان يخلق غير كاتب، فهذا معنى «الأميين»، وقال بعض النحويين: معنى ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ الأمر، ومعناه عندهم: «أسلموا»، وحقيقة هذا الكلام أنه لفظ استفهام معناه التوقيف والتهديد، كما تقول للرجل بعد أن تأمره وتؤكد عليه «أقبلت.. وإلا فأنت أعلم»، فأنت إنما تسأله متوعداً في مسألتك لعمري هذا دليل أنك تأمره بأن يفعل.

ومعنى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ﴾؛ أي: ليس عليك هداهم، إنما عليك إقامة البرهان لهم فإذا بلغت فقد أديت ما عليك.

وقوله جل وعز: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: بصير بما يقطع عذرهم فيما دلهم به على وحدانيته، وتثبيت رسله.

وقال في أثر هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: أعلام الله التي أتيتهم بها.

---

(١) انظر: المفصل في صنعة الإعراب (١/٤٨٠)، وفقه اللغة (١/١٢٤٤).

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وقرئت ((ويقاتلون)) ومعنى ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ههنا قيل: فيه قولان: قيل: رضاهم بقتل من سلف منهم النبيين، نحو قتل يحيى -عليه السلام- وهذا يحتمل -والله أعلم-، وقيل: ويقتلون النبيين لأنهم قاتلوا النبي ﷺ وهموا بقتله قال الله -جل وعز- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[الأنفال: ٣٠] فهذا معنى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ -والله أعلم-.

وجاز دخول الفاء في خبر ((إن)) ولا يجوز: ((أن زيداً فقائم)) وجاز ههنا ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن ((الذي)) يوصل فتكون صلته بمنزلة الشرط للجزاء فيجاب بالفاء، ولا يصلح: ((ليت الذي يقوم فيكرمك)) لأن ((إن)) كأنها لم تذكر في الكلام فدخول الجواب بالفاء عليها كدخولها على الابتداء، والتمني داخل فزيل معنى الابتداء والشرط.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ معناه: حظاً وافراً منه.

و ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يدعون إلى كتاب الله الذي هم به مقرون وفيه ذكر النبي ﷺ والإنباء برسالته.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: جمع كثير، وإنما أعرضوا إلا أنه لا حجة لهم إلا الجحد بشيء قد أقر به جماعة من علمائهم أنه في كتابهم.

ثم أنبأ الله -عز وجل- بما حملهم على ذلك وخبر بما غرهم.

فقال -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

فموضع ﴿ذَلِكَ﴾ رفع؛ المعنى: شأنهم ذلك وأمرهم ذلك بقولهم وبظنهم أنهم لا يعذبون إلا أياماً معدودات.

جاء في التفسير: أنهم قالوا إنما نعذب أربعين يوماً عبد آباؤنا فيها العجل[1] ، فأعلم

---

(١) يتساءل ابن الجوزي فيقول: ولماذا قدروها بأربعين ؟ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم قالوا بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، ونحن نقطع مسيرة كل سنة في يوم ثم ينقضي العذاب وتهلك النار، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم قالوا عتب علينا ربنا في أمر فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة ثم يدخلنا الجنة فلن تمسنا النار إلا أربعين يوماً تحلة القسم، وهذا قول الحسن وأبي العالية.

والثالث: أنها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل قاله مقاتل.

=

الله -تبارك وتعالى- أن ذلك فرية منهم، وأنه هو الذي غرهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾.

المعنى: -والله أعلم- فكيف يكون حالهم في ذلك الوقت، وهذا الحرف مستعمل في الكلام تقول: ((أنا أكرمك وأنت لم تزرني فكيف إذا زرتني)).

قوله -عز وجل-: ﴿لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لحساب يوم لا شك فيه.

وقوله جل شأنه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾؛ أمر الله النبي ﷺ بتقديمه وذكر ما يدل على توحيده، ومعنى ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ إن الله يملك العباد ويملك ما ملكوا.

ومعنى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾؛ فيه قولان: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾ الذي هو المال والعبيد والخضرة من تشاء، وتنزعه ممن تشاء، وقيل ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾ من جهة الغلبة بالدين والطاعة، فيجعل -عز وجل- كل ما في ملكه ملك غير مسلم للمسلمين ملكاً غنيمة، وجعلهم أحق بالأملاك كلها من كل أهل لمن خالفوا دين الإسلام.

وقيل في التفسير: إن الله -عز وجل- أمر النبي ﷺ في هذه الآيات أن يسأله نقل عز فارس إلى العرب، وذل العرب إلى فارس -والله أعلم- بحقيقة ذلك[1].

فأما إعراب ﴿اللَّهُمَّ﴾ فضم الهاء وفتح الميم، لا اختلاف فى اللفظ به بين النحويين، أما العلة فقد اختلف فيها النحويون؛ فقال بعضهم: معنى الكلام: ((يا الله أم بخير)) وهذا

انظر: زاد المسير (١/١٠٧)، وانظر أيضاً: تفسير الطبري (١/٤٢٤)، وتفسير ابن كثير (١/١٦٧)، وتفسير القرطبي (٢/٨)، وفتح القدير (١/١٦٥)، والدر المنثور (١/٢٠٧).

(١) وهذا وجه من الأوجه التي قيلت في سبب النزول، وقال المفسرون: في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن النبي ﷺ لما فتح مكة ووعد أمته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود: هيهات فنزلت هذه الآية. قاله ابن عباس وأنس بن مالك.

والثاني: أن النبي ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته فنزلت هذه الآية. حكاه قتادة.

والثالث: أن اليهود قالوا والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بني إسرائيل إلى غيرهم فنزلت هذه الآية. قاله أبو سليمان الدمشقي.

انظر: زاد المسير (١/٣٦٨)، وانظر أيضاً تفسير الآية في: تفسير الطبري (٣/٢٢٠)، وتفسير ابن كثير (١/٤٧٥)، وتفسير القرطبي (٤/٥٥)، وفتح القدير (١/٤٩٧)، وتفسير البغوي (١/٢٣)، والدر المنثور (٢/١٧١)، والكشاف (١/١٧١).

أقدام عظيم لأن كل ما كان من هذا الهمز الذي طرح فأكثر الكلام الإتيان به، يقال: ((ويل أمه وويل أمه)) والأكثر إثبات الهمز، ولو كان كما يقول لجاز: ((أومم، والله أم)) وكان يجب أن تلزمه ياء النداء، لأن العرب تقول: ((يا الله اغفر لنا)) ولم يقل أحد من العرب: ((إلا اللهم))، ولم يقل أحد: ((يا اللهم))، قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ﴾[الأنفال: ٣٢]، وقال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الزمر: ٤٦].

فهذا القول يبطل من جهات؛ أحدها: أن ((يا)) ليست في الكلام، وأخرى: أن هذا المحذوف لم يتكلم به على أصله كما نتكلم بمثله، وأنه لا يقدم أمام الدعاء هذا الذي ذكره، وزعم أن الضمة التي في الهاء ضمة الهمزة التي كانت في ((أم))، وهذا محال أن يترك الضم الذي هو دليل على النداء للمفرد، وأن يجعل في الله ضمة ((أم))، هذا إلحاد في اسم الله -عز وجل-.

وزعم أن قولنا: ((هلم)) مثل ذلك أن أصلها: ((هل أُمَّ))، وإنما هي: ((لُمَّ))، والهاء للتنبيه، وقال المحتج بهذا القول: إن ((ياء)) قد يقال مع: ((اللهم))، فيقال: ((يا اللهم)) ولا يروي أحد عن العرب هذا غيره، زعم أن بعضهم أنشده:

وَمَا عَلَيْكِ أَنْ تَقُولِي كُلَّمَا سَبَّحْتِ أَوْ صَلَّيتِ يَا اللَّهُمَّ مَا

أُرْدُدْ عَلَيْنَا شَيْخَنَا مُسْلِمَا[1]

وليس يعارض الإجماع، وما أتى به كتاب الله تعالى، ووجد في جميع ديوان العرب بقول قائل: ((أنشدني بعضهم)) وليس ذلك البعض بمعروف ولا بمسمى.

وقال الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: إن ((اللهم)) بمعنى: ((يا الله)) وأن الميم المشددة عوض من ((يا)) - لأنهم لم يجدوا ياء مع هذه الميم في كلمة، ووجدوا اسم الله -عز وجل- مستعملاً بيا إذا لم يذكر الميم، فعلموا أن الميم من آخر الكلمة بمنزلة ((يا)) في أولها والضمة التي في أولها ضمة الاسم المنادى في المفرد، والميم مفتوحة لسكونها وسكون الميم التي قبلها.

وزعم سيبويه أن هذا الاسم لا يوصف لأنه قد ضمت إليه الميم فقال في قوله -جل وعز-: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[الزمر: ٤٦] أن ﴿فَاطِرَ﴾ منصوب على النداء

---

(١) تفسير الطبري (٣/٢٢٠)، وتفسير القرطبي (٤/٥٥)، وأسرار العربية (١/٢١٢)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/٣٤٢)، وكتاب اللامات (١/٩٠)، ولسان العرب (١٣/٤٦٧).

وكذلك ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ ولكن لم يذكره في كتابه.

والقول عندي أن ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ صفة الله، وأن ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كذلك، وذلك أن الاسم ومعه الميم بمنزلته ومعه «يا»، فلا تمنع الصفة مع الميم كما لا تمنع مع «يا»، فهذا جملة تفسير وإعراب ﴿اللَّهُمَّ﴾.

ومعنى: ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ على ما ذكرنا في ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾.

ومعنى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾؛ أي: بيدك الخير كله خير الدنيا وخير الآخرة.

وقوله جل وعز: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

المعنى: تدخل أحدهما في الآخر، يقال: ولج الشيء إذا دخل، يلج وُلُوجاً وَوَلْجَة، وَالْوَلْجُ والوَلْجَةُ شيء يكون بين يدي فناء، فمعنى ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ فتدخل ذلك النقصان زيادة في النهار وتنقص من النهار فتدخل ذلك النقصان زيادة في الليل.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾؛ أي: تخرج الإنسان من النطفة والطائر من البيضة وتخرج للناس الحب الذي يعيشون به من الأرض الميتة.

﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؛ أي: تخرج النطفة من الإنسان والبيضة من الطائر.

ومعنى ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير تقتير، وهذا مستعمل في اللغة: يقال للذي ينفق موسعاً: فلان ينفق بغير حساب، أي: يوسع على نفسه وكأنه لا يحسب ما أنفقه إنفاقاً.

وذكر الله -جل وعز- بعد هذا التقديس والتعظيم أمر المنافقين فقال: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ﴾.

القراءة بالجزم وكسر الذال لالتقاء الساكنين، ولو رفعت لكان وجهاً فقلت: ﴿لاَ يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، المعنى: «أنه» من كان مؤمناً، فلا ينبغي أن يتخذ الكافر ولياً، لأن ولي الكافر راض بكفره فهو كافر، قال الله -جل وعز-: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[المائدة: ٥١]؛ وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[التوبة: ٧١].

ومعنى: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يجعل ولاية لمن هم غير مؤمن، أي: يتناول الولاية من مكان دون مكان المؤمنين، وهذا كلام جرى على المثل في المكان كما تقول: «زيد دونك» فلست تريد أنه في موضع مستقل، وأنك في موضع مرتفع، ولكنك جعلت

الشرف بمنزلة الارتفاع في المكان، وجعلت الخسة كالاستقبال في المكان، فالمعنى: أن المكان المرتفع في الولاية مكان المؤمنين، فهذا بيان قوله: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومعنى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾؛ أي: من يتول غير المؤمنين فالله بريء منه.

﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾؛ و «تقية» قرئا جميعاً، فأباح الله -جل وعز- الكفر مع القصة.

والتقية: خوف القتل إلا أن هذه الإباحة لا تكون إلا مع سلامة النية وخوف القتل.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

معنى: ﴿نَفْسَهُ﴾ إياه، إلا أن النفس يستغنى بها هنا عن «إياه»، وهو الكلام، وأما قوله -عز وجل-: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[المائدة: ١١٦]، فمما به خوطب العباد على قدر علمهم، ومعناه: تعلم ما عندي وما في حقيقتي، ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك.

وفي قوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أي: تؤتي الملك من تشاء أن تؤتيه، وكذلك ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ أي: تنزعه منه إلا أنه حذف لأن في الكلام ما يدل عليه.

ونصب: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كأنه قال: ويحذركم الله نفسه في ذلك اليوم، ويجوز أن يكون نصب على قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفس، والقول الأول أجود.

وقوله جل وعز: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾؛ القراءة بضم التاء ويجوز في اللغة: «تَحَبُّونَ»، ولكن الأكثر ﴿تُحِبُّونَ﴾ لأن «حببت» قليلة في اللغة، وزعم الكسائي أنها لغة قد ماتت فيما يحسب.

ومعنى: ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: تقصدون طاعته وترضون بشرائعه، والمحبة على ضروب:

فالمحبة من جهة الملاذ في المطعم والمشرب والنساء، والمحبة من الله لخلقه عفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته ومغفرته وحسن الثناء عليهم، ومحبة الإنسان لله ولرسوله طاعته لهما ورضاه بما أمر الله به وأتى به رسول الله ﷺ.

وقوله جل وعز: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ القراءة بإظهار الراء مع اللام، وزعم بعض النحويين: أن الراء تدغم مع اللام فيجوز «وَيَغْفِلَّكُمْ»، وهذا خطأ فاحش ولا أعلم أحداً

قرأ به غير أبي عمرو بن العلاء، وأحسب الذين رووا عن أبي عمرو إدغام الراء في اللام غالطين.

وهو خطأ في العربية لأن اللام تدغم في الراء والنون تدغم في الراء نحو ولك: ((هل رأيت ومن رأيت)) ولا تدغم الراء في اللام إذا قلت: ((مر لي بشيء)) لأن الراء حرف مكرر فلو أدغمت فباللام ذهب التكرير، وهذا إجماع الموثوق بعلمهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ أي: أظهروا محبتكم لله إن كنتم تحبونه بطاعته واتباع رسوله.

ومعنى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾؛ أي: فإن الله لا يحبهم لأن من تولى عن النبي ﷺ فقد تولى عن الله.

ومعنى: ﴿لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾؛ لا يغفر لهم ولا يثني عليهم خيراً.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ﴾.

معنى اصطفاهم في اللغة: اختارهم، أي: جعلهم صفوة خلقه، وهذا تمثيل بما يرى لأن العرب تمثل المعلوم بالشيء المرئي، فإذا سمع السامع ذلك المعلوم كان عنده بمنزلة ما يشاهده عياناً، فنحن نعين الشيء الصافي أنه النقي من الكدر، فكذلك صفوة الله من خلقه.

وفيه ثلاث لغات: ((صَفْوة وصِفْوة وصُفْوة)) وهم من لا دنس فيهم من جهة من الجهات في الدين والخيرية.

وقيل في معنى ﴿اصْطَفَى﴾ قولان؛ قال قوم: اصطفى دينهم، أي: اختاره على سائر الأديان، لأن دين هؤلاء الجماعة الإسلام، وقال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران: ١٩].

وقال قوم: اصطفى آدم بالرسالة إلى الملائكة وإلى ولده، واصطفى نوحاً وإبراهيم وآله بالرسالة، ألا ترى قوله -عز وجل-: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾[البقرة: ٣٣]، فأمره الله تعالى أن ينبئ عنه ملائكته؛ ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ هم: آل إبراهيم.

وقوله جل وعز: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

المعنى: اصطفى ذرية بعضها من بعض، فيكون نصب ﴿ذُرِّيَّةً﴾ على البدل، وجائز أن

ينصب على الحال؛ المعنى: واصطفاهم في حال كون بعضهم من بعض، و﴿ذُرِّيَّةً﴾ قال النحويون: هي فعلية من الذر، لأن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[الأعراف: ١٧٢].

وقال بعض النحويين: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ أصلها ذرورة على وزن «فعولة» ولكن التضعيف لما كثر أبدل من الراء الأخيرة فصارت «ذروية» ثم أدغمت الواو في الياء فصارت «ذرية».

والقول الأول أقيس وأجود عند النحويين.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾.

قال أبو عبيدة: معناه قالت امرأة عمران، و«إذ» لغو وكذلك: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾[آل عمران: ٤٢] قال معناه: وقالت، ولم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً.

قال جميع النحويين: إن ﴿إِذْ﴾ يدل على ما مضى من الوقت، فكيف يكون الدليل على ما مضى من الوقت لغواً وهي اسم مع ما بعدها.

وقال غير أبي عبيدة منهم أبو الحسن الأخفش وأبو العباس محمد بن يزيد: المعنى: اذكروا إذ قالت امرأة عمران.

والمعنى عندي -والله أعلم- غير ما ذهبت إليه هذه الجماعة وإنما العامل في ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ معنى الاصطفاء؛ المعنى: -والله أعلم- واصطفى آل عمران ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾ واصطفاهم، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ﴾؛ فذكر ﴿اصْطَفَاكِ﴾ يدل على ما وصفنا، ومعنى ﴿نَذَرْتُ﴾ يدل على ما وصفنا.

ومعنى ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾؛ أي: جعلته خادماً يخدم في متعبداتنا، وكان ذلك جائزاً لهم، وكان على أولادهم فرضاً أن يطيعوهم في نذرهم، فكان الرجل ينذر في ولده أن يكون خادماً في متعبده ولعبّادهم، ولم يكن ذلك في النساء، إنما كان ذلك في الذكورة .

فلما ولدت امرأة عمران مريم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾ وليست الأنثى مما يصلح للنذر، فجعل الله -عز وجل- من الآيات في مريم -لما أراده الله من أمر عيسى- أن جعلها متقبلة في النذر ، فقال -عز وجل-: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾.

الأصل في العربية: «بتقبل حسن» ولكن «قبول» محمول على قوله: «قبلها قبولاً حسناً» يقال: قبلت الشيء قَبولاً حسناً، ويجوز «قُبولاً» إذا رضيته، «وقِبلَت الريح قَبولا وهي تُقْبِل وقَبِلْتُ بالرجل أَقْبَلُ قِبَالَةً» أي: كفلت به.

وقد روى: «قَبِلْتُ بالرجل» في معنى كفلت به على مثال: «فعلت» ويقال: «سقى فلان إبله قَبَلاً» أي: صب الماء في الحوض وهي تشرب منه فأصابها، وكل ما عاينت قلت فيه: «أتاني قُبُلا» أي: معاينة، وكل ما استقبلك فهو «قَبَل» بالفتح، وتقول: «لا أكلمك إلى عشر من ذي قِبَل وَقَبَل»؛ المعنى: قبل إلى عشر مما نشاهده من هذه الأيام، ومعنى «قِبَل» عشر نستقبلها، ويقال: «قَبلت العين تقبل قبلاً» إذا أقبل النظر على الأنف، وقوله -عز وجل-: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ [الكهف: ٥٥]، و «قِبَلاً وقَبَلاً» كله جائز، فمن قرأ ﴿قُبُلاً﴾ فهو جمع قبيل، وقُبُل مثل: «رَغيف ورُغف»؛ المعنى: أو يأتيها العذاب ضروباً، ومن قرأ «قِبلاً» بالكسر فالمعنى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ﴾ العذاب معاينة، ومن قرأ «قبلاً» بالفتح، فالمعنى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ مقابلاً، و«القَبْلَة»: جمع «قَبْل» شبيهة بالفلكة أي: بفلكة المغزل تكون في القلادة.

ومعنى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾ أي: جعل نشوءها نشوءاً حسناً، وجاء «نباتاً» على غير لفظ: «أنبت» على معنى نبت نباتاً حسناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

في هذا غير وجه؛ يجوز: «وكفلها زكرياء» بالمد «كلما دخل عليها زكرياء»، و﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ بالقصر ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا﴾ بالقصر.

وفي ﴿زَكَرِيَّا﴾ ثلاث لغات هي المشهورة المعروفة:

«زكرياء» بالمد، و«زكريا» بالقصر، غير منون في الجهتين جميعاً، و«زكري» بحذف الألف معرب منون.

فإما ترك صرفه فلأن في آخره ألفي التأنيث في المد، وألف التأنيث في القصر، وقال بعض النحويين: إنه لم يصرف لأنه أعجمي، وما كانت فيه ألف التأنيث فهو سواء في العربية والعجمية، لأن ما كان أعجمياً فهو يتصرف في النكرة، ولا يجوز أن تصرف الأسماء التي فيها ألف التأنيث في معرفة ولا نكرة، لأن فيها علامة التأنيث وأنها مصوغة مع الاسم صيغة واحدة فقد فارقت هاء التأنيث فلذلك لم تصرف في النكرة.

ويجوز: «كفلها زكرياء» بنصب «زكرياء»، ويجوز في هذا الموضوع «زكريا» بالقصر فمن قرأ: «كفلها زكرياء» رفعه بفعله؛ فالمعنى فيما ذكر أبو عبيدة: ضمنها، ومعناه في هذا ضمن القيام بأمرها، ومن قرأ: «كفلها زكرياء» بالنصب؛ فالمعنى: وكفلها الله زكرياء، وأما اللغة الثالثة فلا تجوز في القرآن لأنها مخالفة المصحف وهي كثيرة في كلام العرب.

وقوله جل وعز: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾.

القصر والمد في ﴿زَكَرِيَّا﴾، والقراءة بهما كثيرة كما وصفنا و﴿الْمِحْرَابَ﴾: أشرف المجالس والمقدم فيها وقد قيل: إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب، والمحرَاب في اللغة: الموضع العالي الشريف.

قال الشاعر[1] [من السريع]:

رَبَّة مِحرَابٍ إذَا جِئتُها لَم أَلقَها أو أَرتَقِي سُلَّما[2]

ومنه قوله -عز وجل-: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[ص: ٢١]، ونصب ﴿كُلَّمَا﴾ بقوله: ﴿وَجَدَ﴾ أي: يجد عندها الرزق في كل وقت يدخل عليها المحراب، فيكون «ما» مع دخل بمنزلة الدخول، أي: كل وقت دخول.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾؛ أي: من أين لك هذا.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ وإنما سأل زكريا عن الرزق لأنه خاف أن يأتيها من غير جهته، فتبين عنده أنه من عند الله، وذلك من آيات مريم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ٩١] فمن آياتها أنها أول امرأة قبلت في نذر في المتعبد، ومنها: أن الله أنشأ فيها عيسى -عليه السلام- من كلمة ألقاها إليها، ومنها: أن الله -عز وجل- غذاها برزق من عنده لم يجره على يد عبد من عبيده، وقد قيل في التفسير: إنها لم تلقم ثدياً قط[3].

ومعنى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير تقتير و﴿حِسَابٍ﴾؛ إن شئت فتحت الألف وألزمتها جهة الفتح، وإن شئت أملتها إلى الكسر لانكسار الحاء وذلك كثير في لغة العرب.

---

(١) وهو: وضاح اليمين، واسمه وضاح اليمن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال الحميري الخولاني، والمعروف بوضاح اليمن. قيل: هو من الفرس الذين قدموا اليمن مع وهرز لنصرة سيف بن ذي يزن على الحبشة. وكان من حسنه يتقنع في المواسم مخافة العين، وكان يهوى امرأة من اليمن اسمها روضة ويشبب بها و له أخبار معها وفاته سنة (٩٠هـ).

انظر ترجمته في: الأعلام (وضاح اليمين).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/٧٠)، وزاد المسير (١/٣٨٠)، والأغاني (٦/٢٥١)، ولسان العرب (١/٣٠٢)، وتاج العروس (١/٤٠٠)، والفائق (١/٢٧٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١/٢٩٥).

وقوله -عز وجل-: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾.

﴿زَكَرِيَّا﴾ بالمد والقصر على ما وصفنا؛ المعنى: عند ذلك دعا زكريا ربه، أي: عندما صادف من أمر مريم، ثم سأل الله أن يرزقه ذرية طيبة، و﴿هُنَالِكَ﴾ في موضع نصب لأنه ظرف يقع من المكان والأحوال؛ «أحوال الزمان».

والمعنى: في ذلك المكان من الزمان ومن الحال دعا زكريا ربه، كما تقول: «من هنا؟» قلت: «كذا وكذا وكذا»، «ومن هنالك ؟» قلت: «كذا وكذا» أي: من ذلك الوجه وتلك الجهة وهذا في غير المكان على المثل جرى.

وكسر لام ﴿هُنَالِكَ﴾ وقع لالتقاء الساكنين لأن ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى مكان متراخ أو حال من أحوال الزمان نسبتها إلى المكان، وقال: ﴿طَيِّبَةً﴾ للفظ ﴿ذُرِّيَّةً﴾.

و﴿هُنَالِكَ﴾ لا يجب أن يعرف في رفع ولا جر لأنه في الإشارة إلى المكان بمنزلة الإشارة في: «هذا وهذاك» إلى سائر الأشياء، فهو مضارع للحروف التي جاءت لمعنى.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ﴾، و ﴿فَنَادَاهُ الْمَلائِكَةُ﴾، الوجهان جميعاً جائزان، لأن الجماعة يلحقها اسم التأنيث، لأن معناها معنى جماعة، ويجوز أن يعبر عنها بلفظ التذكير، كما يقال: «جمع الملائكة»، ويجوز أن تقول: «نادته الملائكة»، وإنما ناداه جبرائيل وحده لأن المعنى: أتاه النداء من هذا الجنس، كما تقول: «ركب فلان في السفن» وإنما ركب سفينة واحدة، تريد بذلك جعل ركوبه في هذا الجنس.

ويجوز ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ﴾ و ﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بفتح «إن» وكسرها، فمن فتح فالمعنى: نادته بأن الله يبشرك أي: نادته بالبشارة، ومن كسر أراد قالت الملائكة: إن الله يبشرك، «وإن» بعد القول أبداً مكسورة.

وفي ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ ثلاث لغات: ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ﴾ بفتح الباء وتشديد الشين، وهي قراءة كثيرة جداً، و ﴿يَبْشُرُكَ﴾ بإسكان الباء وضم الشين، وقرأ حميد وحده ﴿يُبْشِرُكَ﴾ بضم الياء وإسكان الباء وكسر الشين، فمعنى ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ و﴿يَبْشُرُكَ﴾: البشارة، ومعنى ﴿يُبْشِرُكَ﴾ يسرك ويفرحك، يقال: «بشَّرت الرجل أَبْشُره وأُبَشِّره» إذا أفرحته، ويقال بَشُرَ الرجل يَبْشُرُ، وأنشد الأخفش والكسائي وجماعة من النحويين[1] [من الكامل]:

وَإِذا لَقيتَ الباهِشينَ إِلى النَّدى غُبراً أَكُفُّهُم بِقاعٍ مُمحِلِ

---

(١) البيتان لعبد قيس بن خفاف.

فَأَعِنهُمُ وَأَيسِر بِما يَسَروا بِهِ وَإِذا هُمُ نَزَلوا بِضَنكٍ فَانزِلِ

فهذا على: «بَشُر يبْشُر» إذا فرح، وأصل هذا كله من أن بَشْرَة الإنسان تنبسط عند السرور، ومن هذا قولهم: «فلان يلقاني بِبِشْرٍ» أي: بوجه منبسط.

و«يحيى» اسم سماه الله تعالى، تولى هو -عز وجل- ذلك ولم يسم أحد قبل يحيى بيحيى، ويحيى لا يتصرف عربياً كان أو أعجمياً، لأنه إن كان أعجميا فقد اجتمع فيه العجمة والتعريف، ولو كان عربياً لم ينصرف لشبهه بالفعل وأنه معرفة علم.

ونصب ﴿مُصَدِّقاً﴾ على الحال.

ومعنى ﴿مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يصدق بأمر عيسى، لأن يحيى فرض عليه -وإن كان يحيى أسن من عيسى- اتباع عيسى.

ومعنى ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾.

السيد: الذي يفوق في الخير قومه، ومعنى ﴿وَحَصُوراً﴾ أي: لا يأتي النساء، وإنما قيل للذي لا يأتي النساء حصوراً لأنه حبس عما يكون من الرجال، كما يقال في الذي لا يتيسر له الكلام قد حصر في منطقه، والحصور: الذي لا ينفق على الندامى وهو ممن يفضلون عليه قال الشاعر[1] [من البسيط]:

وَشارِبٍ مُربِحٍ بِالكَأسِ نادَمَني لا بِالحَصورِ وَلا فيها بِسَوّارِ[2]

ويروى ولا فيها «بِسَئَّار» أي: نادمني وهو كريم منفق على الندامي، والسوار: المعربد؛ يساور نديمه أي: يَثِبُ عليه، والسَّار: الذي يفضل في إنائه إذا شرب، والحصور: الذي يكتم السر أي: يحبس السر في نفسه.

قال جرير [من الكامل]

وَلَقَد تَسَقَّطَني الوُشاةُ فَصادَفوا حَصِراً بِسِرِّكِ يا أُمَيمَ ضَنينا[3]

---

(١) هو: الأخطل.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤٨/٣)، وتفسير القرطبي (٧٥/٤)، والكشاف (١٧٧/١)، ومفردات القرآن (٧٣٢/١)، وإصلاح المنطق (١٤٢/١)، والأغاني (١٠١/١٥)، ولسان العرب (٣٣٩/٤)، وتاج العروس (٢٦٩٥/١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٣٥٦/٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤٨/٣)، وتفسير القرطبي (٢٩٤/٥)، ولسان العرب (١٩٣/٤)، وتاج العروس (٢٦٩٩/١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٣٥٣/٢).

والحصير: هذا المرمول الذي يجلس عليه، وإنما سمي «حصيراً» لأنه دوخل بعضه في بعض في النسيج، أي: حبس بعضه على بعض، ويقال للسجن: «الحصير» لأن الناس يحصرون فيه، ويقال: «حصرت الرجل» إذا حبسته، و«أحصره المرض» إذا منعه من السير، و«الحصير»: الملك وقول الله -جل وعلا-: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[الإسراء: ٨] أي: حبساً، ويقال: «أصاب فلاناً حصر» إذا احتبس عليه بطنه، ويقال في البول: «أصابه أسر» إذا احتبس عليه بوله.

ومعنى ﴿وَنَبِياً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الصالح: الذي يؤدي إلى الله ما عليه ويؤدي إلى الناس حقوقهم .

وقوله -جل وعلا-: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾؛ أي: كيف يكون لي غلام، قال الكميت [من المنسرح]:

أَنَّى وَمِن أينَ آبَكَ الطَّرَبُ مِن حَيثُ لا صَبوَةٌ ولا رِيَبٌ [(١)]

أي: كيف ومن أين آبك الطرب.

ويقال: «غلام بيّن الغُلومِية والغُلامَية والغُلُومَة».

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ﴾؛ بمعنى قد بلغت الكبر، وفي موضع آخر ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً﴾[مريم: ٨]، وكل شيء صادفته وبلغته فقد صادفك وبلغك.

ومعنى ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

أي: مثل ذلك يفعل الله الذي يشاؤه، وإنما سأل زكريا لأنه أحب أن يعلم أيأتيه الولد الولد وهما على الهيئة التي لا يكون معها ولد، فأعلمهما الله أن ذلك هين عليه كما أنشأهما ولم يكونا شيئاً، وأنه يعطيهما الولد وهما في هذا السن.

ويقال في ﴿عَاقِرٌ﴾ قد عَقُرت المرأة وعَقَرت وهي عَاقِر، وهذا دليل أن عاقراً وقع على جهة النسب، لأن «فَعُلت» أسماء الفاعلين فيه على «فَعِيلة» نحو: «ظرفت فهي ظريفة»، وإنما «عاقر» له ذات عقر، ويقال: «قد عقر الرجل يعقر عقراً» إذا انقطع عليه الكلام من تعب وكلال، والعَقار كل مال له أصل، وقد قيل: إن النخل خاصة يقال له «عقار»، وعُقر دار قوم: أصل مقامهم الذي عليه معولهم وإذا انتقلوا عنه لنجعة فرجوعهم إليه.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤/٧٠)، وزاد المسير (١/٣٨٤)، ومعاني القرآن (١/٣٨٩)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/٢١٨)، وحروف المعاني (١/٦١)، ولسان العرب (١٥/٣٦٤).

ويروى عن علي أنه قال: «ما غزي قوم في عُقْر دارهم إلا ذلوا»[1] أي: ما غزوا في المكان الذي هو أصل لمقامهم.

ومعنى ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾؛ أي: علامة أعلم بها الوقت الذي تهب له فيه الغلام.

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً﴾؛ أي: علامة ذلك أن يمسك لسانك عن الكلام وأنت صحيح سوي، وقال في موضع آخر: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِياً﴾[مريم: ١٠] أي: وأنت سوي.

ومعنى «الرمز»: تحريك الشفتين باللفظ من غير الإبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين، وقد قيل: إن الرمز هو إشارة بالعينين أو الحاجبين والفم، والرمز في اللغة: كل ما أشرت به إلى بيان بلفظ، أي: بأي شيء أشرت أبفم أم بيد أم بعينين، والرمز والترمز في اللغة: الحركة والتحرك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

قيل: ﴿وَسَبِّحْ﴾: صل، قال فرغت من سَبحتي أي: من صلاتي، إنما سميت الصلاة «تسبيحاً» لأن التسبيح تعظيم الله وتبرئته من السوء فالصلاة يوحد الله فيها ويحمد ويوصف بكل ما يبرئه من السوء، فلذلك سميت الصلاة السبحة.

﴿وَالإِبْكَارِ﴾ يقال فيه: «أَبكر الرجل يُبكر إبكاراً وبَكَّر يُبَكِّر تَبْكيراً وبَكَر يبكُر» في كل شيء يتقدم فيه، وقول الناس فيما تقدم من الثمار: «قد هَرِفَ» خطأ إنما هي كلمة تبطئة، وإنما تقول العرب في مثل ذلك: «قد بكَّر»، ويسمى ما يكون منه الباكورة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾.

معنى ﴿اصْطَفَاكِ﴾: اختارك، وقالوا في ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ طهرك من الحيض والنفاس، ومعنى ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ -والله أعلم- أي: جعلك طاهرة من سائر الأدناس، إلا أن الأول قد جاء في التفسير[2]، وقيل إن معنى ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ﴾ أي: على نساء أهل دهرها.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/٢٦٤)، والأغاني (١٦/٢٨٧)، وجمهرة خطب العرب (١/٤٢٧)، ولسان العرب (٤/٥٩١)، وتاج العروس (١/٣٢٢٧).

(٢) قال المفسرون في المراد بالتطهير أربعة أقوال:

أحدها: أنه التطهير من الحيض، قاله ابن عباس وقال السدي كانت مريم لا تحيض، وقال قوم: من الحيض والنفاس.

=

وجائز أن يكون على نساء العالمين كلهم، أي: اختارك لعيسى على نساء العالمين كلهم، فلم يجعل مثل عيسى من امرأة من نساء العالمين.

ومعنى ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: اعبديه بالقول والعمل.

﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾: معنى «الركوع» قيل: السجود؛ المعنى: اركعي واسجدي، إلا أن الواو إذا ذكرت فمعناها الاجتماع، وليس فيها دليل أن أحد الشيئين قبل الآخر، لأنها تؤذن بالاجتماع والعمل، والحال تدل على تقدم المتقدم من الاثنين.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ أي: الأخبار التي قصصناها عليك في زكريا ويحيى ومريم وعيسى من أنباء الغيب، أي: من أخبار ما غاب عنك، وفي هذا دليل على تثبيت نبوة النبي ﷺ لأنه أنبأ بما لا يعلم إلا من كتاب أو وحي، وقد أجمعوا أن النبي ﷺ كان أمياً، فإنباؤه إياهم بالأخبار التي في كتبهم على حقيقتها من غير قراءة الكتب دليل على أنه نبي، وأن الله أوحى إليه بها.

ومعنى ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

أي: هذا أيضاً مما لم تحضره، ومعنى «الأقلام» ههنا: القداح، وهي قداح جعلوا عليها علامات يعرفون بها أيهم يكفل مريم على جهة القرعة، وإنما قيل للسهم: «القلم» لأنه يقلم، أي: يبرى وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته، من ذلك القلم الذي يكتب به إنما سمي: لأنه قلم مرة بعد مرة، ومن هذا: «قلمت أظافري».

ومعنى ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: لينظروا أيهم تجب له كفالة مريم، وهو الضامن للقيام بأمرها، لَدَيْهِمْ ومعنى ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم وبحضرتهم.

=

والثاني: من مس الرجال، روي عن ابن عباس أيضاً.

والثالث: من الكفر، قاله الحسن و مجاهد.

والرابع: من الفاحشة والإثم، قاله مقاتل.

انظر: زاد المسير (٣٨٧/١)، وتفسير الطبري (٢٦٢/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٨٢/١)، وتفسير القرطبي (٨٣/٤)، وفتح القدير (٥١٠/١)، وتفسير البغوي (٣٦/١)، وتفسير أبي السعود (٣٥/٢)، والدر المنثور (١٩٣/٢)، وروح المعاني (١٥٤/٣)، وتفسير الثعالبي (٢٦٦/١)، والكشاف (١٧٨/١)، وتفسير الصنعاني (١٢٠/١)، وتفسير مجاهد (١٢٧/١)، وتذكرة الأريب تفسير الغريب (٩١/١)، ومعاني القرآن (٣٩٨/١)، ومفردات القرآن (٩١٩/١).

﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: ﴿إِذْ﴾ نصب بقوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ و﴿إِذْ﴾ الثانية معلقة بـ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: إذ يختصمون إذ قالت الملائكة، فـ﴿إِذْ﴾منصوبة بـ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾؛ ويكون المعنى: إنهم اختصموا بسبب مريم وعيسى، وجائز أن يكون نصب ﴿إِذْ﴾ على ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ هذا أيضاً مما لم يشاهده.

﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾؛ سمى الله -عز وجل- عيسى «المسيح» وسماه: «عيسى» وسمي ابتداء أمره: «كلمة منه» فهو ﷺ كلمة من الله ألقاها إلى مريم ثم كون تلك الكلمة بشراً.

وقوله جل وعز: ﴿اسْمُهُ اسمه﴾ وإنما جرى ذكر «الكلمة» لأن معنى الكلمة معنى الولد؛ المعنى: أن الله يبشرك بهذا الولد.

﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾؛ ﴿وَجِيهاً﴾ منصوب على الحال، والوجيه: الذي له المنزلة الرفيعة عند ذوي القدر والمعرفة، ويقال: «قد وَجُه الرجل يَوْجَه وَجَاهَة»، و«لفلان جَاهٌ عند الناس ووجَاهَة عند الناس» أي: منزلة رفيعة، وقال بعض النحويين:

﴿وَجِيهاً﴾ منصوب على القطع من ﴿عِيسَى﴾، وقطع ههنا «كلمة» محال، لأنه إنما بشر به في الحال، أي: في حال فضله فكيف يكون قطعها منه، ولم يقل لم نصب هذا القطع، فإن كان القطع إنما هو معنى فليس ذلك المعنى موجوداً في هذا اللفظ، وإن كان القطع هو العامل فما بيَّن ما هو، وإن كان أراد أن الألف واللام قطعاً منه فهذا محال لأن جميع الأحوال نكرات، والألف واللام لمعهود، فكيف يقطع من الشيء ما لم يكن فيه قط؟

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾؛ معطوف على ﴿وَجِيهاً﴾؛ المعنى: يبشرك به وجيهاً ومكلماً الناس في المهد، وجائز أن يعطف يفعل على فاعل لمضارعه بفعل فاعل قال الشاعر [من الرجز]:

بَاتَ يعشّيهَا بعَضَبٍ بَاتَرٍ ... يَقْصدُ فِي أَسْوَاقِهَا وجَائِرِ[1]

---

(١) قال البغدادي في الخزانة في الشاهد (٣٥٦): يستشهد به على أن «جائر» معطوف على «يقصد»، ولكونه بمعنى الفعل؛ أي: يقصد ويجور.

=

﴿وَكَهْلاً﴾ أي: ويكلم الناس كهلاً، أعلمها الله أن عيسى يبقى إلى حال الكهولة، وقيل: إن كهلاً أي: ينزل من السماء لقتل الدجال وهو كهل -والله أعلم-.

ومعنى ﴿كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: يخلق الله ما يشاء مثل ذلك، ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ أي: بعلمه ذلك وحياً وإلهاماً.

ونصب ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ على وجهين؛ أحدهما: ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، والاختيار عندي -والله أعلم-: ويكلم الناس رسولاً إلى بني إسرائيل، والدليل على ذلك أنه قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ فالمعنى -والله أعلم- ويكلمهم رسولاً بأني قد جئتكم بآية من ربكم.

ولو قرئت ((إني قد جئتكم)) بالكسر كان صواباً؛ المعنى: إني قد جئتكم بآية من ربكم، أي: بعلامة تثبت رسالتي.

وقوله جل وعز: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ﴾؛ يصلح أن يكون خفضاً ورفعاً، فالخفض على البدل من ﴿بِآيَةٍ﴾؛ المعنى: جئتكم بأني أخلق لكم من الطين، وجائز أن يكون ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ﴾ يخبرهم بهذه الآية ما هي أي: أقول لكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير.

يقال: إنه صنع كهيئة الخفاش ونفخ فيه فصار طيراً[1]، وجائز أن يكون ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾

=

وأورده الفراء والزجاج في تفسيرهما عند قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ﴾ على أن جملة ((يكلم)) معطوفة على ((وجيهاً))، وأورده الفراء في سورة الأنبياء أيضاً، وعند قوله تعالى: ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُم﴾، وكذلك استشهد به أبو علي في أيضاح الشعر وابن الشجري في أماليه؛ ولم ينسبه أحد منهم إلى قائله؛ ولم أر له تتمة.

و((العضب)) بفتح العين المهملة وسكون الضاد المعجمة: السيف، وهو في الأصل صفة بمعنى قاطع، وعضبه بمعنى قطعه، والياء متعلقة بيعشيها، وهذا من باب: عتابه السيف وتحيته الضرب. و((باتر)): صفة أولى عضب، وجملة ((يقصد)) صفة ثانية له، وجائر صفة ثالثة، وهو بمعنى قاطع، ومن بتره بتراً من باب قتل، وإذا قطعه على غير تمام. و((يقصد)): مضارع قصد في الأمر من باب ضرب، وأي: توسط ولم يجاوز الحد. وفي متعلقه بيقصد. و((جائر)) من جار في حكمه، وإذا ظلم.

والبيت وارد في: تفسير القرطبي (١٨/١٩٠)، وروح المعاني (٢٩/١٧)، ولسان العرب (١٥/٥٦).

(١) وهو قول ابن عباس.

=

للفظ الطين، وقال في موضع آخر ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾[المائدة: ١١٠] للفظ الهيئة.

﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ﴿الأَكْمَهَ﴾ الذي يولد أعمى، قال الراجز[(١)]:

* هَرَّجْتُ فَارْتَدَّ ارْتِداد الأَكْمَهِ[(٢)]*

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: أخبركم بمأكولكم، فجائز أن تكون «ما» ههنا في موضع والذي»، والمعنى: أنبئكم بالذي تأكلونه وتدخرونه، ويجوز أن يكون «ما» وما وقع بعدها بمنزلة المصدر؛ المعنى: أنبئكم بأكلكم وادخاركم، والأول أجود.

ومعنى ﴿تَدَّخِرُونَ﴾ جاء في التفسير: ما تأكلون في غدوكم، و ﴿تَدَّخِرُونَ﴾ بالدال والذال.

وقال بعض النحويين: إنما اختير ﴿تَدَّخِرُونَ﴾ لأن التاء تدغم في الذال، نحو: تذكرون، فكرهوا «تذخرون»، لأنه لا يشبه ذلك فطلبوا حرفاً بين التاء والذال فكان ذلك الحرف الدال.

وهذا يحتاج صاحبه إلى أن يعرف الحروف المهجورة والمهموسة: وهي فيما زعم الخليل ضربان؛ فالمهجورة: حرف أَشْبع الاعتماد عليه في موضعه، ومنع النفس أن يجري

=

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٩٢/١): قال ابن عباس: أخذ طيناً وصنع منه خفاشاً ونفخ فيه فإذا هو يطير. ويقال: لم يصنع غير الخفاش. ويقال: إن بني إسرائيل نعتوه بذلك لأن الخفاش عجيب الخلق.

وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال لهم: «ماذا تريدون ؟» قالوا: الخفاش، فسألوه أشد الطير خلقاً لأنه يطير بغير ريش.

وقال وهب: كان الذي صنعه يطير ما دام الناس ينظرونه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليميز فعل الخلق من فعل الخالق.

وانظر فيه أيضاً: تفسير الطبري (٢٧٣/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٨٥/١)، وفتح القدير (٥١٦/١)، وتفسير البغوي (٤١٢/١)، وتفسير البيضاوي (٤٢/١)، وروح المعاني (١٦٧/٣)، والكشاف (١٧٩/١).

(١) وهو: رؤبة بن العجاج.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧٣/٣)، ومعاني القرآن (٤٠٣/١)، ولسان العرب (٣٨٩/٢)، وتاج العروس (١٥٣٧/١).

معه، والمهموس: حرف أضعف الاعتماد عليه في موضعه وجرى معه النفس.

وإنما قيل: ﴿تَدَّخِرُونَ﴾ وأصله: تذخرون، أي: يفتعلون من الذخر، لأن الذال حرف مهجور لا يمكن النفس أن يجري معه لشدة اعتماده في مكانه، والتاء مهموسة فأبدل من مخرج التاء حرف مهجور يشبه الذال في جهرها، وهو «الدال» فصار: «تذدخرون»، ثم أدغمت الذال في الدال وهذا أصل الإدغام أن تدغم الأول في الثاني، و«تذخرون» جائز، فأما ما قال في الملبس فليس «تذخرون ملبساً» بشيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

نصب ﴿وَمُصَدِّقاً﴾ على الحال؛ المعنى: وجئتكم مصدقاً لما بين يدي، أي: للكتاب الذي أنزل قبلي فهو آمري أن تتبعوني.

﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: لم أحل لكم شيئاً بغير برهان، فهو حق عليكم اتباعي لأني أنبئكم ببرهان وتحليل طيبات كانت حرمت عليكم ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾: أي: اتبعوني.

قال أبو عبيدة معنى: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ قال معناه: كل الذي حرم عليكم[١]، وهذا مستحيل في اللغة وفي التفسير وما عليه العمل، فأما استحالته في اللغة فإن البعض والجزء لا يكون الكل، وأنشد في ذلك أبو عبيدة بيتاً غلط في معناه وهو قول لبيد [من الكامل]:

تَرَّاكُ أَمكِنةٍ إذا لَم أرضَها أَو يَعتَلِق بَعضَ النُّفوسِ حِمامُها[٢]

قال المعنى: «أو يعتلق كل النفوس حمامها» وهذا كلام تستعمله الناس، يقول القائل: «بعضنا يعرفك» يريد أنا أعرفك، فهذا إنما هو تبعيض صحيح، وإنما جاءهم عيسى بتحليل ما كان حراماً عليهم قال الله -عز وجل-: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهي نحو: الشحوم وما يتبعها في التحريم، فأما أن يكون أحل

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٣٩٣): قال قتادة: كان قد حرم عليهم موسى الإبل والثروب وأشياء من الطير فأحلها عيسى.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/٢٠٦)، وتفسير القرطبي (٤/٩٦)، وفتح القدير (١/٥١٦)، وتفسير البغوي (١/٤١)، وتفسير البيضاوي (١/٩٠)، وروح المعاني (٢٤/٦٥)، وزاد المسير (٧/٢١٨)، والكشاف (١/١١٢٧)، ومفردات القرآن (١/١٣٤)، والخصائص (١/٧٤).

لهم القتل والسرقة والزنى فمحال.

ومعنى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: هذا طريق الدين مستوياً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ﴾.

معنى ﴿أَحَسَّ﴾ في اللغة: علم ووجد، ويقال: ((هل أحست)) في معنى هل أحسست ويقال بالشيء إذا علمته وعرفته.

وأنشد الأصمعي:

سَوَى أَنَّ العِتَاق مِنَ الْمطَايَا حَسَيْنَ به فَهُنَّ إليه شوسُ[1]

ويقال: ((حسهم القائد)) أي: قتلهم.

ومعنى: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

جاء في التفسير: من أنصاري مع الله، و﴿إِلَى﴾ ههنا إنما قاربت ((مع)) معنىً، بأن صار اللفظ لو عبر عنه بـ((مع)) أفاد مثل هذا المعنى، لا أن ((إلى)) في معنى ((مع)) لو قلت: ((ذهب زيد إلى عمرو)) لم يجز: ((ذهب زيد مع عمرو)) لأن ((إلى)) غاية و((مع)) تضم الشيء إليه الشيء، فالمعنى: يضيف نصرته إياي إلى نصرة الله.

وقولهم إن ((إلى)) في معنى ((مع)) ليس بشيء، والحروف قد تقاربت في الفائدة، فيظن الضعيف العلم باللغة أن معناهما واحد.

من ذلك قوله -جل وعز-: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[طه: ٧١] ولو كانت ((على)) ههنا لأدت هذه الفائدة لأنك لو قلت لأصلبنكم على جذوع النخل كان مستقيماً، وأصل ((في)) إنما هو للوعاء وأصل ((على)) لما مع الشيء، كقولك: ((التمر في الجراب))، ولو قلت: ((التمر على الجراب)) لم يصلح في هذا المعنى، ولكن جاز ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ لأن الجذع يشتمل على المصلوب لأنه قد أخذه من أقطاره، ولو قلت: ((زيد على الجبل، وفي الجبل)) يصلح لأن الجبل قد اشتمل على زيد فعلى هذا مجاز هذه الحروف.

وقوله جل وعز: ﴿قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾.

قال الحذاق باللغة: ﴿الحَوَارِيُّونَ﴾: صفوة الأنبياء -عليهم السلام- الذين خلصوا

---

(١) أنشده أيضاً أبو القاسم في باب: ((شواذ الإدغام))، وهذا البيت لأبي زبيد الطائي واسمه حرملة بن المنذر. انظر: الحلل في إصلاح الخلل (ص: ٤٧٢)، ولسان العرب (١٧٦/١٤).

وأخلصوا في التصديق به ونصرته فسماهم الله -جل وعز-: ﴿الحَوَارِيُّونَ﴾، وقد قيل: إنهم كانوا قصارين فسموا الحواريين لتبييضهم الثياب، ثم صار هذا الاسم يستعمل فيمن أشبههم من المصدقين تشبيهاً بهم، وقيل: إنهم كانوا ملوكاً، وقيل: كانوا صيادين والذي عليه أهل اللغة أنهم الصفوة كما أخبرتك[١].

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: ((الزبير ابن عمتي وحواريي من أمتي))[٢]، ويقال لنساء الأنصار: ((حواريات)) لأنهن تباعدن عن قشف الأعرابيات بنظافتهن.

وأنشد أبو عبيدة وغيره لأبي جلدة اليشكري[٣][من الطويل]:

---

(١) قال المفسرون في معنى ((الحواريون)): ستة أقوال:

أحدها: إنهم الخواص الأصفياء، قال ابن عباس: الحواريون أصفياء عيسى. وقال الفراء: كانوا خاصة عيسى، ونقل ابن الجوزي كلام الزجاج فقال: وقال الزجاج الحواريون في اللغة الذين أخلصوا ونقوا من كل عيب، وكذلك الدقيق الحواري إنما سمي بذلك لأنه ينقى من لباب البر وخالصه، قال حذاق اللغويين ((الحواريون)) صفوة الأنبياء الذين خلصوا وأخلصوا في تصديقهم ونصرتهم، ويقال: ((عين حوراء)) إذا اشتد بياضها وخلص واشتد سوادها ولا يقال: ((امرأة حوراء)) إلا أن تكون مع حور عينها بيضاء.

والثاني: أنهم البيض الثياب، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنهم سموا بذلك لبياض ثيابهم.

والثالث: أنهم القصارون سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب، أي: يبيضونها.

قال الضحاك ومقاتل: ((الحواريون)) هم القصارون.

قال اليزيدي: ويقال للقصارين: ((الحواريون)) لأنهم يبيضون الثياب، ومنه سمي الدقيق: ((الحواري)) والعين: ((الحوراء)) النقية المحاجر.

والرابع: الحواريون المجاهدون. والخامس: ((الحواريون)) الصيادون. والسادس: ((الحواريون)) الملوك حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن الأنباري.

انظر: زاد المسير (١/٣٩٤)، وتفسير ابن كثير (١/١٤٧)، وتفسير القرطبي (٤/٩٧)، وفتح القدير (١/٥١٩)، وتفسير أبي السعود (٢/٤١)، والدر المنثور (١/١٨٢)، وروح المعاني (٣/١٧٦)، وتفسير الثعالبي (١/٢٧١)، والكشاف (١/١٨١)، ومعاني القرآن (١/٤٠٦).

(٢) رواه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٩/٣٢٩، ورقم: ٢٩٤) عن عبد الله بن الزبير، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/٩٥). وانظر: الاستيعاب (٢/٥١٢).

(٣) البيت لأبي بن عبيد الله اليشكري، من بني عدي بن جشم، ومن يشكر: شاعر نعته ابن قتيبة بالخبيث. كان مولعاً بالشراب. من أهل الكوفة. خرج مع ابن الأشعث -عبد الرحمن بن محمد- وقتله الحجاج. وقيل: مات في طريق مكة (نحو ٨٣ هـ = نحو ٧٠٢ م).

انظر ترجمته في: الشعر والشعراء (ص: ٧١١)، والأعلام: (اليشكري).

فقل للحواريات يبكينَ غيرنا ولا تبكنا إلا الكلابَ النَّوابح [١]

وقال أهل اللغة في «المحور» وهو العود الذي تدور عليه البكرة قولين؛ قال بعضهم: إنما قيل له: «محور» للدوران لأنه يرجع إلى المكان الذي زال منه، وقيل: إنما قيل له: «محور» لأنه بدورانه ينصقل حتى يصير أبيض، ويقال: «دقيق حواري» من هذا، أي: قد أخذ لبابه، وكذلك: «عجين مُحَوَّر» للذي يمسح وجهه بالماء حتى يصفو، ويقال: «عين حَوْرَاء» إذا اشتد بياضها وخلص واشتد سوادها، ولا يقال: «امرأة حوراء» إلا أن تكون مع حور عينها بيضاء، وما روي في الحديث: «نعوذ بالله من الحور بعد الكور» [٢] معناه: نعوذ بالله من الرجوع والخروج عن الجماعة بعد الكور، أي: بعد أن كنا في «الكور» أي: في الجماعة، يقال: «كارَ الرجل عمامة» إذا لفها على رأسه، و«حار عمامته» إذا نقضها، وقد قيل: «بعد الكون» ومعناه: بعد أن كنا على استقامة إلا أن مع «الكون» محذوفاً في الكلام دليلاً عليه.

وأما معنى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أي: اكتبنا مع الذين شهدوا للأنبياء بالتصديق، وحقيقة الشاهد أنه الذي يبين تصحيح دعوى المدعي؛ فالمعنى: صدقنا بالله واعترفنا بصحة ما جاء به النبي ﷺ، وثبتنا فاكتبنا مع من فعل فعلنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

«المكر» من الخلائق خب وخداع، والمكر من الله: المجازاة على ذلك فسمي باسم ذلك، لأنه مجازاة عليه كما قال -عز وجل-: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[البقرة: ١٥]؛ فجعل مجازاتهم على الاستهزاء بالعذاب لفظه الاستهزاء، وكما قال -جل وعز-: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠] فالأولى ﴿سَيِّئَةٍ﴾ والمجازاة عليها سميت باسمها، وليست في الحقيقة ﴿سَيِّئَةٍ﴾.

وجائز أن يكون مكر الله استدراجهم من حيث لا يعلمون، لأن الله سلط عليهم فارس فغلبتهم وقتلتهم، والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾[الروم: ١-٣].

---

(١) والبيت وارد في: تفسير الطبري (٣/٢٨٢)، وتفسير القرطبي (٤/٩٧)، وتفسير الثعالبي (١/٢٧١)، والكشاف (١/١٨١)، والأغاني (١١/٣١٢)، ولسان العرب (٤/٢١٧).

(٢) رواه ابن خزيمة (٤/١٣٨، ورقم: ٢٥٣٣)، والترمذي (٥/٤٩٧، ورقم: ٣٤٣٩)، والنسائي (٨/٢٧٢، ورقم: ٥٤٩٨)، وأحمد (٥/٨٣) عن عبد الله بن سرجس، وهو جزء من دعاء السفر.

وقيل في التفسير أيضاً: إن مكر الله بهم كان في أمر عيسى أنه ﷺ كان في بيت فيه كوة فدخل رجل ليقتله، رفع عيسى من البيت وخرج الرجل في شبهه يخبرهم أنه ليس في البيت فقتلوه[1].

وجملة المكر من الله مجازاتهم على ما فعلوا.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾.

﴿عِيسَى﴾ اسم أعجمي عدل عن لفظ الأعجمية إلى هذا البناء، وهو غير مصروف في المعرفة لاجتماع العجمية والتعريف فيه، ومثال اشتقاقه من كلام العرب أن ﴿عِيسَى﴾ «فِعْلَى» فالألف يصلح أن تكون للتأنيث فلا تنصرف في معرفة ولا نكرة، ويكون اشتقاقه من شيئين؛ أحدهما: العيس وهو بياض الإبل، والآخر: من العوس والعياسة إلا أنه قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

فأما عيسى -عليه السلام- فمعدول[2] من «يشوع» كذا يقول أهل السريانة.

وقال النحويون في معنى قوله -عز وجل-: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾ التقديم والتأخير؛ المعنى: أني رافعك ومطهرك ومتوفيك، وقال بعضهم: المعنى على هذا اللفظ كقوله -عز وجل- ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[الزمر: ٤٢]، فالمعنى على مذهب هؤلاء: أن الكلام على هذا اللفظ.

ومعنى ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

القراءة بطرح التنوين والتنوين جائز، ولكن لا تقرأ به إلا أن تكون ثبتت بذلك رواية.

ومعنى: ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ فيه قولان؛ أحدهما: أنهم فوقهم في الحجة وإقامة البرهان، والآخر: أنهم فوقهم في اليد والبسطة والغلبة، ويكون ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ محمداً ﷺ ومن اتبعه فهم منصورون عالون.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨٧/٣)، وتفسير القرطبي (٩٩/٤)، وفتح القدير (٥٢١/١)، وتفسير البغوي (٤٤/١)، والدر المنثور (٢٢٤/٢)، وزاد المسير (٣٩٥/١)، والكشاف (١٨١/١)، ومعاني القرآن (٤٠٨/١).

(٢) أي: هو بالسريانية: «يشوع» ومعناه: المخلص لتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم. انظر: قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (ص: ٤٤٣).

العذاب في الدنيا القتل الذي نالهم وينالهم وسبي الذراري وأخذ الجزية، وعذاب الآخرة ما أعده الله لهم من النار.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾؛ أي: ما لهم من يمنعهم في الدنيا لأن الله -عز وجل- قد أظهر الإسلام على دينهم، وجعل الغلبة لأهله ولا أحد ينصرهم في الآخرة من عذاب الله.

ومعنى: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لا يرحمهم ويعذبهم ولا يثني عليهم خيراً، هذا معنى البغض من الله، ومعنى المحبة منه الرحمة والمغفرة والثناء الجميل.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾؛ أي: القصيص الذي جرى نتلوه عليك.

﴿مِنَ الآيَاتِ﴾؛ أي: من العلامات البينات الدلالات على تثبيت رسالتك، إذ كانت أخباراً لا يعلمها إلا قارئ كتاب أو معلم أو من أوحيت إليه.

وقد علم أن النبي ﷺ كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ الكتب على جهله النظر فيها والفائدة منها، فإنه ﷺ لم يعلمه أحد من الناس، فلم يبق إلا الوحي، والإخبار بهذه الأخبار التي يجتمع أهل الكتاب على الموافقة بالإخبار بها من الآيات المعجزات.

ومعنى ﴿وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾: أي: ذو الحكمة في تأليفه ونظمه وإبانة الفوائد فيه، ويصلح أن تكون ﴿ذَلِكَ﴾ في معنى الذي، ويكون ﴿نَتْلُوهُ﴾ صلة، فيكون المعنى: الذي نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم فيكون ذلك ابتداء، والخبر من الآيات.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾.

﴿آدَمَ﴾ قد بينا أنه لا ينصرف وأن اسمه مأخوذ من أديم الأرض، وهو وجهها، ولذا يقال لذي اللون الذي يشبه لون الأرض: «آدم».

و﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ ليست بمتصلة بآدم إنما هو مبين آدم، يجوز في الكلام أن تقول: «مررت بزيد قام» لأن زيداً معرفة لا يتصل به «قام»، ولا يوصل به، ولا يكون حالاً، لأن الماضي لا يكون حالاً أتت فيها، ولكنك تقول: «مثلك مثل زيد» تريد أنك تشبهه في فعله، ثم تخبر بقصة زيد فتقول: فعل كذا وكذا.

وإنما قيل: إن مثله كمثل آدم لأن الله أنشأ آدم من غير أب خلقه من تراب، فكما خلق آدم من غير أب كذلك خلق عيسى -عليه السلام-.

ويروى في التفسير: أن قوماً من نصارى «نجران» صاروا إلى النبي ﷺ فقالوا له: «إنك سببت صاحبنا» قال «ومن صاحبكم ؟» قالوا: «عيسى». قال: «وما قلت فيه ؟»

قالوا: ((قلت: إنه عبد)). فقال ﷺ: ((ما ذلك بعار على أخي ولا نقيصة، هو عبد وأنا عبد)) قالوا: ((فأرنا مثله)) فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إلى آخر الآية(١).

وقوله جل وعز: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ مرفوع على أنه خبر ابتداء محذوف؛ المعنى: الذي أنبأناك به في قصة عيسى -عليه السلام- هو الحق من ربك.

﴿فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: من الشكاكين، والخطاب للنبي خطاب للخلق، لأن النبي لم يشكك في قصة عيسى، ومعنى ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي: آتاك من عند ربك.

وقوله جل وعز: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أي: في عيسى.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ قيل له: هذا بعد أن أُوحيت إليه البراهين والحجج القاطعة في تثبيت أمر عيسى أنه عبد، فأمر بالمباهلة بعد إقامة الحجة، لأن الحجة قد بلغت النهاية في البيان، فأمر الله أن يجتمع هو والنساء والأبناء من المؤمنين، وأن يدعوهم إلى أن يتجمعوا هم وآباؤهم ونساؤهم ثم يبتهلون.

ومعنى ((الابتهال)) في اللغة: المبالغة في الدعاء، وأصله: الالتعان، ويقال: ((بهله الله)) أي: لعنه الله، ومعنى: ((لعنه الله)) باعده الله من رحمته، يقال: ((ناقة باهل وباهلة)) إذ لم يكن عليها صِرَار، ((وقد أبهل الرجل ناقته)) إذا تركها بغير صرار، ((ورجل باهل)) إذا لم يكن معه عصا.

فتأويل ((الْبَهْل)) في اللغة: المباعدة والمفارقة للشيء.

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة لأمرين كلاهما فيه بيان؛ أن علماءهم قد وقفوا على أن أمر النبي ﷺ حق، لأنهم إذ أبوا أن يلاعنوا دل إباؤهم على أنهم قد علموا أنهم إن باهلوا نزل بهم مكروه، وأنهم إذا تركوا المباهلة دل ذلك ضعفهم، [وبان لمن](٢) لا علم عنده أن فرارهم من المباهلة دليل على أنهم كاذبون، وأن النبي ﷺ صادق.

وقيل: إن بعضهم قال لبعض: ((إن باهلتموه اضطرم الوادي عليكم ناراً، ولم يبق

---

(١) ذكره الزجاج هنا بمعناه، وهو قريب من أصله الذي رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وانظر: فتح القدير (١/٥٢٤)، والدر المنثور (٢/٢٢٨)، والعجاب في بيان الأسباب (٢/٦٨٠)، ولباب النقول (١/٥١).

(٢) ما بين [ ] في الأصل: ((ومن لا علم عنده)) وما أثبت ليستقيم المعنى.

نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة)).

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: ((لو باهلوني لاضطرم الوادي عليهم ناراً، وما بقي نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة))[1].

وهذا ما كان ينبغي أن ينعم النظر فيه، ويعلم المؤمنون بيان ما هو عليه وما عليه من الضلال من خالفهم، لأنهم لم يرو أحد أنهم باهلوا النبي ﷺ ولا أجابوا إلى ذلك.

ومعنى قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾؛ أي: إن هذا الذي أوحينا إليك من هذه البينات التي آتيناك لهو القصص الحق، ويصلح أن تكون ((هو)) ههنا فصلاً، وهو الذي يسميه الكوفيون ((عماداً))، ويكون ﴿الْقَصَصُ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، ويصلح أن يكون ((هو)) ابتداء و﴿الْقَصَصُ﴾ خبره، وهما جميعاً خبر ﴿إِنَّ﴾.

ومعنى ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾، ﴿مِنْ﴾ دخلت توكيداً ودليلاً على نفي جميع من ادعى المشركون أنهم آلهة، أي: إن عيسى ليس بإله لأنهم زعموا أنه إله، فأعلم الله -عز وجل- أن لا إله إلا هو، وأن من آتاه الله آيات يعجز عنها المخلقون، فذلك غير مخرج له من العبودية لله، وتسميته إلهاً كفر بالله.

ومعنى ﴿الْعَزِيزُ﴾: هو الذي لا يعجزه شيء، و﴿الْحَكِيمُ﴾: ذو الحكمة الذي لا يأتي إلا ما هو حكمة.

وقوله جل وعز ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾: أي: فإن أعرضوا عما أتيت به من البيان فإن الله يعلم من يفسد من خلقه فيجازيه على إفساده.

وقوله جل وعز ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

معنى ﴿سَوَاءٍ﴾ معنى عدل، ومعنى ﴿كَلِمَةٍ﴾ كلام فيه شرح قصة وإن طال، وكذلك يقول العرب للقصيدة: ((كلمة)).

يروى أن حسان بن ثابت الأنصاري كان إذا قيل: له أنشد قال للقائل: ((هل أنشدت كلمة الحويدرة[2] يعني قصيدته التي أولها [من الكامل]:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٠٣/٤)، ومعاني القرآن (٤١٦/١).

(٢) ويقال أيضاً: ((الحادرة)) وهو شاعر جاهلي مقل، واسمه: قطبة بن أوس بن محصن بن جرول المازني الفزاري الغطفاني، ولقب بذلك لضخامته، وقال صاحب الأغاني: كان حسان بن ثابت إذا تنوشدت =

بكَرَت سُمَيَّةُ غُدوَةً فَتَمَتَّعِ[(١)]

ويقال للعدل: «سَوَاء وسَوَى وسُوَّى»، قال زهير بن أبي سلمى [من الوافر]:

أَرُوني خُطَّةً لا عَيْبَ فيها يُسَوِّي بَيْننا فِيها السَّواءُ

فَإِن تُرِكَ السَّواءَ فَلَيسَ بَيني وَبَينَكُم بَني حِصنٍ بَقاءُ

يريد بالسواء: «العدل» كذا يقول أهل اللغة وهو الحق.

وهو من استواء الشيء، ولو كان في غير القرآن لجاز: «سواءً بيننا وبينكم» فمن قال: «سواءً» جعله نعتاً للكلمة، يريد ذات سواء، ومن قال: ﴿سَوَاءٍ﴾ جعله مصدراً في معنى استواء، كأن قال: استوت استواء.

وموضع ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾؛ موضع «أن» خفض على البدل من ﴿كَلِمَةٍ﴾؛ المعنى: تعالوا إلى أن نعبد إلا الله، وجائز أن تكون أن في موضع رفع كأن قائلاً قال: ما الكلمة ؟ فأجيب فقيل: «هي ألا نعبد إلا الله»، ولو كان «ألا نعبدُ إلا الله ولا نشركُ به شيئاً» لجاز على أن يكون تفسيراً للقصة في تأويل «أي» كأنهم قالوا: أي لا نعبد إلا الله، كما قال -عز وجل-: ﴿وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾[ص: ٦]، وقال قوم: معنى «أن» ههنا معنى «يقولون امشوا»، والمعنى واحد، لأن القول ههنا تفسير لما قصدوا له وكذلك «أي» يفسر بها، ولو كان ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ بالجزم لجاز على أن يكون «أن» كما فسرنا في تأويل «أي»: ويكون ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ﴾ على جهة النهي، والمنهي هو الناهي في الحقيقة كأنهم أنفسهم.

ومعنى ﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: نرجع إلى أن معبودنا الله، وأن عيسى بشر كما أننا بشر فلا نتخذه رباً.

ومعنى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مقرون بالتوحيد مستسلمون لما أتتنا به الأنبياء من قبل الله -عز وجل-.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

الأشعار يقول: «هل أنشدت كلمة الحويدرة». انظر الأغاني (٣/٧١)، وطبقات فحول الشعراء (ص: ١٤٣).

(١) انظر: الأغاني (٣/٢٦٦)، وتاج العروس (١/٢٦٧١).

في هذا يبين حجة على اليهود والنصارى جميعاً، لأن اليهود تدعي أن إبراهيم كان يهودياً، والنصارى تدعي أنه كان نصرانياً، وتدفع اليهود دعواهم وليس يدفعون اسم صفته أنه كان مسلماً، وأنه لم يكن اسمه يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً، والتوراة والإنجيل أنزلا من بعده، وليس فيهما اسمه بواحد من أديان اليهود والنصارى والمشركين، واسم الإسلام له في كل الكتب(١)، فدفع بعضهم بعضاً أن يكون مسمى بالأسماء التي هي غير الإسلام دليل بيّن على نقض قولهم، وبرهان بيّن في تبرئة إبراهيم من سائر الأديان إلا دين الإسلام.

ومعنى ﴿حَنِيفاً مُسْلِماً﴾؛ معنى «الحنف» في اللغة: إقبال صدور القدمين كل واحدة على أختها إقبالاً يكون خلقة لا رجوع فيه أبداً، فمعنى «الحنيفة في الإسلام»: الميل إليه والإقامة على ذلك العقد.

وقوله جل وعز ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾.

يعني محمداً ﷺ أي: فهم الذين ينبغي لهم أن يقولوا إنا على دين إبراهيم ولهم ولاية، ﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: يتولى نصرهم لأن حزبهم هم الغالبون ويتولى مجازاتهم بالحسنى.

وقوله جل وعز: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾؛ أي: وأنتم تشهدون أنها آيات الله لأنكم كنتم تخبرون بأمر النبي ﷺ قبل مبعثه.

وأصل ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ لما تكفرون؛ والمعنى لأي شيء تكفرون، وكذلك ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[الصف: ٢]، وكذلك ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾[النبأ: ١]، و﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[الحجر: ٥٤]، فإذا وقفت على هذه الحروف وقفت بالهاء، فقلت: «لمه وبمه» لأن الألف حذفت في هذه الأسماء التي للاستفهام خاصة، فيجوز ذلك ولا يجوز ذلك في الموصولة(٢)، لأن الألف فيهن ليست آخر الأسماء إنما الألف وسط، وحذفها لأن حروف الجر عوض منها، فحذفت استخفافاً لأن الفتحة دالة عليها، ولا يجوز إسكان هذه الحروف.

وزعم الكسائي أن الأصل كان في «كم»: «كما» قال: وكنت أشتهي أن تكون

---

(١) أي أن اسمه «مسلماً» ثابت في كل الكتب.

(٢) أي: «ما» الموصولة لا يجوز فيها حذف الألف.

مفتوحة لالتقاء الساكنين في قولهم: ((كَمْ المال)) بالكسر، وهذا غلط من أبي الحسن، ولو كان كما يقول لكان ((كَمَ مالك)) كما أنك تقول: ((لم فعلت)).

وليس هذا القول مما يعرج عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾؛ أي: لم تخلطون الحق بباطلكم وأنتم تعلمون أنه الحق ؟ يقال: لَبِسْت عليهم الأمر أُلبِسه، قال تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٩]؛ ويقال: لَبِست الثوب أَلْبَسَه، وقال الله -عز وجل-: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً﴾[الكهف: ٣١]؛ ولو قيل: ((وتكتموا الحق)) لجاز على قولك: لم تجمعون هذا وذاك، ولكن الذي في القرآن أجود في الإعراب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾؛ الطائفة: الجماعة وهو اليهود.

﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾؛ أي: أوله، قال الشاعر[1] [من الكامل]:

مَن كَانَ مَسْرُوراً بمَقْتَلِ مالِكٍ فَلْيَأتِ نِسْوَتَنا بوَجْهِ نَهارِ
يَجِدِ النِّساءَ حَواسِراً يَنْدُبْنَهُ بالصُّبْحِ قَبْلَ تَبَلُّجِ الأَسْحارِ[2]

أي: في أول النهار، وقد قيل: في تفسير هذا غير قول؛ قال بعضهم: معناه: آمنوا بصلاتهم إلى بيت المقدس وأكفروا بصلاتهم إلى البيت.

وقيل: إن علماء اليهود قال بعضهم لبعض: قد كنا نخبر أصحابنا بأشياء قد أتى بها محمد ﷺ، فإن نحن كفرنا بها كلها اتهمنا أصحابنا، ولكن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، لنوهمهم أننا نصدقه فما يصدق فيه ونريهم أنا نكذبه فيما ليس عندنا.

وقيل أتوا النبي ﷺ في صدر النهار فقالوا له: ((إنك الذي خَبِّرنَا في التوراة بأنك

---

(١) هو: الربيع بن زياد، واسمه: الربيع بن زياد بن عبد الله بن سفيان بن ناشب، والعبسي: أحد دهاة العرب وشجعانهم ورؤسائهم في الجاهلية. يروى له شعر جيد. وكان يقال له: ((الكامل)) اتصل بالنعمان بن المنذر، ونادمه مدة، ثم أفسد لبيد الشاعر ما بينهما، فارتحل الربيع وأقام في ديار عبس إلى أن كانت حرب داحس والغبراء فحضرها. وأخباره كثيرة. وفاته: (نحو ٣٠ ق هـ = نحو ٥٩٠ م).
انظر ترجمته في: الأعلام: (الربيع بن زياد).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٠٩/٣)، وتفسير القرطبي (١١٠/٤)، وروح المعاني (١٩٩/٣)، وزاد المسير (٤٠٥/١)، والكشاف (١٨٥/١)، والأغاني (١٨١/١٧)، وديوان الحماسة (٤١٣/١)، وصبح الأعشى (٤٦١/١)، ولسان العرب (٥٥٥/١٣)، وتاج العروس (٨٢٤٩/١).

مبعوث، ولكن أنظرنا إلى العشي لننظر في أمرنا» فلما كان بالعشي أتوا الأنصار فقالوا لها: «قد كنا أعلمناكم أن محمداً ﷺ هو النبي الذي هو بالمكتوب في التوراة، إلا أننا نظرنا في التوراة فإذا هو من ولد هارون، ومحمد من ولد إسماعيل، فليس هو النبي الذي عندنا» وإنما فعلوا ذلك لعل من آمن به يرجع. فهذا ما قيل في تفسير الآية[١].

وقوله -عز وجل-:﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

قيل المعنى: لا تجعلوا تصديقكم النبي في شيء مما جاءكم به إلا لليهود، فإنكم إن قلتم ذلك للمشركين كان عوناً لهم على تصديقه.

وقال أهل اللغة وغيرهم من أهل التفسير: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم، أي: لا تصدقوا أن يعطى أحد من علم النبي ﷺ مثل ما أعطيتم ﴿أَوْ يُحَاجُوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾.

ومعنى ﴿أَوْ يُحَاجُوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: ليس يكون لأحد حجة عند الله في الإيمان به لعلم من عنده، إلا من كان مثلكم.

وقد قيل في المعنى: ﴿قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

أي: الهدى هو هذا الهدى لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم.

قال بعض النحويين معنى: «أن» ههنا معنى «لا»؛ المعنى: أن لا يؤتى أحد مثل ما أتيتم أي: «لأن» لا يؤتى، فحذف «لا» لأن في الكلام دليلاً عليها كما قال الله -عز وجل-: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾[النساء: ١٧٦] أي: لئلا تضلوا.

قال أبو العباس محمد بن يزيد: «لا» ليست مما يحذف ههنا، ولكن الإضافة ههنا معلومة فحذفتَ الأول وأقمت الثاني مقامه؛ المعنى: يبين الله لكم كراهة أن تضلوا وكذلك ههنا قال: إن الهدى هدى الله كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أي: من خالف دين الإسلام، لأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار فهدي الله بعيد من غير المؤمنين.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤١٢/١)، وتفسير ابن كثير (١٦٣/١)، وتفسير القرطبي (١١٠/٤)، وفتح القدير (٥٢٩/١)، وتفسير البغوي (٥٣/١)، وتفسير البيضاوي (٥٢/١) ، وتفسير أبي السعود (١٢٨/١)، والدر المنثور (٢٤١/٢)، وروح المعاني (٣١٩/١)، وزاد المسير (٤٠٥/١)، وتفسير الثعالبي (٢٧٧/١)، والكشاف (١٨٥/١)، وتفسير الصنعاني (١٢٣/١)، وتفسير مجاهد (١٢٨/١)، ومعاني القرآن (٤٢٠/١).

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: نبوته وهداه يؤتيه من يشاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾.

اتفق أبو عمرو وعاصم والأعمش[1] وحمزة على إسكان الهاء من ﴿يُؤَدِّهِ﴾، وكذلك كل ما أشبه هذا من القرآن اتفقوا على إسكان الهاء فيه نحو ﴿نُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾[النساء: ١١٥] و﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾[الشورى: ٢٠]، وقوله: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾[النساء: ١١٥]، إلا حرفاً حكي عن أبي عمرو.

وحكى أبو عبيدة عن أبي عمرو أنه كسر في ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾[النمل: ٢٨]، ولا فصل بين هذا الحرف وسائر الحروف التي جزمها.

أما الحكاية عن أبي عمرو فيه وفي غيره فغلط، كان أبو عمرو يختلس الكسرة وهذا كما غلط عليه في ﴿بَارِئِكُمْ﴾[البقرة: ٥٤]، حكى القراء عنه أنه كان يحذف الهمزة في ﴿بَارِئِكُمْ﴾.

وحكى سيبويه عنه -وهو في هذا أضبط من غيره- أنه يكسر كسراً خفياً، وأما نافع وقراء أهل المدينة فأشبعوا هذه الحروف، فكسروا وأثبتوا الياءات مثل ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وهذا الإسكان الذي حكى عنه هؤلاء غلط بيّن لا ينبغي أن يقرأ به، لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم ولا تسكن في الوصل إنما تسكن في الوقف.

---

(١) هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي الملقب بالأعمش لضعف بصره، ويعد من صغار التابعين. ولد بقرية من قرى طبرستان بشمال إيران تسمى أمُه وقيل ولد بالكوفة فى عاشوراء سنة (٦١ هـ = ٦٨١ م).

تعلم الأعمش بالكوفة فقرأ القرآن على يحيى بن وثاب مقرئ العراق حتى صار أقرأ أهل الكوفة، وأخذ الحديث عن أنس بن مالك الصحابي الجليل وقد رآه، وكما روي عن بعض التابعين مثل سعيد ابن جبير و مجاهد و إبراهيم النخعي.

وبلغ الأعمش منزلة عالية في الحديث فروى عنه أبو حنيفة والأوزاعي ووكيع وسفيان بن عيينة. وله نحو (١٣٠٠) حديث. واشتهر الأعمش بين الناس بالقناعة وعزة النفس والشجاعة في الحق، وكثرة ذكره للموت.وعرف بين أصحابه ومعاصريه بظرفه وفكاهته.

ومات الأعمش بالكوفة في ربيع الأول سنة (١٤٨ هـ = ٧٦٥ م) وعمره يقارب ثمانين عامًا.

انظر ترجمته في: الأعلام (الأعمش).

وفي هذه الحروف أربعة أوجه يجوز إثبات الياء ويجوز حذفها، تقول: ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ بالكسر، ويجوز: «يؤد هو إليك» بالضم بإثبات الواو بعد الهاء، ويجوز حذف الواو وضم الهاء، فأما الوقف فلا وجه له لأن الهاء حرف خفي بين في الوصل بالواو في التذكير.

قال سيبويه: دخلت الواو في التذكير كما دخلت الألف في التأنيث نحو: «ضربتهو وضربتها»، قال أصحابه: اختيرت الواو لأنها من طرف الشفتين، والهاء من الحلق، فأبانت الواو الهاء، وإنما تحذف الياء لعلة تقلب الواو إليها فإذا حذفت الياء بقيت الكسرة، فأما في الوقف فلا يجوز البتة.

وقد أكثر الناس في تفسير «القنطار»[1] وقد حكينا ما قال الناس فيه، ولم يتفقوا على تحديد في مقدار وزنه إلا أنهم قد اتفقوا في أنه الكثير من المال.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾؛ أكثر القراءة ﴿دُمْتُ﴾ بضم الدال، وقد قرئت، ﴿دِمْتَ﴾، فأما ﴿دُمْتُ﴾ فمن قولك: «دُمتُ أَدُوم» إذا بقيت على الشيء مثل: «قُمت أَقُوم» وأما ﴿دِمْتَ﴾ بالكسر، فعلى قولهم: «دِمتَ تَدَامُ» مثل قولك: «خِفتَ تَخَافُ»، ويقال: «قد دِيم بفلان، وأُدِيم به» بمعنى دِير به وأُدِير به، وهو الذي به «دُوام» كقولهم: «به دُوار»، ويقال: «دَامَ المال» إذا سكن «يَدُوم فهو دَائم ومنه: «نهى النبي ﷺ أن يبال في الماء الدائم»[2] أي: الساكن، ويقال: «قد دوَّم الطائر في الجو تَدْوِيماً»، وهو يصلح أن يكون من وجهين من دورانه في طيرانه، ويصلح أن يكون من قلة حركة جناحه لأنه يرى كأنه ساكن الجناح.

ومعنى: ﴿قَائِماً﴾ أي: إلا بدوامك قائماً على اقتضاء دينك.

وقوله -عز وجل- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾؛ أي: فعلهم ذلك بقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس علينا طريق في أخذ مالهم، وصف الله -عز وجل- أكلهم السحت وخيانتهم.

وقد قيل في التفسير: إنهم عاملوا قوماً من المشركين فلما انتقلوا إلى الإسلام قالوا: ليس علينا لكم سبيل، إنما عاملناكم وأنتم على دينكم ذلك، فأعلم الله إنهم يكذبون، قال

---

(١) سبق ذلك في الكلام على قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ من هذه السورة الكريمة.

(٢) متفق عليه رواه البخاري (١/٩٤، ورقم: ٢٣٦)، ومسلم (١/٢٣٥، ورقم:٢٨٢) من حديث أبي هريرة.

-عز وجل-: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وهم يعلمون أنهم يكذبون، فردَّ الله قولهم فقال: ﴿بَلَى﴾: وهو عندي -والله أعلم- وقف التمام، ثم استأنف فقال -عز وجل-: ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾ أي: فإن الله يحبه، ويجوز أن يكون استأنف جملة الكلام بقوله: ﴿بَلَى﴾ لأن قولهم: «ليس علينا فيما نفعل جناح» كقولهم: «نحن أهل تقوى في فعلنا هذا» فأعلم الله أن أهل الوفاء بالعهد والتقى يحبهم الله وأنهم المتقون، أي: الذين يتقون الخيانة والكفر بالنبي ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿أُوْلَئِكَ لاَ خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾: هذه الجملة خبر «إن»، ومعنى الخلاق النصيب الوافر من الخير.

ومعنى قوله: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾.

في قوله: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ وجهان؛ أحدهما: أن يكون إسماع الله أولياءه كلامه بغير سفير خصوصية يخص الله بها أولياءه، كما كلم موسى فكان ذلك خصوصية له دون البشر أجمعين، وجائز أن يكون ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ تأويله: الغضب عليهم والإعراض عنهم كما تقول: «فلان لا ينظر إلى فلان ولا يكلمه» وتأويله أنه غضبان عليه وإن كلمه بكلام سوء لم ينقض ذلك.

ومعنى ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يجعلهم طاهرين ولا يثني عليهم خيراً.

ومعنى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: موجع.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾.

هذه اللام في ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً﴾ تؤكد الكلام زيادة على توكيد «إن»، لأن «إن» معناها توكيد الكلام، ولذلك صار لضم يوصل بها في الإيجاب، تقول: «والله إن زيداً قائم» وكذلك تصل الضم باللام فيقول: «والله لزيد قائم» ولا تلي هذه اللام «إن»؛ لا يجوز «إن لزيداً قائم» بإجماع النحويين كلهم وأهل اللغة.

ومعنى ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾؛ أي: يحرفون الكتاب، أي: يعدلون عن القصد، ويجوز ﴿يُلَوُّونَ﴾ بضم الياء والتشديد.

﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ و﴿لِتَحْسِبُوهُ﴾ بكسر السين وفتحها، يقال: «حَسَبَ يَحْسَبُ ويَحْسِبُ» جميعاً، ويقال: «لَوَيْتُ الشيء» إذا عدلته عن القصد «لَيًّا ولويت الغريم لَيَاناً» إذا مطلته

بدينه قال الشاعر[(١)] [من الرجز]:

قَدْ كُنْتُ دايَنْتُ بِها حَسّانا مَخافَةَ الإِفْلاسِ وَاللَّيانا[(٢)]

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللهِ﴾.

أي: أن الله لا يصطفي لنبوته الكذبة، ولو فعل ذلك بشر لسلبه الله -عز وجل- آيات النبوة وعلاماتها، ونصب ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾: على الاشتراك بين ﴿أَن يُؤْتِيَهُ﴾ وبين ﴿يَقُولَ﴾ أي: لا يجتمع لنبي إتيان النبوة والقول للناس كونوا عباداً لي.

﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ والربانيون أرباب العلم والبيان، أي: كونوا أصحاب علم وإنما زيدت الألف والنون للمبالغة في النسب، كما قالوا للكبير اللحية: «لحياني» ولذي الجمة الوافرة: «جماني».

وقد قرىء ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ﴾، و﴿تَعَلَمُونَ﴾ بضم التاء وفتحها.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: بعلمكم ودرسكم علموا الناس وبينوا لهم.

وجاء في التفسير ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي: علماء فقهاء ليس معناه: «كما تعلمون» فقط، ولكن: ليكن هديكم ونيتكم في التعليم هدي العلماء والحكماء، لأن العالم إنما ينبغي أن يقال له عالم إذا عمل بعلمه، وإلا فليس بعالم، قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠٢] أي: لو كانوا وفوا العلم حقه وقد فسرنا ما قيل في هذا في مكانه.

ومعنى: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾.

أي: ولا يأمركم أن تعبدوا الملائكة والنبيين لأن الذين قالوا: إن عيسى -عليه السلام- إله عبدوه واتخذوه رباً، وقال قوم من الكفار إن الملائكة أربابنا، ويقال: إنهم الصائبون، ويجوز الرفع في ﴿وَلاَ يَأْمُرُكُمْ﴾ أي: لا يأمركم الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾.

موضع ﴿وَإِذْ﴾ نصب؛ المعنى: -والله أعلم- واذكر في أقاصيصك ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ

(١) هو: رؤبة بن العجاج.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١١٩/٤)، ومعاني القرآن (٢١٤/٢)، والمفصل في صنعة الإعراب (٢٨٢/١)، وشرح ابن عقيل (١٠٥/٣)، ومغني اللبيب (٦١٩/١).

﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ إلى قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾.

«ما» ههنا على ضربين؛ يصلح أن يكون للشرط والجزاء وهو أجود الوجهين، لأن الشرط يوجب أن كل ما وقع من أمر الرسل فهذه طريقته، واللام دخلت في «ما» كما تدخل في «إن» التي للجزاء، إذا كان في جواب القسم قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[الإسراء: ٨٦]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾[الإسراء: ٨٨]؛ فاللام في «إن» دخلت مؤكدة موطدة للام القسم، ولام القسم هي التي لليمين، لأن قولك: «والله لئن جئتني لأكرمنك» إنما حلفك على فعلك إلا أن الشرط معلق به فلذلك دخلت اللام على الشرط، فإذا كانت «ما» في معنى الجزاء فموضعها نصب بقوله ﴿لَمَا آتَيْتُكُم﴾ والجزاء قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ ويجوز أن يكون في معنى «الذي» ويكون موضعها رفعاً.

المعنى: أخذ الله ميثاقهم، أي: استحلفهم بالذي آتيتكم، والمعنى: أتيتكموه، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ فتكون «ما» رفعاً بالابتداء، ويكون خبر الابتداء لتؤمنن به، وحذفت الهاء من ﴿لَمَا آتَيْتُكُم﴾ لطول الاسم.

فأعلم الله -عز وجل-: أنه عهد إلى كل رسول أن يؤمن بغيره من الرسل، فصار العهد مشتملاً على الجماعة أن يؤمن بعضهم ببعض وأن ينصر بعضهم بعضاً.

ومعنى قوله: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾: أي: فتبينوا لأن الشاهد هو الذي يصحح دعوى المدعي، وشهادة الله للنبيين تبيينه أمر نبوتهم بالآيات المعجزات.

ويجوز -وقد قرئ به- ﴿لِمَا آتَيْتُكُم﴾ فتكون اللام المكسورة معلقة بقوله: ﴿أَخَذَ﴾؛ المعنى: أخذ الميثاق لإتيانكم الكتاب والحكمة، وقرأ بعضهم: «لما آتيناكم من كتاب وحكمة» أي: لما آتيانكم الكتاب والحكمة أخذ الميثاق، ويكون الكلام يؤول إلى الجزاء، كما تقول: لما جئتني أكرمتك.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾: ذلك إشارة إلى أخذ الميثاق بالمعنى، ﴿فَمَن تَوَلَّى﴾ أي: أعرض عن الإيمان بعد أخذ الميثاق على النبيين، وأخذ الميثاق على النبيين مشتمل على الأخذ على أممهم، أي: فمن تولى بعد أخذ الميثاق وظهور آيات النبي ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الذين خرجوا عن القصد وعن جملة الإيمان.

ويصلح أن تكون ﴿هُمُ﴾ ههنا اسماً مبتدأ و﴿الفَاسِقُونَ﴾ خبره، و﴿هُمُ﴾ مع ﴿الفَاسِقُونَ﴾ خبر «أولئك»، وصلح أن يكون ﴿الفَاسِقُونَ﴾ مرتفعاً بـ«أولئك» و﴿هُمُ﴾

فصل، وهو الذي يسميه الكوفيون: ((العماد)).

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾ أي: أفغير دين الله يطلبون، لأنه قد بيّن أنه دين الله وإنهم كفروا وعاندوا وحسدوا بغياً كما فعل إبليس.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾.

جاء في التفسير: أنه أسلم من في السماوات كلهم طوعاً وأسلم بعض من في الأرض طوعاً وبعض كرهاً[1] ، لما كانت السنة فيمن فرض قتاله من المشركين أن يقاتل حتى يسلم سمي ذلك كرهاً، وإن كان يسلم حين يسلم طائعاً، إلا أن الوصلة كانت إلى ذلك بكره ونصب.

﴿طَوْعاً﴾ مصدراً وضع موضع الحال، كأنهم أسلموا طائعين ومكرهين كما تقول: ((جئتك ركضاً ومشياً وجئت راكضاً وماشياً)).

ويجوز أن يكون -والله أعلم- على معنى ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ أي: خضعوا من جهة ما فطرهم عليه ودبرهم به، لا يمتنع ممتنع من جبلة جبل عليها ولا يقدر على تغييرها أحب تلك الجبلة أو كره.

---

(١) قال المفسرون في معنى ((الطوع والكره)) ستة أقوال:

أحدها: أن إسلام الكل كان يوم الميثاق طوعاً وكرهاً، رواه مجاهد عن ابن عباس والأعمش عن مجاهد وبه قال السدي.

والثاني: أن المؤمن يسجد طائعاً والكافر يسجد ظله وهو كاره، روي عن ابن عباس ورواه ابن أبي نجيح وليث عن مجاهد.

والثالث: أن الكل أقروا له بأنه الخالق وإن أشرك بعضهم فإقراره بذلك حجة عليه في إشراكه، هذا قول أبو العالية ورواه منصور عن مجاهد.

والرابع: أن المؤمن أسلم طائعاً والكافر أسلم مخافة السيف، هذا قول الحسن.

والخامس: أن المؤمن أسلم طائعاً والكافر أسلم حين رأى بأس الله فلم ينفعه في ذلك الوقت، هذا قول قتادة.

والسادس: أن إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في تتجبلتهم لا يقدرأحد أن يمتنع من جبلة جبله عليها ولا على تغييرها وهذا هو قول الزجاج وهو معنى قول الشعبي: انقاد كلهم له.

انظر: زاد المسير (٤١٧/١)، وتفسير الطبري (٣٣٤/٣)، وتفسير ابن كثير (٢٢١/١)، وتفسير القرطبي (١٢٤/٤)، وفتح القدير (١٠٥/٣)، وتفسير البغوي (٦٣/١)، وتفسير البيضاوي (٥٩/١)، والدر المنثور (٢٥٤/٢)، وروح المعاني (١٨٦/١١).

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يدل على تصديق هذا القول، لأن؛ المعنى: أنه بدأكم على إرادته شئتم أو أبيتم، وهو يبعثكم كما بدأكم، فالتأويل: أتبغون غير الدين الذي هذه صفته.

ثم أمر الله -عز وجل- النبي ﷺ وأمته أن يقولوا آمنا بالله وما أنزل علينا، وأن يقولوا ويعتقدوا أنهم لا يفرقون بين جميع الرسل في الإيمان بهم، لا يكفرون ببعضهم كما فعلت اليهود والنصارى، وأعلم الله أنه لا يقبل ديناً غير دين الإسلام ولا عملاً إلا من أهله، فقال -عز وجل-: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾.

﴿يَبْتَغِ﴾ جزم بـ((من))، وقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الجواب.

ومعنى ﴿مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ أي: ممن خسر عمله ، والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ١].

وقوله -عز وجل-: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾.

يقال: إنها نزلت في قوم ارتدوا ثم أرادوا الرجوع إلى الرسول ونيتهم الكفر، فأعلم الله أنه لا جهة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم، لأنهم قد كفروا بعد البينات التي هي دليل على صحة أمر النبي ﷺ.

وقيل: إنها نزلت في اليهود، لأنهم كفروا بالنبي بعد أن كانوا -قبل مبعثه- مؤمنين، وكانوا يشهدون بالنبوة له فلما بعث -عليه السلام- وجاءهم بالآيات المعجزات وأنبأهم بما في كتبهم مما لا يقدرون على دفعه وهو -ﷺ أمي- كفروا به بغياً وحسداً[1]، فأعلم الله

---

(١) قال المفسرون في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن رجلاً من الأنصار ارتد فلحق بالمشركين فنزلت هذه الآية، فكتب بها قومه إليه فرجع تائباً فقبل النبي ﷺ ذلك منه وخلى عنه، ورواه عكرمة بن عباس وذكر مجاهد والسدي أن اسم ذلك الرجل: ((الحارث بن سويد)).

والثاني: أنها نزلت في عشرة رهط ارتدوا فيهم ((الحارث بن سويد)) فندم فرجع، رواه أبو صالح عن ابن عباس وبه قال مقاتل.

والثالث: أنها في أهل الكتاب عرفوا النبي ﷺ ثم كفروا به، رواه عطية عن ابن عباس وقال الحسن هم اليهود والنصارى.

=

أن جزاءهم اللعنة فقال: ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

ومعنى «لعن الناس أجمعين لهم»: أن بعضهم يوم القيامة يلعن بعضاً ومن خالفهم يلعنهم، وتأويل «لعنة الله لهم»: تبعيده إياهم من رحمته وثنائه عليهم بكفرهم.

ومعنى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: فيما توجبه اللعنة، أي: في عذاب اللعنة ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخرون عن الوقت.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾؛ أي: أظهروا أنهم كانوا على ضلال وأصلحوا ما كانوا أفسدوه، وغروا به من اتبعهم ممن لا علم عنده ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أعلم الله -عز وجل- أن من سعة رحمته وتفضله أن يغفر لمن اجترأ عليه هذا الاجتراء، لأن هذا ما لا غاية بعده وهو أنه كفر بعد تبين الحق.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

يقال في التفسير: إن هؤلاء هم النفر الذين ارتدوا بعد إسلامهم، ثم أظهروا أنهم يريدون الرجوع إلى الإسلام، فأظهر الله أمرهم لأنهم كانوا يظهرون أنهم يرجعون إلى الإسلام وعندهم الكفر[1]، والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

=

انظر: زاد المسير (٤١٧/١)، وتفسير الطبري (٣٢٨/٣)، وتفسير ابن كثير (٥٠٤/١)، وتفسير القرطبي (١٢٦/٤)، وفتح القدير (٥٤١/١)، وتفسير البغوي (٦٤/١)، والدر المنثور (٢٥٦/٢)، وروح المعاني (٢١٨/٣)، وتفسير الثعالبي (٢٨٧/١)، والكشاف (١٩٢/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٧٠٨/٢).

(١) اختلف المفسرون والرواة فيمن نزلت بسببه هذه الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت فيمن لم يتب من أصحاب «الحارث بن سويد» فإنهم قالوا نقيم بمكة ونتربص بمحمد ريب المنون قاله ابن عباس ومقاتل.

والثاني: أنها نزلت في اليهود كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، قاله الحسن وقتادة وعطاء الخراساني.

والثالث: أنها نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد بعد إيمانهم بصفته ثم ازدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم قاله أبو العالية.

=

لأنهم لو حققوا في التوبة لكانوا غير معتدين، ويدل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً﴾.

لأن الكافر الذي يعتقد الكفر ويظهر الإيمان عند الله كمظهر الكفر، لأن الإيمان هو: التصديق، والتصديق لا يكون إلا بالنية.

ومعنى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً﴾؛ أي: لو عمل من الخير وقدم ملء الأرض ذهباً يتقرب به إلى الله لم ينفعه ذلك مع كفره.

قال أبو إسحاق: وكذلك لو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهباً لم يقبل منه، فأعلم الله -عز وجل- أنه لا يثيبهم على أعمالهم بالخير ولا يقبل منهم الفداء من العذاب.

وقال بعض النحويين: إن الواو مسقطة، قال المعنى: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو افتدى به، وهذا غلط لأن الفائدة في الواو بينة وليست الواو مما يلغي، يقال: «ملأت الشيء أملؤه مَلئاً» المصدر بالفتح لا غير.

قال سيبويه والخليل: «الْمَلء» بفتح الميم الفعل، وتقول: «هذا ملء هذا» أي: مقدار ما يملؤه كما يقال: رَعَيت رَعياً والمال في الرعي» فهذا فرق بين.

قال بعض النحويين: يقال: «مَلأْت مَلَئاً ومُلئاً» وهذا غلط بيّن، لأن الموصوف ههنا أنه لو ملك مقدار ما يملأ الأرض ما قبل منه، وليس يقال: «إن قدر أن يفعل» أي: أن يملأ الأرض، إنما المتقرب به الذهب الذي هو ملء الأرض لا أن يملأ، يقال: «ملأت الشيء مَلئاً، وقد مليء فلان مَلاً، وهو مملوء» إذا زَكُمَ، و«الملأ» أشراف القوم وتقول: «أنت أَملأ بهذا» أي: أثرى وأوثق، و «رجل مليء بيّن الملاءة» -يا هذا- فأما ما يكتبه الكُتَّاب: «لأنت الملي» بالياء فخطأ، وهم مجمعون عليه هذا غلط.

و «الْمُلاءَة» التي تلبس ممدود، و «الْمَلاوَة من الدهر» القطعة الطويلة، ومن هذا قولهم: «ابل جديداً وتَمَلّ حبيباً» أي: عش مع حبيبك دهراً طويلاً.

و﴿ذَهَباً﴾ منصوب على التمييز، قال سيبويه وجميع البصريين: إن الاسم المخفوض قد حال بين الذهب وبين الملء أن يكون جراً، وحقيقة تفسيره: أن المعنى: ما يملؤه من

=

انظر: في زاد المسير (٤١٩/١)، وتفسير الطبري (٣٤١/٣)، وتفسير ابن كثير (٥٠٥/١)، وتفسير القرطبي (١٢٧/٤)، وفتح القدير (٥٤١/١)، وتفسير البغوي (٦٤/١)، والدر المنثور (٢٥٨/٢)، وروح المعاني (٢١٨/٣)، والعجاب في بيان الأسباب (٧١٣/٢).

الذهب، وكذلك إذا قلت: «عندي عشرون درهماً» أي: ما يعادل هذا المقدار من الدراهم.

وجائز أن يكون -والله أعلم- قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ يعني اليهود لأنهم كانوا تائبين في وقت إيمانهم بالنبي ﷺ قبل مبعثه، فأعلم الله أن تلك التوبة وذلك الإيمان ليس بمقبول لأنهم كفروا بعده وزادوا كفراً، فإن كفرهم بما كان ينزل على النبي ﷺ وقتاً بعد وقت زيادة في الكفر، وكذلك الإقامة عليه زيادة فيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

قال بعضهم: إن كل ما يتقرب به إلى الله من عمل خير فهو إنفاق، وروي عن ابن عمر أنه اشترى جارية كان هويها، فلما ملكها أعتقها ولم يصب منها، فقيل له: أعتقتها بعد أن كنت هويتها ولم تصب منها، فتلا هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(١)، وفعل ابن عمر هذا ينبغي أن يقتدى به الناس في أن يضنوا بجليل ما يملكونه في التقرب به إلى الله تعالى.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

أي: فإن الله يجازي عليه لأنه قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ فإذا عمل جوزي عليه.

وتأويل ﴿وَمَا﴾ تأويل الشرط والجزاء، وموضعها نصب «بتنفقوا»؛ المعنى: وأي شيء تنفقوا فإن الله عليم به، والفاء جواب الجزاء.

وقوله جل وعز: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

موضع ﴿مَا﴾ نصب؛ المعنى: إلا الطعام الذي حرمه إسرائيل على نفسه، ويروى: أنه

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٦٤٧/٣، ورقم: ٦٣٧٥) عن عبد الله بن عمر، وكذا البزار في مسنده كما في مجمع الزوائد (٣٢٦/٦).

رواه ابن جرير الطبري في التفسير (٣٤٥/٣) عن مجاهد من قوله.

وانظر: تفسير ابن كثير (٥٠٦/١)، وتفسير القرطبي (١٢٨/٤)، وفتح القدير (٥٤٣/١)، وتفسير البغوي (٦٦/١)، وتفسير أبي السعود (٥٧/٢)، والدر المنثور (٢٦٠/٢)، وروح المعاني (٢٢٣/٣)، والكشاف (١٩٣/١)، وتفسير مجاهد (١٣١/١)، ومعاني القرآن (٤٣٩/١).

وجد وجعاً، وقيل في التفسير[١]: إن ذلك الوجع كان عرق النساء، فنذر إن أبرأه الله أن يترك أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها، فحرم الله ذلك عليهم بمعاصيهم كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[النساء: ١٦٠].

وأعلم الله أن الذي حرمه إسرائيل على نفسه كان من قبل أن تنزل التوراة، وفي ذلك أعظم آية للنبي لأنه أنبأهم بأنهم يدعون أن في كتابهم ما ليس فيه، ودعاهم مع ذلك إلى أن يأتوا بكتابهم فيتلوه ليبين له كذبهم فأبوا، فكان إباؤهم دليلاً على علمهم أن النبي ﷺ قد صدق فيما أنبأهم به، ولو أتوا بها لم يكونوا يخلون من أحد أمرين: إما أن يزيدوا فيها ما ليس فيها في ذلك الوقت، فيعلم بعضهم أنه قد زيد، أو ينزل الله بهم عقوبة تبين أمرهم، أو أن يأتوا بها على جملتها فيعلم بطلان دعواهم منها، فقصتهم في هذه الآية كقصة النصارى في المباهلة.

وقوله جل وعز: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾أي: من بعد ما ذكرنا من ظهور الحجة في افترائه، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقوله -عز وجل- . ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾[٢] ؛ قيل: إنه أول

---

(١) في سبب تحريم يعقوب الطعام على نفسه أقوال:

أولها: قال أبو العالية و عطاء ومقاتل والكلبي: كان الطعام لحمان الإبل وألبانها.

الثاني: وروي أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها فحرمها.

الثالث: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك: هي العروق.

الرابع: روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: لما أصاب يعقوب عرق النسا وصف له الأطباء أن يجتنب لحمان الإبل فحرمها يعقوب على نفسه.

الخامس: قال الحسن: حرم إسرائيل على نفسه لحم الجزور تعبداً لله تعالى: فسأل ربه أن يجيز له ذلك فحرمه الله على ولده.

انظر: تفسير البغوي (٦٧/١)، وتفسير الطبري (٣٤٨/٣)، وتفسير ابن كثير (٢٠٧/١)، وتفسير القرطبي (١٣١/٤)، وفتح القدير (٥٤٤/١)، وتفسير أبي السعود (١٩٥/٣)، والدر المنثور (٢٦٣/٢)، وروح المعاني (٢/٤)، وتفسير الثعالبي (٢٨٩/١)، والكشاف (١٩٣/١).

(٢) قال مجاهد: افتخر المسلمون واليهود فقالت اليهود بيت المقدس أفضل من الكعبة وقال المسلمون الكعبة أفضل فنزلت هذه الآية.

=

مسجد وضع للناس[1]، وقيل: إنه أول بيت وضع للحج، ويقال: إنه البيت المعمور، وأن الملائكة كانت تحجه من قبل آدم، وإنه البيت العتيق.

فأما بناؤه فلا شك أن إبراهيم بناه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[البقرة: ١٢٧] أي: يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ فأما «المقدس» فسليمان بناه.

وخبر ﴿إِنَّ﴾ هو ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾؛ وهذه لام التوكيد، وقيل: إن بكة موضع البيت وسائر ما حول مكة.

والإجماع أن «بكة ومكة» الموضع الذي يحج الناس إليه وهي البلدة، قال الله -عز وجل-: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾[الفتح: ٢٤]، وقال: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾؛ فأما اشتقاقه في اللغة: فيصلح أن يكون الاسم اشتق من «البك» وهو: بك الناس بعضهم بعضاً في الطواف، أي: دفع بعضهم بعضاً، وقيل: إنما سميت ببكة لأنها تبك أعناق الجبابرة.

ونصب ﴿مُبَارَكاً﴾ على الحال؛ المعنى: الذي بمكة في حال بركته.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ يجوز أن يكون ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ في موضع رفع؛ المعنى: وهو هدى للعالمين.

«فأما مكة» بالميم فتصلح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق بكة، والميم تبدل من الباء يقال: «ضربة لازب ولازم»، ويصلح أن يكون الاشتقاق من قولهم: «امْتَكَّ الفصيل» ما في ضرع الناقة إذا مص مصاً شديداً حتى لا يبقى فيه شيئاً، فتكون سميت بذلك لشدة الازدحام فيها، والقول الأول أعني البدل أحسن.

ومعنى ﴿أَوَّلَ﴾ في اللغة على الحقيقة: ابتداء الشيء، فجائز أن يكون المبتدأ له آخر، وجائز أن لا يكون له آخر، فالواحد: أول العدد، والعدد غير متناهٍ، ونعيم الجنة أول وهو غير منقطع، وقولك: «هذا أول مال كسبته» جائز ألا يكون بعده كسب، ولكن إرادتك:

=

انظر: زاد المسير (١/٤٢٤).

(١) وهذا هو الصواب لما روي في صحيح البخاري (١٢٣١/٣، ورقم: ٣١٨٦) عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: سمعت أبا ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت: ثم أي ؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم كان بينهما ؟ قال: «أربعون سنة».
ورواه أيضاً: مسلم (٣٧٠/١، ورقم: ٥٢٠).

((هذا ابتداء كسبي))، ولو قال قائل: ((أول عبد أملكه فهو حر)) فملك عبداً أعتق ذلك العبد لأنه قد ابتدأ الملك.

فجائز أن يكون ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ هو البيت الذي لم يكن الحج إلى غيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾.

قد رويت عن ابن عباس أنه قرأ ((آية بينة مقام إبراهيم)) جعل مقام إبراهيم هو الآية، والذي عليه الناس: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ والمعنى: فيه آيات بينات، تلك الآيات ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ومن الآيات أيضاً: أَمْنُ من دخله، لأن معنى ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ يدل على أن الأمن فيه.

فأما رفع ﴿مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فعلى أن يكون على إضمار: هي مقام إبراهيم.

قال النحويون؛ المعنى: فيها مقام إبراهيم، وهذا كما شرحنا، ومعنى ((أَمْنُ من دخله)): أن إبراهيم -عليه السلام- سأل الله أن يؤمن سكان مكة[1]، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾ فجعل الله -عز وجل- أمن مكة آية لإبراهيم، وكان الناس يتخطفون حول مكة قال الله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت: ٦٧] فكان الجبار إذا أراد مكة قصمه الله، قال الله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾[الفيل: ١]، وكانت فارس قد سبت أهل بيت المقدس، فأما أهل مكة فلم يطمع فيهم جبار.

ويقال: ((قد أَمِن الرجل يَأْمن أَمْنًا وأَمَاناً)) وقد رويت ((إمنًا)) والأكثر الأفصح: ((أَمن)) بفتح الألف، قال الله -عز وجل- ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾[النور: ٥٥].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾؛ يقرأ بفتح الحاء وكسر الحاء والأصل الفتح، يقال: ((حَجَجَت الشيء أَحْجه حَجاً)) إذا قصدته، والحج: اسم العمل بكسر الحاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

موضع ﴿مَنِ﴾ خفض على البدل من ﴿النَّاسِ﴾؛ المعنى: ولله على من استطاع من

---

(١) وفي المراد بهذا الأمن ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه سأله الأمن من القتل. والثاني: من الخسف والقذف. والثالث: من القحط والجدب.

انظر: زاد المسير (١/١٤٣).

الناس حج البيت أن يحج.

وقوله جل وعز: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾.

قيل فيه غير قول؛ قال بعضهم: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ من قال: إن الحج غير مفترض[١]، وقال بعضهم: من أمكنه الحج فأدخره إلى أن يموت وهو قادر عليه فقد كفر[٢]، وقيل: إنها إنما قيلت لليهود[٣]، لأنهم قالوا: إن القصد إلى مكة غير واجب في حج أو صلاة، فأما الأول فمجمع عليه، ليس بين الأمة اختلاف في أن من قال: إن الحج غير واجب على من قدر عليه كافر[٤].

وقوله -عز وجل- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ أي: تبغون لها العوج، يقال في الأمر والدين: «عِوَج» وفي كل شيء مائل: «عَوَج» والعرب تقول: «ابغني كذا وكذا» أي: اطلبه لي وتقول: «أَبغني كذا وكذا» بفتح الألف تريد أعني على طلبه أي: اطلبه معي، كما تقول: «أَعكمني وأَحلبني» أي: أعني على العكم والحلب.

ومعنى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي: وأنتم تشهدون بما قد ثبت في نفوسكم أن أمر النبي حق، والله غير غافل عن عملكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾.

يعني بالفريق الصنف الذين كفروا، أي: إن قلدتموهم ردوكم كافرين، أي: وإن كنتم على غير دينهم وكنتم في عقدكم ذلك كافرين، فكذلك إن أطلعتموهم واتبعتوهم فأنتم كافرون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾.

أي: على أي حال يقع منكم الكفر، وآيات الله التي أتى بها النبي ﷺ دالة على توحيد الله ونبوة النبي ﷺ تتلى عليكم، وفيكم رسوله يبيّن لكم هذه الآيات، وجائز أن يقال: فيكم رسوله والنبي شاهد، وجائز أن يقال لنا الآن: فيكم رسول الله لأن آثاره وعلاماته والقرآن

---

(١) وهو قول ابن عباس والحسن وعطاء.

(٢) وهو قول السدي.

(٣) وهو يروى عن سعيد بن المسيب.

(٤) انظر: هذه الأقوال ونسبتها في تفسير البغوي (٧٢/١).

الذي أتى به فينا، وهو من الآيات العظام.

وقوله جل وعز: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾؛ أي: من يمتنع بالله ويستمسك بحبل الله ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

و﴿يَعْتَصِم﴾ جزم بـ«من»، والجواب: ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ ومعنى: «اعتصمت بكذا وكذا» في اللغة: استمسكت وامتنعت به من غيره، وكذلك ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ومعنى: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[هود: ٤٣] أي: يمنعني من الماء، أي: لا ذا عصمة ولا ذا امتناع من الله.

وقوله جل وعز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

أي: اتقوه فيما يحق عليكم أن تتقوه فيه، قال بعضهم: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: «أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى»[1]، ومعنى: «يذكر فلا ينسى» أن يذكر عِنْدَ مَا يجب من أمره، فلا يتجاوز أمره، وقال بعضهم: هذه الآية منسوخة نسخها قوله جل وعز: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]، وقوله جل وعز: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]. و«تقاة»: أصلها: «وقاة» وهي: من وقيت، إلا أن الواو لم تأت في هذا المثال على أصلها، ولم يقل في هذا المثال شيء إلا والتاء فيه مبدلة من الواو، وكذلك قالوا: «تخمة» إنما هي من: «الوخامة» وكذلك قالوا: في «فُعال» نحو: «التراث والتجاه» وتجاه: في معنى المواجهة.

وهذا المثال فيه أوجه: إذا بنيت «فُعلة» من وقيت قلت: «تُقاة» وهو الذي يختاره النحويون، ولم يأت في اللغة على هذا المثال شيء إلا وقد أبدلت التاء من واوه.

ويجوز أن يقال: «وُقاة وأُقاة» لأن الواو إذا انضمت وكانت أولاً؛ فأنت في البدل منها بالخيار إن شئت أبدلت منها همزة، وإن شئت أقررتها على هيئتها، وإن شئت في هذا المثال خاصة أبدلت منها التاء.

وقوله جل وعز: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣٢٣/٢، ورقم: ٣١٥٩) عن عبد الله بن مسعود، وصححه وأقره الذهبي، ورواه أيضاً: ابن أبي شيبة (١٠٦/٧، ورقم: ٣٤٥٥٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٣٨/٧)، وابن المبارك في الزهد (ص: ٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٨/٧): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح والآخر ضعيف.

لفظ النهي واقع على الموت، والمعنى: واقع على الأمر بالإقامة على الإسلام؛ المعنى: كونوا على الإسلام، فإذا ورد عليكم الموت صادفكم على ذلك. وإنما جاز هذا لأنه ليس في الكلام لبس، لأنه يعلم منه أنهم لا ينهون عما لا يفعلون، ومثله في الكلام «لا أرينك ههنا» فالنهي واقع في اللفظ على المخاطبة، والمعنى: لا تكونن ههنا، فإن من كان ههنا رأيته، ولكن الكلام قصد به إلى الإيجاز والاختصار، إذ لم يكن فيه نقص معنى.

وقوله جل وعز: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً﴾.

﴿جَمِيعاً﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: كونوا مجتمعين على الاعتصام به، وتفسير ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أي: استمسكوا بعهد الله، والحبل في لغة العرب: العهد، قال الأعشى [من الكامل]:

فَإذا تُجَوِّزُها حِبالَ قَبيلَةٍ أَخَذَت مِنَ الأُخرى إِلَيكَ حِبالَها[1]

ومعنى ﴿وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾: أي: تناصروا على دين الله، وأصل ﴿تَفَرَّقُوا﴾: تتفرقوا، إلا أن التاء حذفت لاجتماع حرفين من جنس واحد في كلمة، والمحذوفة الثانية لأن الأولى دالة على الاستقبال، فلا يجوز حذف الحرف الذي يدل على الاستقبال، وهو مجزوم بالنهي، الأصل: ولا تتفرقون، فحذفت النون لتدل على الجزم.

وقوله جل وعز: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾.

ذكرهم الله بعظيم النعمة عليهم في الإسلام، لأنهم كانوا في جاهليتهم يقتل بعضهم بعضاً، ويستبيح كل غالب منهم من غلبه، فحظر عليهم الإسلام الأنفس والأموال إلا بحقها، فعرفهم الله -عز وجل- ما لهم من الحظ في العاجل في الدخول في الإسلام.

وقيل: نزلت في الأوس والخزرج، لأنهم كانت بينهم في الجاهلية حروب دائمة، قد أتت عليها السنون الكثيرة، فأزال الإسلام تلك الحروب وصاروا إخواناً في الإسلام متوادين على ذلك[2].

وأصل «الأخ» في اللغة: أن الأخ مقصده مقصد أخيه، وكذلك هو في الصداقة أن تكون إرادة كل واحد من الأخوين موافقة لما يريد صاحبه، والعرب تقول: «فلان يتوخى

---

(١) انظر: تاج العروس (١/٦٩٦٠)

(٢) انظر: زاد المسير (١/٤٣١)، والوجيز للواحدي (١/٢٢٤).

مسار فلان›› أي: يقصد ما يسره.

وقوله جل وعلا: ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾؛ أي: كنتم قد أشرفتم على النار.

و‹‹شفا الشيء›› حرفه، -مقصور- يكتب بالألف، وتثنيته: ‹‹شفوان›› وقال: ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ ولم يقل منه، لأن المقصود في الخبر النار، أي: فأنقذكم منها بالنبي ﷺ.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ الكاف في موضع نصب؛ المعنى: مثل البيان الذي يتلى عليكم يبين الله لكم لآياته.

ومعنى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أي: لتكونوا على رجاء هدايته.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ﴾.

اللام مسكنة وأصلها الكسر، الأصل: ‹‹ولِتَكن منكم››، ولكن الكسرة حذفت لأن الواو صارت مع الكلمة كحرف واحد وألزمت الحذف، وإن قرئت ‹‹ولِتكن›› بالكسر فجيد على الأصل، ولكن التخفيف أجود وأكثر في كلام العرب.

ومعنى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ -والله أعلم- ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف، ولكن ‹‹من›› تدخل ههنا لتخلص المخاطبين من سائر الأجناس، وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين، ومثل هذا من كتاب الله ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[الحج: ٣٠] ليس يأمرهم باجتناب بعض الأوثان، ولكن المعنى: اجتنبوا الأوثان فإنها رجس ومثله من الشعر قول الشاعر(١) [من البسيط]:

---

(١) قيل هو لأعشى باهلة كما في الخزانة (١/٩٠)، وقيل: لأعشى قيس كما في الكامل (١/٥٧). وأعشى باهلة هو: عامر بن الحارث بن رياح الباهلي، ومن همدان: شاعر جاهلي. يكنى: أبا قحفان، أشهر شعره رائية له، وفي رثاء أخيه، أوردها البغدادي برمتها. وقيل: اسمه عمر.

انظر ترجمته في: خزانة الأدب (١/٩).

وأعشى قيس هو: ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل؛ من شعراء المعلقات. وينتهي نسبه إلى ضُبَيْعَة بن قيس بن ثعلبة أحد الفروع التي تفرعت إليها قبيلة بكر. وكانت بكر تنزل في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية على امتداد ما بين وادي الفرات واليمامة في الجنوب الشرقي من نجد، وكانت قيس تنزل في إقليم اليمامة.

لُقِب بالأعشى لضعف بصره ويكنى أبا بصير. وعاش الأعشى في أواخر العصر الجاهلي وولد بقرية باليمامة يقال لها منفوحة، وقد أدرك الإسلام، ولكنه لم يُسلم. وفاته كانت (٧هـ = ٦٢٩م).

أَخُو رَغَائِبَ يُعْطِيهَا وَيَسْأَلُها يَخْشَى الظُّلامَةَ مِنْهُ النَّوْفَلُ الزَّفَرُ[1]

أي: هو النوفل الزفر، لأنه قد وصفه بإعطاء الرغائب، والنوفل: الكثير الإعطاء للنوافل، والزفر: الذي يحمل الأثقال.

والدليل على أنهم أمروا كلهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠].

ويجوز أن تكون أمرت منهم فرقة لأن قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ذكر الدعاة إلى الإيمان، والدعاة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه، وليس الخلق كلهم علماء، والعلم ينوب فيه بعض الناس عن بعض وكذلك الجهاد.

وقوله جل وعلا: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: والذين ذكرناهم المفلحون.

والمفلح: الفائز بما يغتبط به، و﴿هُمْ﴾ جائز أن يكون ابتداء و﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ خبر «أولئك» وهم فصل وهو الذي يسميه الكوفيون «العماد» .

وقوله -جل ثناءه-: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

أي: لا تكونوا كأهل الكتاب يعني به اليهود والنصارى، وكتابهم جميعاً التوراة وهم مختلفون كل فرقة منهم -وإن اتفقت في باب النصرانية أو اليهودية- مختلفة أيضاً، كالنصارى الذين هم نسطورية ويعقوبية وملكانية، فأمر الله بالاجتماع على كتابه، وأعلم أن التفرق فيه يخرج أهله إلى مثل ما خرج إليه أهل الكتاب في كفرهم، فأعلم الله أن لهم عذاباً عظيماً فقال: ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم أخبر بوقت ذلك العذاب فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾؛ أي: يثبت لهم العذاب ذلك اليوم، وابيضاضها: إشرافها وإسفارها، قال الله -عز وجل-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾[عبس: ٣٨، ٣٩] أسفرت واستبشرت لما تصير إليه من ثواب الله ورحمته.

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ اسودادها لما تصير إليه من العذاب قال الله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾[عبس: ٤٠]، والكلام: «تَسود وتَبيض» بفتح التاء، الأصل «تسودد» و«تبيضض»

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٤٨/١٦)، وزاد المسير (٤٣٤/١)، ولسان العرب (٣٢٤/٤)، وتاج العروس (٢٨٨٩/١).

إلا أن الحرفين إذا اجتمعا وتحركا أدغم الأول في الثاني، وكثير من العرب تكسر هذه التاء من «تسود وتبيض» والقراءة بالفتح والكسر قليل، إلا أن كثيراً من العرب يكسر هذه التاء ليبين أنها من قولك: «أبيض وأسود» فكأن الكسرة دليل على أنه كذلك في الماضي.

وقرأ بعضهم «تسواد وتبياض» وهو جيد في العربية، إلا أن المصحف ليست فيه ألف فأنا أكرهها لخلافه، على أنه قد تحذف ألفات في القرآن نحو: ألف «إبراهيم وإسماعيل»، ونحو ألف «الرحمن»، ولكن الإجماع على إثبات هذه الألفات المحذوفة في الكتاب في اللفظ، و«تبيض وتسود» إجماع بغير ألف فلا ينبغي أن يقرأ بإثبات الألف.

وقوله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾؛ تدل على أن القراءة: ﴿وَتَسْوَدُّ﴾ ومن قرأ بالألف: «تسواد وتبياض» وجب أن يقرأ: «فأما الذين اسوادت وجوههم».

وجواب «أما» محذوف مع القول؛ المعنى: فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وحذف القول لأن في الكلام دليلاً عليه، وهذا كثير في القرآن كقوله -عز وجل-: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤]؛ المعنى: يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ وكذلك قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[البقرة: ١٢٧]؛ المعنى: يقولان ربنا تقبل منا، هذه الألف لفظها لفظ الاستفهام ومعناها التقرير والتوبيخ.

وإنما قيل: لهم ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ لأنهم كفروا بالنبي وقد كانوا به مؤمنين قبل مبعثه، وهذا خطاب لأهل الكتاب.

وقوله -جل وعلا-: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: في الثواب الذي أصارهم الله إليه برحمة خالدون.

أعلم أنه إنما يدخل الجنة برحمته وإن اجتهد المجتهد في طاعة الله، لأن نعم الله -عز وجل- دون الجنة لا يكافئها اجتهاد الآدميين.

وقال ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ وهو يريد ثواب رحمة الله كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢]؛ المعنى: أهل القرية، كما تقول العرب: «بنو فلان يطؤهم الطريق»؛ المعنى: يطؤهم مارة الطريق.

وذكر ﴿فِيهَا﴾ ثانية على جهة التوكيد.

وقوله -جل وعلا-: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

أي: تلك التي قد جرى ذكرها حجج الله وعلاماته نتلوها عليك، أي: نعرفك إياها ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: من أعلم الله أنه يعذبه فباستحقاق يعذبه.

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾؛ ولو كانت «وإليه ترجع الأمور» لكان حسناً ولكن إعادة اسم الله أفخم وأوكد، والعرب إذا جرى ذكر شيء مفخم أعادوا لفظه مظهراً غير مضمر أنشد النحويون قول الشاعر[1] [من الخفيف]:

لا أَرى المَوتَ يَسبِقُ المَوتَ شَيءٌ نَغَّصَ المَوتُ ذا الغِنى وَالفَقيرا[2]

فأعادوا ذكر الموت لفخامة في نفوسهم.

وقوله -جل وعلا-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

يعني به محمد ﷺ، وقيل: في معنى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ كنتم عند الله في اللوح المحفوظ، وقيل: كنتم منذ آمنتم خير أمة[3]، وقال بعضهم معنى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ هذا الخطاب أصله أنه خوطب به أصحاب النبي ﷺ، وهو يعم سائر أمة محمد والشريطة في الخيرية ما هو في الكلام وهو قوله -عز وجل-: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾؛ أي: توحدون الله بالإيمان برسوله لأن من كفر بالنبي لم يوحد الله، وذلك أنه يزعم أن الآيات المعجزات التي آتى بها النبي ﷺ من ذات نفسه، فجعل غير الله يفعل فعل الله.

---

(١) هو: عدي بن زيد.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/٣٨٨)، وتفسير ابن كثير (١/١٨١)، وتفسير القرطبي (١/٤٥٤)، وفتح القدير (١/١٤١)، وروح المعاني (١/٣٣٤)، وزاد المسير (١/٢٢٧)، ومعاني القرآن (١/٣٨٥)، والخصائص (٣/٥٣)، ومغني اللبيب (١/٦٥٠)، وشرح كتاب الأمثال (١/٢٣٢)، ولسان العرب (٧/٩٩)، وتاج العروس (١/٤٥٤٧).

(٣) وقيل غير ذلك، وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٤٤٠) فيه قولان:

أحدهما: أن معناه كنتم خير الناس للناس قال أبو هريرة: «يأتون بهم في السلاسل حتى يدخلوهم في الإسلام».

والثاني: أن معناه كنتم خير الأمم التي أخرجت.

وانظر في تفسير الآية: تفسير الطبري (٣/٣٨٩)، وتفسير ابن كثير (١/١٢٩)، وتفسير القرطبي (٤/١٦٦)، وتفسير البغوي (١/٨٩)، وتفسير أبي السعود (٢/٦٧)، والدر المنثور (٢/٢٩٣)، وروح المعاني (٤/٢٢)، والكشاف (١/١٩٩)، وتفسير مجاهد (١/١٣٣)، وتفسير الصنعاني (١/١٣٠)، ومعاني القرآن (١/٤٥٩).

وآيات الأنبياء لا يقدر عليها إلا الله -عز وجل-، ويدل على أن قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: تقرون أن محمداً ﷺ نبي الله.

قوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم﴾؛ فأهل الكتاب كفروا بالنبي ﷺ فصاروا كفاراً بالله، فأعلم الله أن بعضهم وهو القليل منهم آمن بالله فقال: ﴿مِّنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾؛ والفاسق الذي خرج عن أمر الله.

ووعد الله النبي ﷺ والمؤمنين في أهل الكتاب أنهم متصورون عليهم، وأنه لا ينالهم من أهل الكتاب اصطلام ولا غلبة فقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾؛ أي: يؤذونكم بالبهت والتحريف، فأما العاقبة فتكون للمؤمنين قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾[الحشر: ١٢] يعني به أهل الكتاب.

وأعلمهم في هذه الآية أنهم إن قاتلوهم ولوهم الأدبار وسلبوا النصر وكذلك كان أمر اليهود.

وقوله -جل وعلا-: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾؛ والحبل: العهد.

فأعلم الله أنهم بعد عز كانوا فيه يبلغون في الذلة ما لا يبلغه أهل مكة، وكانوا ذوي منعة ويسار، فأعلم الله أنهم يذلون أبداً إلا أن يعزوا بالذمة التي يعطونها في الإسلام. و«ما» بعد الاستثناء ليس من الأول، أنهم أذلاء إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه.

وأعلم الله أنهم جعلت عقوبتهم هذه العقوبة الغليظة في الدنيا والآخرة لتغليظ ما ركبوه فقال -جل وعلا-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

وضع ﴿ذَلِكَ﴾ رفع بالابتداء؛ المعنى: أمرهم ذلك وحقهم ذلك بكفرهم وقتلهم الأنبياء، وأعاد ذكر ﴿ذَلِكَ﴾ ثانية فقال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

الاعتداء: المجاوزة في كل شيء مجاوزة القدر؛ المعنى: حقها بكفرهم .

وأعلم الله أنهم غير متساوين فقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ وهذا وقف التمام، أي: ليس الذين ذكرنا من أهل الكتاب سواء، قال أبو عبيدة ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ جمع «ليس» وهو متقدم كما قال القائل: «أكلوني البراغيث» وكما قال: ﴿عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنهُمْ﴾[المائدة: ٧١]

وهذا ليس كما قال، لأن ذكر أهل الكتاب قد جرى فأخبر الله أنهم غير متساوين، فقال ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [(١)] .

ثم أنبأ بافتراقهم فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

قال أهل اللغة: معنى ﴿قَائِمَةٌ﴾ مستقيمة، ولم يبينوا حقيقة هذا، وذكر الأخفش المعنى: أمة قائمة، أي: ذو أمة قائمة، والأمة الطريقة من أممت الشيء إذا قصدته.

فالمعنى -والله أعلم-: من أهل الكتاب أمة قائمة أي: ذوو طريقة قائمة، قال النابغة الذبياني [من الطويل]:

حَلَفتُ فَلَم أَترُك لِنَفسِكَ رِيبَةً وَهَل يَأثَمَن ذو أُمَّةٍ وَهوَ طائِعُ [(٢)]

أي: هل يأثمن ذو طريقة من طرائق الدين وهو طائع.

فإنما المعنى: أنه لا يستوي الذين قتلوا الأنبياء بغير حق والذين يتلون آيات الله آناء الليل وهم ذوو طريقة مستقيمة.

ومعنى ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعات الليل، قال أهل اللغة: واحد آناء الليل: «إِنْي وآناءِ» مثل: «نحى وأنحاء» وأنشد أهل اللغة في ذلك قول الشاعر[(٣)] [من البسيط]:

---

(١) وفي معناه قولان:

أحدهما: ليس أمة محمد واليهود سواء هذا قول ابن مسعود والسدي. والثاني: ليس اليهود كلهم سواء بل فيهم من هو قائم بأمر الله هذا قول ابن عباس وقتادة.

انظر: زاد المسير (٤٤٢/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٤٧/٢)، وتفسير القرطبي (١٦٦/٤)، وفتح القدير (٥٦٠/١)، والدر المنثور (٣٧٢/٧)، وروح المعاني (٢٠١/١٣)، وزاد المسير (٣٥٢/٤)، ومعاني القرآن (٣٤٦/٦)، ومفردات القرآن (٥٥/١)، واتفاق المباني وافتراق المعاني (٢٣٥/١) ، والأغاني (٦/١١)، والإيضاح في علوم البلاغة (٣٤٢/١)، والمثل السائر (٣١٠/٢)، وصبح الأعشى (٢١٣/٢)، ولسان العرب (٢٢/١٢).

(٣) هو: المتنخل واسمه: مالك بن عويمر بن عثمان بن حبيش الهذلي، من مضر، أبو أثيلة: شاعر من نوابغ هذيل. وهو شاعر محسن، وقال الأصمعي: هو صاحب أجود قصيدة طائية قالتها العرب وأورد بيتين منها صاحب الأغاني.

انظر ترجمته في: الأغاني (١٤٥/٢٠)، الشعر والشعراء (ص: ٢٥٤)، وخزانة الأدب للبغدادي (١٣٥/٢ – ١٣٧)، والأعلام: (المتنخل).

حُلوٌ وَمُرٌّ كَعَطفِ القِدحِ مِرَّتُهُ بِكُلِّ إِنيٍ حَذاهُ اللَّيلُ يَنتَعِلُ[(١)]

قالوا: واحدها: ((إني)) مثل: ((معي وأمعاء))، وحكى الأخفش ((إنو)).

وقوله -عز وجل- ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾؛ معناه: وهم يصلون نهاية ما فيها من التواضع والخشوع والتضرع.

ومعنى يتلون في اللغة: يتبعون بعض الشيء بعضاً، وقد استلاك الشيء إذا جعلك تتبعه قال الشاعر[(٢)]:

قَدْ جَعَلَتْ دَلْوِيَ تَسْتَتْلِيني ولا أُريدُ تَبَعَ القَرِينِ
إنْ لم يُرد سَمَاحَتِي وَلِينِي[(٣)]

وقال بعض أهل اللغة: المعنى: منهم أمة قائمة وأمة على غير ذلك، وأنشد في ذلك قول الشاعر[(٤)] [من الطويل]:

عَصاني إِلَيها القَلبُ إِنّي لأَمرِهِ سَميعٌ فَما أَدري أَرُشدٌ طِلابُها[(٥)]

ولم يقل: ((أم هو في غي)) لأن في الكلام دليلاً عليه، قال: والعرب تضمر هذا، إذا عرفت مثل هذا عرفت؛ المعنى، وهذا الذي قال خطأ فاحش في مثل هذا المكان، لأن ذكر أهل الكتاب قد جرى في هذه القصة بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، فأعلم الله -جل وعز- أن منهم المؤمنين الذين هم أمة قائمة فما الحاجة إلى أن يقال غير قائمة، وإنما المبدوء به ههنا ما كان من فعل أكثرهم من الكفر والمشاقة للنبي ﷺ فذكر من كان مبايناً هؤلاء، وذكر في التفسير: أن هذا يعني به عبد الله بن سلام وأصحابه[(٦)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٩٧/٣)، وتفسير الطبري (٤٧٦/٨)، وسر صناعة الإعراب (٥٩٢/٢)، والأغاني (٩٤/٢٤)، ولسان العرب (٤٨/١٤)، وتاج العروس (٧٥٦٠/١).

(٢) أورده صاحب اللسان مادة: ((تلا)) عدا الشطرة الثالثة.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٩٢/٢)، وزاد المسير (٢٨/٤)، ومعاني القرآن (٢٩٢/٣)، ولسان العرب (١٠٢/١٤).

(٤) هو: أبو ذؤيب الهذلي.

(٥) انظر: تفسير القرطبي (١٧١/٤).

(٦) ما ذكره المصنف هنا قول من قولين قيلا في سبب نزول الآية، وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٤١/١) أن النبي ﷺ احتبس عن صلاة العشاء ليلة حتى ذهب ثلث الليل ثم جاء فبشرهم فقال: ((إنه =

ومعنى ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ههنا أي: يأمرون باتباع النبي ﷺ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾: عن الإقامة على مشاقته ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾.

قرئت بالياء والتاء وكلاهما صواب، كما قال الله -عز وجل-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧] فالخطاب لسائر الخلق، ومن قال: «فلن تكفروه» فهو لهؤلاء المذكورين، وسائر الخلق داخل معهم في ذلك.

وموضع ﴿يَفْعَلُوا﴾ جزم بالشرط وهو ﴿وَمَا﴾ والجواب ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾.

قوله -جل وعز-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً﴾.

أي: لا تمنعهم أولادهم مما هو نازل بهم لأنهم مالوا إلى الأموال في معاندتهم النبي ﷺ، لأن الرياسة إنما قامت لهم -أعني رؤساء اليهود- بمعاندتهم النبي ﷺ، والدليل على أنهم كسبوا بذلك قوله جل وعز: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة: ٧٩].

ثم أعلم الله -عز وجل- أن مثل ما ينفقونه في تظاهرهم على النبي ﷺ في الضرر لهم: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ والصر: البرد الشديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: زرع قوم ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فعاقبهم الله بإذهاب زرعهم(١).

﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فأعلم أن ضرر نفقتهم عليهم كضرر هذه الريح في هذا الزرع، وقيل: إنه

= لا يصلي هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب» فنزلت هذه الآية. قاله ابن مسعود. ثم ذكر ما ذكره المصنف ونسبه إلى ابن عباس.

(١) وفي معنى ظلموا أنفسهم قولان:

أحدهما: ظلموها بالكفر والمعاصي ومنع حق الله تعالى.

والثاني: بأن زرعوا في غير وقت الزرع.

انظر: زاد المسير (١/٤٤٥)، وتفسير ابن كثير (١/٥٢٧)، وفتح القدير (١/٥٦٤)، وتفسير البيضاوي (١/٨٢)، والوجيز للواحدي (١/٢٢٨)، وتفسير أبي السعود (٢/٧٥)، وتفسير النسفي (١/١٧٤)، وروح المعاني (١/١٧٥)، وتفسير الثعالبي (١/٣٠٣)، والكشاف (١/٢٠١)، ومعاني القرآن (١/٤٦٥).

يعني به أهل مكة حين تعاونوا وأنفقوا الأموال على التظاهر على النبي ﷺ، وقال بعضهم: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ أي: مثل أعمالهم في شركهم كمثل هذه الريح، وجعل ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: صوت وهذا يخرج في اللغة، وإنما جعل فيها صوتاً لأنه جعل فيها ناراً كأنها نار أحرقت الزرع، فالصر على هذا القول: صوت لهيب النار، وهذا كله غير ممتنع، وجملته: أن ما أنفق في التظاهر على عداوة الدين مضر مهلك أهله في العاجل والآجل.

قوله جل وعز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾.

«البطانة» الدخلاء الذين يستبطنون ويتبسط إليهم، يقال: «فلان بطانة لفلان» أي: مداخل له ومؤانس؛ فالمعنى: أن المؤمنين أمروا ألا يداخلوا المنافقين ولا اليهود وذلك أنهم كانوا لا يبقون غاية في التلبيس على المؤمنين، فأمروا بألا يداخلوهم لئلا يفسدوا عليهم دينهم.

وأخبر الله المؤمنين بأنهم لا يألونهم ﴿خَبَالاً﴾ أي: لا يبقون غاية في إلقائهم فيما يضرهم، وأصل «الخبال» في اللغة: ذهاب الشيء قال الشاعر:

ابْني سُلَيْمَى لَسْتُم لِيَدٍ   إلا يَداً مَخْبُولَة العَضُد

أي: قد ذهبت عضدها.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: ودوا عنتكم، ومعنى «العنت»: إدخال المشقة على الإنسان، يقال: «فلان متعنت فلاناً» أي: يقصد إدخال المشقة والأذى عليه، ويقال: «قد عنت العظم يَعنت عَنَتاً» إذا أصابه شيء بعد الجبر، وأصل هذا كله من قولهم: «أَكَمَةٌ عُنُوت» إذا كانت طويلة شاقة المسلك فتأويل: «أَعْنِت فلاناً» حملته على المشقة.

قوله -عز وجل-: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾.

خطاب للمؤمنين أعلموا فيه أن منافقي أهل الكتاب لا يحبونهم، وأنهم هم يصحبون هؤلاء المنافقين بالبر والنصيحة التي يفعلها المحب، وإن المنافقين على ضد ذلك، فأعلم الله -جل وعز- المؤمنين ما يُسره المنافقون، وهذا من آيات النبي ﷺ.

قال بعض النحويين: العرب إذا جاءت إلى اسم مكنى قد وصف «بهذا» جعلته بين «ها» و«ذا» فيقول القائل: «أين أنت؟» فيقول المجيب: «هأناذا» قال: وذلك إذا أرادوا جهة التقريب، قال: فإنما فعلوا ذلك ليفصلا بين التقريب وغيره.

ومعنى «التقريب» عنده أنك لا تقصد الخبر عن هذا الاسم فتقول: «هذا زيد»، والقول في هذا عندنا أن الاستعمال في المضمر أكثر فقط، أعني أن يفصل بين «ها»

و«ذا» لأن التنبيه أن يلي المضمر أبين، فإن قال قائل: «ها زيد ذا، وهذا زيد» جاز؛ لا اختلاف بين الناس في ذلك.

وهذا عندنا على ضربين: جائز أن يكون «أولاً» في معنى «الذين» كأنه قيل: هأنتم الذين تحبونهم ولا يحبونكم، وجائز أن يكون ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ منصوبة على الحال، و﴿أَنتُمْ﴾ ابتداء، و﴿أُوْلاءِ﴾ الخبر؛ المعنى: انظروا إلى أنفسكم محبين لهم، نهوا في حال محبتهم إياهم.

ولم يشرحوا لم كسرت ﴿أُوْلاءِ﴾؛ و«أولاء» أصلها السكون، لأنها للإشارة، ولكن الهمزة كسرت لسكونها وسكون الألف ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ عطف على «تحبون».

ومعنى ﴿تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾؛ أي: تصدقون بكتب الله كلها.

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ﴾؛ فأنبأ الله -عز وجل- بنفاقهم ههنا كما أنبأ به في قوله -تعالى - ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ٧٦].

ويقال: «عَضضت أعض» ويقال: «رجل عَض» إذا كان ملازم خصم، أي: يصر على المخاصمة، والفعل منه: «عَضضت»، و «العَضُّ»: علف الأمصار الذي تعلفه الإبل نحو: «النوى والقت والكسب»، وإنما قيل له: «عَضُّ» لأنه أكثر لبناً في المال وأبقى شحماً.

و﴿الأَنَامِلَ﴾ واحدها: «أنملة»، وهي أطراف الأصابع، ولم يأت على هذا المثال بغير هاء ما يعني غير الواحد، إلا قولهم: «قد بلغ أشده»، أما الجمع فكثير فيه نحو: «أكعب وأفلس وأيمن وأشمل» .

قوله -عز وجل-: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾؛ أي: أن تظفروا وتخصبوا ساءهم ذلك.

﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾؛ أي: إن نالكم ضد ذلك فرحوا.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾؛ ضمن الله -عز وجل- للمؤمنين النصر إن صبروا، وأعلمهم أن عدوانهم وكيدهم غير ضار لهم.

و﴿لاَ يَضُرُّكُمْ﴾ الأجود فيه الضم لالتقاء الساكنين، الأصل: «لا يضرركم» ولكن كثيراً من القراء والعرب يدغم في موضع الجزم، وأهل الحجاز يظهرون التضعيف، وهذه الآية جاءت فيها اللغتان جميعاً، فقوله -تعالى-: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ على لغة أهل الحجاز، وقوله: ﴿لاَ يَضُرُّكُمْ﴾ على لغة غيرهم من العرب وكلا الوجهين حسن، ويجوز «لا

يَضُرَّكُمْ» «ولا يُضِرَّكُمْ» فمن فتح فلأن الفتح خفيف مستعمل في التقاء الساكنين في التضغيف، ومن كسر فعلى أصل التقاء الساكنين، وقد شرحنا هذا فيما سلف من الكتاب.

وقرئت: «لا يَضِرْكُمْ» من الضَّيْرِ، والضَّيْرُ والضُّرُّ جميعاً بمعنى واحد، وكذلك الضَّرَّ، وقد جاء في القرآن: ﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[الشعراء: ٥٠]، وجاء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ وقد ذكر الفراء: أن الكسائي سمع بعض أهل العالية يقول: «ما تضورني» فلو قرئت على هذا: «لا يَضِرْكُمْ» جاز.

وهذا غير جائز ولا يقرأ حرف من كتاب الله مخالف فيه الإجماع على قول رجل من أهل العالية.

وقوله جل وعز: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؛ روي أن النبي ﷺ رأى في منامه كأن عليه درعاً حصينة، فأولها المدينة، فأمر ﷺ المسلمين حين أقبل إليهم المشركون بالإقامة بها إلى أن يوافيهم المشركون، فتكون الحرب بها فذلك تبوئة المقاعد للقتال.

قال بعضهم: معناه: «مواطن للقتال» والمعنى واحد.

والعامل في «إذ» معنى اذكر؛ المعنى: اذكر إذ غدوت، والعامل في ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا﴾؛ ﴿تُبَوِّئُ﴾؛ المعنى: كانت التبوئة في ذلك الوقت، ومعنى ﴿تَفْشَلا﴾ تجبنا وتخورا، ﴿وَاللهُ وَلِيُّهُمَا﴾: أي: همت بذلك والله ناصرهما.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾؛ معنى ﴿أَذِلَّةٌ﴾:عددكم قليل.

وكان المسلمون في تلك الحرب ثلاثمائة وبضعة عشر، وكانوا في يوم أحد سبعمائة، والكفار في يوم أحد ثلاثة آلاف، وكانوا في يوم حنين اثنى عشر ألفاً، فأعلم الله -جل وعز- أنهم حينما أُلزموا الطاعة أنه ينصرهم وهم قليل، وعدوهم أضعافهم.

وفي يوم أحد نزل بهم ما نزل لمخالفة أمر النبي ﷺ في أن جاوزوا ما أمروا به، فجعل الله ذلك لهم عقوبة لئلا يجبنوا ، وجاء في بعض الخبر: «الفرار من الزحف كفر»[1] ، ومعناه عندي: -والله أعلم- من فعل الكفار لا أنه يخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر.

وقد عفا الله فيه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[آل عمران: ١٥٥].

---

(١) الوارد فيه أنه من أكبر الكبائر، وانظر: الترغيب والترهيب (١٧/٤)، والمغني (٢٥٤/٩).

و﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمع: «ذليل»، والأصل في «فعيل» إذا كان صفة أن يجمع على: «فعلاء» نحو: «ظريف وظرفاء وشريك وشركاء»، ولكن: «فعلاء» أجتنب في التضعيف.

لو قيل: «جللاء وقللاء في جليل وقليل» لاجتمع حرفان من جنس واحد فعدل به إلى: «أفعلة» من جمع الأسماء في «فعيل» نحو: «جريب وأجربة، وقفيز وأقفزة» .

وقوله -جل وعز-: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾.

أي: من وجههم وهذا نعت لنفورهم و﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ جواب الجزاء، يقال: «أَمْدَدْتُ الجيش بعدد» و«أَمَدّ الجرح» إذا صارت فيه الْمِدَّة، «يُمِد فهو مُمِدٌّ» و«مدّ النهر ومدّه نهر آخر».

وقوله -جل وعز-: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قرئت: ﴿مُسَوَّمِينَ﴾ و ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ ومعنى ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: أخذ من السومة وهي العلامة كانوا يعلمون بصوفة أو بعمامة أو ما أشبه ذلك، و ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: مُعَلَّمين.

وجائز أن يكون ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: قد سوموا خيلهم وجعلوها سائمة.

وقوله جل وعز: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ﴾؛ وما جعل ذكر المدد إلا بشرى لكم، ولتمكنوا في حربكم.

وقوله جل وعز: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لينقل قطعة منهم.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾؛ أي: يهزمهم.

قال أبو عبيدة: يقال: «كَبَته الله لوجهه» أي: صرعه الله لوجهه، والخائب الذي لم ينل ما أمل.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ أنزل عليه ذلك ﷺ لأنه في يوم أحد شج وكسرت رباعيته فقال وهو يمسح الدم عن وجهه: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم»[1] فأعلمه الله -جل وعز- أن فلاحهم ليس إليه، وإنه ليس له من الأمر شيء إلا أن يبلغ الرسالة ويجاهد حتى

---

(١) رواه الترمذي (٥/٢٢٧، ورقم: ٣٠٠٣)، وأحمد (٣/٢٠١، ورقم: ١٣١٠٥) عن أنس.

ورواه ابن جرير الطبري (٥/١٧٥) عن ابن عباس، وانظر: تفسير ابن كثير (١/٤٠٤)، وفتح القدير (١/٥٧١)، والدر المنثور (٢/٣١٢)، وزاد المسير (١/٤٥٦)، وتفسير الثعالبي (١/٣٠٨)، ومعاني القرآن (١/٤٧٣)، والعجاب في بيان الأسباب (٢/٧٤٨).

يظهر الدين، وأن ثوابه على الله -جل وعز- في ذلك.

ونصب ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ على ضربين: جائز أن يكون عطفاً على قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، والوجه الثاني على النصب بـ«أو» إذ كانت في معنى «إلا أن»، فالمعنى: ليس لك من الأمر شيء، أي: ليس يؤمنون إلا أن يتوب الله عليهم أو حتى يتوب الله عليهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً﴾.

﴿الرِّبَا﴾ قليلة وكثيرة قد حرم في قوله -جل وعز- ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[البقرة: ٢٧٥]، وإنما كان هذا لأن قوماً من أهل الطائف كانوا يربون، فإذا بلغ الأجل زادوا فيه وضاعفوا الربا.

وقال قوم معناه: لا تضاعفوا أموالكم بالربا، ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لتكونوا على رجاء الفلاح.

و «المفلح» هو الذي أدرك ما أمل من الخير واشتقاقه من فلح الحديد إذا شقه، فإنما هو مبالغة في إدراك ما يوصل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ أي: اتقوا أن تحلوا ما حرم الله، فإن من أحل شيئاً مما حرم الله فهو كافر بإجماع.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: لمن اتقى المحارم.

وروي عن النبي ﷺ: «أنه بين مصراعي باب الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم يزدحم عليه الناس كما تزدحم الإبل وردت خِمصاً ظِماءً»[1].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾.

أي: أعدت للذين جرى ذكرهم وللذين يكظمون الغيظ، ويروى عن النبي ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً من جرعة غيظ في الله»[2].

يقال: «كَظَمت البعير على جرته» إذ ردها في حلقه و «كظم البعير والناقة كُظوماً» إذا

---

(١) رواه عبد الرزاق في الجامع عن معمر بن راشد في الجامع بذيل المصنف (٤٢١/١١) عن عتبة بن غزوان.

(٢) أورده القرطبي في التفسير تفسير القرطبي (٢٠٢/٤)، وابن منظور في لسان العرب (٥١٩/١٢).

لم يجتر، قال الراعي [من الكامل]:

وَأَفَضنَ بَعدَ كُظومِهِنَّ بِجِرَّةٍ مِن ذي الأَبارِقِ إِذ رَعَينَ حَقيلا[1]

و «الكِظَامَة» سير يشد به الوتر على سِيَة القوس العربية، و «الكظمية والكَظَائِم»: حفائر تحفر من بئر إلى بئر ليجري الماء من بعضها إلى بعض، و «كاظمة» موضع بالبادية.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾؛ الرفع محمول على المعنى، والمعنى: وأي أحد يغفر الذنوب ؟ ما يغفرها إلا الله.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾؛ الإصرار: الإقامة على الشيء.

وقوله -جل وعز-: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾؛ معنى ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت، ومعنى ﴿سُنَنٌ﴾ أهل سنن؛ أي: أهل طرائق، و «السنة»: الطريقة، وقول الناس: «فلان على السنة» معناه على الطريقة، ولم يحتاجوا أن يقولوا على السنة المستقيمة لأن في الكلام دليل على أنه مؤمن بأمور الله -عز وجل- التي أمر بالإيمان بها، والمعنى: إنكم إذا سرتم في أسفاركم عرفتم أخبار قوم أهلكوا بتكذيبهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: لا تضعفوا، يقال: «وهن يهن» إذا ضعف فضمن الله -عز وجل- النصر بقوله: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾.

وقوله جل وعز: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾، و﴿قُرْحٌ﴾ جميعاً يقرآن، وهمان عند أهل اللغة بمعنى واحد، ومعناه: الجراح وألمها، يقال: «قد قَرِحَ يَقْرَحُ قَرْحاً وأصابه قَرَح» قال بعضهم: كأن القَرح الجرح وكأن القُرح الألم.

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أي: نجعل الدولة في وقت من الأوقات للكافرين على المؤمنين إذا عصوا فيما يؤمرون به من محاربة الكفار، فأما إذا أطاعوا فهم منصورون أبداً كما قال الله -عز وجل- ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢].

ومعنى ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ أي: ليعلم الله من يقيم على الإيمان بعد أن تناله الغلبة، أي: يجعل لهم الدولة في وقت من الأوقات ليعلم المؤمنين.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥٨/١٦)، ولسان العرب (٢١٠/٧)، وتاج العروس (٤٧٠٣/١).

وتأويل ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والله -عز وجل- قد علمهم قبل ذلك معناه: يعلم ذلك واقعاً منهم كما قال -عز وجل- ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[محمد: ٣١]؛ أي: ليقع ما علمناه غيباً مشاهدة للناس ويقع منكم.

وإنما تقع المجازاة على ما علمه الله من الخلق وقوعاً، لا على ما لم يقع وما لم يعلموه، قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٦].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، المعنى: جعل الله الأيام مداولة بين الناس ليمحص المؤمنين بما يقع عليهم من قتل في حربهم أو ألم أو ذهاب مال، ويمحق الكافرين: ليستأصلهم.

وجائز أن يكون يمحقهم: يحبط أعمالهم، وتأويل «المحص» في اللغة: التنقية والتخليص، قال محمد بن يزيد -رحمه الله- يقال: «مَحَصَ الحبل مَحْصاً» إذا ذهب منه الوبر حتى يَمْلَص، و «حبل مَحِصٌ» بمعنى واحد، قال: وتأويل قول الناس: «مَحِّص عنا ذنوبنا» أي: أذهب عنا ما تعلق بنا من الذنوب.

وأخبرنا محمد بن يزيد أن حُنيف الحَنَاتِم ورد ماء يقال له «طويلع» فقال: «والله أنك لَمَحِص الرشا، بعيد المستقى، مظل على الأعداء، ولو سألتني أعناق الإبل لأعطيتك» أي: لو تقطعت أعناق الإبل إليك لقصدتك.

ومعنى «محص الرشاء» أي: هو طين حر، فالرشا تتملص من اليد.

فمعنى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يخلصهم من الذنوب.

وقال محمد بن يزيد -رحمه الله- أيضاً وغيره من أهل اللغة: «مَحَصَ الظبي يَمْحَص» إذا عدا عدواً شديداً، وقال هو وحده: تأويله لا يخلط حدته في العدو وَنْياً، ولا فتوراً.

وقال غيره: «مَحَصَ الظبي يَمْحَص ومَحِصَ» بمعنى واحد: إذا عدا عدواً يكاد أن ينفذ فيه من شدته، ويقال: ويستحب من الفرس أن تُمَحَّص قوائمه أي: تخلَّص من الرهل.

قال أبو إسحاق: وقرأت عليه أيضاً عن الخليل: «الْمَحصُ» : التخليص، يقال: «مَحَّصت الشيء أَمَحِّصه مَحْصَاً» إذا خلصته، وقال بعض أهل اللغة: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا ولم يخبروا بحقيقة المحص ما هو.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ

وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾؛ وقرأها الحسن: ﴿وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ بالكسر على العطف، ومن قرأ: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ فعلى النصب بالواو المعنى: ولما يقع العلم بالجهاد والعلم بصبر الصابرين ولما يعلم الله ذلك واقعاً منهم، لأنه -جل وعز- يعلمه غيباً وإنما يجازيهم على عملهم.

وتأويل «لَمَّا» أنها جواب لقول القائل: «قد فعل فلان؟».

فجوابه: «لَمَّا يفعل»، وإذا قال: «فعل» فجوابه: «لم يفعل» وإذا قال: «لقد» فجوابه: «ما يفعل» كأنه قال: والله هو يفعل يريد ما يستقبل، فجوابه: لن يفعل ولا يفعل. هذا مذهب النحويين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾.

أي: كنتم تمنون القتال، وهو سبب الموت.

والمعنى: ولقد كنتم تمنون سبب الموت، وذلك أنهم كانوا يتمنون أن يطلق لهم القتال، قال الله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾[النساء: ٧٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾؛ قيل: فيه غير قول؛ قال الأخفش: معناه التوكيد.

وقال بعضهم: وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ، والمعنى -والله أعلم- فقد رأيتموه وأنتم بُصَراء كما تقول: «قد رأيت كذا وكذا» وليس في عينيك عماً، أي: قد رأيته رؤية حقيقية، وهو راجع إلى معنى التوكيد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي: قد مضت من قبله الرسل؛ المعنى: أنه يموت كما ماتت الرسل قبله.

﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾؛ أي: ارتددتم عن دينكم.

وروى أن بعض من كان في يوم أحد ارتد[1]، وبعضهم مضى مسافة ثلاثة أيام، فأعلم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٥٥/٣)، وتفسير ابن كثير (٥٤٣/١)، وتفسير القرطبي (٢١٨/٤)، وفتح القدير (٥٨٠/١)، وتفسير البغوي (١١٢/١)، وتفسير أبي السعود (٩٢/٢)، والدر المنثور (٣٣٥/٢)، ولباب النقول (٥١/١).

الله -عز وجل- أن الرسل ليست باقية في أممها أبداً، وإنما يجب التمسك بما أتت به وإن فقد الرسول بموت أو قتل.

وألف الاستفهام دخلت على حرف الشرط، ومعناها الدخول على الجزاء؛ المعنى: أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل، لأن الشرط والجزاء معلق أحدهما على الآخر فدخلت ألف الاستفهام على الشرط، وأنبأت عن معنى الدخول على الجزاء كما أنك إذا قلت: «هل زيد قائم» فإنما تستفهم عن قيامه لا من هو وكذلك قولك: «ما من زيد قائماً» إنما نفيت القيام ولم تنف زيداً، لكنك أدخلت «ما» على زيد لتعلم من الذي نفى عنه القيام، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾[الأنبياء: ٣٤].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

المعنى: ما كانت نفس لتموت إلا بإذن الله، وقوله -عز وجل-: ﴿كِتَاباً مُّؤَجَّلاً﴾؛ على التوكيد؛ المعنى: كتب الله ذلك كتاباً مؤجلاً، أي: كتاباً ذا أجل، والأجل: هو الوقت المعلوم ومثل هذا التوقيت قوله -عز وجل-: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾[النساء: ٢٤] لأنه لما قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾[النساء: ٢٣]؛ دل ذلك على أنه مفروض عليهم، فكان قوله: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ توكيداً، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لأنه لما قال: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[النمل: ٨٨] دل ذلك على أنه خلق الله وصنعه فقال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾، وهذا في القرآن في غير موضع ـ وهذا مجراه عند جميع النحويين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾.

أي: من كان إنما يقصد بعمله الدنيا أعطى منها، وكل نعمة فيها العبد فهي تفضل من الله إعطاءً منه، ومن كان قصده بعمل الآخرة أتاه الله منها، وليس في هذا دليل أنه يحرمه خير الدنيا، لأنه لم يقل ومن يرد ثواب الآخرة لم نؤته إلا منها، والله -عز وجل- ذو الفضل العظيم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾.

تفسيرها: كم من نبي، وفيها لغتان جيدتان بالغتان يقرأ بهما جميعاً، يقرأ: ﴿وَكَأَيِّن﴾ بالتشديد، و «كائن» على وزن فاعل، وأكثر ما جاء الشعر على هذه اللغة قال جرير [من

الوافر]:

وَكَـائِن بِالأَبَـاطِحِ مِـن صَـدِيقٍ ... يَرانـي لَـو أُصِبتُ هُـوَ المُصـابا[١]

وقال الشاعر أيضاً:

وكَـائن رَدَدْنَـا عَنْكُمُـو مـن مـدجّج ... يَجِيءُ أَمَامَ الأَلْـف يُـرذَى مُقنَعَـا[٢]

ومثل التشديد قوله[٣] [من الوافر]:

وَكَـائِن فِـي المعَاشِـر مِـنْ أُنَـاسٍ ... أَخُـوهُم فَـوْقَهُم وَهُـم الكِـرَامُ[٤]

أعلم الله -جل وعز- أن كثيراً من الأنبياء قاتل معه جماعة فلم يهنوا، فقال الله -عز وجل-: ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.

معنى ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ فما فتروا ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: وما جبنوا عن قتال عدوهم، ومعنى ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: ما خضعوا لعدوهم، وتقرأ -وهو الأكثر- ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بكسر الراء وبعضهم يقرأ: ((رُبيون)) . بضم الراء.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٢٣/٤)، وفتح القدير (٥٨١/١)، وحروف المعاني (٦١/١)، ومغني اللبيب (٦٤٣/١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٢٣/٤).

(٣) قاله: الكميت بن زيد الأسدي، وهو: الكميت بن زيد بن خنس الأسدي، أبو المستهل: شاعر الهاشميين. من أهل الكوفة. اشتهر في العصر الأموي. وكان عالماً بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، وثقة في علمه، ومنحازاً إلى بني هاشم، وكثير المدح لهم، ومتعصباً للمضرية على القحطانية. وهو من أصحاب الملحمات. أشهر شعره ((الهاشميات)) وهي عدة قصائد في مدح الهاشميين ويقال: إن شعره أكثر من خمسة آلاف بيت، وقال أبو عبيدة: لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت لكفاهم. وقال أبو عكرمة الضبي: لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان. اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في شاعر: كان خطيب بني أسد، وفقيه الشيعة، وكان فارساً شجاعاً، وسخياً، ورامياً لم يكن في قومه أرمى منه. وقال الميداني: الكميت ثلاثة: الكميت ابن ثعلبة، ثم الكميت بن معروف، ثم الكميت بن زيد، وكلهم من بني أسد. وفاته: سنة (١٢٦ هـ = ٧٤٤ م).

انظر ترجمته في: الأغاني (١٠٨/١٥)، وجمهرة أشعار العرب (ص: ١٨٧)، والشعر والشعراء (ص: ٥٦٢ – ٥٦٦) وخزانة الأدب للبغدادي (٦٩/١-٧١)، والأعلام (الكميت الأسدي).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٢٣/٤).

وقيل في التفسير ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾: إنهم الجماعات الكثيرة، وقال بعضهم: «الربوة»: عشرة آلاف، وقيل: «الربيون»: العلماء الأتقياء الصُّبَّر على ما يصيبهم في الله -عز وجل-، وكلا القولين حسن جميل(١).

وتقرأ: ﴿قُتِلَ مَعَهُ﴾ و﴿قَاتَلَ مَعَهُ﴾ فمن قرأ: ﴿قَاتَلَ﴾؛ المعنى: إنهم قاتلوا وما وهنوا في قتالهم.

ومن قرأ: ﴿قُتِلَ﴾ فالأجود أن يكون «قتل» للنبي -عليه السلام- المعنى: وكأين من نبي قتل ومعه ربيون فما وهنوا بعد قتله، لأن هؤلاء الذين وهنوا كانوا توهموا أن النبي ﷺ قتل، فأعلم الله -عز وجل- أن الربانيين بعد قتل نبيهم ما وهنوا.

وجائز أن يكون ﴿قُتِلَ﴾ للربانيين ويكون ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي: ما وهن من بقي منهم.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

تقرأ ﴿قَوْلَهُمْ﴾ بالنصب، ويكون الاسم: ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ فيكون المعنى: ما كان قولهم إلا استغفارهم، أي: قولهم: «اغفر لنا».

ومن قرأها بالرفع جعل خبر «كان» ما بعد «إلا»، والأكثر في الكلام أن يكون الاسم هو ما بعد «إلا» قال الله -عز وجل- ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾[النمل: ٥٦]، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾[الجاثية: ٢٥].

ومعنى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: ثبتنا على دينك، وإذا ثبتهم على دينهم ثبتوا في حربهم

---

(١) قال المفسرون في معنى الربيين خمسة أقوال:

أحدها: أنهم الألوف، قاله ابن مسعود وابن عباس في رواية واختاره الفراء.

والثاني: الجماعات الكثيرة رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي والربيع واختاره ابن قتيبة.

والثالث: أنهم الفقهاء والعلماء رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وبه قال الحسن واختاره اليزيدي والزجاج.

والرابع: أنهم الأتباع، قاله ابن زيد.

والخامس: أنهم المتألهون العارفون بالله تعالى، قاله ابن فارس.

انظر: زاد المسير (٤٧٢/١)، وتفسير الطبري (٤٦٠/٣)، وتفسير ابن كثير (٥٤٣/١)، وتفسير القرطبي (٢٤٤/٣)، وتفسير البغوي (١١٦/١)، وتفسير أبي السعود (٩٥/٢)، والدر المنثور (٣٤٠/٢)، وروح المعاني (٨٣/٤)، وتفسير الصنعاني (١٣٤/١)، ومعاني القرآن (٤٩٠/١).

قال الله -عز وجل- ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

المعنى: تزل عن الدين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ظفرهم وغنمهم.

﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾؛ المغفرة وما أعد لهم من النعيم الدائم.

وقوله جل وعز: ﴿بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ﴾؛ أي: هو وليكم وإذا كان وليهم فهو ناصرهم ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢].

وقوله -جل وعز-: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾.

يروى عن النبي ﷺ أنه قال: ((نصرت بالرعب))[1] .

وقال: ((يرعب مني عدوي من مسيرة شهر))[2]، وقال الله -عز وجل-: في سورة الحشر: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[الحشر: ٢].

وقوله -عز وجل-: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾؛ أي: أشركو بما ما لم ينزل به حجة، والسلطان في اللغة: الحجة ومثله ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[الحاقة: ٢٨، ٢٩] أي: ذهبت عني حجيته.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾.

معناه: تستأصلونهم قتلاً يقال: ((حَسَّهم القائد يَحُسهم حَساً)) إذا قتلهم، ويقال: ((هل حسست كذا وكذا)) أي: هل رأيته أو علمته، ويقال: ((ما حَسَست فلاناً وهل حسِست له))

---

(١) من العطايا الخمس التي أعطاها الله لسيدنا محمد ﷺ أخرج البخاري في صحيحه (١/١٢٨، ورقم: ٣٢٨) عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)).

وأخرجه من وجه آخر مسلم في الصحيح (١/٣٧٢، ورقم: ٥٢٣) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((نصرت بالرعب على العدو وأوتيت جوامع الكلم وبينما أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضع في يدي)).

(٢) أخرجه المعجم الكبير (١١/٧٣، رقم: ١١٠٨٥) عن ابن عباس.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٢٦١): رواه البزار والطبراني، وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن كهيل وهو ضعيف وذكره ابن حبان في الثقات وقال في روايته عن أبيه بعض المناكير.

والكسر أكثر أي: ما رفقت عليه ولا رحمته ويقال: «جيء به من حِسِّك وبَسّك» أي: من حيث ما كان ولم يكن، كذلك لفظ الأصمعي، وتأويله: جيء به من حيث تدركه حاسة من حواسك، أو يدركه تصرف من تصرفك ومعنى ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه.

وقوله -جل وعز-: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾؛ أي: جبنتم عن عدوكم ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾ اختلفتم ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ لأنهم أعطوا النصر فخالفوا فيما قيل لهم في حربهم فعوقبوا بأن دِيْلَ منهم.

وقوله -جل وعز-: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾؛ أي: منكم من قصده الغنيمة في حربه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾؛ أي: يقصد بحربه إلى ما عند الله.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ﴾، و﴿تَصْعَدَون﴾ جميعاً قد قرئ بهما.

فمن قال ﴿تُصْعِدُونَ﴾ فهو لكل من ابتدأ مسيراً من مكان فقد أُصعد، والصعود: إنما يكون من أسفل إلى فوق، ومن قرأ ﴿تَصْعَدُون﴾ فالمعنى: إذ تصعدون في الجبل ولا تلوون على أحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾؛ أي: أثابكم ان غممتم النبي ﷺ أن نالكم غم بما عوقبتم به للمخالفة، وقال بعضهم ﴿غَمًّا﴾: إشراف خالد بن الوليد عليهم بعد ما نالهم.

وقوله -جل وعز-: ﴿لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من غنيمة، ﴿وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾؛ أي: ليكون غمكم بأن خالفتم النبي ﷺ فقط.

وقوله جل وعز: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾.

أي: أعقبكم بما نالكم من الرعب أن أمنكم أمناً تنامون معه، لأن الشديد الخوف لا يكاد ينام.

و﴿أَمَنَةً﴾ اسم، تقول: «مِن الرِّجال أَمْناً وأَمَنَةً» لم ينله خوف.

و﴿نُعَاساً﴾: منصوب على البدل من ﴿أَمَنَةً﴾.

ويقرأ ﴿يَغْشَى﴾ بالتاء جعله للأمنة، والأمنة: تؤدي معنى النعاس، وإن قرئ ﴿يَغْشَى﴾ جاز وهذه الطائفة هم المؤمنون، ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهم المنافقون.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ﴾ أي: يظن المنافقون أن أمر النبي ﷺ

مضمحل.

﴿ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ﴾؛ أي: هم على جاهليتهم في ظنهم هذا، والقراءة ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، قال سيبويه: المعنى: إذ طائفة قد أهمتهم، وهذه واو الحال، ولو قرئت: ﴿وَطَائِفَةً قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ على إضمار فعل «أهم» الذي ظهر تفسيره كان جائزاً؛ المعنى: وأهمت طائفة أنفسهم، وجاز أن يرتفع على أن يكون الخبر ﴿يَظُنُّونَ﴾ ويكون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ نعت طائفة؛ المعنى: وطائفة تهمهم أنفسهم يظنون، أي: طائفة يظنون بالله غير الحق.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾؛ تقرأ ﴿بِـيوتِكُمْ﴾ بضم الباء وكسرها، وروى أبو بكر بن عياش عن عاصم بكسر الباء قال أبو إسحاق: وقرأناها بإقراء أبي عمرو عن عاصم ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ بضم الباء، والضم الأكثر والأجود والذين كسروا «بيوت» كسروها لمجيء الياء بعد الباء، و «فِعول» ليس بأصل في الكلام، ولا من أمثلة الجمع فلاختيار «بيوت» مثل: «قلب وقلوب وفلس وفلوس».

وقوله -عز وجل-: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

معنى: «صاروا» إلى براز، وهو المكان المنكشف، أي: لأوصلتهم الأسباب التي عنها يكون **القتل إلى مضاجعهم**.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: يختبره بأعمالكم لأنه علمه غيباً فيعلمه شهادة، لأن المجازاة تقع على ما علم مشاهدة، أعني على ما وقع من علمه، لا على ما هو معلوم منهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾؛ فمن نصب فعلى توكيد ﴿الأَمْرَ﴾ ومن رفع فعلى الابتداء، و﴿لِلَّهِ﴾ الخبر، ومعنى ﴿الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي: النصر وما يلقي من الرعب في القلوب لله، أي: كل ذلك لله.

وقوله جل وعز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ﴾؛ هذا خطاب للمؤمنين خاصة.

﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾؛ أي: لم يتولوا في قتالهم على جهة المعاندة ولا على الفرار من الزحف رغبة في الدنيا خاصة، وإنما أذكرهم الشيطان خطايا كانت لهم فكرهوا لقاء الله إلا على حال يرضونها، فلذلك عفا عنهم وإلا فأمر الفرار والتولي في الجهاد إذا كانت العدة أقل من المثلين أو كانت العدة مثلين فالفرار أمر عظيم.

قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾[الأنفال: ١٦]، وهذا يدل أن أمر الوعيد لأهل الصلاة أمر ثابت، وأن التولي في الزحف من أعظم الكبائر.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَانُوا غُزًّى﴾؛ القراءة وما ثبت في المصحف على القصر، و«فعل» جمع: «فاعل» نحو: «ضارب وضرب وشاهد وشهد» ويقع على «فِعال»، نحو: «حارب وحراب وضارب وضراب»، و«غزاء» يجوز إلا أنه لا يكون فى القراءة لأنه ممدود.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: ليجعل ظنهم أنهم لو لم يحضروا الحرب اندفع عليهم ما كتب عليهم فحسرتهم فيما ينالوا أشد.

﴿وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: ليس الإنسان يمنعه تحرزه من إتيان أجله على ما سبق في علم الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ﴾.

«ما» بإجماع النحويين ههنا صلة لا تمنع الباء من عملها فيما عملت؛ المعنى: فبرحمة من الله لنت لهم، إلا أن «ما» قد أحدثت بدخولها توكيد المعنى، ولو قرئت: «فبما رحمةٌ من الله» جاز؛ المعنى: فبما هو رحمة أجازوا : «مَثَلاً مَّا بَعُوضَةٌ» ولا تقرأن بها فإن القراءة سنة ولا يجوز أن يقرأ قارئ بما لم يقرأ به الصحابة أو التابعون أو من كان من قراء الأمصار المشهورين في القراءة.

والمعنى: إن لينك لهم مما يوجب دخولهم في الدين لأنك تأتيهم بالحجج والبراهين مع لين وخلق عظيم.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

الفظ: الغليظ الجانب السيء الخلق، يقال: «فَظَظْت تَفِظ فظاظَة وفِظَظاً» إلا أن «فَظَاظَة» أكثر لثقل التضعيف، وما كان من الأسماء على «فَعَلْ» في المضاعف فغير مدغم نحو: «المدد والشرر» وما كان على «فَعْل» فمدغم على كل حال نحو: «رجل صَبٌ» وأصله: «صبب» وكذلك «فظ» وأصله: «فظظ»، ومثله من غير المضاعف: «قد فرَقْتُ

تفرق فرَقاً وأنت فَرِقٌ)) وإذا اضطر شاعر رد فَعْلاً إلى أصله في المضاعف قال الشاعر[(١)]:

مَهْلاً أعاذِلَ قد جَرَّبْتِ مِن خُلُقِي   أَنِّي أَجُودُ لأَقْوامٍ وإنْ ضَنِنوا[(٢)]

والفظ: ماء الكرش والفرث وسمي فظاً لغلظ مشربه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾؛ أي: شاورهم فيما لم يكن عندك فيه وحي، فأما ما فيه أمر من الله -جل وعز- ووحي فاشتراك الآراء فيه ساقط، وإنما أراد الله -عز وجل- بذلك السنة في المشاورة وأن يكرم أصحابه بمشاورته إياهم، ثم أمر بعد الإجماع على الرأي ﷺ بالتوكل على الله -عز وجل- قال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: لا تظن أنك تنال منالاً تحبه إلا بالله جل وعز.

قوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾؛ وأن ((يغل)) قرئتا جميعاً.

فمن قرأ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ فالمعنى: وما كان لنبي أن يخون أمته.

وتفسير ذلك أن النبي ﷺ جمع الغنائم في غزاة، فجاءه جماعة من المسلمين فقالوا: ألا تقسم بيننا غنائمنا فقال ﷺ: ((لو أن لكم عندي مثل أحد ذهباً ما منعتكم درهماً، أترونني أغلكم مغنمكم))[(٣)].

---

(١) هو: قعنب بن أم صاحب واسمه: قعنب بن ضمرة، من بني عبد الله بن غطفان، من شعراء العصر الأموي. يقال له: ((ابن أم صاحب)) كان في أيام الوليد بن عبد الملك، وله هجاء فيه. وسماه ابن حبيب: ((قعنب بن أم صاحب الفزاري)) وفزارة من غطفان. وفاته: (نحو ٩٥ هـ = نحو ٧١٤م).

انظر ترجمته في: الأعلام (وقعنب بن ضمرة).

(٢) انظر: الأصول في النحو (٤٤١/٣)، والخصائص (١٦٠/١)، واللباب علل البناء والإعراب (١٠٠/٢)، وصبح الأعشى (٢٩٩/٢)، ولسان العرب (٤١٥/١١)، وتاج العروس (٧٢٨٦/١).

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، والمفسرون قالوا في سبب نزول الآية سبعة أقوال:

أحدها: أن قطيفة من المغنم فقدت يوم بدر فقال ناس لعل النبي ﷺ أخذها فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلاً غل من غنائم هوازن يوم حنين فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: أن قوماً من أشراف الناس طلبوا من رسول الله ﷺ أن يخصهم بشيء من الغنائم فنزلت هذه الآية، نقل عن ابن عباس أيضاً.

والرابع: أن النبي ﷺ بعث طلائعاً فغنم النبي ﷺ غنيمة ولم يقسم للطلائع فقالوا: قسم الفيء ولم يقسم لنا فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك.

=

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا لأعرفن رجلاً يأتي يوم القيامة ومعه شاة قد غلها لها ثغاء، ألا لأعرفن رجلاً يأتي يوم القيامة ومعه بعير قد غله له رغاء، ألا لأعرفن رجلا يأتي يوم القيامة ومعه فرس قد غله له حَمْحَمة»(١).

ومن قرأ: «أن يغل» فهو جائز على ضربين؛ أي: ما كان لنبي أن يغله أصحابه، أي: يخونوه وجاء عن النبي ﷺ: «لا يحبس أحدكم خيطاً ولا مخيطاً».

وأجاز أهل اللغة أن يغل أن يخون، ويقال: «أَغْلَلْت الجلد» إذا سلخته فأبقيت فيه شيئاً من الشحم، و«قد غَلَّ الرجل يَغَلُّ» إذا خان، لأنه أخذ شيئاً في خفاء فكل ما كان من هذا الباب فهو راجع إلى هذا من ذلك الغال، وهو الوادي الذي ينبت الشجر، وجمعه: «غُلان» ومن ذلك «الغِل» وهو: «الحقد»، وتقول: «قد أَغَلَّت الضيعة فهي مُغِلَّة» إذا أتت بشيء وأصلها باق، قال زهير [من الطويل]:

فَتُغلِل لَكُم ما لا تُغِلُّ لأَهلِها قُرىً بِالعِراقِ مِن قَفيزٍ وَدِرهَمِ(٢)

والغلالَة: الثوب الذي يلبس تحت الثياب، والذي يلبس تحت الدرع -درع الحديد- «غِلالَة» و«تَغَلَّلْت بالغالية وتغليت» إنما هو جعلها في أصول الشعر، و«الغلُّ»: الماء

=

و الخامس: أن قوماً غلوا يوم بدر فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

والسادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخاف أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئاً فهو له، فقال لهم النبي ﷺ: «ألم أعهد إليكم ألا تبرحوا أظننتم أنَّا نغل» فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب ومقاتل.

والسابع: أنها نزلت في غلول الوحي، قاله القرظي وابن إسحاق.

انظر: زاد المسير (٤٩٠/١)، وتفسير البغوي (١٢٦/١) ص. الدر المنثور (٣٦١/٢).

(١) متفق عليه، وإلا أن اللفظ هنا مختلف، فقد أخرجه البخاري (١١١٨/٣، ورقم: ٢٩٠٨) عن أبي هريرة ﷺ قال: قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره قال: «لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء على رقبته فرس لها حمحمة يقول: يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك وعلى رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت. فيقول: يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك أو على رقبته رقاع تخفق. فيقول: يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك».

وأخرجه مسلم (١٤٦١/٣، ورقم: ١٨٣١).

(٢) انظر: لسان العرب (٤٩٩/١١)، وتاج العروس (٧٣٨٢/١).

الذي يجري في أصول الشجر.

ومعنى ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾.

معنى ﴿إِذَا﴾ ههنا ينوب عما مضى من الزمان وما يستقبل جميعاً، والأصل في «إذ» الدلالة على ما مضى تقول: «أتيتك إذ قمت وآتيك إذا جئتني»، ولم يقل ههنا «إذ ضربوا في الأرض» لأنه يريد شأنهم أبداً، ومثل ذلك في الكلام: «فلان إذا حدث صدق وإذا ضرب صبر»، فـ«إذا» لما يستقبل إلا أنه لم يحكم له بهذا المستقبل إلا بما خبر منه فيما مضى.

وقوله جل وعز: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾؛ يقال: «شَاورت الرجل مُشَاورة وشَواراً» وما يكون من ذلك فاسمه: «الْمَشُورة»، وبعضهم يقول: «المشورة»، يقال: «فلان حسن الصورة والمشورة» أي: حسن الهيئة واللباس، و «إنه لَشِير صينٌ وحسن الشارة» و«الشُّوار» متاع البيت، ومعنى: «شاورت فلان» أظهرت في الرأي ما عندي وما عنده، و«شُرْتُ الدآبة أَشُورها» إذا امتحنتها فعرفت هيئتها في سيرها، ويقال: «شُرْتُ العسل وأَشَرْتُ العسل» إذا أخذته من مواضع النحل، و«عسل مشور» قال الأعشى [من المتقارب]:

كَأَنَّ جَنِياً مِنَ الزَنجَبيـ ـلِ خالَطَ فاها وَأَرياً مَشورا[1]

والأري: العسل، ويقال: «عسل مشار»، قال الشاعر[2]:

وغناء يَأْذَنَ الشَّيخُ لَهُ وَحَدِيث مِثل مَاذِيّ مُشَار[3]

قوله -جل وعز-: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾؛ يقرأ ﴿رِضْوَانَ﴾ بكسر الراء و«رُضوان» بضم الراء، وقد روينا جميعاً عن عاصم.

﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ يروى أن النبي ﷺ حين أمر المسلمين في أحد باتباعه اتبعه المؤمنون وتخلف عنه جماعة من المنافقين، فأعلم الله -جل وعز- أن من اتبع النبي ﷺ فقد اتبع رضوان الله، ومن تخلف عنه فقد باء بسخط من الله ومعنى: «باء بذنبه» :

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩/١٢٦)، ولسان العرب (٤/٤٣٤)، وتاج العروس (١/٣٠٣٥).

(٢) هو: عدي بن زيد العبادي. انظر العقد الفريد (٥/٢١٠).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤/٢٤٠)، وروح المعاني (١٤/٢٠٧)، ومفردات القرآن (١/٧٩٩)، ولسان العرب (٣/٥١١)، وتاج العروس (١/٢٤٢٥)، والفائق (١/٣٢).

احتمله وصار المذنب مأوى الذنب، ولذلك: «بوأت فلاناً منزلاً» أي: جعلته ذا منزل.

وقوله -جل وعز-: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: المؤمنون ذوو درجة رفيعة والكافرون ذوو درجة عند الله وضيعة، ومعنى ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾: هم ذوو درجات لأن الإنسان غير الدرجة،كما تقول: «الناس طبقات» أي: ذوو طبقات ، وأنشد سيبويه[١] [من الوافر]:

أَنَصبٌ لِلمَنِيَّةِ تَعترِيهِم رِجالي أَم هُمُ دَرجُ السيولِ[٢]

أي: هم ذوو درج، ويجوز: «أم همو درج السيول» على الظرف.

وقوله جل وعز: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، وهو رجل من الأميين لا يتلو كتاباً، ولا يخطه بيمينه وبعثه بين قوم يحبونه ويعرفونه بالصدق والأمانة، وأنه لم يقرأ كتاباً ولا لقنه، فتلا عليهم أقاصيص الأمم السالفة والأنبياء الماضية لا يدفع أخباره كتاب من كتبٍ مخالفته، فأعلم الله أنه مَنَّ على المؤمنين بإرساله من قد عَرَف أمره، فكان تناول الحجة والبرهان وقبول الأخبار والأقاصيص سهلاً من قبله وفي ذلك أعظم المنة.

وقد جاء في التفسير: أنه يراد رسول من العرب ولو كان القصد في ذلك -والله أعلم- أن أمره إنما كانت فيه المنة أنه من العرب لكان العجم لا حجة عليهم فيه[٣].

---

(١) قائله: إبراهيم بن هرمة، واسمه: إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة الكناني القرشي، وأبو إسحاق: شاعر غزل من سكان المدينة. من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.
رحل إلى دمشق ومدح الوليد بن يزيد الأموي، فأجازه، ثم وفد على المنصور العباسي في وفد أهل المدينة، فتجهم له، ثم أكرمه. وانقطع إلى الطالبيين وله شعر فيهم. وهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم. قال الأصمعي: ختم الشعر بابن هرمة. وكان مولعاً بالشراب جلده صاحب شرطة المدينة.
انظر ترجمته في: الأغاني (٤/١٠١)، والنجوم الزاهرة (٢/٨٤)، والبداية والنهاية (١٠/١٦٩)، وتاريخ بغداد (٦/١٢٧)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/٢٠٤).

(٢) انظر: الكشاف (١/٢١٧)، وكتاب جمهرة الأمثال (١/٤١٥)، ولسان العرب (٢/٢٦٦)، وتاج العروس (١/١٤٠٢).

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/٤٩٤) في وجه الامتنان عليهم بكونه من أنفسهم أربعة أقوال:
أحدها: لكونه معروف النسب فيهم، قاله ابن عباس وقتادة.
والثاني: لكونهم قد خبروا أمره وعلموا صدقه، قاله الزجاج.
والثالث: ليسهل عليهم التعلم منه لموافقة لسانه للسانهم، قاله أبو سليمان الدمشقي.
=

ولكن الأمر -والله أعلم- أن المنة فيه أنه قد خبر أمره وشأنه وعلم صدقه وأتى بالبراهين بعد أن قد علموا أنه كان واحداً منهم.

وقوله -جل وعز-: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾.

هذه الواو واو النسق دخلت عليها ألف الاستفهام فبقيت مفتوحة على هيئتها قبل دخولها، ومثل ذلك قول القائل: «تكلم فلان بكذا وكذا» فيقول قائل مجيباً له: «أو هو ممن يقول ذلك».

وقيل في التفسير: إن هذه المصيبة عني بها ما نزل بهم يوم أحد[1].

﴿أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ أصبتم في يوم أحد مثلها، وأصبتم يوم بدر مثلها، فأصبتم مثلي ما أصابكم.

﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾؛ أي: من أين أصابنا هذا.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أصابكم بمعصيتكم النبي ﷺ، وما من قوم أطاعوا نبيهم في حربهم إلا نصروا لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أما أصابكم كان بعلم الله.

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾.

أي: ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم على ما نالهم ويظهر نفاق المنافقين بفشلهم وقلة الصبر على ما ينزل بهم في ذات الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

والرابع: لأن شرفهم يتم بظهور نبي منهم، قاله الماوردي.

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (٦٠٦/١)، وتفسير ابن كثير (٥٥٦/١)، وتفسير القرطبي (٢٥٦/٤)، وتفسير البيضاوي (١١١/١)، وتفسير أبي السعود (١٠٧/٢)، وروح المعاني (١٣١/٤)، والكشاف (٢١٧/١)، ومعاني القرآن (٥٠٧/١).

(١) فيكون المعنى: أنكم أصبتم من المشركين يوم بدر مثلي ما أصابوا منكم يوم أحد.

انظر: تفسير الطبري (٥٠٦/٣)، وتفسير ابن كثير (٣٨٣/٢)، وتفسير أبي السعود (١٠٨/٢)، والدر المنثور (٣٦٨/٢).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٩٥/١): لما كان يوم أحد عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه.

﴿يُرْزَقُونَ﴾؛ القراءة بالرفع ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولو قرئت: ((بل أحياءً عند ربهم)) لجاز؛ المعنى: أحسبهم أحياء، وقيل في هذا غير قول؛ قال بعضهم: لا تحسبهم أمواتاً في دينهم، بل هم أحياء في دينهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[الأنعام: ١٢٢]، وقال بعضهم: لا تحسبهم كما يقول الكفار إنهم لا يبعثون بل يبعثون.

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

وقيل: إن أرواحهم تسرح في الجنة وتلذ بنعيمها فهم أحياء عند ربهم، قال بعضهم: أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة ثم تصير إلى قناديل تحت العرش[1].

وقوله جل ثناؤه: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾.

أي: لم يلحقوا بهم في الفضل إلا أن لهم فضلاً عظيماً بتصديقهم وإيمانهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فموضع ((أن)) خفض؛ المعنى: يستبشرون بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

((إن)) في موضع خفض؛ المعنى: ويستبشرون بأن الله لا يضيع ويجوز ﴿وَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على معنى والله لا يضيع أجر المؤمنين، وكذلك هي في قراءة عبدالله ((والله لا يضيع)) فهذا يقوى وإن بالكسر.

وقوله -جل وعز-: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾.

أي: من بعد ما أصابهم الجرح، ومن قرأ ﴿الْقُرْحُ﴾ فمعناه ألم الجرح، ﴿الَّذِينَ﴾ جائز أن يكون في موضع خفض على النعت للمؤمنين، والأحسن أن يكون في موضع رفع بالابتداء، ويكون خبر الابتداء ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

وقوله جل وعز: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾.

---

(١) ويدل عليه ما أخرجه الدارمي (٢/٢٧١، ورقم: ٢٤١٠) عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن أرواح الشهداء ولولا عبد الله لم يحدثنا أحد قال: ((أرواح الشهداء ثم الله يوم القيامة في حواصل طير خضر، ولها قناديل معلقة بالعرش، وتسرح في الجنة حيث شاءت، ثم ترجع إلى قناديلها فيشرف عليهم ربهم فيقول: ألكم حاجة تريدون شيئاً فيقولون: لا إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى)).

ورواه أيضاً: الطيالسي (١/٣٨، ورقم: ٢٩١).

يقال في التفسير(١) : إن قائل هذا نعيم بن مسعود الأشجعي(٢)، بعثه أبو سفيان وأصحابه يثبطون النبي ﷺ وأصحابه عن لقيهم، وكان بين المسلمين وبين المشركين في يوم أحد موعد للقاء ببدر الصغرى، فلم يلتفت المسلمون إلى تخويف نعيم، وعزموا على لقاء القوم وأجابوا بأن قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾.

وتأويل ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: الذي يكفينا أمرهم الله.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾؛ أي: زادهم ذلك التخويف ثبوتاً في دينهم وإقامة على نصرة نبيهم، وصاروا إلى بدر الصغرى، وألقى في قلوب المشركين الرعب فلم تغفلوهم.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾؛ المعنى: فلم يخافوا ما خافوا وصاروا إلى الموعد الذي وعدوا فيه، ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ﴾ أي: انقلبوا مؤمنين قد هرب منهم عدوهم.

وقيل في التفسير: إنهم أقاموا ثلاثاً واشتروا أدماً وزبيباً ربحوا فيه، وكل ذلك جائز إلا

---

(١) ذكر المصنف قولاً من ثلاثة في قائل الكلام، فقد قال المفسرون:المراد بالناس فيه ثلاثة أقوال:
أحدها:أنهم ركب فلقيهم أبو سفيان فضمن لهم ضماناً لتخويف النبي ﷺ وأصحابه، قاله ابن عباس وابن إسحاق.
والثاني: أنه نعيم بن مسعود الأشجعي، قاله مجاهد وعكرمة ومقاتل.
والثالث أنهم المنافقون لما رأوا النبي ﷺ يتجهز نهوا المسلمين عن الخروج وقالوا: إن أتيتموهم في ديارهم لم يرجع منكم أحد، هذا قول السدي.
انظر: زاد المسير (٥٠٤/١) تفسير الطبري (٥٢٠/٣)، وتفسير ابن كثير (٥٦٥/١)، والدر المنثور (٣٨٩/٢)، وروح المعاني (١٢٥/٤)، والكشاف (٢٢٠/١)، وتفسير الصنعاني (١٣٦/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٧٩٣/٢).

(٢) هو: نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن هلال بن حلاوة أبو سلمة الغطفاني الأشجعي صحابي مشهور، أسلم أيام غزوة الخندق وكتم إسلامه، وهو الذي خذل المشركين وبنى قريظة حتى صرف الله المشركين بعد أن أرسل عليهم ريحًا وجنودًا لم يروها، فكفى الله المؤمنين القتال بحيلة نعيم والريح، وكما أرسله الرسول ﷺ إلى ابن ذي اللِّحية.
وقد روي عن النبي ﷺ وروي عنه ولداه: سلمة وزينب، وله حديث عند أحمد وأبي داود وغيرهما، وقتل نعيم في أول خلافة عليٍّ قبل قدومه من البصرة في وقعة الجمل، وقيل: مات في آخر خلافة عثمان، رضي الله عنه، والله أعلم.

أن انقلابهم بالنعمة هي نعمة الإيمان والنصر على عدوهم[1].

وقوله -جل وعز-: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾.

أي: ذلك التخويف الذي كان فعل الشيطان، أي: هو قوله للمخوفين، يخوف أولياءه، قال أهل العربية: معناه يخوفكم أولياءه، أي: من أوليائه، والدليل على ذلك قوله -جل وعز-: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: كنتم مصدقين، فقد أعلمتكم أني أنصركم عليهم فقد سقط عنكم الخوف.

وقال بعضهم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: إنما يخاف المنافقون ومن لا حقيقة لإيمانه، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: لا تخافوا المشركين.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾؛ وقرئت: «ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً»، وقد قرئت: «ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم».

معنى ﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾ نؤخرهم، وهؤلاء قوم[2] أعلم الله النبي ﷺ أنهم لا يؤمنون أبداً، وأن بقاءهم يزيدهم كفراً وإثماً.

فأما الإعراب فقال أبو العباس محمد بن يزيد: عن من قرأ بالياء: «يحسبن» فتح «أن» وكانت تنوب عن الاسم والخبر تقول: «حسبت أن زيداً منطلق»، ويصح الكسر مع الياء بقبح.

«ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم» بكسر «إن»، وهو جائز على قبحه، لأن الحسبان ليس بفعل حقيقي فهو يبطل عمله مع «أن» كما يبطل مع اللام تقول: «حسبت لعبد الله منطلق» وكذلك قد يجوز على بعد: «حسبت أن عبد الله منطلق».

ومن قرأ: «ولا تحسبن الذين كفروا» لم يجز له عند البصريين إلا كسر «إن»؛ المعنى: لا تحسبن الذين كفروا إملاؤنا خير لهم ودخلت «أن» مؤكدة، وإذا فتحت «أن»

---

(١) انظر: زاد المسير (١/٥٠٦)، وتفسير الطبري (٣/٥٢٤)، وتفسير ابن كثير (١/٥٦٥)، وتفسير القرطبي (٤/٢٦٩)، وتفسير أبي السعود (١/٢٦٢).

(٢) وهؤلاء القوم اختلف فيهم على أربعة أقوال:

أحدها: في اليهود والنصارى والمنافقين، قاله ابن عباس. والثاني: في قريظة والنضير، قاله عطاء. والثالث: في مشركي مكة قاله مقاتل. والرابع: في كل كافر، قاله أبو سليمان الدمشقي.

انظر: زاد المسير (١/٥٠٨).

صار المعنى: ولا تحسبن الذين كفروا إملاءنا.

قال أبو إسحاق -وهو عندي- في هذا الموضع يجوز على البدل من ((الذين))؛ المعنى: لا نحسبن إملاءنا للذين كفروا خيراً لهم وقد قرأ بها خلق كثير.

ومثل هذه القراءة من الشعر قول الشاعر[١] [من الطويل]:

فَما كانَ قَيسٌ هُلكُهُ هُلكُ واحِدٍ ... وَلَكِنَّهُ بُنيانُ قَومٍ تَهَدَّما[٢]

جعل ((هلكه)) بدلاً من ((قيس))؛ المعنى: فما كان هلك قيس هلك واحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿**مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾.

يروى في التفسير: أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: تخبرنا بأن الإنسان في النار، حتى إذا صار من أهل ملتك قلت: إنه من أهل الجنة[٣]، فأعلم الله -عز وجل- أن حكم من كفر أن يقال له: إنه من أهل النار، ومن آمن فهو ممن آمن وأقام على إيمانه وأدى ما افترض عليه من أهل الجنة، وأعلم أن المؤمنين وهم ﴿**الطَّيِّبِ**﴾ مميزون من ﴿**الْخَبِيثَ**﴾ أي: مخلصون.

---

(١) هو: عبدة بن الطيب.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤٠/٣)، وفتح القدير (٣٣١/١)، والجمل في النحو (١٥١/١)، والأصول في النحو (٥١/٢)، والأغاني (٣١/١٠)، وديوان الحماسة (٣٢٨/١).

(٣) هذا قول من الأقوال التي قيلت، والآية فيها خمس أقوال:

أحدها: أن قريشاً قالت تزعم يا محمد أن من اتبعك فهو في الجنة ومن خالفك فهو في النار فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس.

والثاني: أن المؤمنين سألوا أن يعطوا علامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق فنزلت هذه الآية، هذا قول أبو العالية.

والثالث: أن النبي ﷺ قال: ((عرضت علي أمتي وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر)) فبلغ ذلك المنافقين فاستهزؤوا، وقالوا فنحن معه ولا يعرفنا فنزلت هذه الآية، هذا قول السدي.

والرابع: أن اليهود قالت: يا محمد قد كنتم راضين بديننا فكيف بكم لو مات بعضكم قبل نزول كتابكم فنزلت هذه الآية، هذا قول عمر مولى غفرة.

والخامس: أن قوماً من المنافقين ادعوا أنهم في إيمانهم مثل المؤمنين فأظهر الله نفاقهم يوم أحد وأنزل هذه الآية، هذا قول أبي سليمان الدمشقي.

انظر: زاد المسير (٥١٠/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٧٩٨/٢، و٧٩٩).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ﴾؛ أي: ما كان الله ليعلمكم من يصير منكم مؤمناً بعد كفره، لأن الغيب إنما يطلع عليه الرسل لإقامة البرهان لأنهم رسل، وأن ما أُتوا به من عند الله.

وقد قيل في التفسير: إنهم قالوا: ما بالنا نحن لا نكون أنبياء، فأعلم الله أن ذلك إليه وأنه يختار لرسالاته من يشاء[١].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم﴾؛ هذا يعني به علماء اليهود الذين بخلوا بما آتاهم الله من علم نبوة النبي ﷺ وشاقوه وعادوه[٢].

وقد قيل: إنهم الذين يبخلون بالمال فيمنعون الزكاة.

قال أهل العربية: لا يحسبن الذين يبخلون البخل هو خيراً لهم. ودل ﴿يَبْخَلُونَ﴾ على البخل، و﴿هُوَ﴾ ههنا فصل وهو الذي يسميه الكوفيون: «العماد» وقد فسرناه إلا أنا أغفلنا فيه شيئاً نذكره ههنا:

زعم سيبويه أن: «هو وهما وهم وأنا وأنت ونحن وهي» وسائر هذه الأشياء إنما تكون فصولاً مع الأفعال التي تحتاج إلى اسم وخبر، ولم يذكر سيبويه الفصل مع المبتدأ والخبر ولو تأول متأول أن ذكره الفصل ههنا يدل على أنه جائز في المبتدأ أو الخبر كان ذلك غير ممتنع.

قال أبو إسحاق: والذي أرى أنا في هذه ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بالياء، ويكون الاسم محذوفاً، وقد يجوز: «ولا تحسبن الذين يبخلون» على معنى: ولا تحسبن بخل

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٢٨/٣)، وتفسير القرطبي (٢٨٠/٤)، وفتح القدير (٦٠٨/١)، وتفسير البغوي (١٤٠/١)، وتفسير أبي السعود (١١٩/٢)، وروح المعاني (١٣٧/٤)، وزاد المسير (٥١١/١)، وتفسير الثعالبي (٣٣٥/١)، والكشاف (٢٢٢/١)، ومعاني القرآن (٥١٤/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٧٩٨/٢).

(٢) في المقصودين بهذه الآية قولان اختار الزجاج أحدهما وهو أنهم: اليهود، والقول الثاني: أنها نزلت في الذين يبخلون أن يؤدوا زكاة أموالهم، وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس في رواية أبي صالح والشعبي ومجاهد والسدي.

والرأي الذي اختاره الزجاج هو ما رواه عطية عن ابن عباس وابن جريج عن مجاهد.

انظر: زاد المسير (٥١٢/١).

الذين يبخلون، ولكن حذف البخل من ههنا فيه قبح إلا أن حذفه مع قولك: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ قد دل يبخلون فيه على البخل، كما تقول: ((من كذب كان شراً له)) والقراءة بالتاء عندي لا تمنع فيكون مثل ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية، فكذلك يكون معنى هذا: لا تحسبن بخل الباخلين لهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

أي: الله يغني أهلهما فيغنيان بما فيهما، ليس لأحد فيهما مِلك، فخوطب القوم بما يعقلون لأنهم يجعلون ما رجع إلى الإنسان ميراثاً إذا كان ملكاً له.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

هؤلاء رؤساء أهل الكتاب لما نزلت ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ قالوا: نرى أن إله محمد يستقرض منا فنحن إذن أغنياء وهو فقير، وقالوا هذا تلبيساً على ضعفتهم، وهم يعلمون أن الله -عز وجل-: لا يستقرض من عوز، ولكنه يبلو الأخيار، فهم يعلمون أن الله سمى الإعطاء والصدقة: ((قرضاً)) يؤكد به أن أضعافه ترجع إلى أهله، وهو -عز وجل- ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾[البقرة: ٢٤٥] أي: يوسع ويقتر، فأعلم الله -عز وجل- أنه قد سمع مقالتهم، وأعلم أن ذلك مثبت عليهم وأنهم إليه يرجعون فيجازيهم على ذلك وأنه خبير بعلمهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ومعنى ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب محرق بالنار، لأن العذاب يكون بغير النار، فأعلم أن مجازاة هؤلاء هذا العذاب.

وقوله ﴿ذُوقُوا﴾ هذه كلمة تقال للشيء يوئس من العفو، يقال: ((ذق ما أنت فيه)) أي: لست بمختلص منه.

وقوله -جل ذكره-: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾.

هذا من نعت ((العبيد)) الذين قالوا ﴿حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي: عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى تكون آيته هذه الآية، فأعلم الله -عز وجل- أن أسلافهم قد أتتهم الرسل بالبينات وبالذي طلبوا فقتلوهم، فقال: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾؛ وهم لم يكونوا تولوا القتل، ولكن رضوا بقتل أولئك الأنبياء فشركوهم في القتل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

((الزبر)) جمع: ((زبور)) و((الزبور)) كل كتاب ذو حكمة، ويقال: ((زبرت)) إذا كتبت، و((زبرت)) إذا قرأت.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ولا يجوز ((أجورُكم)) على رفع الأجور، وجعل ((ما)) في معنى ((الذي)) لأن ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يصير من صلة ﴿تُوَفَّوْنَ﴾ و﴿تُوَفَّوْنَ﴾ من صلة ((ما)) فلا يأتي ((ما)) في الصلة بعد ﴿أُجُورَكُمْ﴾ و﴿أُجُورَكُمْ﴾ خبر.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾؛ أي: نحي وأزيل، ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ يقال: لكل من نجا من هلكة وكل من لقي ما يغبط به، ((قد فاز))، وتأويله: تباعد من المكروه ولقي ما يحب.

ومعنى قول الناس: ((مفازة)) إنما هي من مهلكة ولكنهم تفاءلوا بأن سموا المهلكة ((مفازة))، والمفازة: المنجاة كما تفاءلوا بأن سموا اللديغ: ((السليم)) وكما سموا الأعمى بـ: ((البصير)) .

وقوله -عز وجل-: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

معناه: لتختبرن، أي: تقع عليكم المحن فيعلم المؤمن من غيره، وهذه النون دخلت مؤكدة مع لام القسم وضمت الواو لسكونها وسكون النون، ويقال للواحد من المذكرين: ((لتبلين يا رجل))، وللاثنين: ((لتبليان يا رجلان))، ولجماعة الرجال: ((لتبلون))، وتفتح الياء من ((لتبلين)) في قول سيبويه لسكونها وسكون النون، وفي قول غيره تبنى على الفتح لضم النون إليها، كما يبنى ما قبل هاء التأنيث، ويقال للمرأة: ((لتبلين يا امرأة))، وللمرأتين: ((لتبليان يا امرأتان)) ولجماعة النساء: ((لتبلينان يا نسوة)) زيدت الألف لاجتماع النونات.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾.

روي أن أبا بكر الصديق ﷺ سمع رجلاً من اليهود يقول: ((إن الله فقير ونحن أغنياء)) فلطمه أبو بكر، فشكا اليهودي ذلك إلى النبي ﷺ فسأله النبي: ((ما أراد بلطمك ؟)) فقال أبو بكر سمعت منه كلمة ما ملكت نفسي معها أن لطمته فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً﴾[١].

و﴿أَذىً﴾ مقصور يكتب بالياء، يقال قد أَذِيَّ فلان يَأْذِي أَذىً» إذا سمع ما يسوءه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾؛ و﴿لَيُبَيِّنُنَّهُ﴾ بالياء والتاء، فمن قال: ﴿لَيُبَيِّنُنَّهُ﴾ بالياء فلأنهم غيب، ومن قال بالتاء حكى المخاطبة التي كانت في وقت أخذ الميثاق؛ والمعنى: أن الله أخذ منهم الميثاق ليبينن أمر نبوة النبي ﷺ ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.

معنى ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ رموا به، يقال للذي يطرح الشيء ولا يعبأ به: «قد جعلت هذا الأمر بظهر، وقد رميته بظهر»، قال الفرزدق [من الطويل]:

تَميمَ بنَ زَيدٍ لا تَهونَنَّ حاجَتي ... بِظَهرٍ وَلا يَعيا عَلَيَّ جَوابُها

أي: لا تتركنها لا يعبأ بها، وأنبأ الله عما حمل اليهود الذين كانوا رؤساء على كتمان أمر النبي ﷺ فقال: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾: أي: قبلوا على ذلك الرشا وقامت لهم رياسة اكتسبوا بها فذلك حملهم على الكفر بما يخفونه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾.

هؤلاء قوم من أهل الكتاب دخلوا على النبي ﷺ وخرجوا من عنده، فذكروا لمن كان رآهم في ذلك الوقت أن النبي ﷺ قد أتاهم بأشياء قد عرفوها، فحمدهم من شاهدهم من المسلمين على ذلك وأبطنوا خلاف ما أظهروا، وأقاموا بعد ذلك على الكفر فأعلم الله -عز وجل- النبي ﷺ أمرهم وأعلمه أنهم ليسوا بمفازة من العذاب أي: ليسوا ببعد من العذاب[٢].

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٥٣٦/٣)، وعن السدي، وانظر أيضاً في الآية: تفسير ابن كثير (٢١٢/١)، وتفسير القرطبي (٦٩/٢)، وفتح القدير (٢٠٠/١)، وتفسير البغوي (١٤٦/١)، وتفسير البيضاوي (١٢٧/١)، وتفسير أبي السعود (١٢٣/٢)، والدر المنثور (٢٦١/١)، وزاد المسير (٥١٤/١)، وتفسير الثعالبي (٣٣٨/١)، والكشاف (٢٢٥/١).

(٢) وفي سبب نزول الآية أقوال ثمانية:

أحدها: أن النبي ﷺ سأل اليهود عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره وأروه أنهم قد أخبروه به واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه فنزلت هذه الآية.

والثاني: أنها نزلت في قوم من اليهودفرحوا بما يصيبون من الدنيا وأحبوا أن يقول الناس إنهم علماء، وهذا القول والذي قبله عن ابن عباس.

=

ووقعت ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ مكررة لطول القصة.

والعرب تعيد إذا طالت القصة في «حسبت» وما أشبهها إعلاماً أن الذي جرى متصل بالأول، وتوكيداً للأول فتقول: «لا تظنن زيداً إذا جاءك وكلمك بكذا وكذا فلا تظننه صادقاً» تعيد فلا تظنن توكيداً، ولو قلت: «لا تظن زيداً إذا جاءك وحدثك بكذا وكذا صادقاً» جاز ولكن التكرير أوكد وأوضح للقصة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: هو خالقهما ودليل ذلك قوله -عز وجل-: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٠٢]، و﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[الأعراف: ٥٤]، وأعلم أن في خلقهما واختلاف الليل والنهار آيات ﴿لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ أي: ذوي العقول.

والآيات العلامات أي: من العلامات فيهما دليل على أن خالقهما واحد ليس كمثله شيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾؛ هذا من نعت «أولي الألباب» أي: فهؤلاء يستدلون على توحيد الله -عز وجل- بخلقه السماوات والأرض، وإنهم يذكرون الله في

والثالث: أن اليهود قالوا: نحن على دين إبراهيم وكتموا ذكر محمد ﷺ فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير.

والرابع: أن يهود المدينة كتبت إلى يهود العراق واليمن ومن بلغهم كتابهم من اليهود في الأرض كلها أن محمداً ليس بنبي فاثبتوا على دينكم، فاجتمعت كلمتهم على الكفر به ففرحوا بذلك، وقالوا: نحن أهل الصوم والصلاة وأولياء الله فنزلت هذه الآية، هذا قول الضحاك والسدي.

والخامس: أن يهود خيبر أتوا النبي ﷺ فقالوا نحن على رأيكم ونحن لكم رده وهم مستمسكون بضلالتهم فأرادوا أن يحمدهم نبي الله بما لم يفعلوا فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

والسادس: أن ناساً من اليهود جهزوا جيشاً إلى النبي ﷺ واتفقوا عليهم فنزلت هذه الآية، قاله إبراهيم النخعي.

والسابع: هو ما ذكره الزجاج في هذا الموطن.

والثامن: أن رجالاً من المنافقين كانوا يتخلفون عن الغزو مع النبي ﷺ فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت هذه الآية، قاله أبو سعيد الخدري، وهذا القول يدل على أنها نزلت في المنافقين وما قبله من الأقوال يدل على أنها في اليهود.

انظر: زاد المسير (١/٥٢٢، ٥٢٣).

جميع أحوالهم ﴿قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ معناه: ومضطجعين، وصلح في اللغة أن يعطف «بعلى» على ﴿قِيَاماً وَقُعُوداً﴾ لأن معناه ينبئ عن حال من أحوال تصرف الإنسان، تقول: «أنا أسير إلى زيد ماشياً وعلى الخيل»؛ المعنى: ماشياً وراكباً، فهؤلاء المستدلون على حقيقة توحيد الله يذكرون الله في سائر هذه الأحوال.

وقال بعضهم: ﴿يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ أي: يصلون على جميع هذه الأحوال على قدر إمكانهم في صحتهم وسقمهم.

وحقيقته عندي -والله أعلم- أنهم موحدون الله في كل حال، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فيكون ذلك أزيد في بصيرتهم، لأن فكرتهم تريهم عظيم شأنهما، فيكون تعظيمهم لله على حسب ما يقفون عليه من آثار رحمته.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾؛ معناه: يقولون ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ أي: خلقته دليلاً عليك وعلى صدق ما أتت به أنبياؤك، لأن الأنبياء تأتي بما يعجز عنه المخلوقون، فهو كالسماوات والأرض في الدليل على توحيد الله.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ معناه: براءة لك من السوء، وتنزيهاً لك من أن تكون خلقتهما باطلاً.

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: فقد صدقنا رسلك، وأن لك جنة وناراً فقنا عذاب النار.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ معناه -والله أعلم- على ألسن رسلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ﴾؛ أي: قد صدقنا يوم القيامة فلا تخزنا.

والْمُخْزَى في اللغة: المذل المحقور بأمر قد لزمه بحجة وكذلك أخزيته، أي: ألزمته حجة أذللته معها.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ أي: قد وعدت من آمن بك ووحدك الجنة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾.

المعنى: فاستجاب لهم ربهم بأني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، وإن قرئت: «إني لا أضيع عمل عامل منكم» جائز بكسر «إن» ويكون المعنى: قال لهم ربهم: إني لا أضيع عمل عامل منكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثَوَاباً﴾؛ مصدر مؤكد لأن معنى ﴿لأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ «لأثيبنهم» ومثله ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾[النساء: ٢٤]، لأن قوله -عز وجل-

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾[النساء: ٢٣] معناه: كتب الله عليكم هذا فـ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ مؤكد، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٨٨]، قد علم أن ذلك صنع الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ﴾.

خطاب للنبي ﷺ وخطاب للخلق في هذا الموضع؛ المعنى: لا يغرنكم أيها المؤمنون، ويروى أن قوماً من الكفار كانوا يتجرون ويربحون في أسفار كانوا يسافرونها(١).

فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك مما لا ينبغي أن يغبطوا به، لأن مصيرهم بكفرهم إلى النار ولا خير بخير بعده النار، فقال -عز وجل-: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: ذلك الكسب والربح الذي يربحونه متاع قليل.

وأعلم -جل وعز- أن من أراد الله وأتقاه فله الجنة فقال: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللهِ﴾.

﴿نُزُلاً﴾ مؤكد أيضاً، لأن خلودهم فيها إنزالهم فيها، وواحد ((الأبرار)): ((بَار)) و((أَبْرَار)) مثل: ((صاحب وأصحاب))، ويجوز أن يكون: ((بر وأبرار)) على: ((فعل وأفعال)) تقول: ((بررت والدي فأنا بر)) وأصله: ((برر)) ولكن الراء أدغمت للتضعيف.

وقوله -عز وجل-: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾؛ أي: من عند أهل الكتاب من يؤمن خاشعاً لله.

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥٣١/١): في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أنها نزلت في اليهود ثم في ذلك قولان؛ أحدهما: أن اليهود كانوا يضربون في الأرض فيصيبون الأموال فنزلت هذه الآية قاله ابن عباس.

والثاني: أن النبي ﷺ أراد أن يستسلف من بعضهم شعيراً فأبى إلا على رهن فقال النبي ﷺ: ((لو أعطاني لأوفيته إني لأمين في السماء أمين في الأرض)) فنزلت، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والقول الثاني: أنها نزلت في مشركي العرب كانوا في رخاء فقال بعض المؤمنين: قد أهلكنا الجهد وأعداء الله فيما ترون فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل.

وانظر في الآية: تفسير الطبري (٥٥٧/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٦٥/١)، وتفسير القرطبي (٣١٠/٤)، وفتح القدير (٦٢٣/١)، وتفسير البغوي (١٥٤/١)، وتفسير البيضاوي (١٣٥/١)، وتفسير أبي السعود (١٣٥/٢)، والدر المنثور (٤١٤/٢)، وتفسير النسفي (٢٠٠/١) ، وتفسير الثعالبي (٣٤٣/١)، والكشاف (٢٢٩/١)، ومعاني القرآن (٥٢٩/١)، والعجاب في بيان الأسباب (٨١٨/٢).

﴿لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾؛ وإنما ذكر هؤلاء لأن ذكر الذين كفروا جرى قبل ذكرهم فقال: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾؛ أخبر -جل وعز- بما حمل اليهود على الكفر، وأخبر بحال من آمن من أهل الكتاب وأنهم صدقوا في حال خشوع ورغبة، عن أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

وقوله -جل وعز-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾.

أي: على دينكم ﴿وَصَابِرُوا﴾: أي: عدوكم، ﴿وَرَابِطُوا﴾ أقيموا على الجهاد عدوكم بالحرب والحجة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في كل ما أمركم به ونهاكم عنه.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ و«لعل» ترج وهو ترج لهم أي: ليكونوا على رجاء فلاح، وإنما قيل لهم: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي: لعلكم تسلمون من أعمال تبطل أعمالكم هذه، فأما المؤمنون الذين وصفهم الله -جل ثناؤه- فقد أفلحوا قال الله -جل وعز- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون ١، ٢] إلى آخر وصف المؤمنون.

فهؤلاء قد أفلحوا لا محالة، وإنما يكون الترجي مع عمل يتوهم أنه بعض من العمل الصالح.

* * *

فهرس المحتويات

مقدمة التحقيق ٥
ترجمة الزجاج.. ١٤
بين يدي كتاب معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٦
الكلام على البسملة ومسائل اللغة فيها ٣٤
معنى قولنا: ((اسم)) أنه مشتق من السمو ٣٥
معنى الباء في بسم.. ٣٦
مذهب سيبويه ويونس والخليل وأبي عمرو بن العلاء في اللام........................ ٣٧
قولك لام على لام ((كي)) ٣٨
قوله في البسملة : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٣٩
القول في نصب ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.. ٣٩

سورة الحمد

معنى ﴿الْحَمْدُ﴾ وإعرابه.. ٤١
فتح نون الجمع في ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ٤٢
معنى ((الدين)) في اللغة.. ٤٣
معنى العبادة في اللغة ٤٤
معنى ﴿اهْدِنَا﴾.. ٤٥
جواز أن يكون معنى ﴿غَيْرِ﴾ متضمن معنى النفي ٤٧

سورة البقرة

الكلام في قوله تبارك وتعالى: ﴿الم﴾ وأقوال أهل اللغة في الحروف المقطعة . ٥٠
رأي أبي الحسن الأخفش في الحروف المقطعة ٥٠
باب حروف التهجي.. ٥٣
إعراب ((أبي جَادٍ)) و((هَوزٍ)) و((حُطي)) ٥٥
معنى ﴿صَادِ وَالْقُرْآنِ﴾ عند أهل اللغة........................ ٥٦
قوله : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ قول الأخفش وأبو عبيدة فيه ٥٩

مسألة في عطف البيان ٦٠
أصل ((الذي)).............................. ٦٢
معنى قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾.......................... ٦٣
قول النحويين في الهمزتين الأولى في نهاية الكلمة والثانية في بداية الأخرى... ٦٩
اختلاف الهمزتين في مثل قوله ﴿السُّفَهَاءُ أَلاَ﴾ وحكمه ٧٠
معنى ﴿خَتَمَ﴾ في اللغة.......................... ٧٢
تأويل ﴿أَلِيمٌ﴾ في اللغة ٧٥
أصل: ﴿السُّفَهَاءُ﴾ في اللغة ٧٦
معنى ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾ في اللغة ٧٦
المختار عند أهل اللغة في قوله ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾............ ٧٧
معنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في اللغة........................ ٧٨
((لعل)) قولان فيها عن بعض أهل اللغة................ ٨٣
مسألة في المنادى المفرد وبناؤه.................... ٨٣
معنى الند في اللغة.......................... ٨٤
معنى ((متشابه))............................ ٨٦
معنى قوله: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾........................ ٨٧
رأي الأخفش في معنى السماء................... ٩٠
((السماء)) في اللغة.......................... ٩٠
كلام أهل اللغة في قوله ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ ﴾ ٩٢
آدم واشتقاقه ٩٤
مسألة هل إبليس من الجن أم الملائكة................ ٩٤
معنى الشيطان في اللغة ٩٦
((الحين والزمان)) في اللغة ٩٧
معنى قوله: ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾.................. ٩٩
معنى قوله:﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ﴾ ١٠٢
النصب بإضمار ((أن)) ١٠٢
وقوع الظن في معنى العلم ١٠٤

الظروف والأسماء غير الظروف وكلام أهل اللغة فيها ١٠٦
معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ في اللغة ١٠٧
أصل الظلم في اللغة.. ١١٠
معنى قوله ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ ١١٠
معنى قوله ﴿بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ ١١١
معنى قوله ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ ١١١
معنى المن في اللغة ١١٣
اختيار الزجاج قراءة ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ بالكسر ١١٧
﴿هَادُوا﴾ وأصله في اللغة ١١٨
قوله ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فيه أربعة أوجه حكى بعضها الأخفش............ ١٢٣
الوشي في اللغة في قوله: ﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾....................................... ١٢٣
اختبار الزجاج أن الأجود في ﴿مُخْرِجٌ﴾ التنوين ١٢٤
تأويل ﴿قَسَتْ﴾ في اللغة.. ١٢٥
معنى ((الأمي)) في اللغة.. ١٢٧
الويل في اللغة.. ١٢٨
اختلاف أهل اللغة في علة النصب بلن.................................... ١٢٨
الأصل في ((لن)) ١٢٨
رأي الأخفش أن ﴿حُسْناً﴾ في معنى حَسَناً ١٣١
معنى ﴿لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ في اللغة ١٣٥
((نعم وبئس)) ١٣٨
معنى ((باءوا)) في اللغة ١٣٩
قوله ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ومعنى الآية في اللغة ١٤٤
الذي أنزل على الملكين عند بعض أهل اللغة.............................. ١٤٦
مسألة حول ((من)) الشرطية.. ١٤٩
اختيار الزجاج في ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.. ١٤٩
دخول ((من)) على جهة التوكيد والزيادة.................................... ١٥٠
لفظ ﴿أَلَمْ﴾ في قوله -: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ ...الآية﴾ ١٥٢

معنى ((الملك)) في اللغة ١٥٢
من زعم من أهل اللغة أن المراد من قوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ جميع المشركين ١٥٥
معنى قوله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ١٥٦
((القانت)) في اللغة ١٥٧
معنى ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ عند أهل اللغة ١٥٧
معنى ﴿مِلَّتَهُمْ﴾ في اللغة ١٥٩
معنى قوله: ﴿وَأَمْناً﴾ ١٦٣
إختيار الزجاج فتح الياء في قوله : ﴿بَيْتِيَ﴾ ١٦٤
إختيار الزجاج كسر الراء في ﴿وَأَرِنَا﴾ ١٦٥
تفسير ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ واختلاف أهل اللغة فيه ١٦٥
تفسير ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ عند سيبويه والأخفش ١٦٥
معنى ((الحنيفة)) في اللغة ١٦٨
جواز الرفع والنصب في((بل ملةُ إبراهيم حنيفا)) واختيار الزجاج النصب ١٦٨
معنى ((السبط)) في اللغة ١٧١
معنى قوله: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ ١٧١
استعمال العرب للتمثيل ١٧٣
((لام الجحود)) ١٧٤
لاتفاق أهل اللغة أن الشطر النحو ١٧٦
معنى ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ عند سيبويه ١٧٧
قوله ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ وفيها قولان ١٧٨
النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا﴾ والمذاهب فيه ١٧٩
فتح الواو لالتقاء الساكنين ١٨٠
اختلاف النحاة في فتح واو ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ ١٨٠
قول أهل اللغة في ((الصلاة)) ١٨٢
معنى قولهم: ((حججت)) في اللغة ١٨٣
((خَطَوات)) قراءة شاذة وهي جائزة عند سيبويه ١٨٩
إختيار الزجاج قراءة ﴿المَيْتَةَ﴾ بالتخفيف ١٩٠

قوله ﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ ﴾ ومعنى البغايا في اللغة ١٩١
قوله ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ واختياره رفعها على المدح ١٩٣
معنى ((الحدود)).. ٢٠١
((الفَحْتُ)) ومعناه ٢٠٣
الحماسة ومعناها.. ٢٠٥
الرواية عند أهل اللغة في قوله: ﴿ أُحْصِرْتُمْ ﴾ ٢٠٩
معنى الحج عند بعض أهل اللغة ٢١١
جواز رفع النكرات بالتنوين ٢١١
معنى: ((خصم ألد)) في اللغة... ٢١٧
قول أهل اللغة في قوله: ﴿يَشْرِي نَفْسَهُ﴾.................................. ٢١٨
معنى الأمة في اللغة ٢٢٢
أصل الزلزلة في اللغة ٢٢٤
النصب بحتى في قوله: ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ ﴾ ٢٢٤
تأويل ((الخمر)) في اللغة.. ٢٢٨
العفو في اللغة.. ٢٣٠
معنى ((التربص)) في اللغة ٢٣٧
وقوع لفظ تذكير صفة لمؤنث... ٢٣٧
قوله ﴿ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ واختلاف الفقهاء وأهل اللغة في تفسيرها.................. ٢٣٧
معنى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾................................ ٢٤١
أصل ((الحد)) في اللغة ٢٤٢
((الرِّضاعة)) بكسر الراء.. ٢٤٥
خبر ﴿وَالَّذِينَ﴾ والأقوال فيه ٢٤٧
معنى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾.. ٢٤٧
معنى قوله: ﴿وَعَشْراً﴾ ٢٤٨
المؤنث الذي استعمل للتأنيث والتذكير والتأنيث أصله........................ ٢٤٨
اختياره في قوله: ﴿وَلاَ تَنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ الضم ٢٥٠
معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفسيره ٢٥٣

معنى القرض في اللغة ٢٥٤
معنى قوله -عز وجل- مع ذكر القتال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٢٥٤
الملأ في اللغة ٢٥٦
أن في ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ﴾ والقول بأنها زائدة ٢٥٧
باب ظننت في اللغة ٢٦١
أصل ((الهزم)) في اللغة.. ٢٦٢
الكرسي في اللغة واختيار الزجاج ٢٦٦
القرية في اللغة ٢٧٠
النشر في اللغة.. ٢٧١
معنى ((صرهن)) عند أهل اللغة ٢٧٢
اختيار سيبويه الرفع في في قوله ﴿وَيُكَفِّرُ﴾.. ٢٨٠
معنى قوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾.. ٢٨٥

سورة آل عمران

اختلاف النحاة في علة فتح الميم في ﴿آلم﴾ ٢٩٣
معنى يكتب في اللغة ٢٩٣
اختلف النحاة في ((توراة)).. ٢٩٣
الأصل في إنجيل ٢٩٤
زعم سيبويه والخليل أن ﴿وَأُخَرُ﴾ فارقت أخواتها ٢٩٥
الفتنة في اللغة.. ٢٩٦
((الفئة)) في اللغة ٢٩٧
اختلاف أهل اللغة في قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ ٢٩٨
القنطار في اللغة.. ٢٩٩
المآب في اللغة.. ٣٠١
اختياره أن يكون ﴿بَغْياً﴾ منصوباً بما دل عليه ﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾ ٣٠٢
القسط في اللغة ٣٠٣
إعراب ﴿اللَّهُمَّ﴾.. ٣٠٦
((اللهم)) بمعنى: ((يا الله)) عند سيبويه ٣٠٧

معنى اصطفاهم في اللغة ٣١٠

﴿ذُرِّيَّةً﴾ وأصلها وكلام النحاة فيها ٣١١

المحرَاب في اللغة........................ ٣١٣

الرمز في اللغة........................ ٣١٧

الترمز في اللغة ٣١٧

معنى ﴿أَحَسَّ﴾ في اللغة ٣٢٣

معنى ﴿ الحَوَارِيُّونَ﴾........................ ٣٢٣

قول أهل اللغة في ((المحور))........................ ٣٢٥

معنى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٣٢٥

معنى ((الابتهال)) في اللغة ٣٢٨

تأويل ((الْبَهْل)) في اللغة........................ ٣٢٨

معنى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ﴾........................ ٣٢٩

سواء ومعناه ٣٣٠

معنى ((الحنف)) في اللغة ٣٣١

قوله ﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وقول أهل اللغة فيه ٣٣٣

دخول الواو في التذكير كما دخلت الألف في التأنيث ٣٣٥

معنى قوله: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾........................ ٣٣٦

اللام في ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً﴾ ٣٣٦

معنى قوله: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٣٣٨

((مَلأْت مَلْئًا ومُلْئاً)) وتصويب الخطأ فيها........................ ٣٤٢

اشتقاق ((بكة)) في قوله ﴿بِبَكَّةَ﴾ ٣٤٤

أصل ((الأخ)) في اللغة ٣٤٩

معنى ﴿قَائِمَةٌ﴾........................ ٣٥٥

معنى يتلون في اللغة ٣٥٥

معنى ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾........................ ٣٥٥

أصل ((الخبال)) في اللغة........................ ٣٥٨

اختياره في قوله ﴿لاَ يَضُرُّكُمْ﴾ الضم لالتقاء الساكنين........................ ٣٥٩

﴿ قَرْحٌ﴾، و﴿قُرْحٌ﴾ ٣٦٣
تأويل ((المحص)) في اللغة ٣٦٤
معنى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ٣٦٤
وقوله ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ والقول بأن معناه التوكيد ٣٦٥
السلطان في اللغة ٣٦٩
قوله ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ فيه الكسر والضم في الباء، واختياره الضم ٣٧١
((هو وهما وهم وأنا وأنت ونحن وهي)) وكلام سيبويه عليها ٣٨٢
الْمُخْزَى في اللغة ٣٨٧
فهرس المحتويات ٣٩١

* * *

MAᶜĀNI AL-QURᵓĀN WAᵓIᶜRĀBUH

(Grammatical analysis and The meaning of the verses of The Holy Coran)

by

Abu Isḥāq al-Zajjāj

Edited by
Aḥmad Fatḥi ᶜAbdul-Raḥmān

VOLUME I

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon